المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه أما بعد:

فإن المقالة ـ أو المقال ـ باب عظيم من أبواب العلم، وطريق واسع لنشر الفكر والتأثير في الناس.

ولا ريب أنَّ الفترة الذَّهبيَّة للمقالة كانت في النِّصف الأوَّل في القرن الرابع عشر إلى ما يقارب العقد السابع من ذلك القرن؛ حيث ازدهرت، وراج سوقها في كثير من البلاد العربيَّة خصوصاً في الشام ومصر، وظهر في ذلك الوقت كُتَّاب أفذاذ يضارعون الكُتَّاب الأوائل في أساليبهم الراقية، وتحريراتهم العالية.

وفي ذلك الوقت حرصت الصحفُ والمجلاَّت على استقطاب أكابر الكُتَّاب والعلماء؛ فصارت ميداناً فسيحاً لنشر الأدب، والعلم، والنَّقد، والرُّدود، وما جرى مجرى ذلك.

ولقد يسَّر الله لي فرصة الاطلاع على كثير من تلك المقالات، سواء عبر أعداد تلك الصحف والمجلات، أو عبر الكتب التي جمعت تلك المقالات.

ومهما يك من انتشار تلك المقالات، وشهرة أصحابها في ذلك الوقت ـ فإنه يبقى محدوداً إذا ما قِيس بانتشارها وسهولة تداولها في عصرنا هذا.

ثمَّ إنَّ كثيراً مما نُشِر آنذاك قد انطوى، ودَرَس، ويُخشى أن تَطَالَهُ يدُ النِّسيان،

وتعدو عليه عوادي الضياع؛ فيُحرمَ هذا الجيلُ خيراً عظيماً من ذلك التُّراث، ومن تلك التَّجارب التي تسمو بهمَّة قارئها، وترتقي بأساليبه الكتابيَّة أو الخطابيَّة، وتكسبه خبرة ودراية، وتختصر عليه كثيراً من الوقت والجهد، وتوقفه على مدى ما وصلت إليه العقول في تلك الفترة، وتُقْصِره عن كثير من البحث في الأطروحات التي طرقت، وقتلت بحثاً، وأخذاً، ورداً.

كما أن بعض تلك المقالات قد خرجت في طباعة رديئة، ولم تراع فيها قواعد الترقيم؛ مما قد يغلق فهمها على كثير من القراء.

ومن هنا نشأت فكرة جمع شيء من تلك المقالات، وانتقائها، وإعدادها للنَّشر إعداداً ملائماً؛ لعلَّها تحقِّق الأغراض السابقة، وتمد قارئها بقسط وافر من العلم والفكر، وتفتح له آفاقاً من المعرفة والتَّجربة، وتوقفه على شيء من تلك الأساليب البيانيَّة الرَّاقية، وتُعرِّف القارئ بكُتَّاب في بلاد لم تأخذ حظَّها الكافي من الدِّراسة والبحث، فيظن بعض الناس أنَّها خِلْوٌ من الفكر والكتابة، مع أنَّها قد بلغت الذُّروة في العلم، والأساليب، كما هو الحال في بلاد تونس، والجزائر ـ كما سيتبيَّن من قراءة بعض ما خطَّتْهُ أنامل بعضِ العلماء والكُتَّاب هناك ـ.

ولقد يسر الله إخراج المجموعة الأولى من هذه المقالات، وهذه هي المجموعة الثانية من (مقالات لكبار كُتَّاب العربية في العصر الحديث).[1]

---

(١) سبق في مقدمة المجموعة الأولى حديث عن المقالة من حيث مفهومها، ونشأتها، وتاريخها، وأنواعها، كما تضمنت المقدمة حديثاً عن الأسباب الداعية لنشر هذه المقالات، والأهداف المرجوة من ذلك، والطريقة التي ستسير عليها هذه المجموعات.

وهي تشتمل على أبواب متفرقة، وموضوعات متنوعة؛ في العلم والدعوة، وفي الإصلاح، وبيان أصول السَّعادة، وفي الأخلاق والتَّربية، وفي السِّياسة والاجتماع، وفي قضايا الشَّباب، وفي أبواب الشِّعر والأدب، وفي العربيَّة وطرق التَّرقِّي في الكتابة، كما أنها تشتمل على مقالات في السِّيرة النبويَّة، وبيان محاسن الإسلام، ودحض المطاعن التي تثار حوله.

وسيجد القارئ فيها جِدَّة الطَّرح، وعمقه، وقوَّته، وطرافةَ بعض الموضوعات، ونُدرةَ طرقها.

وسينتقل من خلالها من روضة أنيقة إلى روضة أخرى، وسيجد الأساليب الرَّاقية المتنوِّعة؛ إذ بعضها يميل إلى الجزالة والشَّماسة، وبعضها يجنح إلى السُّهولة والسَّلاسة، وهكذا.

وقد يخطر ببال القارئ أن بعض المقالات يكفي قراءة عنوانها؛ فيقصره ذلك عن قراءة بقية المقال.

ولو قرأ المقال لربما رأى فيه ما لم يكن يدور في خلده من نفيس العلم، ودقيق الفهم، وجمال العرض.

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً في المقالات التي سترد في هذا المجموع.

ولا يغيب عن فطنة القارئ الكريم أنَّ تلك الكتابات قد أنشئت في زمن مظلم؛ فالاحتلال كان ضارباً بجرانه في كثير من بلاد المسلمين، والشيوعيَّة كانت في عزِّ أوجها وبريقها، والجهل والهزيمة النَّفسيَّة كانا شائعين في ذلك الوقت.

وهذا يدفع إلى تقدير ما قام به أولئك الكُتَّاب، وإلى التماس العذر لهم فيما فاتهم، أو قصَّروا به إن وُجِد شيء من ذلك.

وقد ترجمت لأكثر أولئك الكتاب في المجموعة الأولى.

وهذه المقالات التي يحتويها هذا المجموع معزوَّة إلى مراجعها، ومُشَارٌ إلى تواريخ كتابتها إن كانت موجودة.

كما أنَّ بعضها قصير، وبعضها متوسِّط، وبعضها مطوَّل أقرب ما يكون إلى البحث العلمي.

وقد أبقيت تلك المقالات كما هي، وربَّما حَذَفْت من بعضها -وهو قليل- ما قد يُستغنى عنه، وما لا يخلُّ بأصل الموضوع، خصوصاً إذا كان يحتاج إلى مناقشة، أو كان فيه إلباس على بعض القراء، أو ما كان مشتملاً على تسويغ بعض البدع، وما إلى ذلك.

وما كان الغرض هو محاكمة الكاتب، بل إنَّني أحاول جهدي ألا أتعرَّض لأيِّ مقال بانتقاد أو اعتراض إلا ما لا بدَّ منه من إيضاح معنى، أو إزالة إشكال، وهو قليل جدًّا؛ لأجل ألا أقطع على القارئ استرساله، ومتعته.

وأكثر الهوامش إنما هي من صنع الكُتَّاب، وأما ما أعلق به فسيكون مختوماً بحرف (م) حتى يتميز عن الأصل.

وإليك مسرداً بعنوانات الموضوعات والمقالات التي تضمنتها هذه المجموعة:

أولاً: مقالات في السعادة

١ـ فن السرور: للأستاذ أحمد أمين

٢ـ الابتهاج بالحياة: للأستاذ أحمد أمين

٣ـ الإيمان ينبوع السعادة: للأستاذ أحمد أمين

ثامناً: مقالات في السياسة والاجتماع

تاسعاً: مقالات في الإصلاح والدعوة إلى الله

عاشراً: مقالات في العلم والتحقيق

٦٧ـ من نفحات الشرق: الأستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار: للعلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

٦٨ـ عبرة الموت: للأستاذ أحمد أمين

وأخيراً لا يسعني إلا أن أسأل الله العليَّ القدير أن ينفع بهذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجزيَ خير الجزاء من أعان على إخراجه كتابةً، ومراجعة، ومتابعة.

كما آمل من القارئ الكريم أن يمدني بملحوظاته، واستدراكاته، وله جزيل الشكر، وخالص الدعاء.

والله المستعان وعليه التكلان.

وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمد.

محمَّد بن إبراهيم الحمد

٥/ ١/ ١٤٢٦هـ

الزلفي ص.ب ٤٦٠

الرمز البريدي ١١٩٣٢

www.toislam.net

Alhamad@toislam.net

أولاً: مقالات في السعادة

١ـ فن السرور: للأستاذ أحمد أمين

٢ـ الابتهاج بالحياة: للأستاذ أحمد أمين

٣ـ الإيمان ينبوع السعادة: للأستاذ أحمد أمين

١ فن السرور[1] للأستاذ أحمد أمين[2]

نعمة كبرى أن يمنح الإنسان القدرة على السرور، يستمتع به إن كانت أسبابه، ويخلقها إن لم تكن.

يعجبني القمر في تقلده هالةً تشع فنًّاً وسروراً، وبهاءاً ونوراً، ويعجبني الرجل أو المرأة يَخلُقُ حوله جوًّاً مشبعاً بالغبطة والسرور، ثم يَتَشَرَّبُه فيشرق في محياه، ويلمع في عينيه، ويتألق في جبينه، ويتدفق من وجهه.

يخطئ من يظن أن أسباب السرور كلها في الظروف الخارجية، فيشترط لِيُسَرَّ مالاً وبنين وصحة؛ فالسرور يعتمد على النفس أكثر مما يعتمد على الظروف، وفي الناس من يشقى في النعيم، ومنهم من ينعم في الشقاء؛ وفي الناس من لا يستطيع أن يشتري ضَحَكَةً عميقةً بكل ماله وهو كثير، وفيهم من يستطيع أن يشتري ضحكات عالية عميقة واسعة بأتفه الأثمان، وبلا ثمن.

مع الأسف أُلاحظ أن كمية السرور في مصر والشرق قليلة، كما لاحظت من قبل أن كمية الحب في مصر والشرق قليلة.

وليست تنقصنا الوسائل، فجوُّنا جميل، وخيراتنا كثيرة، وتكاليف الحياة هينة، ووسائل العيش يسيرة، ومصائب الشرق من الحرب أقل منها في الغرب ومع هذا كله لا تزال كمية السرور في الشرق أقل.

---

(١) فيض الخاطر ٢/١٩٧ـ٢٠٠.

(٢) سبقت في المجموعة الأولى ترجمة له.

أكبر سبب لذلك في نظري أن الحياة فَنٌّ، والسرور كسائر شئون الحياة فن؛ فمن عرف كيف ينتفع بالفن استغله واستفاد منه وحظِي به، ومن لم يعرفه لم يعرف أن يستغله وشقي به.

أول درس يجب أن يتعلم في فن السرور «قوة الاحتمال» فأكبر أسباب الشقاء رخاوة النفس وانزعاجها العظيم للشيء الحقير؛ فما أن يصاب المرء بالتافه من الأمر حتى تراه حَرِجَ الصدر، لهيف القلب، كاسف الوجه، ناكس البصر، تتناجى الهموم في صدره، وتقض مضجعه، وتؤرق جفنه.

وهي وأكثر منها إذا حدثت لمن هو أقوى احتمالاً، لم يلق لها بالاً، ولم تُحَرِك منه نَفساً، ونام ملء جفونه رضِيَّ البال فارغ الصدر.

ومن أهم الأسباب في أنَّ أمم الغرب أقدر على السرور من أمم الشرق أنَّ تاريخ الغرب الحربي متسلسل متتابع، ومن مزايا الحروب أنها تصهر الأمم، وترخص الحياة، وتهوِّن الموت، وإذا رخصت الحياة وهان الموت رأيت المرء لا يعبأ بالكوارث إلا بقدر محدود؛ وإذا كان لا يهاب الموت فأولى ألا يهاب ما عداه؛ لأن كل شيء غير الموت أهون من الموت؛ فكل أسرة أوربية لها رجال فقدوا في الحرب؛ أو أصيبوا في الحرب أو ابتلوا بنوع من كوارث الحرب؛ فعلمتهم أن يتقبلوا هذه الرزايا بقوة احتمال، ونشأ عن هذا أنهم لا ينغصون حياتهم بذكرى الرزايا؛ فالأولى ألاَّ ينغصوها بتوافه الأمور.

أما أمم الشرق فقد مرَّ عليهم دهرٌ طويل لم يكونوا فيه أمماً حربية؛ بل كانوا مستسلمين وادعين، يتولى غيرهم الدفاع عنهم، وإن حاربوا فحرب الضرورة،

وحرب الأفراد لا حرب الشعوب، فاستفظعوا الموت، وغَلوا في الحرص على الحياة، ولم يصابوا بكوارث شعبية يستعذبون معها الموت والتضحية، وتبع ذلك رخاوة العيش، وعدم القدرة على الاحتمال، وتهويل الصغائر، والجزع من توافه الأمور، ولا دواء لهذا إلا التربية القوية، وبث الأخلاق الحربية.

وسبب آخر لقلة السرور في الشرق، وهو سوء النظم الاجتماعية؛ ففي كل بيت محزنة من سوء العلاقات الزوجية والعلاقات الأبوية، وفي كل مصلحة أهلية أو حكومية مأساة من سوء العلاقات المصلحية، وأحاديث الدرجات والعلاوات، وعدم التعاون في حمل الأعباء، وبناء المعاملات على الفوضى والمصادفات.

ثم عدم القدرة على خلق أسباب السرور الاجتماعية؛ فاجتماعات المنازل التي تبعث السرور محدودة ضيقة نادرة، وفي كثير من الأحيان تنتهي بمنغصات والملاهي العامة إما داعرة لا ترضي الذوق السليم، ولا ترمي إلى غرض شريف، وإما تافهة لا يرقيها ذوق؛ ومن أجل ذلك كان أشد الناس بؤساً في الأمم الشرقية الطبقة المثقفة المهذبة التي رقى ذوقُها؛ فهي لا تكاد تجد لها ما يتفق وذوقها.

ومع هذا كله ففي استطاعة الإنسان أن يتغلب على كل هذه المصاعب، ويخلق السرور حوله، وجزء كبير من الإخفاق في خلق السرور يرجع إلى الفرد نفسه، بدليل أنا نرى في الظروف الواحدة والأسرة الواحدة والأمة الواحدة من يستطيع أن يخلق من كل شيء سروراً، وبجانبه أخوه الذي يخلق من كل شيء حزناً؛ فالعامل الشخصي ـ لاشك ـ له دخل كبير في خلق نوع من الجو الذي

يتنفس منه؛ ففي الدنيا عاملان اثنان: عامل خارجي وهو كل العالم، وعامل داخلي وهو نفسك؛ فنفسك نصف العوامل؛ فاجتهد أن تكسب النصف على الأقل؛ و إذاً فرجحان كفتها قريب الاحتمال، بل إن النصف الآخر-وهو العالم - لا قيمة له بالنسبة إليك إلا بمروره بمشاعرك؛ فهي التي تلونه، و تجمِّله أو تقبحه؛ فإذا جلوت عينيك، وأرهفت سمعك، وأعددت مشاعرك للسرور - فالعالم الخارجي ينفعل مع نفسك فيكون سروراً.

إنا لنرى الناس يختلفون في القدرة على خلق السرور اختلاف مصابيح الكهرباء في القدرة على الضياء؛ فمنهم المظلم كالمصباح المحترق، ومنهم المضيء بقدر كمصباح النوم، ومنهم ذو القدرة الهائلة كمصباح الحفلات؛ فغيِّرْ مصباحك إن ضعف، واستعض عنه بمصباح قوي ينير لنفسك وللناس.

ولكن ما الوسيلة إلى ذلك؟

مما لا شَكَّ فيه أن غلبة الحزن مرض قد ينشأ من عوامل كثيرة مختلفة؛ فمن الخطأ رجوعها كلها إلى علة واحدة؛ وإذاً فمن الخطأ وضع علاج واحد للعلل كلها، ولكن فَحْصُ كل نفس وأسباب حزنها، ووضع العلاج الخاص بها لا يستطيعه إلا طبيب نفسي ماهر، أما الكاتب فلا يستطيع إلا قولاً عاماً، ووصفاً مشتركاً، وتعرضاً للمسائل العامة.

ولعل من أهم أسباب الحزن ضيقَ الأفق، وكثرة تفكير الإنسان في نفسه، حتى كأنها مركز العالم، وكأن الشمس والقمر والنجوم والبحار والأنهار والأمة والحكومة والميزانية والسعادة والرخاء كلها خلقت لشخصه؛ فهو يقيس كل

المسائل بمقياس نفسه، ويديم التفكير في نفسه وعلاقة العالم بها، و هذا ـ من غير ريب ـ يوجد البؤس والحزن؛ فمحال أن يجري العالم وفق نفسه؛ لأن نفسه ليست المركز، وإنما هي نقطة حقيرة على المحيط العظيم، فإن هو وسَّع أفقه، ونظر إلى العالم الفسيح، ونسي نفسه أحياناً، ونسي نفسه كثيراً ـ شعر بأن الأعباء التي ترزح تحتها نفسه، والقيود الثقيلة التي تثقل بها نفسه قد خفت شيئاً فشيئاً، وتحللت شيئاً فشيئاً.

وهذا هو السبب في أن أكثر الناس فراغاً أشدهم ضيقاً بنفسه، لأنه يجد من زمنه ما يطيل التفكير فيها إلى درجة أن يجن بنفسه؛ فإن هو استغرق في عمله، وفكر في أمته وفكَّر في عالمه، كان له من ذلك لذة مزدوجة: ذة الفكر والعمل، ولذة نسيان النفس.

ولعل من أول دروس فن السرور أن يقبض على زمام تفكيره؛ فيصرِّفه كما يشاء؛ فإن هو تعرض لموضوع مُقْبِضٍ ـ كأن يناقش أسرته في أمر من الأمور المحزنة، أو يجادل شريكه، أو صديقه فيما يؤدي إلى الغضب ـ حوَّل ناحية تفكيره، وأثار مسألة أخرى سارَّةً ينسى بها مسألته الأولى المحزنة؛ فإن تضايقْت من حديث ميزانية البيت فتكلم في السياسة، وإن آلمك حديث «الكادر» فتكلم في الجو، وانقل تفكيرك كما تنقل بيادق الشطرنج.

ثاني الدروس أو ثالثه ـ لا أدري ـ ألاَّ تقدر الحياة فوق قيمتها؛ فالحياة هينة، وكل ما فيها زائل؛ فاعمل الخير ما استطعت، وافرح ما استطعت ولا تجمع على نفسك الألم بتوقع الشر ثم الألم بوقوعه؛ فيكفي في هذه الحياة ألم واحد للشر

الواحد.

وأخيراً، افعل ما يفعله الفنانون، فالرجل لا يزال يتشاعر حتى يكون شاعراً، ويتخاطب حتى يصير خطيباً، ويتكاتب حتى يصير كاتباً؛ فتصنَّع الفرح والسرور والابتسام للحياة؛ حتى يكون التطبع طبعاً.

٢ الابتهاج بالحياة[١] للأستاذ أحمد أمين

لقد أكثرت في أحاديثي الماضية عن متاعب الحياة فلأحدثكم اليوم عن الابتهاج بالحياة.

والحق أنَّا لو قارنا بين الغربيين والشرقيين لوجدنا أن الشرقيين تغلب عليهم طبيعة الحزن والاكتئاب.

وهذا ما يلاحظه الغربيون على الطلبة الشرقيين الذين يتعلمون عندهم، وهذا ـأيضاًـ ما نلاحظه نحن على أنفسنا، فنحن إذا حدث ما يستوجب الحزن أفرطنا فيه كما يحدث في الوفيات؛ نبالغ في البكاء على الميت، وننغص حياتنا لفقده مدة طويلة، ونقيم التقاليد الكثيرة من مآتم وأخمسة وأربعين، وحفلات تأبين ونحو ذلك.

وكذلك نبالغ في الحزن في النكبات كالحزن عند الأمراض، والحزن عند خسارة مالية، ونحو ذلك.

وكثير منا إذا لم يجد سبباً من أسباب الحزن أوجده؛ فهو وأهله في صحة، وعندهم من المال ما يكفيهم، ودنياهم سائرة على ما يرام، ولكنهم مع ذلك يخلقون أسباب الحزن خَلْقاً؛ فيحملون همَّ المستقبل، وماذا سيكون فيه؟ أو يتنازعون على شيء تافه؛ فيحزنون من أجله.

وعلى كل حال فطبيعتنا يغلب عليها الحزن، ومن فرح بالحياة وابتهج بها

---

(١) فيض الخاطر، ١٠/ ٢٠٢ ـ ٢١٠.

فابتهاج قليل يعقبه حزن طويل، أو إفراط في مباهج الحياة يسبب تنغيصاً، وحزناً، وألماً يعقبه أضعاف ما ناله من فرح وابتهاج.

ولعل السبب في انتشار طابع الحزن علينا يرجع إلى أمور كثيرة، أهمها ما مضى على الشرق من عصور كان فيها ظلم الحكام شديداً قاسياً أمات روح الناس، وقلل من ابتهاجهم.

وتلا هذا الاستعمار وما فيه من ظلم، واستغلال، وضغط على الحرية جعل الناس يألمون ويكتمون ألمهم، والألم المكتوم أفعل في النفس من الألم الظاهر.

وهناك سبب آخر وهو أن الحياة في الشرق تسودها الفوضى، وعدم النظام، والفوضى في الحياة تسبب المتاعب والألم؛ فإذا كان البيت فوضى تعب أفراد الأسرة، وإذا كانت الوظائف فوضى تعب الموظفون، وإذا كان الترام والسيارات فوضى تعب الراكبون، وإذا كان الطباخون وقائدوا السيارات والخدم لا يسيرون في حياتهم على نمط معقول تعب من يعاملهم، وهكذا...

فالإنسان في استمرار يعامل طائفة كبيرة من أفراد المجتمع، فإذا لم تنتظم الحياة معهم سببت الألم والمتاعب، وهيجت الأعصاب، وأورثت الحزن، وهكذا...

والحياة فن من الفنون فإذا ضاع فن الحياة ضاع السرور بها، بل إن السرور بالحياة نفسه فن من الفنون، ويخطئ من يظن أن أسباب السرور كلها في الظروف الخارجية، فيشترط لأجل أن يكون مسروراً مالاً وبنين وصحة ونحو ذلك.

فالسرور يعتمد على النفس أكثر مما يعتمد على الظروف، وفي الناس من يشقى في النعيم ومنهم من ينعم في الشقاء، ومن الناس من لا يستطيع أن يشتري

ساعة سعيدة ضاحكة مستبشرة بأغلى الأثمان، ومنهم من يستطيع أن يشتريها بأتفه الأثمان، وذلك لاختلافهم في الطبع والمزاج.

إننا نحتاج للابتهاج بالحياة إلى شيئين هامين: أولهما تنظيم الحياة في أنفسنا وفي مَنْ حولنا؛ فالبيت إذا نُظِّم ـ أعني نُظِّمت ميزانيتُه، ونظمت حياةُ صغاره وكباره، ونظمت العلاقة بين الزوجين، وبينهما وبين الأولاد ـ كان أهله أقربَ إلى الابتهاج بالحياة.

والموظف إذا نظمت مصلحته، أعني حسنت علاقته بينه وبين رؤسائه ومرؤوسيه كان أهدأَ بالاً، وأسعدَ حالاً.

وكذلك كل ما يتعلق بالإنسان من شؤون إذا نظمت كانت مبعث سعادة وابتهاج.

والأمر الثاني الشجاعة؛ فكثيراً ما يكون سبب الحزن فقدان الشجاعة، يخاف الإنسان من الموت، ويخاف من الفقر، ويخاف أن تنزل به كارثة، ويخاف من المستقبل، ويخاف أن يفشل في عمله؛ فهذا الخوف كله ينغص عليه حياته، ويجعله منقبضاً غير مبتهج.

وسبب آخر وهو عدم تنظيم أسباب السرور، وهذا أمر يحتاج إلى مهارة، فالزوج أو الزوجة في البيت إذا مَهَرا في خلق أسباب السرور جعلا البيت جنة، ونحن تنقصنا هذه المهارة في خلق السرور مع مهارتنا الكبرى في خلق المنغصات؛ فاجتماعات المنزل كثيراً ما تنتهي بنزاع، حتى الملاهي العامة كثيراً منها لا يرضي الذوق السليم ولا الفن الرفيع، وكثيراً ما تكون تافهة لا يجملها فن، ولا يرقيها

ذوق، ومن أجل هذا كان أشد الناس بؤساً في الحياة هنا من رقي ذوقه، ونبلت نفسه.

إن الناس يختلفون في قدرتهم على الابتهاج بالحياة اختلاف المصابيح الكهربائية، فمنها مصباح محترق لا ضوء فيه، ومنها مصباح يضيء بقوة عشر شمعات، أو خمس عشرة، أو عشرين أو مائة أو مائتين، وهكذا الناس طبيعة منيرة مضيئة مشرقة، وطبيعية حزينة أسيفة مكتئبة مظلمة.

وجزء من هذا الاختلاف طبيعي في خِلْقَةِ بعض الأفراد، ولكن الجزء الكبير يرجع إلى العادة؛ فمن السهل تعويد النفس النظر إلى الحياة نظراً بهيجاً مفرحاً.

ومن الملاحظ أن الذين يغلب عليهم الحزن هم الذين يكثرون التفكير في أنفسهم، والتفكير في مستقبلهم؛ فإذا اعتدل الإنسان في التفكير في نفسه، ووسع أفقه، وفكَّر في غيره، وفكَّر في العالم كان أقل حزناً، وأكثر ابتهاجاً.

وهذا الفن ـ فن الابتهاج بالحياة ـ يتطلب أن يقبض الإنسان على زمام تفكيره فيصرفه كما يشاء، فإن رأى نفسه قد تعرض لموضوع مُقْبِض كميزانية بيته، أو سوء مصلحته، أو متاعبه في وظيفته ـ فليحول تفكيره إلى مسألة أخرى، ويثير مسألة من المسائل التي تجلب السرور عليه.

ومن الحكمة والعقل ألا يجمع الإنسان على نفسه بين الألم بتوقع الشر، والألم بحصول الشر؛ فليسعد ما دامت أسباب الحزن بعيدة عنه، فإذا حدثت ـ لا قدر الله ـ فليقابلها بشجاعة واعتدال.

إن الرجل المبتهج بالحياة يزيده الابتهاج بالحياة قوة؛ فيكون أقدر على الجد،

وحسن الإنتاج، ومقابلة الصعاب من الرجل المنقبض الصدر الممتلئ بالهم والغم.

وكما أن كل عادة تكتسب بالتمرين، فالصانع يكتسب صناعته من التمرين، والموظف يتقن عمله بالتمرين، والنظافة والقذارة حسب الاعتياد، والأخلاق الفاضلة أو الرذيلة حسب الاستعداد ـ فكذلك الشأن في مقابلة الحياة بالحزن والألم، أو بالابتهاج والسرور.

وما الحياة؟ مرحلة عابرة لا تستحق أن ينغص الإنسان نفسه فيها بكثرة الألم، وكل ما يطلب من الإنسان فيها أن يقضيها على أحسن وجه مبتهجاً مسروراً فعالاً للخير، يشعر بالفرح لفرح الناس، وبالخير يَصِلون إليه، ويبتهج بجمال الطبيعة وجمال ما فيها، فإن صادفه ما يؤلم نَحّاه جانباً إن أمكنه، ورضي مطمئناً بما لم يمكن تغييره، وبهذا يعيش عيشة راضيةً، عيشة سعيدة موفقه.

إن أردت أن تعرف شيئاً صحيح هو أو فاسد؟ سواء كان هذا الشيء عادة من العادات، أو خلقاً من الأخلاق ـ فانظر هل هو مما يزيد الحياة، قوة ويكسب الحياة صحة فاحكم عليه ـ إذن ـ بأنه عمل نافع .

وإن كان يضعف الحياة ويجعلها مريضة فاحكم عليه ـ إذن ـ بأنه عمل ضار .

ولا شك أن الهم والاستسلام للحزن، والخوف من توقع المكروه، والإفراط في تقدير الآلام ـ مما يضعف الحياة، ويضعف الإنتاج، ويزيد الآلام والبؤس والشقاء؛ فحارب الكآبة في نفسك وابتسم للحياة، وابتهج بها في غير إسراف تزد حياتك، قوة وتشعر بالسعادة، وتُشعر بها من حولك.

إن الابتهاج بالحياة فن من الفنون جهلناه، فأصبحت حياتنا كالماكينة التي وضع جزء منها في غير موضعه، فسبب ذلك خراب الماكينةَ كلَّها، وضوضاءها في سيرها، وعدم انتظامها، والذَّنْبُ ذنبُنا لا ذنب أي شيء آخر.

خذ مثلاً الأسرة؛ فكل أسرة غالباً لها أوقات فراغ تقضيه في البيت مجتمعة، وهذا الوقت عند الأمم الراقية من أسعد الأوقات يقضونه إما في حديث ممتع، أو في لعب فنية، أو نوادر طريفة، أو (فوازير) جميلة، فتنتعش بذلك النفس، وتبتهج الحياة، وينسى كل فرد ما لقيه من متاعب عمله خارج البيت؛ فماذا نصنع نحن في مثل هذا الوقت؟ لَمْ نتقِنْ فن اللعب الظريف، ولا النوادر اللطيفة، وإنما أتقنا فن المشادة والغضب لأتفه الأسباب، وتنغمس الحياة بما لا يُحصى ولا يعد من أسباب.

إن أهم ما في الحياة معرفة طرق المعيشة، وكان من الطبيعي ـ وقد كانت حياتنا أعز شيء علينا ـ أن نبذل جهداً كبيراً في البحث عن أسباب سعادتها، والابتهاج بها.

فإذا خرجنا عن الأسرة إلى الحياة خارج البيت وجدنا الرجل يضيع أكثر أوقاته في الجلوس على مقهى ولعب شطرنج أو نرد أو نحو ذلك، أو جلس مع أصدقاء يتحدثون حديثاً سخيفاً في العلاوات والدرجات، وتركوا أسرتهم تضيع الوقت ـأيضاًـ في توافه الأمور؛ فلا الرجل يفكر كيف يسعد أهله، ولا المرأة تفكر في كيف تسعد أسرتها، وقل من استفاد من الحياة كما ينبغي، فلا المناظر الطبيعية الجميلة تجذب انتباههم، ولا القراءة اللذيذة الممتعة تسترعي انتباههم،

ولا تخصيص وقت للخدمة الاجتماعية العامة تنال حظاً من أوقاتهم؛ فمن أين يفرحون؟ وبأي شيء يبتهجون؟

فالحق أن الحياة رواية في استطاعة الإنسان أن يجعلها رواية ضاحكة مبتهجة، وأن يجعلها مأساة حزينة مكتئبة.

إن أهم سبب في الابتهاج بالحياة هو أن يكون للإنسان ذوق سليم مهذب يعرف كيف يستمتع بالحياة، وكيف يحترم شعور الناس ولا ينغص عليهم، بل ويدخل السرور على أنفسهم؛ فالذوق السليم قادر على استجلاب القلوب، وإدخال السرور على نفس صاحبه ونفس من حوله، وكما قال القائل: «ما تريد نيله بالتخويف والإرهاب يمكنك أن تناله بالابتسام».

تصور أسرة ساد فيها الذوق السليم نرى كل فرد فيها يتجنب جرح إحساس غيره بأي لفظ أو أي عمل يأباه الذوق، بل إن ذوقه يرفعه إلى حد أنه يتخير الكلمة اللطيفة والعمل الظريف الذي يدخل السرور على أفراد أسرته.

إن الذوق السليم في البيت يأبى النزاع، ويأبى حدة الغضب، ويتطلب النظام، وحسن الترتيب، والاستمتاع بجمال الزهور، وجمال النظافة، وجمال كل شيء في البيت، فلسنا مبالغين إذا قلنا: إن رقي الذوق أكثر أثراً في السعادة من رقي العقل؛ إن الذوق إذا رقي أنف من الأعمال الخسيسة، ومن الأقوال النابية ومن الأفعال السخيفة.

ولو استطعت لجعلت جزءاً كبيراً من مناهج التعليم في المدارس لتربية الذوق بجانب المناهج المكتظة بتربية العقل.

كل إنسان في الدنيا يضع على عينيه منظاراً حقيقياً أو مجازياً، وأكثرنا مع الأسف يلبس منظاراً أسود يريه كلَّ شيء أسود؛ فإذا نظروا إلى الأشياء نظروا إلى معايبها، ولم ينظروا إلى محاسنها، ولم يعجبهم حاضرهم، ورأوا السعادة في غير ما هم فيه ولذلك يكثرون من إذا... ولو... ولعل... وعسى...

ولو حصل كل ما يتمنون ما زادوا شيئاً وما تغيرت حالتهم ما دامت على أعينهم هذه النظارات، ولم يغيروها بنظارات بيضاء ترى الحياة على حقيقتها، وترى الدنيا مملوءةً بالمسرات مع قليل من الأحزان، وكثيراً من النعم مشوبة بقليل من النقم.

وهذه الأحزان، وهذه النقم قليلة القيمة إذا تسلح الإنسان بالشجاعة في مقاومتها، وفي استطاعة الإنسان أن ينصب في نفسه سرادقاً كبيراً، إما لمأتم كبير، أو لفرح كبير.

ويخطئ كثير من الناس فيظن أن الابتهاج بالحياة معناه اللذة الحادة الجامحة، ويظنون السعادة في الإفراط في الملاهي على اختلاف ألوانها، إما في سكر مفرط، أو غشيان دار من دور اللهو الخليعة أو نحو ذلك.

وليس هذا ابتهاجاً بالحياة وإنما هو إبادة للحياة، وهذه اللذات الحادة كنار القش تلتهب سريعاً، وتخمد سريعاً، وقد يكون من أضرار التهابها وآلامها ما يساوي أضعاف لحظات لذتها.

إنما نعني بالابتهاج بالحياة موقف النفس إزاء الحياة، والاستمتاع بها استمتاعاً معتدلاً لا إفراط فيه ولا تفريط، نريد بها حالة من أحوال النفس، تهيئ ذوقاً

للاستمتاع بمحيطنا استمتاعاً أطول ما يمكن، وأقوى ما يمكن، استمتاعاً يقوِّينا على الجد في الحياة، ويجعلنا أقدر على إسعاد أنفسنا وإسعاد من حولنا.

أما اللذات الحادة الوقتية فلذاتٌ وهميةٌ يتبعها من الألم أكثر مما تستوجب من اللذة.

إن راحة الضمير، ولذة العقل، ولذة الروح، ولذة النفس واللذة التي يشعر لها المرء إنه مصدر للخير يشعه على الناس كما تشع الشمس ضوءها.

كل ذلك ابتهاج بالحياة لا يعادله التمرغ في اللذات الدنيئة الوقتية التي تسبب لذة عارضة تعقبها حسرات دائمة.

٣ الإيمان ينبوع السعادة(١) للأستاذ أحمد أمين

يروى عن عمر بن الخطاب  أنه دعا الله أن يرزقه إيماناً كإيمان العجائز، ولم يقل كإيمان العلماء، لأن إيمان العجائز إيمان عميق، هادئ مطمئن، لا يرقى إليه الظن، ولا يحوم حوله الشك، دينهم شعور عميق بإله بلغ النهاية في الكمال، وعن هذا تصدر أعمالهم، وبلقائه تتعلق آمالهم.

أما العلماء فقد اعتادوا الشك، واعتمدوا على الحجج العقلية، فكان إيماناً مقلقلاً، يحول بينهم وبين تمام اعتقادهم صعوبة إدراكهم لحقيقته بعقولهم(٢).

ثم إن خير الدين ما أتى عن طريق القلب، والعجائز إيمانهم عن طريق قلوبهم، والعلماء إيمانهم عن طريق عقولهم، والعقل عادة مصدر للشك والتردد، والقلق والحيرة، والقلب لا يعرف شكاً ولا تردداً.

وإيمان العجائز إيمان بسيط سهل، فهم يدركون أن الإيمان بالله معناه أن الله خالق كل شيء، ومدبر كل شيء، يعطف على من يحبه بالخير، وينتقم ممن لا يؤمن به، إن عاجلاً وإن آجلاً، وهذه العقيدة على بساطتها كافية في سير الشخص سيراً حسناً حميداً، يفعل الخير، ويجتنب الشر.

إن الإيمان بالدين مبني على أساسين: رغبة ورهبة، فالإنسان يعمل الخير

---

(١) فيض الخاطر، ٩/ ٤٥ ـ ٤٨.

(٢) لعله يقصد علماء الكلام والفلاسفة ونحوهم، أما العلماء بالله وأمره فهم أكثر الناس يقيناً، وأبعدهم عن الشك والحيرة(م).

رغبة في ثوابه، وأملاً في جنته، وهو يخاف عقوبته، ويخاف ناره، وبين الرغبة والرهبة تصلح الأعمال وتتم السعادة.

ما الحياة بلا إيمان بالله؟ إن الإنسان خلق في هذه الحياة وسط تيار جارف، وجو عاصف، تنتابه الأحداث العظام، وتحل به الكوارث؛ فما لم يعتقد في إله يتخذه ملجأً له، وركناً يعتمد عليه، ومعزياً له في المصائب، ومساعداً له في المتاعب، ومأمناً له ضد الأخطار، ومواسياً له عند الحزن ـ كان كبناءٍ لا يستند إلى أساس، وبيت ليس له دعامة؛ ومن أجل ذلك نرى أشقى الناس في الحياة أكثرهم إلحاداً؛ إنهم قد يملكون المال الكثير، ويحصلون على الرزق الوفير، ولكن لا يلبثون إذا حلَّت بهم مصيبة أن يأخذهم الجزع؛ لأن من طبيعة النفس الخوفَ من العدم، أما المؤمن فيحمد الله في السراء والضراء، ومهما فعل، ومهما حلَّ به؛ فهو يعتمد على ركن ركين، وملجأ حصين، إن فاته الخير في الدنيا أمَّل في الآخرة، وإن لم تسعفه ظروف اليوم أمل في الله غداً.

وتجاربنا في الحياة تدلنا على أن الإيمان بالله موردٌ من أعذب موارد السعادة ومناهلها[1].

فالدين يكسب النفس قوةً، وسلوى، وعزاءً.

وكان القرآن حكيماً في مخاطبته للشعور في مثل قوله: ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾. الغاشية: ١٧ـ٢٠

---

(١) بل هو أعذبها على الإطلاق (م).

ودعوته إلى النظر في خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، واختلاف الألسنة والألوان، أكثر من اعتماده على مقدمات منطقية، وأقيسة جدلية؛ لأن آيات القرآن هذه تخاطب الشعور والقلب، والأقيسة المنطقية تخاطب العقل، وكل إنسان صالح لأن يوجه الحديث إلى قلبه، وليس كل إنسان صالحاً لأن يوجه الحديث إلى عقله.

نعم، إن العلم يخدم الدين، ولكن لا يبعثه؛ فَتَقَدُّمُ الناس في العلم اليوم خفف آلام البشرية من اعتقاد في السحر، ووجود أرواح شريرة تتسلط على البشر وتعذبهم حسبما تشاء، فكل هذه اعتقادات أزالها أو مزقها نور العلم، فخدم الدين بذلك خدمة جليلة، فإذا اجتمع في الناس قلب ينبض بحب الله، وعقل يزيل الخرافات والأوهام عنه، كان ذلك منتهى السعادة، ومنتهى الرقي.

لولا الدين ما كانت السعادة، ولا كانت للحياة قيمة، بل نحن نرى أن آباءنا كانوا أسعد منَّا بإيمانهم، وشبابنا أشقى منهم بشكهم، أو على الأقل بعدم اكتراثهم.

وإن شئت فقارن بين أسرتين: أسرة أسست حياتها على الدين والتزَمَتْ به، وأسرة أضاعت الدين ولم تلتفت إليه، وأَجِبْني: أي الأسرتين أسعد؟

إني أعتقد أن أكبر سبب لشقاء الأسر وجود أبناء وبنات فيها لا يرعون الله في تصرفهم، وإنما يرعون هواهم وملذاتهم؛ فهم يركبون رؤوسهم، ويروُّون رغباتهم، من غير وازع ديني يزعهم، أو نظرة في العواقب تردعهم، فإذا فشا الدين في أسرة فشت فيها السعادة، وخاصة إذا كان ديناً راقياً تجرد عن الخرافات

والأوهام، وتدعَّم بالعلم، وحكم أفرادها دينهم في سلوكهم.

إن أهمَّ ركنٍ في السعادة راحةُ البال، والدين أكبر دعامة لراحة البال؛ إذ يظهر أنه من طبيعة النفس الإنسانية أن تشعر بوجود إله تعتمد عليه، فإذا لم يكن ذلك قلقت واضطربت؛ لأنها خالفت طبيعتها.

ولذلك نجد أكثر الملحدين يعيشون عيشة مضطربة، وإذا جد الجد وحضرهم الموت كانوا كفرعون، لما أدركه الغرق، قال: ﴿ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ يونس: ٩٠

وهذه هي السعادة في الحقيقة، فليست السعادة في كثرة المال، ولا في عظم الجاه، إنما هي في أنفسنا، وفي داخل قلوبنا.

وشيء آخر، وهو أنَّ من مزية الدين الإيمانَ باليوم الآخر؛ فهو بذلك يضم حياة أبدية إلى حياته القصيرة الدنيوية، وذلك ـ من غير شك ـ يدعوه إلى أن يفكر فيما يعمل؛ لاعتقاده في الجزاء العادل، إن لم ينله في الدنيا ناله في الآخرة، ويكفه عن عمل الشر لأن وراءه إلهاً يجازيه على عمله مهما أَسَرَّ.

ومن طبيعة الإنسان حب الحياة؛ ولذلك يرتعد فرقاً إذا قيل له: إن حياته في الدنيا هي الحياة؛ لأن معنى ذلك أنها حياة قصيرة تنتهي بعدمٍ مُفْزِعٍ، وسعادته الحقة في أن يعتقد أن وراء هذه الحياة حياةً أبديةً، يتسلط[1] عليها إله عادل، من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره.

هذه هي الطبيعة الإنسانية التي خلقنا عليها، وأي تنحٍّ عنها يفسدها، وقد علمتنا الحياة أن الخروج على الطبيعة الإنسانية ولو قيد شعرة مدعاة للحيرة والاضطراب.

---

(١) لو قال: يملكها إله...، أو يحكم فيها ...(م).

ثانياً: مقالات في التربية والتعليم

٤ التربية[١] للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين[٢]

ألم يأن للذين آمنوا أن تكون لهم آذان صاغيةٌ، وقلوب واعيةٌ؛ فيستجيبوا لله وللرسول إذا دعاهم لما يحييهم؟ يحييهم كتاب الله إذا تشبعت عقولهم بأنوار مواعظه الحسنة، وإرشاداته الصحيحة، وارتبطوا بالعمل به ارتباطاً يَهَنُ كيد المردة عن نقض عراه، حتى إذا رسخ في أذواقهم طَعْمُ شجرتِه المباركة استقدروا ما ترميه أفواهُ الذين اتبعوا أهل المدنية الحديثة المصفَّدين بأغلال التقليد لهم في كل مثال جديد.

ذلك التقليد الأعمى، عِلَّتُه سوءُ التربيةِ الأولى، وعدمُ ارتواء النفس من أول النشأة بمحاسن الشريعة الغراء، ومن ثَمَّ كان الغالب على من شبوا في كفالة من قدروها حق قدرها علماً وعملاً شرَفَ الوجدان وسلامةَ القصد، والاستماتةَ في مدافعة الشبه التي تحركها استحسانات النفوس الكَدِرَة.

ولعلك تتلو قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً﴾مريم:٢٧ ـ فتجد المنكرين عليها فيما اتهموها به، أرادوا بنفي البغي والسوء عن أبويها المبالغةَ في توبيخها عما يراها الله منه؛ تنبيهاً على أن من كان أبواه صالحين ليس من شأنه التجردُ عن طورهما، والتردي بغير ردائهما.

وما كان ينبغي له إلا أن يسلك سنن أعمالهما الصالحة شبراً بشبر وذراعاً

---

(١) السعادة العظمى ـ عدد٧ ـ غرة ربيع الثاني ١٣٢٢ المجلد الأول، ص٩٧ـ٩٩.

(٢) سبقت في المجموعة الأولى ترجمة له.

بذراع.

كما أنك تجد أكثر الناشئين في حُجور السفلة، أو من أطلقت حُبالهم على غواربهم زمَن الحداثة في أفظع حال من فساد الأذواق، وعدم الخضوع لسلطة الأحكام الدينية، والانخداع بالظواهر المزخرفة عن الغوص على الحقائق التي لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم من الحكمة.

تَعْجَبُ العامةُ لرجل يبرع في فنون كثيرة، ويبدع في التصرف في مباحثها المشكلة، فَيُفْرِغُها في قالب التحقيق، حتى إذا فاوضته في أي علم منها خُيِّل لك أنه الواضع لأصوله، ولا تلبث زمناً يسيراً تَجُسُّ نبضَ أخلاقه إلا وجدت فيها عِوجاً وأمتاً.

أما الفيلسوف النَّقَّاد فلا يرى ذلك شيئاً عجباً؛ للنكتة التي لَوَّحْنَا إليها، وهي سوء التربية الأولى.

والدليل على ما نقوله أن الصبي يولد على الفطرة الخالصة والطبع البسيط، فإذا قوبلت نفسه السَّاذَجَةِ بخلق من الأخلاق انتقشت صورته في لَوْحِها، ثم لم تزل تلك الصورة تمتد شيئاً فشيئاً إلى أن تأخذ بجميع أطراف النفس، وتصير كيفيّةً راسخةً فيها حائلة لها عن الانفعال بضدها.

يؤيد هذا أنا إذا رأينا من الغرباء من هو لطيفُ الخطاب، جميل اللقاء، مهذب الألمعية لا نرتاب في دعوى أنه ممن أنبته الله في البيوت الفاضلة نباتاً حسناً.

ومن الناس من يدرك أن التقام الأطفال لثدي التربية، مما يؤثر في نفوسهم إصلاحاً عظيماً، ولكن فَرْط الرأفة الذي ينشأ من التغالي في حبهم يكسر من

صلابة الآباء شيئاً كثيراً، فيدفعهم عن مكافحة طباع أبنائهم الرديئة، ومقاومتها بالتأديب، وينفض بهم ذلك الإهمال إلى التنقل في مراتع الشهوات الزائغة.

كل، هذه رأفة غير ممزوجة بحكمة؛ التنقل في مراتع الشهوات تتولد عنه نتائجُ وخيمةٌ، تثير بين الآباء والأبناء من النفرة والتباعد بمقدار ما كان بينهما من الحنان والمقاربة، وتصير بهم إلى أن تُضَرِّسهم أنياب الاضطهاد، وتدوسهم أقدام الامتهان.

لا نريد بكراهة هذه الرأفة المفرطة أن يَفْتَكَّ من الصبي سائرَ إرادته، ويسلب منه جميع عزائمه، كما يفعله الجاهلون بأساليب الإصلاح والتهذيب؛ إن ذلك مما يحول بينه وبين عزة النفس، وما يتبعها من قوة الجأش، وأصالة الرأي، والإقدام على إرسال كلمة الحق عندما يقتضيها المقام؛ فيكون ألعوبة بيد معاشريه كالكرة المطروحة يتلقفونه رجلاً رجلاً، أو آلة يستعملونها فيما يشتهون؛ التربية النافعة ما كانت أثراً لمحبةٍ يطفئ البأسُ شيئاً من حرارتها، وصرامةٍ تلطف الشفقة نبذة من شدتها، وهي التي يستوجب بها الولدان دعاء الولد بقوله: ﴿رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ الإسراء: ٢٤.

ولما كان الابن مثالاً لمن جعل الله عليه كفيلاً، ومظهراً لآثار تعود على وليه بِكِفْل من أجزائها ـ فما بالنا لا نرسم في طباع أبنائنا أشكالاً محمودة، تمثل لمن بعدنا هيئةَ ما كان عليه سلفهم الصالح عِوَضَ أن ننقشها لهم في عَمَدٍ ممددة، أو خشب مسندة.

وخاتمة المقال، أن تعميم التربية بين طبقات الأمة، شيء واجب، لا ينتظم لها العيش الناعم بدونه، ولا تشرق صحائفُ تاريخِها بسواه.

٥ التربية الأخلاقية وأثرها في ارتقاء الأمم[1]
للكاتب علي فكري ـ أمين دار الكتب المصرية

التربية الأخلاقية هي المقياس الصادق الذي تقاس به خطواتُ الشعوب، ونهضات الأمم.

بل هي الأساس المتين الذي تبنى عليه عظمة الأمم وارتقاؤها؛ فما ارتقت أمة في العالم القديم أو الحديث إلا وكان سببُ ذلك سموَّ أخلاقِ أفرادها، وقناعتَهم، واقتصادَهم، وحبَّهم الناسَ محبتَهم أنفسَهم، وإخلاصَهم في العمل لوطنهم، وانتشار روح النشاط والإقدام بينهم، وبعدهم من الفخر والرياء، والدسائس والفتن، ونفورهم من الانقسام والمخاصمة.

قال لوثر: ليست سعادة الدول بوفرة إيرادها، ولا بقوة حصونها، ولا بجمال مبانيها، وإنما سعادتها بكثرة المهذبين من أبنائها، وعلى مقدار الرجال ذوي التربية والأخلاق فيها.

وما انحطت أمة، ولا أفل نجم مجدها، ولا زال سلطانها إلا بزوال تلك الأخلاق الفاضلة من نفوس أبنائها، وانغماسهم في الشر والفساد.

والأدلة على ذلك كثيرة؛ انظر إلى الدولة الرومانية القديمة التي أخضعت العالم القديم، وامتدت شوكتها إلى غالب ممالكه ـ ترَ أن الأخلاق الكريمة كانت سبب رفعتها، وأن الترف والفساد كانا سبب انحطاطها.

---

(١) مجلة جمعية مكارم الأخلاق، العدد الأول ص١٠ـ ١٤، رجب ١٣٤٣هـ.

وألقِ معي نظرة أخرى إلى الدولة العربية بعد ظهور الإسلام دين العلم والأخلاق الحسنة ببلاد المشرق وبلاد الأندلس ـ ترَ أنها قد بلغت بين الأمم أسمى ما تصبو إليه نفوس الشعوب الناهضة حتى كانت جنةَ هذا العالم وزينةَ الحياة الدنيا، وأضحت واسطةَ عقدِ حضارة العالم، والغرةَ المشرقةَ في جبين الأيام، وكعبةَ طلاب العلوم والآداب؛ فامتد سلطانها، وعلا كعبها، وزها نجمها، وكمل بدرها يوم كانت تنشر ألوية الحضارة على جميع العالم، وتتلو عليه آيات بينات من الهدى والفرقان.

لم تزل الأمة العربية كذلك حتى دبَّ دبيب الفساد الأخلاقي في نفوس أهلها، وتدلَّى إلى الحضيض مترفوها؛ فحقَّت عليهم كلمة ربك ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً (١٦) ﴾ الإسراء.

حقًّا إن أمراض النفوس لأشدُّ فتكاً بالشعوب، وأسرع إبادة للأمم من أمراض الأجسام، ومن نظر في تاريخ الأمة المصرية قديماً رأى أن الفضل في تقدمها وعظمتها راجع إلى الأخلاق الكريمة التي كان عليها سلفها.

كتب مسيو بورجيه الذي كان يرافق العالم الأثري شمبليون في سنة ١٨٢٢ بمصر فيما كتب هذه الكلمة:

«المصريون كلهم علماء، وهم على ما هم عليه من النقص الخلقي ما وصلت الأمة إلى المجد الحقيقي الذي يرفعها ويعلي شأنها، ولا تصل إلى الاستقلال الحقيقي الذي يرجوه لها كلُّ محب مخلص لبلاده؛ فنحن وإن كنا في حاجة إلى

العلم عشرين مرة فحاجتنا إلى الأخلاق عشرين ألف مرة».

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁: «تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والوقار والحلم».

وقال العالم الأخلاقي صمويل سميلز: «إن العلم يجب اقترانه بالخير فربَّ عالم أقل من جاهل أمانة، وفضيلة، وأخلاقاً، وعملاً بالواجب».

وقال جورج هربرت الشاعر الإنجليزي: «الحياة الصالحة خير من كثير من العلم والمعرفة».

ألا ترى بعد هذا أن العلم لا يغني عن الأخلاق.

ومن تأمل بعين الحق المجردة عن الهوى في مواضع الضعف في الأمة المصرية وجدها كلها أخلاقية، ورأى في أخلاقنا الفردية والاجتماعية دلائل النقص الخلقي تكاد تكون ملموسة باليد.

لو أردنا أن نشرح النقائص الأخلاقية المنتشرة في الأمة لضاق بنا المقام على أن في سردها إثارةً للنفوس، وتهيُّجاً للخواطر؛ فأمسكنا عن ذكرها؛ إشفاقاً على القارئ، ومحافظة على مكارم الأخلاق.

فإذا أردتم صلاحاً وفلاحاً لأمتنا المصرية العزيزة فاجتهدوا في تربية أخلاق أبنائها، وتخليصها من براثن الفساد؛ وذلك بنشر الدين بجانب معاهد التعليم، فالدين هو روح الآداب، ومنبع الأخلاق الصحيحة المنزهة عن الهوى والمطامع الشخصية، الدين هو الأساس المتين للتربية الأخلاقية في الشرق قاطبة؛ فالشرقيون يخالفون الغربيين في تغلب عواطفهم على عقولهم، والدين موطنه

العواطف، ومركزه الفؤاد؛ فلذلك كان الشرق من قديم الزمان مهبط الأديان، وموطن الأنبياء والمرسلين.

ولئن جاز لبعض الأمم الغربية تجريد التربية الخلقية من روح الدين فلا يجوز لأمة شرقية كالأمة المصرية أن تسير على هذا المنهج؛ لأن الوازع الديني، والرجوع إلى خالق قادر خالق الكائنات واقف على السرائر المدفونة في أعماق القلوب أقوى عامل في إصلاح الأخلاق، بل هو الأساس الوحيد لنجاح الأفراد، وعظمة الأمة.

لهذا الغرض قامت جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية، فهدرت شقشقتها حيناً ثم قرت، والآن قد عادت لشنشنتها.

نسأل الله أن يأخذ بيدها، وأن يوفقها إلى إصلاح المعوج من أخلاق الشبيبة المصرية، وأن يهديها إلى طريق الخير والفلاح آمين.

٦ صحة التفكير[1] للعلامة الشيخ محب الدين الخطيب

لو كانت شكوى المصلحين مقصورة على قلة ما لدينا من وسائط التعليم والتهذيب، ووسائل تنوير القلوب والعقول بهما ـ لهان الأمر كثيراً؛ لأن ما نراه من قلة هذه الوسائل والوسائط سيتبدل يوماً بعد يوم بحال أرقى من التي نحن فيها، إلا أن هنالك مصيبة أدعى إلى الشكوى، وأجدر بالعناية والاهتمام، وهي تباين أثر هذه الوسائط في العقول؛ فإذا ألقى بعض الأفاضل محاضرة أخلاقية في بعض الأندية، أو إذا كتب أديب مقالة إصلاحية في إحدى الصحف ـ تجد سامعي المحاضرة وقارئي المقالة متفاوتين في الانتباه إلى مراميها، وفهم المعاني الواردة فيهما، وربما تلقاها بعضهم بوجه، وتلقاها آخرون بضده.

وليس هذا المرض منحصراً في الأمور العلمية، كالمحاضرات والمقالات، بل إن الرجل يسمع بأذنه الخبر البسيط، أو يرى بعينه الحادث التافه، ثم يذهب في تأويلهما وروايتهما مذاهب بعيدة عن الحقيقة؛ حتى أصبح هذا الأمر من مشوهات الرأي العام الذي بدأ يتكون عندنا بشكل صريح.

قد يظن بعض القراء أن صحة التفكير والحكم، وجودة التصور والتصديق، منوطان بموهبة الذكاء. وليس الأمر كذلك، بل هما منوطان بتربية النفس من الصغر على حب الخير والحق، والتجرد عن الشرور والأهواء، والاهتمام بإدراك الأمور من كل وجوهها، وافتداء الصلاح بكل منفعة ذاتية، وربح غير

---

(١) الحديقة ٦/ ٢٠٨ ـ ٢١٤، عام ١٣٤٩هـ

مشروع.

ليس خطأ الناس في التصور والتصديق ناشئاً في كل الأحوال عن أسباب طبيعية كالنقص في المدارك، بل إنهم إذا صوبوا أنظارهم إلى حادثة من الحوادث يحاذرون تمثيلها في أذهانهم بشكلها الحقيقي، ويريدون أن يروها بالصورة التي توافق هوىً في نفوسهم دعت إلى وجوده المنافع الزائلة، أو العقائد الباطلة، أو اللوامع الآفلة.

يا لهذه التربية ما أشد تأثيرها على كل شيء فينا: بها نكون رجالاً صالحين في المجتمع، أو لصوصاً وقَتَلة ومتشردين، وبها نكون كرام النفوس محبين للإحسان، أو لئاماً وبخلاء ومفسدين.

وبها نكون صحيحي الأجسام نشيطين مرنين، أو ضعافاً وكسولين ومتقاعسين.

حتى أفكارنا وأحكامنا ـأيضاًـ قد رفعا للتربية راية الخضوع والتسليم، فإذا تربى الفكر من الصغر على صحة التفكير نشأ صاحبه جيد التصور، سديد الحكم، محبَّاً للحق سواء كان له أوعليه، وإذا كانت الثانية بات الرجل وليس فيه من الرجولية غير اسمها.

ولا غَرْوَ؛ فإن التصور والتصديق شطرا المنطق، ولا يزال الإنسان حيواناً حتى يتمكن من إزالة سلطان الهوى عن نفسه الناطقة الممتازة بحسن التصور، وصحة التصديق.

إن أقدس عمل يصنعه الإنسان في حياته الدنيا هو أن يدرك الحق إدراكاً صحيحاً، وأن يصرح به بلا مواربة ولا خوف، وإن الرجل الذي يستطيع أن

يتغلب على كل ما يعترض صحة التفكير من أهواء وخرافات ومنافع ومؤثرات، وأن يكون بعد ذلك مدركاً للحق لا تأخذه في التصريح به لومة لائم ولا مقاومة مقاوم، ثم يضيف إلى هذه المنزلة العالية منزلة تربية هذا الخلق نفوس الناشئة- فلا شك أن مثل هذا الرجل الشجاع مكتوب في عداد أولياء الحق الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

قلت: إن الهوى الناشئ عن المنافع الزائلة والعقائد الباطلة يمنع صحة التفكير، ومن مصائبنا أن بعض الذين سمعوا بأن التعصب لبعض العقائد ينافي الحرية الفكرية تحولوا من التعصب لها إلى التعصب عليها، فبرهنوا على عجز الذين ربوهم عن أن يجعلوهم صحيحي التفكير أولاً وآخراً.

وكان يجب أن يعتادوا من الصغر على دقة النظر، وأن يمارسوا محاكمة الأمور بالموازنة بين براهينها، والتنقيب عن دواعيها وأسبابها، متجردين عن التعصب لها أوعليها؛ وبذلك تنمو فيهم قوة الاجتهاد والاكتشاف، وترسخ في عقولهم ملكة العدل والإنصاف.

من لي بمن يذكر أساتذة المدارس بما أخذوا على أنفسهم من الواجبات العظمى.

إننا لا نطلب منهم أن يعلموا أولادنا أشياء كثيرة : يكفي أولادنا من مسائل العلم ما يحتاجون إليه في هذه الحياة، أما نحن فقد كان أساتذتنا يعلموننا أشياء لم تلزم لنا حتى الآن، وفاتهم أن يعلمونا أموراً تلزم لكل إنسان.

صحة التفكير لازمة للموظف، والطبيب، والصانع، والسياسي، والتاجر،

وحـارث الأرض ، وإن طريقـة تفكـير الإنـسان دليـل علـى أخـلاق الإنـسان ، وأخلاق الإنسان هي الإنسان نفسه؛ فهل لأساتذة مدارسنا أن يـسهروا ليـاليهم في التنقيـب عـن الوسـائل الـتي تزيـد رجـال مـستقبلنا تقـدماً في مـواطن الرجوليـة ، وارتفاعاً في مراقي الإنسانية؟.

٧ أول درس ألقيته[1] للأديب الأستاذ أحمد حسن الزيات

أبداً لا أنسى تلك الساعة الرهيبة العصيبة التي ألقيت فيه أول درس في أول فصل، كان ذلك منذ سبعة عشر عاماً، والسن حديثَة، والنفس غريرة، والنظر قصير، وكانت المدرسةُ ثانويةً أجنبيةً، تجمع أخلاطاً من الأجناس والأديان، وأنماطاً من الأخلاق والتربية، وكنت قد أدركت قسطاً من العلم النظري على الطريقة الأزهرية، وشدوت طرَفاً من التعليم الفني على الطريقة اللاتينية، إلا أن ما حصَّلت منهما كان لا يزال طافياً في ذهني، متحيراً في فكري، لا يطمئن إلى ثقة، ولا يستقر على تجربة، أضف ذلك إلى طبع حيي، ولسان من الخجل عيي، ووجهٍ للقاء الناس هيوب.

قضيت موهناً من الليل في إعداد الدرس، أراجع مادته، وأرسم خطته، وأسدد خطاه، ثم احتفلت لكلام أقابل به التلاميذ قبل التمهيد للدرس؛ وغدوت إلى المدرسة أقرَعُ باب الأمل المرجو، وأستطلع ضمير الغيب المحجَّب.

دق الجرس؛ فجاوبه قلبي بدقات عنيفة كادت تقطع نياطه، وتشق لفائفه، وقمت أجر رجلي وبجانبي مفتش الكلية جاء يُقَدِّمني إلى الطلبة.

دخلنا الفصل؛ فحيانا التلاميذ بالوقوف، وقال المفتش، فأطال القول، وأجزل الثناء، ثم خَرَج وبقيتُ!!

---

(1) نشرت في عدد يناير من السنة الأولى من مجلة التربية الحديثة ١٩٢٨م، وانظر كتاب: في أصول الأدب، لأحمد حسن الزيات ص١٢١ـ١٢٥.

أقسم لك أني أقول الحق، وإن كنت أجد بشاعة طعمه، ومرارة مذاقه على لساني؛ لقد نظرت إلى التلاميذ نظرةً حائرةً، ثم رجعت إلى نفسي أحاول إخراج ما فيها من الكلام المُهَيأ المحفوظ، فكأن ذاكرتي صحيفة بيضاء، وكأن لساني مُضْغَةٌ جامدة لا تحس.

السكون شاملٌ رهيبٌ، والأبصار شاخصة ما تكاد تَطْرُف، ووجوهُ الشباب ترتسم عليها ألوان مختلفة متعاقبة من خطرات النفوس، ونزوات الرؤوس، وأنا واقف منهم موقف المحكوم عليه، أعالج في نفسي الخَوَرَ والحَصَر، وأجهد في لم ما تَشَعَّثَ من ذهني، وتبدد من قواي، حتى هداني الله إلى طريق الدرس، فاعتسفته اعتسافاً دون مقدمةٍ ولا تمهيدٍ ولا عَرْض!!

أتريد أن تُعْفِيَني يا صديقي من وصف هذا الدرس؛ إبقاءً عليَّ وصوناً لسر المهنة؟

ولكن لماذا نتدافن الأسرار، ونتكاتم العيوب، ما دامت هذه المجلة خاصةً بنا، مكتوبةً منّا ولنا؟

إن في الدلالة على أوعار الطريق ومضايقها ومزالقها تحذيراً للسالك البادئ، وتبصرة للناشئ الغَرِير.

بدأت الدرس بصوت خافض، وطرف خاشع، ولسان مبلبل، وسرت فيه وأنا واقف لا أدنو من السبورة؛ مخافة أن أحرك سكون الفصل، ولا ألمس الطباشير، خَشَاةَ أن أسيء الكتابة!!

كان من المعقول أن يعاودني الهدوء، ويراجعني الثبات بعد زوال دهشة

الدخول ورَبْكة البَدْء، لو كنت واثقاً من نفسي، متمكناً من درسي.

ولكنَّ نظامَ الموضوع كان قد انقطع؛ فتبعثرت حَبَّاته، وتعثَّرت خطواتُه، ورُحْتُ أسرُد ما تذكرته منه، وأنا أشعر بكلماتي تُحْتَضَرُ على شفتي، وبِريقي يجمد في فمي، وبِعَرَقي يتصبَّب على جبيني، حتى فَرَغْتُ، ثم جلست أبلع ما بقي من ريقي، ونظرت فإذا الساعة لم يَمْضِ نصفُها، وإذا التلاميذ يتلاحظون ويتهامسون وعلى كل شفة بسمة خبيثة لولا تَعَوُّدُ النظامِ، وقوةُ التهذيب لعادت قهقةً صاخبة!!

ماذا أقول بعد أن نفد القول؟ وبماذا أملأ الفراغ الباقي من الوقت؟ وكيف أؤخر انفجار هذه الضحكات المكظومة؟

أسئلة كانت تضطرب في خاطري القَلِق؛ فلا أجد لها جواباً غير الحيرة!! حتى تطوع تلميذ جريء؛ لإنقاذ الموقف فقال:

«إحك لنا حكاية يا أفندي بأى[1]!».

ولم تكد شفتاي تنفرجان عن مشروع الرد حتى ابتدرني آخر: «لأَّ يا أفندي، اتكلم لنا شَوَيَّة إنشا شفهي».

وآخر: «حضرتك حتدِّينا على طول؟».

وآخر: «اسم حضرتك إيه يا أفندي، والله إنت راجل طيب!!».

وآخر: «فلان صوته جميل يا أفندي، خليه يغني شويَّة».

(1) بأى: هي بلهجة إخواننا المصريين العامية بمعنى: إذن، أو نحوها (م).

فقطعت سيل هذه الأسئلة المتجنية الساخرة بهذه الجملة الحيية المتواضعة: على كل حال كاد الوقت ينتهي؛ فلا يتسع لشيء من هذا.

ولكن صوتاً انبعث من أقصى الحجرة يقول: «أوه ! دا لسه ساعة وربع! حصة العربي ساعتين كل يوم !!»

ساعة وربع؟؟ نعم ساعة وربع! أقضيها على هذه الحال الأليمة كما شاء نظام (الفرير) أو كما قضى الجدُّ العاثر، وإذن لا مناص من انفجار البركان ووقوع الكارثة.

كأنك تريدني على أن أسوق إليك بقيةَ القصة!!

حنانيك، ولا تكلفني هذه الخُطة، واعتمد على نفسك وحَدْسِك في التخبر والاستنتاج!

لقد انحل النظام؛ فتشعَّث الأمر وانتشر؛ وأذكر أني حاولت الكلام مراراً، فلم أسمع صوتي من اللغط؛ فجعلت قيادي في يد أولادي، ثم سَكَتُّ حتى نطق الجرس.

خرجت من الفصل أَمِيدُ من الهمِّ، وأجرُّ ذيلَ الفشلِ السابغ الضافي، وفي نفسي أن أتركَ التعليمَ وهو حديثُ صباي، ومنتجع هواي إلى عمل آخر يصلح لي وأصلح له..!

ولكني عُدْتُ إلى الفصل، ومضيت في التعليم، وكنت بعد شهرين اثنين مدرسَ الفصلِ الأخير، وأستاذ الكلية الأول!!

فما الذي جعل من اليأس أملاً، ومن الفشل فوزاً، ومن الضعف قوة؟

اسمح لي أن أكون صريحاً فيما كان لي، كما كنت صريحاً فيما كان عليَّ.

لقد التمست الوِصْلَةَ إلى النجاح في أسباب خمسةٍ كلها معلوم بالضرورة مؤيدٌ بالطبع، ولكن العلمَ غيرُ العمل، والرأي خلاف العزيمة، والتجربةَ وجودُ الفكرة وواقعُ الحقيقة:

١ـ مواصلة الدرس وإدمان النظر: فلم أترك كتاباً في المواد التي أدرِّسها حتى تقصَّيْتُه، أو أَلْمَمْتُ به، واستفدت منه، وكان جدوى ذلك عليَّ وثوقَ الطلبة بما أقول، وظهورَ التجديد فيما أعمل، وتصريفَ الدرس وتنويعه على ما أحب.

ولن تجد أشفعَ للمدرس من سعة اطلاعه، وغزارة مادته.

٢ـ إعداد الدرس وأداؤه: وكان يعنيني ـ على الأخص ـ ربطُه بالدروس السابقة، والسيرُ فيه مع الطلاب خطوةً خطوةً على الطريقة الاستنتاجية (inductive) ثم تلخيصه بطريق الأسئلة؛ فكان من حسن إعداده أن مَلأْتُ الوقت كله به، فلم يعد فيه فراغ لِعَبَثِ عابثٍ، ولا تَجَنِّي سفيهٍ، وجَرَرْتُ إليه أذهانَ الطلاب بالتشويق، والتطبيق، والسؤال؛ فلم يصبهم سأمٌ ولا ضِيْقٌ، وشغلتهم به عن أنفسهم وعني؛ فلم يفرغوا لاصطياد نكتةٍ؛ ولا لالتماس غَمِيزَة.

وليس أعون على حفظ نظام الفصل مِنْ مَلءِ الوقت بالمفيد الممتع، ولا أضمنُ لجودة شرح المعلم وحسن استماع التلميذ من فهم الموضوع.

٣ـ مسايرة الترقي: فلم أتشَبَّث بالقديم، ولم أتعصَّب للكتاب، ولم أُعْنَ إلا بما له قيمةٌ عملية؛ فالموضوعات منتزعة من حياة التلميذ وحال المجتمع، والأمثلةُ مستنبطة من أساليب العصر ومواضعات أهله، والبحث حُرٌّ في حدود المنطق، يقوم على أساس التحليل والنقد والموازنة، وفي تشابه الفكرةِ والنزعةِ، والغايةُ

توثيقُ الصلةِ بين المعلم والمتعلم.

٤ـ حسن الخلق: ولعمري ما يؤتى المُعَلِّم إلا من إغفاله هذه الجهة؛ فالادعاءُ، والتظاهرُ، والكبرياءُ، والتفاخرُ، والبذاءُ، والتنادرُ، والكذبُ، والتحيزُ، والكسلُ، والتدليسُ ـ آفاتُ العلم، وبلايا المُعَلِّم.

وما أسر النفسَ الشابةَ الحرةَ كالخلق الكريم، ولا يَسَّر تعليمَها وتقويمَها كالقدوة الحسنة.

ناهيك بما يتبع ذلك من جمال الأُحْدُوثة، واستفاضة الذكر، وهما يزيدان في قَدْر المعلم واعتباره، ويغنيان التلاميذ الجُدُد عن اختباره.

٥ـ قوة الحزم: فكنت ألين في غير ضعف، وأشتد في غير عَسْف، وأسير بالطالبِ إلى الواجب عن طريق ضميره وحسه، لا عن طريق تأنيبه وحبسه، وأجعل رضاي عنه غايةَ ثوابِه، وسخطي عليه غايةَ عقابِه، وأَعِدُه الوَعْدَ فلا أَذْهَل عن تنجيزه، وأحكم عليه الحكم فلا أَنْكُل عن تنفيذه، وأستعين على فهم عقليته ودرس نفسيته بإنشائه، فأعامله بما يوائمه، وأعالجه بالدواء الذي يلائمه.

كل ذلك يسعده طبع غالب، ورغبة حافزة، ومِرَانَةٌ طويلة، وقدَر من الله جعلني أجد سعادتي وراحتي في الفصل وبين الطلاب أكثر مما أجدها في البيت وبين الأصحاب.

ولكن المعلمين ـ وا أسفاه ـ كما بدأهم الله يعودون! فليت شعري هل يكون الدرس الأخير في مبدإ مماتي، كما كان الدرس الأول في مبدإ حياتي؟

٨ حقوق المعلّمين الأحرار على الأمّة[(١)]
للشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي[(٢)]

ونعني بالمعلّمين هذه الطائفة المجاهدة في سبيل تعليم أبناء الأمة لغتهم، وتربيتهم على عقائد وقواعد دينهم، وطَبْعِهم على قالب من آدابه وأخلاقه.

نعني هذه الطائفة الصابرة على مكاره الحياة كلها، المحرومة من الراحة والاطمئنان في جميع أوقاتها، فهي في الشتاء تشقى وتتعب، وفي الصيف تضْحَى وتَنْصَب، وفيما بين ذلك تكابد وتعاني، على ضيق من العيش، وفقدان للحافز من الرغبة والتنشيط؛ فلا مسكن مريح، ولا شمل مجموع، ولا مرتّبٌ كافٍ يسدّ الضرورة، ويقوّي الضعيف، ويخفّف الهم، ويصونُ الهمة عن التبذل.

هذه الطائفة هي عماد جمعية العلماء في أجلِّ وظائفها، وهي التربية والتعليم، وهي العَصَب المدبر لحياة هذه الحركة المباركة؛ فعليها ـ بحكم الأمانة والدين ـ واجبات تشرعها الجمعية بالنظام والقانون، وتؤكّدها بالدعوة والإرشاد، وتستعين على تحقيقها بالمراقبة والتفتيش، ولها حقوق تتقاسمها الجمعية والأمة أمراً وتنفيذاً؛ فهل قامت الجمعية والأمة متعاونتين بهذه الحقوق

---

(١) نشرت في العدد ١٤٩ من جريدة «البصائر»، ٢ أفريل سنة ١٩٥١، وانظر آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ٣/٢٧٧ـ٢٨٠، وقد كتبها لمعلمي جمعية العلماء.

(٢) سبقت في المجموعة الأولى ترجمة له.

على أكمل وجه؟

أما جمعية العلماء فإن واسطتها إلى الأمة هي هذه الجمعيات المحلية المشرفةُ على المدارس، القائمة مباشرةً بتصريف شؤونها المالية؛ وهذه الجمعيات هي المرجع الوحيد في ماديات المدارس، وهي الحاملة للحمل الثقيل فيها.

ولما كانت جمعية العلماء تبني كل أمورها على الواقع المشهود، وتُراعي الظروفَ وشدّتها ورخاءَها؛ لتضمن لهذه المدارس الدوامَ والبقاء كانت تتقدم إلى الجمعيات المحلية في باب المادّيات بما يحتمل الطاعة، وتتحمّله الطاقة؛ لأن من الحكمة اجتذابَ الجماهير بالترغيب والمسايرة، لا بالإثارة والسَّوْق العنيف؛ فهما من دواعي الانتكاس، والانتكاس أخطرُ ما يعرض للحركات في مراحلها الأولى؛ لذلك كانت تعتبر في مرتبات المعلّمين الحد الأدنى مما يقوم بالضروريات، وهي تعلم ما يقاسيه المعلم من آلام حياته، وتُشفق عليه، وترثي له.

ولكنها تعلم مع ذلك حالة الموارد المالية للمدارس، وأهمّها ما يؤخذ من آباء التلامذة مشاهرة، وأغلب الآباء فقراء.

ولو كان لمدارسنا مدد ثابتٌ من الأغنياء وحقّ الله في أموالهم لجعلناه بعض ما نبني عليه في التوسيع على المعلمين، وإزاحة بعض عللهم، ولكننا هزَزْنا هؤلاء الأغنياء بما يهتزّ له الكرام فلم تسقط منهم ثمرة، ورقينا لعاهة الشحّ فيهم باسم الله وباسم الدين والوطن، وناشدناهم الله في هذا الجيل المقبل أن يحلّ به ما حلّ بهم من جهل، يصحبه هوان، يصحبه شر مستطير ـ فلم ينزل عفريتُ بخلهم لِرُقْيَةٍ؛ وبقيت مواردُ المدارس ـ لغيبة الأغنياء عن ميدان البذل ـ محدودةً مقترة،

تتراجع ناضبة، حتى أصبحت لا تبلّ من جفاف، ولا تقوم بكفاف؛ وإذا لم يكن الغيثُ هامياً فلا ترجُ أن يكونَ النبت نامياً.

نوجّه بعضَ العتب إلى رجال جمعياتنا المحلية، ولا نبرئهم من تبعة التقصير، ونعيب فيهم خلةً كادت تكون غالبة عليهم، وهي أنهم يؤثرون المصالح الخاصة على المصلحة العامة عند التعارض.

ولو أنهم ـ سامحهم الله ـ وجّهوا بعضَ اهتمامهم إلى حالة المدارس المادية، وبعضَ تفكيرهم إلى ابتكار مواردَ أخرى للمال ـ لكان لعملهم أثرٌ يذكر في حلّ هذه الأزمة التي شغلنا التفكير فيها عن التفكير في توسيع دائرة الحركة وتكميل نقائصها؛ ولو أنهم كانوا أكثرَ جرأة مما هم عليه لما توقفوا عند كل فترة يأنسونها من الجمهور؛ فليعلموا ـ علمهم الله ـ أن كل تقصير يقع منهم في هذا الواجب فمصيبته تقع على المعلمين البائسين، وأننا لا نسمح بأن يكون تفريطهم على حساب هذه الطائفة المجاهدة، ولا نرضى أن تكون خاتمة أعمالهم فشلاً وخيبة، ولا أن يكونوا هم السبب أو بعضَ السبب فيما يصيب هذه النهضة العلمية من خمود أو تراجع.

إن الموانع لكثيرة، وإن العوائق عن الخير لوفيرة؛ وشرّها ما عاق عن العلم والدين، ووقف عثرةً في طريقهما، ولكنها عند الرجال مصاعب سهلة التذليل؛ لأنهم يعتبرونها عوارض تزول، وأحوالاً تتحول؛ فيكون فهمهم لها وتصورهم إياها على حقيقتها أكبر أعوانهم عليها؛ فيلقونها بالهمم النافذة، والتصميم الخارق، والصبر الثابت، حتى تنقشع غماؤها، وتسلم المقاصد الذاتية.

وإذا هاج البحر، وعصفَتْ عواصفه فالغرق عارض، والسلامة هي الأصل، وما على الربّان الحاذق المتأثّر بهذه الحقيقة إلا أن يعالجَ الشدّة بدوائها، فيعالج الفزع بالصبر، والعواصف بحسن التصريف لها، وإلحاح الأمواج بإلحاح العزيمة، فإذا هو ناجٍ سالمٌ محرزٌ لمهجته وسفينته.

ولكن هذا كله كلام لا يجلب المنام، ولا يغني عن الطعام، ولا يكسو العظام، ولا ينعل الأقدام.

والحقيقة التي تجب مواجهتها كفاحاً، هي أن الأزمة خانقة، وأسعار الضروريات والحاجيات كسعود الأقوياء كل يوم في ارتفاع، ووجه المستقبل يطلّ من خلل الأيام كالحاً باسراً ينذر بالسوأى وزيادة، وأصوات العمّال الكادحين، وأُجَراءُ المشاهرة والمياومة تصمّ الآذان بطلب الزيادة في الأجور؛ لأن الزيت ـوهو الإدامـ أصبح بقيمته شجًى في الحلوق، ولأن الثياب الساترة أصبحت بسبب الغلاء فاضحة، ولأن ورقة (الألف) بورك فيها فأصبحت (كالشين) في حساب الجُمَّل[١] في (الجزم الصغير) عند (اليقَّاشين)[٢]...

وهذه الطائفة المجاهدة الصابرة عندنا تتوقّع الموت، ولا ترفع الصوت، ولا مرجع لها ـ بعد الله ـ إلا جمعية العلماء التي حبّبت إليها التعليم، وزيّنته في قلوبها، ثم ساقتها إلى ميادينه، وجنَّدتها في كتائبه؛ فإذا لم تبذلْ كل مجهود في

(1) الشين في ذلك الحساب يحسب بألف في اصطلاح المغاربة، ولكن ألفه كألف الفرق بعد واو الجماعة لا يساوي شيئاً.

(2) اليقّاشين: الذين يكتبون التمائِم. واليَقْشَة: حِرْفَتُهم.

تخفيف البلاء وتهوين الغلاء عليهم بالزيادة في المرتبات ـ فإن العاقبة تكون وخيمة.

وإذا كنا لا نخشى أن يفرّوا من الزحفْ؛ ثقةً بهم، واعتماداً على متانة دينهم، وصدق وطنيّتهم، وركوناً إلى شهامتهم واعتزازاً بمهنتهم ـ فإننا نخشى ما هو أسوأ عاقبةً من ذلك؛ نخشى أن يعلموا أبناءنا بلا قلوب ولا عقول في وقت نحن أحوج ما نكون إلى صلة القلوب بالقلوب، وتأثر العقول بالعقول، واستقاء الأرواح من الأرواح؛ فإذا حصل ذلك جاء التعليم وفيه أثرُ الجوع والهزال، وعليه سيما الفقر والخصاصة، ويأتي هذا الجيل وعلى عقله من هذه الآثار ما على أجسام مواليد الحرب التي نشأتْ في فقر من المواد المغذية.

وإذا كنتم تسمعون عن الأمم الحية أنها توفّر أرزاقَ القضاة حتى لا تلجئهم مطالبُ الحياة إلى الرشوة فكذلك يجب توفير أرزاق المعلّمين حتى لا تطمحَ نفوسهم إلى هجر التعليم.

أما والله لو استطعتُ لأعطيتُ المعلّم جمّاً، ثم لأوسعت العطاء ذمًّا، حتى تقوى فيه نزعة الكرامة وشرف العلم، والشعور بأن العلم كالعبادة، وكفاؤه الأجرُ من الله لا الأجرةُ من المخلوق، ولكن التمنّي تعلّق بالخيال...

هذا نذير من النذر الأولى لرجالنا القائمين على المدارس، والحاملين معنا للعبء المادي؛ فعليهم أن يقدُروا قدرَه، ويفكّروا في مغزاه، ويتعاونوا على إيجاد موارد جديدة؛ ليتوفّر لنا مالٌ نرفع به مرتبات المعلّمين، ونرفع به أقدار العلم والتعليم.

وإن هذه الأزمة إلى انفراج؛ فليثبتوا لها، وليكسروا حدّتها بالتدبير الذي يفل الحدّة، ويخفّف الشدة.

وإننا قد قرّرنا الزيادة في المرتبات، ولكننا تربّصنا حتى لم يبقَ مصطبر، وانتظرنا حتى يبلغهم هذا الخطاب السافر؛ فإذا تماروا بالنذير، فسنقنعهم بسوء الحال، ووخامة العقبى، وإن ظننا فيهم ـ على ذلك ـ لجميل...

٩ حقوق الجيل الناشئ علينا (١) للشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي

للجيل الآتي علينا حقوق أوّليه مؤكّدة، لا تبرأ ذممنا منها عند الله ولا تسقط شهادة التاريخ علينا بها، إلا إذا أدّيناها لهم كاملةً غير مبخوسة وملاك هذا الحقوق أن نعدّهم للحياة على غير الطريقة التي أعدّنا بها آباؤنا للحياة.

الأخلاق والآداب، والأفكار والإحساسات، والاتجاهات العامة، والمشخّصات هي الأمتعة التي يرثها جيل عن جيل، ومنها يتكوّن مزاجه صحة واعتلالاً؛ فماذا وَرِثْنا عن آبائنا؟ وماذا نورث أبناءنا منها؟

ليس من العقوق أن نقول: إن آباءنا لم يورثونا شيئاً نافعاً من هذه الأمتعة، **وليس من العقوق أن تقول**: إن أباك خلفك فقيراً إذا كان عاش فقيراً ومات فقيراً.

بل من الإنصاف لهم أن نقولَ: إنهم ورثونا هذه الصفقة الخاسرة التي هي رأس مالنا اليوم من أخلاق لاتزنُ جناحَ بعوضة، وآداب لا تستقيم عليها حياة، وأفكار بدائية لا تجول في المدار الواسع من الحياة، وعقول تقدّر فتخطئ، وتدبِّر فتبطئ، وإحساسات مذبذبة، واتجاهات خاطئة مدبّرة؛ وغير ذلك مما تركنا غرباءَ عن عصرنا وأهل عصرنا، وصيّر الحياةَ منا في غير دار إقامة؛ فهل يحسن بنا أن نورث بنينا هذا السقط من الأمتعة بعد شعورنا ويقيننا بعدم كفايتها للحياة؟

يعذر هذا الجيل الذي نحن منه بأنه استلم التركة العامة أدوات معطلةً،

(١) نشرت في العدد ١٤٥ من جريدة (البصائر) ٥ مارس ١٩٥١، انظر آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ٣/٢٧٣-٢٧٦

وأسلحةً مفلولة، وأجهزة باليه من جيل انتهى به زمنه إلى درجة من الإفلاس المادّي والأدبي، صيّرته في غير زمنه.

ولكنه لا يعذر إذا سلّمها ـ كما هي ـ إلى الجيل الآتي، ويقترف جريمة غش لا تغفر إذا حمل أوزاره وأوزار أجيال قبله على الجيل الآتي، بعد أن كشف عررها، وتبين ضررها.

فتح جيلنا هذا عينه في ظلمات مضطرّبة، بعضها فوق بعض تتخللها بروق معشية، ورعود صاخَّة، ثم رجع بصره فإذا ذئاب تتخطف، وصوالجة تتلقّف، وطفيليات أنبتها الدهر في دمنته، ثم رجع البصر كرتين فإذا أمامه مسافاتٌ مما قطع السائرون؛ ثم طلب الحياة، فإذا سبلها وعرة، والصراط إليها أرقّ[1] من الشعرة وما زال هذا الجيل يتعثر في أذيال الماضي، ويتخبط في ظلمائه، ويحمل من أثقاله ما يقعد به كلما رام النهوض وإن أثقل ما يعانيه من تلك الأوزار، اختلافُ الرأي حتى فيما تبينت طريقته، ولجاجُ الفكر حتى فيما ظهرت حقيقته.

حرام علينا أن نرضى للجيل الآتي بما لم نرض به لأنفسنا، وأن نجرّعهم هذا الحنظل الذي تجرّعناه، وأن نلوّث نفوسهم البريئة بهذه القاذورات، وأن نبتليهم بما ابتلانا به آباؤنا من أدواء التفرُّق المهلك، والأنانية الكاذبة، والغرور المدُلي، والتنكر للقريب، والخضوع للغريب.

---

(١) هكذا في الأصل ولعلها: أدق (م).

حرام علينا أن نقلدهم هذه الأسلحة المسمومة؛ فيتفانون كما تفانينا، ويذوق بعضهم بأسَ بعض، ويشقون جميعاً، ويسعد بشقائهم الغير.

حرام علينا أن نسلم إليهم شيئاً من هذه التركة التي يجب أن تنفقَ في جهاز الميت فتدفنَ معه، ويأمن الأحياء شرها، إذ لم ينالوا خيرها.

السبيل القويم الذي يؤدي إلى حفظ الجيل الجديد من هذه الشرور المتوارثة، وإلى توثيق عُرى الأخوة بين أفراده، وإلى توحيد أفكاره ومشاربه واتجاهاته، وإلى تصحيح فهمه للحياة، وتسديد نظرته إليها، وتشديد عزيمته في طلبها ـ هو المدرسة العربية التي تصقل الفكر والعقل واللسان، وتسيطر عليها، وتوجيهُ الجيل الناشئ إلى الإسلام والعرب، وإلى الشرق والروحانية؛ فعلى هذه المدرسة يتوقَّف جزء كبير من ذلك الواجب الثقيل، وعليها يتوقف حظ كبير مما نرجوه لهذا الجيل وبهذه المدرسة نستطيع أن نبرئ ذممنا من حقوق أبنائنا، وأن نكفر عن سيئات اجترحها أجيالنا الماضية.

لا نغالط أنفسنا، فنزعم لها أن هذه اليقظة البادية الآثار، المتفشية في الجيل القديم كافيةٌ في توجيه الجيل الجديد إلى الخير، وفي توحيد ميوله على الخير، أو نزعم لها أن هذا الحظ التافه الذي حصلنا عليه من التعليم الأجنبي يغنينا أو يعيننا في هذا الصدد، أو نزعم لها أن الحالة الحاضرة للمدرسة العربية توصل إلى هذه النتيجة المرغوبة.

فاليقظة موجودة، ولكنها لم تصل ـ بعدُ ـ إلى الصحو الصاحي، وما زالت تغالبها بقايا من النوم الثقيل الطويل؛ والتعليم الأجنبي ـ على تفاهته في الكيف

وقلته في الكم، وعلى اضطرارنا إليه وإقبالنا عليه ـ يسبقه جهل، وتقترن به آفات، وتعقبه مفاسد، وهو ـ على ذلك كله ـ يفتح عيناً؛ ليعمي عيناً، ومن بلغ إلى غايته منَّا أصبح بالطبيعة متنكراً لماضيه ودمه وقومه؛ لأن ذلك التعليم وجده فارغاً؛ فملأه بما يشاء هو، لا بما نشاء نحن.

وأما حالة المدرسة العربية الحاضرة فهي محل الشاهد.

ما هي الغاية من المدرسة العربية الحديثة؟

ما دُمنا من بناة هذه المدرسة، ومن أول الداعين إليها، والقائدين لحركتها، والواضعين لبرامجها، والمشرفين على كل دقيقة وجليلة فيها، والمعرّضين للبلاء في سبيلها ـ ففينا من الجرأة ما يدفعنا إلى الجواب عن هذا السؤال.

الغاية من هذه المدرسة هي تربية هذا الجيل وتعليمه.

وغاية الغايات من التربية هي توحيدُ النشء الجديد في أفكاره ومشاربه، وضبطُ نوازعه المضطربه، وتصحيح نظراته إلى الحياة، ونقله من ذلك المُضْطَرَب الفكري الضيق الذي وضعه فيه مجتمعه، إلى مضطرَب أوسع منه دائرة، وأرحب أفقاً، وأصح أساساً؛ فإذا تمَّ ذلك، وانتهى إلى مداه طمعنا أن تخرِّج لنا المدرسة جيلاً متلائمَ الأذواق، متَّحدَ المشارب، مضبوط النزعات، ينظر إلى الحياة ـ كما هي ـ نظرةً واحدة، ويسعى في طلبها بإرادة متحدة، يعمل لمصلحة الدين والوطن بقوة واحدة، في اتجاه واحد.

غاية التعليم هي تفقيهه في دينه ولغته، وتعريفه بنفسه بمعرفة تاريخه.

تلك الأصول التي جهلها آباؤه فَشَقُوا بجهلها، وأصبحوا غرباء في العالم،

مقطوعين عنه، لم يعرفوا أنفسهم؛ فلم يعرفهم أحد.

فهذه هي الغاية السامية التي في تحقيقها نجهد ونكدح، وللوصول إليها نعمل، وفي العمل لها نلقى الأذى، وفي الأذى فيها نلقى راحة الضمير واطمئنان النفس، وببلوغها ـ إن شاء الله ـ نكون قد أدَّينا الأمانة، وقضينا المناسك، وكفَّرنا عن جريمة التقصير، وفزنا بالعاقبة؛ فحمدنا السرى.

وبماذا يتم تمامُ هذه الغاية؟

لا يتم هذا على وجهه المثمر إلا بتوحيد منهاج التربية، وبرنامج التعليم، ولا يتم توحيد المنهاج والبرنامج إلا بتوحيد الإدارة، ولا يتم توحيد الإدارة إلا بتوحيد الإشراف العام، درجات متلازمة سبقتنا بها الأمم التي بنتْ حياتها على تجربة النافع والأخذ بالأنفع، فقطعت الأشواط البعيدة في الزمن القريب.

وهذه هي المعاني التي دعتنا إلى جمع المدارس العربية تحت إدارة واحدة، وإشراف واحد، وإلى حشر المعلمين تحت لواء واحد؛ لِعِلمنا أن توحيد الغايات لا يأتي إلا بتوحيد الوسائل.

يسوؤنا ـ والله ـ ويسوء الحق، أن تكون الحقيقة في هذه القضية أوضحَ من الشمس، وأن يكون رأينا فيها بعيداً من اللبس، ثم يتمارى بعض الناس فيها فيشاقُّوننا في الرأي والعمل، وتأبى بعض الهيئات إلا أن تنفرد بمدرسة أو بضع مدارس، ويأبى بعض أبنائنا الطلبة أن يكونوا إلا ملوكَ طوائف: إمارة بلا عمارة، وزعامة بلا دعامة، كل ذلك لدواعٍ من الجبن، أو بواعثَ من الحسد أو دوافعَ من الغرور والأنانية، أو كل ذلك مضروباً بعضُه في بعضه، ومن ادَّعى

منهم خلافَ هذا فلا يصدقه الناس؛ لأن قاعدة السبر الأصولي لا تقتضي إلا هذا.

لو رزق الله إخواننا هؤلاء عقولاً تزن الأمور بعواقبها، وإخلاصاً يُذيب الحسد، ويذهب بالأنانية ـ لعلموا أن الخير كل الخير في الاجتماع، وأن القوة كل القوة في الاتحاد، وأن الخروج على الجماعة أهلكَ من قبلنا، وهم في نهاية القوة؛ فكيف لا يهلكنا ونحن في نهاية الضعف؟ وأن الثمرات التي نرجوها من المدرسة للجيل الجديد لا تأتي مع هذا التفرُّق والتشتيت، وأن من يريد الإصلاح فليدخل فيما دخل فيه الناس، وليعالج ـ مخلصاً ـ من الداخل، أما محاولته للإصلاح وهو خارج فليست إلا هدماً وتخريباً؛ وأن الجيل الذي تخرجه هذه المدارس المتغايرة المتنافرة لا يأتي إلا متغايراً متنافراً، لا يزيد شيئاً عن خرِّيجي الزوايا في العهد القديم، لا يجمعهم من الخلال إلا أبلغها في تفريقهم وهو تعصُّب كل تلميذ لزاويته، والحلفُ برأس شيخها؛ وبئس الجيل جيل يكون هذا مبلغه من التربية والعلم، وبئس المربون نحن إن رضينا لهم هذه المنزلة.

ثالثاً: مقالات في الأخلاق والمروءات والسلوك

١٠ـ ثبات الأخلاق : للأديب مصطفى صادق الرافعي

١١ـ سجايا العرب في التراث الإسلامي : للعلامة محب الدين الخطيب

١٢ـ الوفاء في العربي : للأستاذ محمد الطيب النجار

١٣ـ التضحية : للأستاذ أحمد أمين

١٤ـ الحياء : للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

١٥ـ صدق اللهجة : للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

١٦ـ من أخلاقنا : للشيخ علي الطنطاوي

١٧ـ إشاعة السوء وموقف الإسلام منها : للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

١٨ـ البخيل : للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

١٩ـ الآداب العامة : للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

١٠ ثبات الأخلاق[(١)] للأديب مصطفى صادق الرافعي[(٢)]

لو أنني سُئلتُ أن أُجمل فلسفةَ الدينِ الإسلامي كلَّها في لفظين، لقلُت: إنها ثباتُ الأخلاق، ولو سُئلَ أكبرُ فلاسفةِ الدنيا أن يُوجزَ علاجَ الإنسانية كلَّه في حرفين، لما زاد على القول: إنه ثبات الأخلاق، ولو اجتمع كلُّ علماء أوربا ليدرسوا المدنية الأوربية ويحصُرُوا ما يُعْوزُها في كلمتين لقالوا: ثباتُ الأخلاق.

فليس ينتظر العالمُ أنبياءَ ولا فلاسفةَ ولا مصلحين ولا علماء يُبدعون له بِدْعاً جديداً، وإنما هو يترقَّب من يستطيع أن يفسِّر له الإسلام هذا التفسير، ويُثبتُ للدنيا أنَّ كلَّ العبادات الإسلامية هي وسائلُ عمليَّةٌ تمنع الأخلاقَ الإنسانية أن تتبدَّلَ في الحيّ، فيخلعَ، منها ويلبس، إذا تبدَّلتْ أحوالُ الحياة فصعِدتْ بإنسانها أو نزلت، وأن الإسلام يأبى على كلِّ مسلم أن يكون إنسانَ حالتِه التي هو فيها من الثروة أو العلوم، ومن الارتفاع أو الضَّعة، ومن خمولِ المنزلة أو نباهتِها، ويوجبُ على كلِّ مسلم أن يكون إنسانَ الدرجة التي انتهى إليها الكون في سموِّه وكماله، وفي تقلُّبه على منازله بعد أن صُفِّيَ في شريعةٍ بعد شريعة، وتجربة بعد تجربة، وعلم بعد علم.

انتهت المدنيَّةُ إلى تبدُّل الأخلاق بتبدُّلِ أحوال الحياة، فمن كان تقيّاً على الفقر والإملاق وحَرَمه الإعسارُ فنونَ اللذة، ثم أيسرَ من بعدُ ـ جَاْزَ لَهُ أن يكونَ فاجراً

---

(١) وحي القلم ٧٣/٢.

(٢) سبقت في المجموعة الأولى ترجمة له.

على الغِنى وأن يتسمَّحَ لفجوره على مدٍّ ما يتطوَّحُ به المال، وإن أصبح في كلِّ دينار من ماله شقاءُ نفسٍ، إنسانيةٍ، أو فسادُها.

ومن وُلدَ في بطن كوخ، أو على ظهر الطريق وجبَ أن يبقى أرضاً إنسانية، كأن الله ـسبحانهـ لم يَبْنِ من عظامه ولحمِه وأعصابه إلا خَرِبةً آدميةً من غير هندسةٍ ولا نظام ولا فن، ثم يقابله مَن وُلِدَ في القصر أو شِبهِ القصر فله حكم آخر، كأن الله ـ سبحانه ـ قد ركَّبَ من عظمه ودمه وتكوينه آيةً هندسيةً، وأعجوبةَ فنٍّ، وطُرْفةَ تدبير، وشيئاً مع شيء، وطبقةً على طبقة.

ولكن الإسلامَ يقرر ثباتَ الخُلُق، ويُوجبه، ويُنشئ النفسَ عليه، ويجعله في حِياطة المجتمع وحراسته؛ لأنَّ هنالك حدوداً في الإنسانية تتميز بحدود في الحياة، ولابد من الضبط في هذه وهذه، حتى لا يكونَ وضْعٌ إلا وراءَه تقدير، ولا تقديرٌ إلا معه حكمة، ولا حكمةٌ إلا فيها مصلحة، وحتى لا تعلوَ الحياةُ ولا تنزلَ إلا بمثل ما ترى من كفَّتيْ ميزان شدَّتا في عَلاَقَة تجمعهما وتحرِّكهما معاً؛ فهي بذاتها هي التي تنزلُ بالمنازل[1] لتدلَّ عليه، وتَشِيْلُ بالعالي لتبين عنه؛ فالإسلامُ من المدنية هو مدنية هذه المدنية.

إنها لن تتغيَّر مادةُ العظمِ واللحمِ والدمِ في الإنسان، فهي ثابتةٌ مقدَّرةٌ عليه، ولن تتبدَّلَ السُّننُ الإلهيةُ التي تُوجدها وتُفنيها؛ فهي مُصرِّفة لها قاضيةٌ عليها، وبين عمل هذه المادة وعملِ قانونِها فيها تكونُ أسرارُ التكوين، وفي هذه الأسرارِ تجد تاريخَ الإنسانية كلَّه سابحاً في الدم.

---

(١) لعلها: بالنازل (م).

هي الغرائز تعمل في الإنسانية عملَها الإلهي، وهي محدَّدةٌ محكمة على ما يكونُ من تعاديها واختلافِ بينها، وكأنها خُلقتْ بمجموعها لمجموعها، ومن ثَمَّ يكون الخُلق الصحيح في معناه قانوناً إلهيّاً على قوَّةٍ كقوَّةِ الكونِ وضبطٍ كضبطه.

وبهذه القوة وهذا الضبط يستطيع الخُلق أن يحوِّلَ المادة التي تعارضه إذا هو اشتدَّ وصلُب، ولكنَّه يتحوَّلُ معها إذا هو لانَ أو ضعُفَ، فهو قدَرٌ إلا أنه في طاعتك؛ إذ هو قوَّةُ الفَصْل بين إنسانيَّتِك وحيوانيتك، كما أنَّه قوَّةُ المزج بينهما، كما أنه قوة التعديل فيهما، وقد سُوِّغَ القُدرةَ على هذه الأحوالِ جميعاً، ولولا أنَّه بهذه المثابة لعاشَ الإنسانُ طولَ التاريخ قبل التاريخ؛ إذ لن يكونَ له حينئذ كونٌ تؤرِّخُ فضائلُه، أو رذائلُه بمدح أو ذم.

فلا عبرة بمظهر الحياة في الفرد؛ إذ الفردُ مقيَّدٌ في ذاتِ نفسه بمجموع هو للمجموع وليس له وحده؛ فإنَّك ترى الغرائزَ دائبةً في إيجاد هذا الفرد لنوعه بسُنَنٍ من أعمالها، ودائبةً كذلك في إهلاكه في النوع نفسه بسننٍ أخرى، فليس قانونُ الفرد إلا أمراً عارضاً كما ترى، وبهذا يمكن أن يتحولَ الفردُ على أسباب مختلفة، ثم تبقى الأخلاقُ التي بينه وبين المجموع ثابتةً على صورتها.

فالأخلاق على أنها في الأفراد هي في حقيقتها حكمُ المجتمع على أفراده، فقِوامها بالاعتبار الاجتماعي لا غير.

وحينَ يقعُ الفسادُ في المُجْمَعِ عليه من آداب الناس، ويلْتوي ما كان مستقيماً، وتشْتَبِهُ العاليةُ والسافلةُ، وتُطَّرحُ المبالاةُ بالضمير الاجتماعي، ويقومُ وزنُ الحكم في اجتماعهم على القبيح والمنكر، وتجري العبْرة فيما يعتبرونه، بالرذائل

والمحرمات ، ولا يُعجبُ الناسَ إلا ما يُفسدهم ، ويقع ذلك منهم بموقع القانون ، ويَحِلُّ في محل العادة ـ فهناك لا مِساكَ للخُلُق السليم على الفرد ، ولابد من تحوُّلِ الفرد في حقيقته؛ إذ كان لا يجيء أبداً إلا مُتصدِّعاً في كل مظاهره الاجتماعية ، فأينما وقع من أعمال الناس جاء مكسوراً أو مثلوماً ، وكأنه منتقلٌ من عالم إلى عالم ثانٍ بغير نواميس الأول.

وما شذَّ من هذه القاعدة إلا الأنبياءُ ، وأفرادٌ من الحكماء ، فأما أولئك فهم قوةُ التحويل في تاريخ الإنسانية ، لا يُبعثُ أحدهم إلا ليهيجَ به الهيْجُ في التاريخ ، ويتطرَّقُ به الناس إلى سُبُل جديدة كأنما تطردهم إليها العواصفُ والزلازلُ والبراكينُ ، لا شريعتُه ومبادئُه وآدابُه.

وأما الحكماء الناضجون فهم دائماً في هذه الإنسانية أمكنةٌ بشريةٌ مُحصَّنة لحفظ كنوزها ، وإحرازها في أنفسهم ، فلهم في ذاتِ أنفسهم عصمةٌ ومَنَعَة كالجبال في ذات الأرض.

الأخلاقُ في رأيي هي الطريقةُ لتنظيم الشخصية الفردةِ على مقتضى الواجبات العامة ، فالإصلاح فيها إنما يكونُ من عمل هذه الواجبات ، أي من ناحية المجتمع والقائمين على حكمه ، وعندي أن للشعبِ ظاهراً وباطناً ، فباطنُه هو الدينُ الذي يحكم الفرد ، وظاهره هو القانون الذي يحكمُ الجميع ، ولن يصلُحَ للباطن المتصل بالغيب إلا ذلك الحكمُ الدينيُّ المتصلُ بالغيب مثلَه.

ومن هنا تتبيَّن مواضعُ الاحتلال[1] في المدنية الأوربية الجديدة ، فهي في ظاهر

(١) لعلها : الاختلال (م).

الشعب دون باطنه ، والفرد فاسدٌ بها في ذاتِ نفسه إذا هو تحلَّل من الدين ، ولكنَّه مع ذلك يبدو صالحاً منتظماً في ظاهره الاجتماعي بالقوانين وبالآداب العامة التي تفرضها القوانين ، فلا يبرحُ هازئاً من الأخلاق ساخراً بها؛ لأنها غير ثابتة فيه ، ثم لا تكون عنده أخلاقاً يعتدُّ بها إلا إذا درَّتْ بها منافعه ، وإلا فهي ضارَّة إذا كانت منها مضرَّة، وهي مؤلمة إذا حالت دون اللذات ، ولا ينفكُّ هذا الفرد يتحول؛ لأنه مطلقٌ في باطنه غيرُ مقيد إلا بأهوائه ونزعاته ، وكلمتا الفضيلة والرذيلة معدومتان في لغة الأهواء والنزعات؛ إذ الغايةُ المتاعُ واللذةُ والنجاحُ ، وليكن السبب ما هو كائن.

وبهذا فلن تقومَ القوانين في أوربا إذا فَنِيَ المؤمنون بالأديان فيها أو كاثرهم الملحدون ، وهم اليومَ يُبصرون بأعينهم ما فعلت عقليةُ الحرب العظمى في طوائفَ منهم قد خَربتْ أنفسهم من إيمانهم؛ فتحولوا ذلك التحول الذي أومأنا إليه ، فإذا أعصابهم بعد الحرب ما تزال محاربةً مقاتِلة ترمي في كل شيء بروح الدم والأشلاء والقبور والتَّعفن والبِلى ، وانتهت الحربُ بين أمم وأمم ، ولكنها بدأت بين أخلاق وأخلاق.

وقديماً حارب المسلمون ، وفتحوا العالم ، ودوَّخوا الأمم ، فأثبتوا في كل أرضٍ هديَ دينهم ، وقوةَ أخلاقهم الثابتة ، وكان من وراء أنفسهم في الحرب ما هو من ورائها في السلم ، وذلك بثبات باطنهم الذي لا يتحول ، ولا تستخفُّه الحياةُ بِنَزَقِها ، ولا تسفَّهه المدنيَّات؛ فتحمله على الطيش.

ولو كانوا هم أهلَ هذه الحرب الأخيرة بكل ما قذفت به الدنيا ، لبقيتْ لهم

العقلية المؤمنة القوية؛ لأن كل مسلم فإنما هو وعقليته في سلطان باطنه الثابت القارِّ على حدودٍ بيِّنةٍ محصَّلةٍ مقسومةٍ، تحوطها وتُمسكها أعمال الإيمان التي أحكمها الإسلامُ أشدَّ إحكام بفرضها على النفوس منوَّعةً مكرَّرة: كالصلاة والصوم والزكاة؛ ليمنعَ بها تغيراً ويُحدِثَ بها تغيراً آخر، ويجعلَها كالحارسة للإرادة ما تزال تمر بها، وتتعهدها بين الساعة والساعة[1].

إنما الظاهر والباطنُ كالموج والساحل، فإذا جُنَّ الموج فلن يضِيْرُه ما بقي الساحلُ ركيناً هادئاً مشدوداً بأعضاده في طبقات الأرض، أما إذا ماجَ الساحل فذلك أسلوب آخرُ غير أسلوب البحار والأعاصير، ولا جرمَ ألا يكونَ إلا خسْفاً بالأرض والماء وما يتصل بهما.

في الكون أصل لا يتغير ولا يتبدل، هو قانون ضبط القوة، وتصريفها، وتوجيهها على مقتضى الحكمة، ويقابله في الإنسان قانونٌ مثلُه لابد منه لضبط معاني الإنسان، وتصريفها، وتوجيهها على مقتضى الكمال، وكل فروض الدين الإسلاميّ وواجباته وآدابه، إنْ هي إلا حركة هذا القانون في عمله، فما تلك إلا طرقٌ ثابتةٌ لخلْقِ الحسِّ الأدبي، وتثبيته بالتكرار، وإدخاله في ناموسٍ طبيعي بإجرائه في الأنفس مجرى العادة، وجعله بكل ذلك قوةً في باطنها، فتسمَّى الواجباتُ والآدابُ فروضاً دينية، وما هي في الواقع إلا عناصرُ تكوين النفس

(١) فصلنا هذا المعنى في كثير من مقالاتنا: كمقالة (حقيقة المسلم)، و(فلسفة الصوم) وغيرها.

العالية، وتكون أوامرَ وهي حقائق[١].

ومن ذلك أرانا ـ نحن الشرقيين ـ نمتاز على الأوربيين بأننا أقربُ منهم إلى قوانين الكون، ففي أنفسنا ضوابط قويةٌ متينة إذا نحن أقررنا مدنيَّتهم فيها ـ وهي بطبيعتها لا تقبل إلا محاسن هذه المدنية ـ سبقناهم وتركنا غبارَ أقدامنا في وجوههم، وكنَّا الطبقةَ المصفَّاة التي ينشُدُونها في إنسانيتهم الراهنة ولا يجدونها، ونمتاز عنهم من جهة أخرى بأننا لم نُنشئ هذه المدنية، ولم تنشئنا، فليس حقاً علينا أن نأخذ سيئاتها في حسناتها، وحماقتها في حكمتها، وتزويرَها في حقيقتها، وأن نُسيغَ منها الحلوةَ والمرَّة، والناضجةَ والفجَّة، وإنما نحن نحصلها، ونقتبسها، ونرتجعُ منها الرَّجعة الحسنة؛ فلا نأخذ إلا الشيء الصالحَ مكان الشيء قد كان دونه عندنا، وندعُ ما سوى ذلك، ثم لا نأخذ ولا ندَعُ إلا على الأصول الضابطةِ المحكمة في أدياننا وآدابنا، ولسنا مثلهم متصلين من حاضر مدنيتهم بمثل ماضيهم.

بيدَ أن العجبَ الذي ما يفرغُ عجبي منه أن الموسومين منَّا بالتجديد لا يحاولون أولَ وهلةٍ وآخرها إلا هدمَ تلك الضوابط التي هي كلُّ ما نمتاز به، والتي هي كذلك كلُّ ما تحتاج إليه أوربا؛ لضبط مدنيتها، ويسمون ذلك تجديداً، ولَهُوَ بأن يسمى حماقةً وجهلاً أولى وأحق.

---

(١) هذا هو الذي ضل عنه مصطفى كمال ومن شايعوه، ومن قلدوه، ومن انخدعوا فيه، ولو فهمه حق الفهم لجدد تركيا وجدد العالم الإسلامي كله، ولكن الرجل غريب عن هذه المعاني قصير النظر، فما زاد على أن جدد ثوباً وقبعة...!

أقول ولا أبالي: إننا ابتلينا في نهضتنا هذه بقوم من المترجمين قد احترفوا النقلَ من لغاتِ أوربا، ولا عقلَ إلا عقلُ ما ينقلونه، فصَنَعتْهم الترجمةُ من حيثُ يدرون أو لايدرون صنعةَ تقليدٍ محْضٍ ومُتابعةٍ مُستعبَدة، وأصبح عقلهم ـ بحكم العادة والطبيعة ـ إذا فكَّر انجذب إلى ذلك الأصل لا يخرج عليه ولا يتحول عنه، وإذا صحَّ أنَّ أعمالَنا هي التي تعملُنا ـ كما يقول بعض الحكماء ـ فهم بذلك خطرٌ أيُّ خطر على الشعب وقوميَّته وذاتيته وخصائصه، ويُوشكُ إذا هو أطاعهم إلى كل ما يدعون إليه أن... أن يترجموه إلى شعبٍ آخر...

إن أوربا ومدنيتها لا تساوي عندنا شيئاً إلا بمقدار ما تُحقق فينا من اتساع الذاتية بعلومها وفنونها؛ فإنما الذاتيةُ وحدَها هي أساسُ قوتنا في النزاع العالمي بكل مظاهره أيًّما كان، ولها وحدَها، وباعتبارٍ منها دون سواها، نأخذ ما نأخذه من مدنية أوربا، ونُهمل ما نُهمل، ولا يجوز أن نتركَ التثبتَ في هذا، ولا أن نتسامحَ في دقةِ المحاسبةِ عليه.

فالمحافظة على الضوابط الإنسانية القوية التي هي مظاهر الأديان فينا، ثم إدخالُ الواجبات الاجتماعية الحديثة في هذه الضوابط لربطها بالعصر وحضارته، ثم تنسيق مظهر الأمة على مقتضى هذه الواجبات والضوابط، ثم العمل على اتحاد المشاعر، وتمازُجها؛ لتقويم هذا المظهر الشعبيّ في جملته بتقويم أجزائه ـ هذه هي الأركان الأربعةُ التي لا يقوم على غيرها بناءُ الشرق.

والإلحادُ، والنزعاتُ السافلة، وتخانيثُ المدنية الأوربية التي لا عملَ لها إلا أن تُظهِرَ الخطرَ في أجمل أشكاله، ثم الجهل بعلوم القوة الحديثة، وبأصول التدبير

وحياطة الاجتماع وما جرى هذا المجرى، ثم التدليسُ على الأمة بآراء المقلِّدين والزائفين والمستعمرين لمحْقِ الأخلاق الشعبية القوية وما اتصل بذلك، ثم التخاذلُ والشقاقُ وتدابُرُ الطوائف وما كان بسبيلها ـ تلك هي المعاولُ الأربعةُ التي لا يهدمُ غيرُها بناءَ الشرق.

فليكن دائماً شعارُنا نحن الشرقيين هذه الكلمة: أخلاقُنا قبل مدنيَّتِهم.

١١ سجايا العرب في التراث الإسلامي[١] للعلامة محب الدين الخطيب

إنما كانت الفضائل فضائل بالعمل بها لا بالعلم بها، وماذا يفيد العلم بأن الصدق خير إذا لم يعمل به؟ وماذا يفيد التحدث عن فضيلة الإيثارِ وامتداحُها والحضُّ عليها من أعلى المنابر وأفخمها إذا لم تكن هذه الفضيلة مما يتبارى فيه مادحُها والممدوحةُ له؟.

وأقدرُ أمم الأرض على العمل بالفضائل الأمة التي تعمل بها عن سجية متوارثة، لا عن تكلف وتظاهر وتقليد، وقديماً كانت العرب تقول:

ومن يبتدعْ خُلْقاً سوى خُلْق نفسه يَدَعْهُ وترجعْه إليه الرواجع

وإنما استطاع الإسلام أن يثب وثبته الأولى التي لا يزال المؤرخون حائرين في تعليلها، ويعدونها من معجزات التاريخ؛ إذ لم ير التاريخ نظيراً لها فيما تقدمها ولا فيما جاء بعدها ـ لأن الله ـعز وجلـ اختار لحمل رسالة الإسلام أمة يُعدُّ الكثيرُ من فضائل الإسلام في جملة سجاياها المتوارثة، وأخلاقها التي طبعت عليها.

وقد جاء الإسلام لينظم هذه الفضائل، وليركز توجيهها إلى الخير، فيبعث فيها نوراً خالداً، وخيراً باقياً إلى أن تشيع معانيها في الأمم الأخرى؛ فتدخل الإنسانية في طور السعادة التي تنشدها ولا تجدها.

وإنما كانت لا تجدها؛ لأنها لا تريد أن تسلك إليها طريقها الذي لا طريق إلى

(١) مع الرعيل الأول ص٢٦٢ ـ ٢٦٨.

السعادة سواه.

من هذه الفضائل فضيلة الإيثار، وهي فضيلة تتحدث عنها الأمم جميعاً في كتب الأخلاق والفضائل، وتعدها من صفات الإنسانية الممتازة.

ولكنها قَلَّما تستطيع أن تضرب الأمثال العملية والتاريخية على الاتصاف بها إلا في توافه الأمور.

أما في المواقف الجُلَّى، وعندما يتناول الإيثار أفضل ما في الحياة ـ ولو كان الحياة نفسها ـ فقلما نجد التاريخ يتحدث عن ذلك إلا **بلغة العرب، في تاريخ العرب، عن رجال العرب الذين اختارهم الله لحمل أمانة الإسلام**، والتبشير برسالته.

كان فتيان من فتيان بني إياد قد خرجوا من منازلهم في شواطئ نهر سنداد بعد لصاف، وشرْج، وناظرة وراء نجران الكوفة، وعلى رأسهم الفتى كعب ابن سيدهم وأميرهم مامة بن عمرو بن ثعلبة بن سلولة بن شبابة الإيادي.

والظاهر أنهم أوغلوا في البادية؛ فضلوا الطريق، ولم يكن معهم إلا بعض الماء، فلما أشرفوا على الهلاك، نزلوا، فجمعوا ما في أسقيتهم من الماء.

واقتسموه على السوية؛ لئلا يكون مع أحدٍ منهم أقلُّ من الذي مع غيره.

وفيما هم سائرون يلتمسون الطريق شَرِبَ الفتيانُ نصيبهم من الماء، واستبقى رئيسهم كعب بن مامة نصيبه لساعة الشدة.

ولما حانت تلك الساعة العصيبة لقيهم أعرابي من بني النمر بن قاسط، فصحبهم، وكان النمريُّ قد اشتد به الظمأ يومه ذاك؛ فجعل ينظر إلى سقاء الأمير الشاب وفيه تلك البقية من الماء التي تتوقف عليها حياة مَنْ يَتَبَلَّغ بها، فلحظه

كعب، وأدرك أن موقفه من هذا النمري هو الموقف الذي اعتاد العربي أن يشتري فيه فضيلةَ الإيثار ولو بالحياة كلها، حتى لو كانت حياةَ أمير نبيل، وصاحب شرف أثيل؛ لأنه الموقف الذي يبرهن فيه العربي على كريم معدنه وأصالة شرفه؛ فآثر كعب بن مامة ضيفه النمري ببقية الماء التي لم يبق غيرها مع القوم جميعاً في تلك المفازة، ورضيَ لنفسه أن يواجه الموت ظمأً.

ومثل هذه الحادثة الخلقية يرى فيها العربي معنيين من معاني حياته الاجتماعية:

أحدهما: معنى الإيثار الذي ندير الكلام حوله، وهو يكون بين العربي وصاحبه كائناً من كان.

والمعنى الآخر: معنى الضيافة للنازل الطارئ ـ كهذا الرجل النمري الذي لقي الشبان الإياديين في الطريق ولم يكن معهم من قبل ـ.

وإمدادُ الضيف بما يحتاج إليه ـ ولا سيما الغذاءَ والماءَ ـ يعد في دستور العرب حقّاً لا كرماً.

ولما طال الأمر على الإياديين وهم يسيرون في طلب الماء اشتد الظمأ على كعب، وَشعُر بأنه لم تبق معه قوةٌ على السير معهم؛ فجعل أصحابه يعللونه بالأمل، ويقولون له: يا كعب، هذا الماء قريب منا، وسَنَرِدُ عليه عن قليل.

لكنه قد بلغ من الإعياء كل مبلغ؛ فمات عطشاً، فلما وصلوا إلى قصر أبيه على شاطئ سنداد أخبروه بما كان منه، وبإيثاره النمريَّ على نفسه بما بقي معه من الماء، فقال أبوه يرثيه:

أوفى على الماء كعبٌ ثم قيل له: رِدْ كَعْب، إنك ورَّادٌ، فما وردا
ما كان أسقى لنا جود على ظمأ خمراً بماء إذا ناجودها بردا
من ابن مامة كعبٍ ثم عيَّ به زوُّ المنية إلا حرة وقدا

وبعد عشرات من السنين كثيرة مرَّ خليفة الإسلام الأعظم عمر بن عبدالعزيز بن مروان على هذه البقاع التي تداول الحكم والسيادة فيها قبل الإسلام أمراءُ إيادٍ وملوكُ غسان من آل جفنة، والمناذرة من بني لخم بن عدي، فأنشده مولاه مزاحم قول الأسود بن يعفر النهشلي يصفها:

ومن الحوادث لا أبا لك أنني ضُربت عليَّ الأرض بالأسداد
لا أهتدي فيها لمدفع تلعة بين العراق وبين أرض مراد
ماذا أؤمل بعد آل محرق تركوا منازلهم وبعد إياد
أهل الخورنق والسدير وبارق والقصر ذي الشرفات من سنداد
حلوا بأنقرةٍ يسيل عليهم ماء الفرات يجيء من أطواد
أرض تخيَّرها لطيب مقيلها كعبُ بن مامةَ وابنُ أمِّ دؤاد
جرت الرياح على عراص ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد
ولقد غَنَوْا فيها بأفضل عيشة في ظل ملك ثابت الأوتاد
فأرى النعيم وكلَّ ما يَلهى به يوماً يصير إلى بلىً ونفادِ

وعلى ذكر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز نقول: إن العارفين بمعنى الزهد على حقيقته كانوا إذا وصفوا أهله قالوا: ليس الزهد أن يكون المرء فقيراً محروماً فيزعم أنه زاهد، ولكن الزهد أن يملك الرجل أقطار الأرض المعمورة في آسيا

وأفريقية إلى أقصى بلاد أسبانيا والبرتغال من أوربا، ثم يزهد بكل ما تحت يده من نعيمها ومتعتها، كما فعل سيد الأرض وملك الشرق والمغرب عمر ابن عبدالعزيز، ولا يكتفي عظيم الدنيا بهذا بل يسترضي زوجته فاطمة بنت عبدالملك بن مروان وكان أمير المؤمنين، وأخت هشام والوليد وسليمان ويزيد وكانوا كلهم أمراء المؤمنين، فيأخذ منها حليها التي كانت من أثمن ما يتوارثه الملوك، ويردها إلى بيت مال المسلمين؛ إيثاراً منه لإخوانه في الدين على نفسه وزوجه وولده، وزهداً منه في حطام الدنيا وألاعيبها الصبيانية، ويعيش في بيته مع أسرته ـ وهو خليفة الأرض ـ عيشَة الشَّظَف والزهد والقناعة بأقل ما تقوم به الحياة.

وإنما استطاع عمر بن عبدالعزيز بن مروان أن يفعل هذا بفضيلة الإيثار التي آمن بها في جملة ما آمن به من فضائل الإسلام، وكان لهذه الفضيلة في مجرى الدماء من شرايينه ميراثٌ معدودٌ من سجايا العرب؛ فاستطاع ـبما جمع من إيمان دينه إلى سجايا أصلهـ أن يضرب للدنيا مثلاً في الزهد والإيثار قلما يستطيع أن يضربه للناس أحد ممن بلغ مبلغه في سعة الملك وقدرة التصرف بأكثر ما على وجه الأرض من ثروة ومتعة ونعيم، ولذلك قال فيه جرير:

أقول إذا أتينَ على قرورى ... وآل البيد يطَّرد اطِّرادا
عليكم ذا الندى عمر بن ليلى[1] ... جواداً سابقاً ورث الجيادا
إلى الفاروق ينتسب ابن ليلى ... ومروان الذي رفع العمادا

---

(١) ليلى: هي أم عمر بن عبدالعزيز، وهي أم عاصم بنت عاصم بن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

تزوَّدْ مثل زاد أبيك فينا فنعم الزاد زاد أبيك زادا
فما كعب بن مامة وابن سعدى[١] بأجود منك يا عمر الجوادا
وأنت ابن الخضارم[٢] من قريش هم نصروا النبوة والجهادا
وقادوا المؤمنين ولم تعوَّدْ غداة الروع خيلهم القيادا
إذا فاضلت مدك من قريش بحور عمّ زاخرها الثمادا

فأنت ترى أن سجية الإيثار والتضحية بالنفائس سجيةٌ جبل عليها العربي منذ كان ابن الصحاري والأودية والجبال، فتجلت في تصرُّف الأمير كعب ابن مامة الإيادي عندما آثر على نفسه ذلك الأعرابي من بني النمر بن قاسط بالماء، بل بالحياة.

ثم هذَّب الإسلام هذه السجيَّة الممتازة، ونظمها، وركز توجيهها إلى الخير الأعلى؛ فتجلت في تصرف سيد آخر من سادات العرب المتشبعين بالإسلام إلى أقصى مداه، وهو أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم الأموي، فضرب للتاريخ مثلاً لمن يحوز الدنيا بحذافيرها، ويقبض عليها بجميع ما في يد العربي القوي من أعصاب متينة، ويزهد ـ مع ذلك ـ بجميع ما استحوذ عليه من متع الدنيا ونعيمها.

وروى رجال دولته ـ أمثال المهاجر بن يزيد ومحمد بن قيس ـ أن فقراء البيوت

---

(١) ابن سعدى: هو أوس بن حارثة بن لأم الطائي، وهو ممن يضرب به المثل في الإيثار(م).
(٢) الخضارم: جمع خِضْرم، وهو الكبير العطية، الحمول للعظائم(م).

المستورة الذين كانت تصرف لهم الصدقات من بيت مال المسلمين أَثْرَوا[١] في عهده، فصاروا هم يدفعون الزكاة عن أموالهم لبيت المال، وراح المزكون يبحثون عمن يستحق الزكاة؛ ليدفعوا إليه زكاتهم فلا يجدونه.

روى أبو محمد عبدالله بن الحكم المصري ـ ١٥٠ـ٢١٤هـ ـ عن يحيى بن سعيد قال: بعثني عمر بن عبدالعزيز على صدقات إفريقية، فاقتضيتها، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد فقيراً، ولم نجد من يأخذها مني، قد أغنى عمر ابن عبدالعزيز الناس، فاشتريت بها رقاباً، فأعتقتهم، وولاؤهم للمسلمين.

هذا وعمر نفسه ـ وهو أمير المؤمنين ـ لم يكن له في بيته غير الثوب الذي على بدنه، فإذا أراد غسله انتظر حتى يجف، فيعود إلى لبسه، ويخرج به إلى الناس.

وروى معاصرُه سعيدُ بنُ سويد أن رجلاً من القوم لم يطق الصبر على هذا الحال فقال لعمر: يا أمير المؤمنين، إن الله قد أعطاك، فلو لبست وصنعت!...

فنكس عمر رأسه مليًّاً حتى عرفنا أن ذلك قد أساءه، ثم رفع رأسه وقال: «إن أفضل القصد عند الجدة، وأفضل العفو عند القدرة».

وزوجته السَّرِيَّةُ النبيلةُ التي كانت زوجة خليفة، وبنت خليفة، وأخت أربعة من الخلفاء، كانت راضية بعيشة الشظف مع زوجها بطيب نفس وعظيم اطمئنان؛ لأنها هي ـأيضاًـ تنزع بِعِرْقٍ شريف إلى ذلك الأصل العظيم الذي كان الإيثار سجية فيهم زادها الإسلام تهذيباً.

وقد حدّثْتك بأن حُلِيَّها الثمينةَ النادرَة التي جاءت بها من بيت أبيها أمير

---

(١) يعني صاروا أثرياء.

المؤمنين عبد الملك بن مروان جرَّدها أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز من يديها وعنقها وأذنيها برضىً منها، ووضعها في بيت مال المسلمين؛ فلما كان بعد زمن طويل من وفاة زوجها عمر بن عبدالعزيز بن مروان وولاية أخيها الثالث يزيد ابن عبدالملك بن مروان قال لها أخوها الخليفة: إن حُلَيَّك الذي وضعت في بيت المال هي من مالك الحلال، ولا تزال محفوظة بعينها كما كانت، فهل تحبين أن أردها عليك؟

فأجابته: «إن أمير المؤمنين عمر قد استحسن أن تكون هذه الأشياء حيث هي الآن، وأنا قد وافقته على ما استحسن، وما كنت لأطيعه حيًّاً وأعصيه ميتاً».

قالت هذا وهي وأولادها وبناتها أحوج الناس إلى هذه الحلي؛ لأن ما كان يملكه عمر بن عبد العزيز من ضياع وأملاك رده على بيت المال في الأسبوع الأول من خلافته، ومزَّق حجج ملكيته وهو على منبر مسجد بني أمية بدمشق على ملأ من ألوف الأعيان والأمراء ووجهاء الناس.

وأرادت زوجته من بعده أن لا تكون أقل منه إيثاراً وتضحية، فاختارت أن تبقي عنقها وأذناها ويداها عاطلة من تلك الحلي والحلال، ولو كانت أخت الخليفة يزيد بن عبدالملك.

١٢ الوفاء في العربي[1] لفضيلة الأستاذ محمد الطيب حسن النجار

امتازت الأمة العربية من بين سائر الأمم بكثير من الفضائل قلَّما نجد من يتصف بشيء منها في أمة سواها، خصوصاً في هذا العصر الذي قام فيه معظم الناس على قدم وساق يحاربون الفضيلة، ويعملون على إزهاقها، ويسعون إلى إفناء معالمها وتعاليمها حتى تدهورت الأخلاق، وانحطت الآداب، وانتشر الفسق والفجور بين الناس، وانصرف المسلمون عن دينهم القويم الحنيف، وعن اتباع آدابه إلى تلك التُّرَّهات الكاذبة، والخزعبلات المزرية التي تتنافى مع أوامر الدين، ولا تتمشى مع ما جاء فيه، والتي يأباها العقل الصحيح، وتنفر منها النفوس العالية الكبيرة.

وأجل ما اختصت به الأمة العربية من الفضائل الوفاء الخلةُ الشريفة التي لم تجد جوًّاً صالحاً لخروجها، ولا مناخاً ملائماً لها غير تلك الصحراء المقفرة المجدبة، فنبتت بين الرمال، وغذَّاها العربي بدمه وماله حتى نمت، وترعرعت، وأرسلت عليهم ظلَّها الوارف الظليل.

وليس في هذا ما يدعو إلى الشدة أو يثير التعجب والاستغراب؛ فالعربي الذي يقضي جُلَّ أوقاته وحياته بين سفر وانتقال، وبين ظعن وترحال، والذي كثيراً ما تُعْوِزه الظروفُ، وتلجئه الضرورة إلى أن يتخذ طريقه وسط تلك الصحراء في جوف الليل البهيم وحيداً لا يأنس لمخلوق سوى ناقته، ولا يأنس إليه مخلوق

---

(١) مجلة الهداية الإسلامية، الجزء الثاني، المجلد السابع، ص ١٠٣ـ ١٠٧، شعبان ١٣٥٣هـ.

سوى ناقته، هذا العربي بلا شك أحوج الناس إلى رجل وفيٍّ ينصره وقت الشدة، ويعينه إذا حَزَب الأمر، ويستجيب لدعائه حينما يستصرخه، ويلجأ إليه.

والعرب الذين لم تكن لهم قدم راسخة في المدنية، ولم يكن لهم حتى بعثة النبي ﷺ دستور يكفل لهم النظام، ويبين لهم الحلال من الحرام ـ هم بلا شك أحوج الناس إلى أن يسود الوفاء بينهم، وينتشر لواؤه عليهم.

ولولا أن الله يسر هذا الخلق لتعطلت المتاجر، ووقف دولاب العمل، وتغلَّب القويُّ على الضعيف، وكثر العداء والجفاء، واشتعلت نيران الثورات والحروب؛ فما هي إلا أيام أو أعوام حتى تنقرض الأمة، وتخرب البلاد؛ فالوفاء هو الحجر الأساسي في بناء مستقبلهم، والمحور الوطيد الذي تدور عليه رحا عزِّهم وسعادتهم؛ لذلك كان العرب يَقْدُرون تلك الصفة حقَّ قدرها، ويرفعون مِنْ شَأْنِ مَنْ يشتهر بها، حتى كانوا يضربون بهم الأمثال، ويلهجون بذكرهم في الأندية والمجتمعات، ويترنمون بمدحهم والثناء عليهم في كل وقت وحين.

بل كانوا يترسمون طريقهم، ويدأبون في سبيلهم، وينقادون لأوامرهم انقياد العبد للسيد، والمرؤوس للرئيس.

وممن اشتهر بينهم بالوفاء السموأل بن عادياء، وكان من وفائه أن امرأ القيس ابن حجر لما أراد الخروج إلى قيصر استودع السموأل دروعاً له، فلما مات امرؤ القيس غزاه ملك من ملوك الشام، فتحرز منه السموأل؛ فأخذ الملك ابناً له خارج الحصن، وصاح يا سموأل هذا ابنك في يدي وقد علمت أن امرأ القيس ابن عمي، وأنا أحق بميراثه، فإن دفعت إليَّ الدروع وإلا ذبحت ابنك.

فقال السموأل: أَجِّلْني، فأجله، فجمع أهل بيته فشاورهم، فكلهم أشاروا بدفع الدروع وأن يستنقذ ابنه، فلما أصبح أشرف عليه، وقال: ليس لي إلى دفع الدروع سبيل، فاصنع ما أنت صانع!

فذبح الملك ابنه وهو ينظر إليه وكان يهوديًّا، وانصرف الملك، ووافى السموأل بالدروع الموسم، فدفعها إلى ورثة امرئ القيس، وقال في ذلك:

وفيت بأدرع الكنديِّ أني ... إذا ما خان أقوام وفيت
وقالوا عنده كنز رهيب ... فلا وأبيك أغدر ما مشيت
بنى لي عادياً حصناً حصيناً ... وبئراً كلما شئت استقيت

فانظر كيف فرط، وتهاون في فلذة كبده، ومهجة قلبه، وتركه لذلك الملك الجائر الجبَّار حتى فجعه فيه، وذبحه أمامه، ولم يفرط أو يتهاون في هذه الدروع.!!

فلا عجب إذ طار صيته في كل فجٍّ وحدب، ولا عجب إذ كانوا يضربون به المثل فيقولون: أوفى من السموأل بن عادياء، وفي ذلك يقول الأعشى:

كن كالسموأل إذ طاف الهمام به ... في جحفل كسواد الليل جرَّار
بالأبلق الفرد من تيماء منزله ... حصن حصين وجار غير غدَّار
خَيَّرهُ خطتي خسفٍ فقال له ... مهما تَقولَنْ فإني سامع حار
فقال ثكل وغدر أنت بينهما ... فاختر فما فيهما حظ لمختار
فشك غير طويل ثم قال له ... اقتل أسيرك إني مانع جاري

ومنهم الطائي صاحب النعمان بن المنذر، وكان من وفائه أن النعمان ركب في

يوم بؤسه ـ وكان له يومان يوم بؤس ويوم نعيم لم يلقه أحد في يوم بؤسه إلا قتله، ولا في يوم نعيمه إلا استبقى حياته وحباه وأعطاه ـ فاستقبله في يوم بؤسه أعرابي من طيء فقال: حيا الله الملك إن لي صبية صغاراً لم أوص بهم أحداً فإن رأى الملك أن يأذن لي في إتيانهم، وأعطيه عهد الله أن أرجع إليه إذا أوصيت بهم حتى أضع يدي في يده، فرقَّ له النعمان، وقال له: لا إلا أن يضمنك رجل ممن معنا فإن لم تأت قتلناه، وكان مع النعمان شريك بن عمرو بن شراحيل فنظر إليه الطائي، وقال:

يا شريك بن عمرو	هل من الموت محاله
يا أخا كل مضاف	يا أخا من لا أخا له
يا أخا النعمان فكَّ اليـ	ـوم عن شيخ غلاله
ابن شيبان قبيل	أصلح الله فعاله

فقال شريك: هو عليَّ أصلح الله الملك؛ فمضى الطائي وأجَّلَ له أجلاً يأتي فيه.

فلما كان ذلك اليوم أحضر النعمان شريكاً، وجعل يقول له: إن صدر هذا اليوم قد ولَّى.

وشريك يقول: ليس لك عليَّ سبيل حتى نمسي، فلما أمسوا أقبل شخص والنعمان ينظر إلى شريك، فقال شريك: ليس لك عليَّ سبيل حتى يدنو الشخص، فلعله صاحبي، فبينما هما كذلك إذ أقبل الطائي، فقال النعمان: والله ما رأيت أكرم منكما، وما أدري أيكما أكرم أهذا الذي ضمنك وهو الموت

أم أنت وقد رجعت إلى القتل؟! والله لا أكون ألأم الثلاثة ثم أطلقه وأمر برفع يوم بؤسه.

وأنشد الطائي:

ولقد دعتني للخلاف عشيرتي فأبيت عند تجهم الأقوال
إني امرؤ مني الوفاء سجية وفعال كل مهذَّب مبذال

قال النعمان: ما حملك على الوفاء؟ قال: ديني، قال: وما دينك؟ قال: النصرانية، قال: اعرضها عليَّ، فعرضها عليه؛ فتنصر النعمان.

وقد افتخر النعمان بن المنذر بالعرب أمام كسرى ملك الفرس، وميزهم على غيرهم من الأمم، وامتدحهم بكثير من الفضائل وكان منها الوفاء، فقال: وأما وفاؤها فإن أحدهم يلحظ اللحظة، ويومئ الإيماءة فهي وَلْتٌ[1] وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه، وإن أحدهم يرفع عوداً من الأرض فيكون رهناً بدينه فلا يغلق[2] رهنه، ولا تخفر ذمته، وإن أحدهم ليبلغه أن رجلاً استجار به وعسى أن يكون نائياً عن داره فيصاب، فلا يرضى حتى يفني تلك القبيلة التي أصابته، أو تفنى قبيلته لما أخفر من جواره، وإنه ليلجأ إليهم المجرم المُحْدِث من غير معرفة ولا قرابة، فتكون أنفسهم دون نفسه، وأموالهم دون ماله..!!

والحق أن النعمان لم يكن مغالياً في كلامه، ولم يصف العرب بشيء ليس فيهم؛ فقد روي عن حاتم الطائي أنه خرج في الشهر الحرام في حاجة له فلما كان

---

(١) عهد.

(٢) غَلَقَ الرهن: استحقه المرتهن، وذلك إذا لم يفتك في الوقت المشروط.

بأرض (عنزة) استجار به أسير وناداه يا أبا سفانة أهلكني الأسار، فقال: ويلك قد ظلمتني بتنويهك باسمي في غير بلاد قومي، ثم اشتراه من بني عنزة، وأقام في القيد مكان الأسير حتى فدى نفسه فأطلقوه.

وتلك لعمري مكرمة يتضاءل دونها كل مدح وثناء؛ فأين من هذه النفوس نفوس تفرُّ من المكارم، وتنفر من الفضائل والمحامد، بل تعمل على محاربتها، وتسعى في تقويض دعائمها؟.

وأين من أولئك الأقوام أناس يتظاهرون لغيرهم بالحب والوفاء، ويغرونهم بابتسامات صفراء ومجاملات زائفة، يخفون بها دخيلتهم وما تنطوي عليه نفوسهم، ويتخذون من ذلك ستاراً يعملون من ورائه على الكيد لهم حتى إذا ما حانت لهم الفرصة، وأمكنتهم المقادير أعملوا فيهم سيوف غدرهم، ومعاول خيانتهم لا يرقبون في ذلك إلاًّ ولا ذمة، ولا يرعون حرمة لعهد أو ميثاق..؟!

١٣ التضحية(١) للأستاذ أحمد أمين

لعل من أهم الفروق بين أمة راقية، وأمة غير راقية، أنَّ أفراد الأولى يشيع بينهم العمل لأنفسهم ولغيرهم، وأنَّ أفراد الثانية لا يعملون إلاَّ لأنفسهم.

هاهو الجو حولنا مشبع بالأنانية إلى أقصى حد، هذا موظف كل همه أن يرضى رؤساه في الحدود الضيقة؛ لينال درجة، ولا يهمه بعد ذلك قُضِيَت مصالح الناس أو لم تقض، وهذا موظف آخر لم يُمْنح من المرتب ما يشتهي؛ فهو يضن بمقدرته وكفايته على الناس، وكل ما يعمل أن يؤدي الأعمال الآلية التي تنجيه من العقوبة ومن التبعية القانونية، فهو يحضر في الميعاد، وينصرف في الميعاد، ثم لا روح في عمله، ولا شعور بواجبه.

وهذا غني لا ينظر في تصرفاته إلاَّ إلى شخصه مهما شقي الناس من حوله.

وهذا مزارع من كبار المزارعين لا ينظر في مشروع القطن والقمح إلاَّ بمقدار ما يحتمل أن يدخل جيوبه من مال، مهما جاعت الأمة، وعَدِمَت القوت.

وهذا ثري ذو جاه يستعمل جاهه ونفوذه في الهرب من ضريبة واجبة عليه، أو يتحايل في تخفيضها إلى أقصى حد ممكن؛ فتكون النتيجة أن يدفع الضريبة كاملة غير القادر، ويهرب منها، أو ينقص منها القادر .

وهذه هي الروح الشائعة التي نراها في البيت، وفي الشارع وفي المصلحة، وفي البيع والشراء، والأخذ والعطاء، أنانية مسرفة، في حدود ضيقة، لا ينظر منها

---

(١) فيض الخاطر ٣/ ٢٣٢ ـ ٢٣٦.

الإنسان إلى نفسه، وإلى نفسه فقط، يدور في خلده أن ينهب من اللذائذ ما استطاع قبل فوات الوقت، ويهرب من الواجبات ما استطاع مع المحافظة على الشكل، حتى لا يقع في يد القانون، يردد قول أبي فراس: إذا مت ظمأناً فلا نزل القطر.

ويهزأ ببيت أبي العلاء:

فلا هطلت علي ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا

وبقول البارودي:

أدعو إلى الدار بالسقيا وبي ظمأ أحق بالري لكني أخو الكرم

ليس مظهر التضحية مقصوراً على الجنود في مواقف القتال؛ فليس هذا إلا مثلاً عالياً من أمثلة التضحية، ولكن هناك أمثلتها العديدة في الحياة اليومية لكل فرد؛ فالذي يتنازل عن لذته الفردية الضيقة؛ للمصلحة العامة الواسعة يكون مُضَحِيًّاً على قدر ما بذل، والموظف ينال شيئاً من العناء؛ لراحة الجمهور مُضَحٍّ، والمدرس يبذل أقصى جهده في إعداد درسه وإيصاله إلى طلبته مُضحٍّ، والغني يتنازل عن بعض لذائذه لخير الناس مُضحٍّ، والمزارع يرعى حال فلاحيه مُضحٍّ، وهكذا.

وعلى قدر انتشار هذه الروح في الأمة يكون مقدار رُقِيِّها ونجاحها، ولا تفلح أمة يبحث أفرادها عن لذائذهم الشخصية فقط، مهما حسن تشريعها وصلح قادتها، فَشرِّع ما شئت لتنظيم التموين فلن ينجح، ما دام كل فرد لا ينظر إلا إلى شخصه، وشَرِّع ما شئت لتنظيم الضرائب فلن ينجح مع محاولة الأفراد الهرب منها، وشَرِّع ما شئت لإصلاح الفلاحين فسيظلون كما هم، مادام التشريع لا

يلقى مجاوبة من نفوس القادرين.

لقد أضاع علماء النفس المحدثون جمال التضحية بما أفرطوا من تحليل، وما أرجعوا من أعمال نبيلة إلى غرائز وضيعة، وما وصلوا إليه من أنَّ مظاهر إنكار الذات تعود في آخر الأمر إلى حب الذات، فقالوا ـ مثلاً ـ: إن السياسي الكبير الذي يدل مظهره على أنه يؤدي واجبه، ويخدم أمته، ويتحمل أشق الأعباء في سبيل مَجْدِها ورُقِيِّها ونُهوضها لو حللت البواعث التي دفعته إلى عمله وسلوكه هذه السبيل لوجدتها ترجع في النهاية إلى غريزة حب الذات، وشعوره الكمين بأهمية ذاته وعظم شخصه، والواعظ الذي يعظ الناس ويذكرهم بالدين، ويخلص في سبيله، ويتحمل أشد العذاب في سبيل تحقيق دعوته وانتشار عقيدته إنما نصل إلى النهاية عند تحليل نفسه إلى حبه إظهار شخصه، وتمجيد ذاته، والتفات الناس إليه، واتجاههم نحوه، والزاهد الذي فَرَّ من الحياة ولذاتها، واعتكف في الأديار أو التكايا أو نحوها، وتجرد من الدنيا وشؤونها لم يكن في الحقيقة عند التأمل العميق في بواعثه إلا ناظراً لنفسه، هارباً من تبعات الحياة وتكاليفها، والطبيب الذي يعنى بمرضاه ولا يعنى بنفسه، ويتعرض للأخطار أيام الوباء؛ إنقاذاً للناس، ولو كان في ذلك حتفه قالوا: إنما يبحث وراء حسن سمعته وذيوع شهرته، والعالم الذي يقضي أوقاته في معمله أو في مكتبه باحثاً وراء حقيقة يكتشفها، أو نظرية يعثر عليها، أو اكتشاف يخدم به الإنسانية دواءاً لمرض، أو إمتاعاً للناس في ناحية من نواحي حياتهم ليس ـ في نظرهم ـ إلا مجيباً لما رُكِّب في طبيعته من حب الاستطلاعِ، والمصلحُ الذي يكدح ليله ونهاره في

سبيل خدمة قومه وإصلاح عيوبهم، ومعالجة ما أصيبوا به من مرض اجتماعي، ليس يرجع ذلك ـ في رأيهم ـ إلاَّ إلى حب الظهور، وإشباع رغبته في إعظامِ نفسه، والدويِّ حول شخصه.

بل أكثر من ذلك وأعنف، قالوا: إن الممرضة التي تهب نفسها لخدمة المرضى، وتعمل جهدها في الرحمة بهم، وتلطيف عذابهم، وتضميد جراحهم، وتجد من نفسها السعادة في تفريج كربهم وتخفيف لآلامهم ـ ليست في الحقيقة مدفوعة إلى ذلك إلاَّ لداعي ما ركب في غريزتها من الاستطلاع الجنسي، قالوا: وإنما اختارت هذا الضرب من الإحسان؛ لأنه محفوف بما يغذي نفسها من مظاهر الإعجاب والمدح والثناء، والظهور بمظهر من يفني ذاته في نفع الناس، ويضحي بخيره لخير الناس.

وهكذا رجعوا كل البواعث النبيلة، ومظاهر التضحية الجميلة للغرائز الوضعية المتأصلة في النفس، وللبواعث الذاتية المتأصلة في الإنسان منذ ظهوره على وجه الأرض.

وقالوا: وما ذنبنا أن وجدنا الإنسان هكذا خلق، وعلى هذا طبع، وهو هو من بدايته إلى نهايته؟

ولكن أحق هذا؟ أيستطيعون أن يستمروا في تفسيرهم لكل أنواع التضحية من شخص لا يؤمن بدين، وهو ـ مع هذا ـ يرمي بنفسه في ميدان القتال دفاعاً عن أمته، وأمٍّ تُضَحِي براحتها ولذتها لابنها من غير أن تنتظر مثوبةً أو جزاءاً، ونحو ذلك من أمثلة لا تعد؟.

وهَبْ ذلك كله صحيحاً، فهل ذهب جمال التضحية، وقيمة التضحية؟.

لتكن كل هذه الأعمال النبيلة ناشئة عن غرائز شخصية وبواعث ذاتية؛ فهذه الغرائز في الحقيقة والواقع قد تتجه إلى أعمال خسيسة، فنكرهها ونشمئز منها، وهي هي قد تتجه إلى أعمال تنفع الناس؛ فنعجب بها، ونمجدها.

إن حُبَّ الذات قد يدفع الشخص إلى أنْ يقتل استيلاءاً على مال القتيل، وقد يدفعه إلى أن يقتل دفاعاً عن أمته أو دفاعاً عن عرض فتاة، ومحب الظهور قد يغذي غريزته بتضليل الناس، وخلق المؤامرات، وتدبير الدسائس حتى يُعْتَرَف له بالمقدرة، وقد يغذي غريزته بالإحسان الكثير والإصلاح الكبير، والمرأة قد تدفعها غريزتها الجنسية إلى الاستهتار، وقد تدفعها الغريزة نفسها إلى التمريض؛ فالغريزة في كل هذه الحالات واحدة، ثم قد يصدر عنها الخير، وقد يصدر عنها الشر؛ فالعبرة بالنتائج لا بالتحليل إلى العناصر الأولية.

وخَطَأُ علماء النفس هؤلاء ـ إن كان ما يقولون صحيحاً ـ أنهم أفرطوا في التحليل، ولم ينظروا في التركيب، بالغوا في المقدمات، وأعرضوا عن النتائج.

لتكن كل الأعمال ناتجة عن حب الذات، فلا تزال هناك أعمال نبيلة وأعمال خسيسة، ولا يزال هناك من الأعمال ما يصح أن يسمى «أثرة» وأنانية، وما يصح أن يسمى إيثاراً وتضحية، وكل الفرق فرق في التعريف لا في المعرف، وفي العَرَض لا في الجوهر، فعلى قولهم تكون التضحية أن يجد المرء لذته الشخصية فيما يعود على الناس بالنفع، وعلى قول الآخرين هي أن يبعثه على عمله نفع الناس وخيرهم.

ولا عبرة بالمقدمات إذا تساوت النتائج، وليس يهمنا أن يكون الباعث له على إتيان الخير لذاتهِ الشخصيةَ، أو رغبتَه في الصالح العام مادام العمل ينتج هذا الخير.

ولا يزال الناس بعد هذا البحث السيكولوجي منقسمين إلى قسمين: قسمٍ لا ينظر إلا إلى شخصه في حدوده الضيقة، وقسم ينظر إلى شخصه في حدوده الواسعة.

قسمٍ ينظر إلى ذاته كالحيوان، وقسمٍ ينظر إلى ذاته كفرد في أمة، وعضو في جسم، وفرع في شجرة، يوفق بين نفعه ونفع أمته، ونفعه ونفع شجرته، قسم بلغ به ضيق النظر أن يجد لذته في حرمان الناس، وسعادته في شقاء الناس، أو هو ـ على الأقل ـ لا يهتم بالناس، وقسمٍ قد بلغ من سعة نظره أن يجد لذته في لذة الناس، وسعادته في سعادتهم، وخيره في خيرهم، وهذا غاية الرقي.

وخير الناس من استطاع أن يوفق بين غرائزه وخير الناس، فإذا كان محباً للظهور فليظهر بما ينفع أمته، وإذا كان محباً للاستطلاع فلا يستطلع أخبار الناس وعيوبهم وخفاياهم، وإنما يستطلع حقيقة مجهولة في العلم أو قانوناً مجهولاً في الطبيعة؛ ومن كان طبعه الخوف فليخف من شر يلحق الناس، وأذى ينالهم، ولا يخف من أوهام من خَلْقِه، وعفاريت من خياله، وهكذا...

مهما قيل فالتضحية أنبل ما وصل إليه الإنسان، منظرها أجمل منظر وأروعه، ولا شيء يكسب الأمة قوة كما تكسبها التضحية؛ فالأمة المضحية تأكل غير المضحية في سهولة ويسر؛ لأن الأمة المضحية كتلة متماسكة، ووحدة واحدة، والأمة غير المضحية أفراد متفككة، وشهوات متعددة، تتحارب أجزاؤها، ويأكل

النزاع والشهوات والأنانية قواها؛ فالأسرة التي يعمل فيها كل فرد لشخصه أسرة ميتة، والمصنع الذي يعمل فيه كل فرد لمصلحته الخاصة لا يبقى شهراً، والحزب الذي ينظر فيه كل عضو إلى نفسه فقط حزب مصطنع لا حول له ولا قوة، والأمة التي يحسب فيها كل فرد حساب لذته الخاصة هي أفراد لا أمة.

في الأمة التي تسودها التضحية كل أفرادها أقرباء، وفي الأمة التي تسودها الأنانية كل أفرادها غرباء.

لا تكون التضحية حتى يتعود القلب لذة العطاء كما يتعود لذة الأخذ، ولذة أن الناس يجدون ويسعدون، كما يتعود أن يتلذذ من أن يجد ويسعد.

التضحية إرادة القوي، ليقوى، وإرادة الضعيف، ليتخلى عن ضعفه، هي حجر المِسَنّ تشحذ عليه الإرادة؛ لتقطع الصعاب وتجتاز العقاب.

التضحية أشرف الطرق تسير فيه الأمة لتحقيق ذاتيتها، وأنبل السبل تسير فيه الإنسانية؛ لتبلغ غايتها، وبدونها يصبح الإنسان حجراً لا روح فيه، أو بهيماً يعيش؛ ليأكل.

التضحية أفق واسع تنعم فيه النفس بجمال السعة، وبعد المدى، وجلال اللانهاية.

والأنانية أفق ضيق تألم فيه النفس بضيق المكان، وتنقبض فيه من كثرة السدود والحدود.

في التضحية حرارة وإيمان يسعد، وفي الأنانية جمود بارد وإلحاد مقبض.

في التضحية حياة كلية شاملة وفناء النفس فيما حولها ومن حولها، وفي الأنانية حياة جزئية محصورة، ودوران النفس حول ذاتها في خمود وركود.

في التضحية كرم وسماحة، وفي الأنانية شح وكزازة ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الحشر: ٩ .

(١٣) الحياء[1] للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

هذا الخلق إذا غرز في النفس ونمت عروقه فيها ازداد رونقها صفاء، ونفض على ظاهر صاحبها مآثر خيرات حسان، يعبر عنها عشاق الفضائل بصيغة الإنسانية.

وإذا انتزع من شخص فَقَدَ المروءةَ، وثكل الديانةَ التي هي الجناح المبلّغ لكل كمال.

والدليل على ما نقوله أن الحياء عبارة عن انقباض النفس عما تذم عليه، وثمرته ارتداعها عما تنزع إليه الشهوة من القبائح، فإذا تمزق ستر هذه الفضيلة بغلبة الشهوة على النفس اختلت هيئة الإنسانية بالضرورة، وبقي صاحبها سائماً في مراتع البغي والفسوق، وبئس الاسم الفسوق بعد الإيمان.

ويرشدنا إلى هذا قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لكل دين خلق وخلق الإسلام الحياء» رواه مالك في الموطأ.

وفي الصحيح ـ أيضاً ـ أن رسول الله ﷺ مرّ على رجل وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال رسول الله ﷺ: «دعه فإن الحياء من الإيمان».

قال العلماء: وإنما صار الحياء من الإيمان المكتسب وهو جبلّة لما يفيد من الكف عما لا يحسن فعبر عنه بفائدته.

وأعجب ما عثرنا عليه في كتب الأخلاق أن الحياء مركب من جبن وعفة،

---

(١) السعادة العظمى ـ عدد٣ ـ غرة صفر ١٣٢٢ المجلد الأول ص٤٩ـ٥٠.

ولذلك لا يكون المستحيي فاسقاً ولا الفاسق مستحيياً ، وقلما يكون الشجاع مستحيياً والمستحيي شجاعاً؛ لتنافي اجتماع الجبن والشجاعة. اهـ.

أما قوله : «لا يكون المستحيي فاسقاً ولا الفاسق مستحيياً» فَمُسَلَّمٌ؛ لأن الحياء متفرع عن العفة.

وأما قوله : «وقلما يكون الشجاع مستحيياً الخ» فباطل؛ لأنه يؤدي إلى تنافي الكمالات ، وما سمعنا بهذا من قبل ولا نسمعه من بعد ، ويدعو إلى إماطة برقع الحياء؛ حيث كان فيه نوع مباينة للشجاعة التي هي أعز ما يتعاظم بها الرجال.

وكلمة الحق التي نقولها : أن الحياء من متممات الشجاعة ولا تستقيم بدونه ، **ثم إن الحياء وسط بين رذيلتين إحداهما الوقاحة ، والأخرى الخجل** ، ويقال لها الخُرْق ، أما الوقاحة فمذمومة بكل لسان بالنسبة لكل إنسان ، وحقيقتها لجاج النفس في تعاطي القبيح :

صَلابَةُ الوَجْه لم تغلِبْ على أحدٍ   إلا تكامَلَ فيه الشرُّ واجتَمَعا

وأما الخرق وهو الدهشة من شدة الحياء فيذم به الرجل اتفاقاً لا سيما في المواطن التي تقتضي حدة وإقداماً ، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والحكم بالحق ، والقيام به ، وأداء الشهادات على وجهها.

ثم إن الحياء ولو كان جبلياً قد يزيد بالكسب بواسطة مطالعة أخلاق الكمل ، وهي إحدى فوائد علم التاريخ ، أو كثرة الحضور بمجالسهم.

وقد يتولد الحياء من الله ـ تعالى ـ من التقلب في نعمه؛ فإذا شعر العاقل بذلك استحيى أن يستعين بها على معصيته ، ولا ينشأ ذلك الشعور إلا عن عظم في النفس وسعة في العقل.

١٥ صدق اللهجة[1] للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

في كل خصلة فاضلة شرف وخير، ولكل خصلة فاضلة أثر في سعادة الجماعة، وقد تتفاوت هذه الخصال بكثرة الحاجة إليها.

ومن الخصال التي تكثر مواضيع الاحتياج إليها صدق اللهجة؛ فلا غنى للجماعة عن أن يكون فيها صدق وحلم.

والأحوال التي يحتاج فيها إلى الصدق أكثر من الأحوال التي يحتاج فيها إلى الحلم، ونحن لا نشعر بالحاجه إلى شجاعة السيدات والأطفال، وكل منا يشعر بالحاجة إلى صدق الطفل الآخذ في التردد على المدرسة، وصدق الصانع في مصنعه والأمير على كرسيه.

فالكلمة التي نلقيها في هذه الليلة إنما نصف بها فضيلةً شأنها رفيع، وأثرها في الاجتماع كبير، وهي صدق اللهجة.

ولا تثريب علينا إذا تناولنا في أثناء بحث هذه الفضيلة نبذة من الحديث عن ضدها وهو الكذب؛ فإن حقائق الفضائل تتجلى بمعرفة أضدادها.

ما هو الصدق؟

الصدق في لغة العرب: إلقاء الكلام على وجه يطابق الواقع والاعتقاد.

ومقتضى هذا الشرح أن الكلام الذي يخالف الواقع والاعتقاد معاً أو يخالف أحدهما لا يدخل في حقيقة الصدق، بل يندرج تحت اسم الكذبِ، والكذبُ ذو

---

(1) رسائل الإصلاح ٢/ ٩٥ـ١٠٥ .

ضروب وألوان.

للصدق صورة واحدة: وهى أن تصوغ القول على نحو ما تعتقد، ويكون اعتقادك مطابقاً للواقع، كأن تقول وأنت الناصح الغيور: سلطة العدو أَمرُّ من الصبر، وأشدُّ مضاضة من وقع الحسام.

وللكذب ثلاث صور: (إحداها) ما يخالف الواقع والاعتقاد: كمن يتملق فاسقاً أو باغياً؛ فيصفه بالاستقامة، وهو على بينة من سيرته المغضوب عليها

(ثانيتها) ما يخالف الاعتقاد ويطابق الواقع: كالزائغ المنافق ينطق على نحو مما ينطق به أولو الحكمة والهداية.

(ثالثها) ما يخالف الواقع ويطابق الاعتقاد: كالغبي يعتقد بعض صلاح الفجار، فيصفه بالولاية أو التقوى.

هذه صورة الكذب في مجاري كلام العرب، وقد رأيتموها ممثلة في المتملق، والمنافق، والغبي.

والذي يرجع عيبُه إلى الأخلاق العملية من هذه الصور ما جاء الحديث فيه مخالفاً للاعتقاد، وسواء بعد هذه أخالف الواقع ـ أيضاًـ وهي الصورة الأولى أم كان مطابقاً للواقع وهي الصورة الثانية.

وبيان هذا أن الباحث في الأخلاق العملية يوجه عنايته إلى نفس المتكلم حين إلقائه الحديث، وينظر إلى اعتقاده وما بينه وبين الحديث من مطابقة أو مخالفة، فإن وجد الرجل يسوق الحديث على غير ما يعتقد وضع عليه اسم الكذب وعده في حملة هذه الرذيلة الساقطة ولو اتفق لحديثه أن كان مطابقاً للواقع.

وإن وجده يتلقى الحديث على نحو ما يعتقد لا يعده في أصحاب رذيلة الكذب، وإن لم يجئ حديثه موافقاً للواقع.

وهذا الذي تَحَدَّث عن اعتقاده، وجاء حديثه مخالفاً للواقع لا يرميه الباحثون في الأخلاق بِسُبَّة الكذب، وقد يؤاخذ من جهة أخرى، وهي انقياده إلى الظنون الواهيةِ، وحديثه عن الأمر قبل التثبت من أنه حقيقة واقعة.

فالكذب في إطلاق علماء الأخلاق ينصرف إلى من يحدثك بالأمر وهو يعتقد أنه غير واقعٍ، ومعظمُ ما ورد في الشريعة من ذم الكذب محمول على أولئك الذين تنطق عليك ألسنتهم بأشياء يزعمون أنها واقعة وقلوبهم تنكرها.

الاحتراس في صدق اللهجة:

يحدثك الرجل عن أشياء يحس بها في نفسه، كالحب والبغض والعطش والري، ويحدثك عن أمور يدركها بَمَحَسَّاته الخمس: البصر والسمع وغيرهما.

وهو - فيما يدركه بإحساسه الباطن أو إحساسه الظاهر - يستطيع أن لا يحدثك إلا بما يطابق الواقع والاعتقاد؛ فالرجل الصادق لا يقول: «أحببت» وهو يبغض، ولا يقول: «سمعت» أو «رأيت» إلا إذا سمع أو رأى.

وقد يحدثك عن حادثة تلقَّى خبرها عن طريق الرواية، أو يحدثك عن أمر أدركه على وجه النظر والاستدلال.

وهذان الصنفان هما ما يعثران به في مخالفة الواقع أحياناً، وينزلان به إلى أن تحوم حوله الظنون؛ فعلى صادق اللهجة أن يحترس فيهما يتحدث به عن رواية، أو يتحدث به عن ظن واستنباط.

والاحتراس في الأخبار التي تجئ من طريق الرواية أن لا يحدث بها قبل أن ينقدها نقداً بالغاً، وإن بدا له أن يخبر بها على نحو ما سمعها فليذكر أسماء رواتها؛ حتى يبرأ من عُهدتها.

والاحتراس في الحديث الذي يستند فيه إلى ظن وأمارة أن لا يطرحه إلى الناس في صورة المقطوع به، بل ينبه على أنه تحدث به على وجه الظن، كما يصنع كثير من الملأ الذين يعافون الكذب، ويريدون أن يجعلوا بينه وبين ألسنتهم حجاباً مستوراً.

فسياجُ صدقِ اللهجةِ الاحتراسُ في الحديث المستند إلى رواية أو ظن، ومن حدثك بما علم واحترس فيما روى أو ظن فقد قضى حق فضيلة الصدق، ووفّى.

صدق اللهجة والمجاز:

لا يخرج عن حدود الصدق ما يجرى على ألسنة البلغاء من ضروب الكناية وفنون المجاز، كأن تقول لشخص: جئتك ألف مرة، تكنى بالألف عن كثرة التردد، ولا تريد بها عدد المرار، وكأن تقول: رأيت أسداً مخلَبُهُ الحسامُ، وأنت تريد بطلاً لا يلوى جبينه عن منازلة الأقران.

وقد جاء في كتب الأصول أن قوماً منعوا أن يكون في القرآن مجاز، وهم الظاهرية، ولا شبهة لهؤلاء، إلا زعمهم أن المجاز من قبيل الكذب، والقرآن قول فصل وما هو بالهزل، وهذه الشبهة مدفوعة بقيام القرينة الدالة على أن المتكلم لا يقصد سوى معنى المجاز.

وإذا كان قوله ـ تعالى ـ ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ يحتوى قرينة تنفي أن يكون المرادُ من الظلماتِ سوادَ الليل، ومن النور بياضَ الشمس والقمر والسراج ـ لم يكن هناك إخبار بما يخالف الواقع أو الاعتقاد حتى يتناوله اسم الكذب الذي لا يحوم على كتاب الله في الحال، وإنما الكذب ذلك الإغراقُ أو الغلو الذي يضعه الشاعر خيالا بحتاً، كقول بعضهم:

ليس ذا الدمع دمع عيني ولكن هي نفسي تذيبها أنفاسي

وقول الآخر:

وأَخَفْتَ أهلَ الشركِ حتى أنه لتخافُك النطفُ التي لم تُخْلقِ

صدق اللهجة والقصص الخيالية ضروب:

القصص الخيالية ضروب:

أحدها: ما يحكى على ألسنة الجماد أو الحيوان كقصة كليلة ودمنة.

ثانيها: ما يحكى على ألسنة ذوى نفوس ناطقة، ويدل المتكلم بالقرينة أو بالصريح من القول على أنه اخترعها؛ لتكون مأخذ عبرة أو أدب لغة، كما صنع أبو القاسم الحريري في مقاماته.

وهذان الضربان من قبيل الإخبار بما يخالف الواقع والاعتقاد، والذي يستر عيب الكذب هنا أن المتكلم لم يوقع المخاطب في غلط وسوء تصور، وإنما يعرض عليه حكمةً أو أدبَ لغةٍ في أسلوب طريف.

ثالثها: مايحكيه الرجل على ألسنة ذوى نفوس ناطقة، ولا ينبه على أن القصة غير واقعة، وهذه ـ أيضاً ـ خارجة عن حد الصدق إلى مكان بعيد، ولو كان

الداعي إلى وضعها ماتحتويه من عبرة أو أدب لغة.

فالذين يزعمون أن في القرآن قصصاً غير واقعة، وأنها سبقت لما تحتويه من موعظة لا يريدون إلا أن يطعنوا في القرآن ، ويخادعوا المؤمنين، والمؤمنون لا يخدعون.

صدق اللهجة وإخلاف الوعد:

الوعد أخبار عما ستفعله في المستقبل من إحسان، والصدق والكذب يجريان في الأخبار المستقبلة كما يجريان في الأخبار الماضية.

وقد وصف الله ـ تعالى ـ إسماعيل ـ عليه السلام ـ بصدق الوعد أوفائه بما يعد فقال: ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً ﴾

وإذا كان الوفاء بالوعد يجعله صادقاً فإخلافه يجعله كاذباً لا محالة.

وقد اختلف أهل العلم بعد هذا في لزوم الوفاء بالوعد، فذهبت طائفة إلى أن من وعد شخصاً بإحسان وجب عليه إنجاز ما وعد، وقضى عليه بأدائه.

وهذا مذهب عمر بن عبد العزيز ﵁ ورجحه أبو بكر بن العربي في عارضة الأحوذي فقال «والصحيح لزوم الوعد، وخُلْفَه كذب ونفاق»

وذهب طائفة أخرى إلى أن الوفاء بالوعد من مكارم الأخلاق، وأن صاحبه يملك الرجوع عنه، وإذا بدا له أن يرجع فليس للقاضي عليه من سبيل.

وذهب جماعة من فقهاء المالكية إلى تفصيل، وهو أن الوعد المطلق غير لازم، وأما الوعد المنوط بسبب فإنه يصير بمنزلة الدَّين الذي لا مناص له من قضائه، ومثال هذا أن تقول لشخص: تزوج وأنا أدفع المهر، فإذا تزوج كان

للحاكم أن يقضي عليك بدفع المهر قضاءاً نافذاً.

صدق اللهجة وإخلاف الوعيد:

الوعيد إخبار عما ستفعله من شر؛ فإخلافه يجعله كالوعد المخلف قولاً كاذباً.

والرجل الذي يوعد آخر، ثم يضرب عنه عفواً إنما يمدح من جهة أن مصلحة إخلاف الوعيد أرجح من مصلحة إنفاذه؛ ففضيلة العفو تغمر عيب الكذب، وتجعله في نظر الأخلاق شيئاً منسياً.

ولتضاؤل نقص الكذب تحت عظم فضيلة العفو ساغ للإنسان أن يتمدح بإخلاف الوعيد الذي يقول:

وإني إن أوعدته أو وعدته لأخلف إيعادي وأنجز موعدي

ولا شك أن من يقرن الوعيد بنحو المشيئة يحميه أن يجعل إخلافه كذباً.

ولكن الوعيد شأنه أن يصدر في حال غضب لا يملك صاحبه النظر إلى العواقب؛ فهو لا يكاد يلفظ به إلا بعد عزم وتصميم.

صدق اللهجة والمعاريض:

في هذه الحياة بلاء، وأشد بلائها ما يمنعك من أن تقضي حق فضيلة؛ فقد يلاقي الإنسان حالاً ترغمه على أن ينطق بما يكره، ويسلك في القول ما لم يألف.

ولو وقف علم الأخلاق أمام هذه الأحوال المرغمة صلباً جامداً لضاقت سبيله، ووجد بعضُ النفوس للخروج على أمره عذراً بيناً.

وقد وجدنا علمَ مكارم الأخلاق ـ الذي رفع الإسلام قواعده ـ فسيحَ الصدرِ

بمقدار ما يسع مقتضياتِ الحياةِ الفاضلة.

فصدق اللهجة يعد من الفضائل؛ نظراً إلى ما هو شأنه من حفظ المصالح ودرء المفاسد، ولو عرضت على وجه الندرة حالٌ يكون حديثُ الرجل فيها على نحو ما يعلم جالباً عليه أو على غيره ضرراً فاحشاً ـ لوجد في قانون الأخلاق مرونةً تسمح له بأن يصوغ حديثه في أسلوب لا يجلب ضرراً.

فإذا وقع الإنسان في حال لا يليق معه التصريح بأمر واقع، ولم يكن بد من أن يقول في شأنه شيئاً ـ فها هنا يفسح له بمقتضى قانون الأخلاق الذي أتقن الإسلام صنعه أن يأخذ **بالمعاريض، وهي ألفاظ محتملة لمعنين يفهم السامع منها معنى، ويريد المتكلم منها معنى آخر.**

وإذا شئت فقل: هي ألفاظ ذات وجهين: أحدهما: غير حقيقة وهو ما يسبق إلى فهم المخاطب، وثانيهما: حقيقة وهو ما يقصد المتكلم، ويحق لك أن تسمى اللفظ من أجله حديثاً صادقاً.

وهذا ما يفعله الذين أُشْرِبوا صدق اللهجة متى عرفوا أن في القول الصريح حرجاً أو خطراً.

ومما يساق مثلاً لهذا أن أبا بكرٍ الصديقَ كان يُسْأَلُ عن النبيﷺ في طريق هجرتهما من مكة إلى المدينة وهو يريد كتم أمره فيقول: «هذا يهديني السبيل».

ويريد أبو بكر من السبيلِ سبيلَ الخير والسعادة، ويحملها السائل على الطريق التي يسلكها المسافرون.

وما كانوا يرضون عن الحديث ذي الوجهين إذا عمد إليه الرجل لغرض غير

صالح، قال عبد الله بن عقبة: دخلت مع أبي على عمر بن عبدالعزيز، فخرجت وعلي ثوب، فجعل الناس يقولون هذا كساكه أمير المؤمنين، فكنت أقول: جزى الله أمير المؤمنين خيراً، فقال لي أبي: يا بني اتق الكذب وما أشبهه؛ نهاه عقبه عن إجابة السائلين بقوله: جزى الله أمير المؤمنين خيراً؛ لأنه يلقي في أذهانهم أن الخليفة هو الذي خلع عليه هذا الثوب، ولا داعي له إلى أن يجيبهم بهذه الجملة التي يتبادر منها غير الواقع سوى قصد الفخرِ، والفخرُ بإصابة حظوة عند الأمراء - ولو كان مثل عمر بن عبد العزيز - لا يحسب في الأغراض المحمودة حتى يحل للرجل أن يرتكب له حديثاً ذا وجهين.

عنى الإسلام بصدق اللهجة جهد العناية، ويريد مع هذا للأمة إخاء وائتلافاً يجعلها كالبنيان يشد بعضه بعضاً، ويريد لجيشها الفوز على الأعداء يهاجمون أن يتحفزوا، ويرغب في أن يكون الزوجان على وفاق وحياتهما في نظام؛ لهذا خفف المصطفى - صلوات الله عليه - في الكلمة يقولها الرجل ليطفئ عداوة استمرت بين طائفتين، أو يقولها في حرب؛ ليكفي قومه قارعةَ تسلطِ الأعداء، أو ليسكت غضب زوجته الصالحة.

وقد ذهب القاضي أبو بكر بن العربي في تأويل الحديث إلى أنه أذن في المعاريض، فذكر هذا الحديث الذي يروى في استثناء الحرب، والإصلاح، وإسكات غضب الزوجة، ثم قال «ولكن ذلك بالمعاريض وهي الألفاظ التي يفهم منها السامع خلاف ما يريد القائل، فهذا هو المأذون فيه».

أثر صدق اللهجة في سعادة الفرد:

يتحلى الإنسان بأدب الصدق، فيشرف قدره، وتطيب حياته، ويصفو باله.

أما الشرف فلأن الصدق يدل على نقاء السريرة، وسمو الهمة، ورجحان العقل، كما أن الكذب عنوان سفه العقل، وسقوط الهمة، وخبث الطوية.

وقد جاء في حديثِ أكملِ الخليقةِ ما يرشد إلى أن الصدق حسنة تنساق بصحبها إلى حسنات وأن الكذب سيئة تنجر به إلى السيئات، قال المصطفى -صلوات الله عليه- فيما رواه الإمام البخاري «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا» .

ولا يستقيم لأحد سؤدد، أو يحرز في قلوب الناس مكانة إلا حيث يهبهُ الله لساناً صادقاً.

وإذا ابتغى بالكذب منزلة فإنما يتبوؤها بين طائفة ضربت في أدمغتهم الغباوة، أو طائفة تؤثر اللهو على الجد ويشغلها الخداع عن النصيحة.

وأما طيب العيش فإن الناس لا يطمئنون إلا إلى معاملة الصادق الأمين، وشأنهم الانصراف عمن ألفوه يضع الكلمة في غير وقع، وقد يحرص التاجار أو الصانع على درهم أو دينار يقتنصه بكلمه غير صادقة، فإذا هو يضيع سمعة طيبة، وربحاً وافراً.

ومن الشاهد: أن الصدق يكسب الرجل وقاراً، ويلقي له المودة في عشيرته والناس أجمعين.

واحترامُ الناس للرجل مما يدعوهم إلى النصح في صحبته، وإذا وضع بين أيديهم شأناً من شؤونه الحيوية قاموا عليه بإخلاص.

وأما صفاء البال فمن ناحيتين:

أولاهما: أن مرتكب الرذيلة لابد أن يحس بوخز في ضميره، ويسمى توبيخ الضمير، والكذب من أفظع الرذائل؛ فوخزه في الضمير غير يسير، ومتى سار الإنسان في طرق الصدق، وأقام بينه وبين الكذب حصناً مانعاً عاش في صفاء خاطر، وراحة ضمير، ولم يكن لهذا الوخز النفسي عليه من سبيل.

أخراهما: أن من يلطخ لسانه برجس الكذب لابد من أن تبدوَ سريرته، ويجرَّ عليه شؤم هذه الرذيلة شقوة، فلا يلاقي من الناس إلا ازدراءاً، وربما رموه بالتوبيخ في وجهه.

أما صادق القول فإنه يظل ضافي الكرامة آمناً من مثل هذا الخطاب المشين.

أثر صدق اللهجة في سعادة الجماعة:

تسعد الجماعة، وتنتظم شؤونها على قدر احتفاظها بفضيلة الصدق؛ فالمعاملات كالبيع، والإجارة، والقرض، والشركة لا يتسع مجالها ويستقيم سيرها إلا أن تديرها لهجة صادقة.

والأمة التي تسود فيها فضيلة صدق اللهجة حتى يكون القائم بأي عمل موضع ثقة الجمهور تتقدم حالتها الاقتصادية، ولا يجد عدوها الوسيلةَ إلى مزحمتها في نحو التجارة والصناعة.

والصداقات التي تجعل أفراد الأمة كالجسد الواحد إنما يشتد رباطها على قدر

ما يكون لهؤلاء الأفراد من الاحتفاظ بصدق اللهجة.

وقد يكون للكاذب صديق من صنف أصدقاء المنفعة، ولكنه لا يستطيع أن يتخذ من إخوان الفضيلة صديقاً حميما.

فالذي يستهين بالكلمة الكاذبة يطلق بها لسانه، يؤذي نفسه، ويرهق المجتمع خللا وفساداً؛ فالكذاب لا يعد عضواً أشلَّ فقط، وإنما هو عضو يحمل دماً مسموماً لا يلبث أن يسريَ إلى الأعضاء المتصلة به، فيؤذِيَها.

أثر صدق اللهجة في العلم:

يمرق الرجل من فضيلة الصدق على طريق شتى، وأبعد هذه الطرق ضلالاً أن يتحدث في العلم بما ليس من العلم، أو يضيف إلى أحد قولاً لم يصدر عنه، يفعل هذا من يرغب في التفوق على قرين ينافسه، أو يرغب في أن تطير له سمعةً أعلى من منزلته.

ومن يحاول التفوق على قرينه بزخرف من الباطل فهو أخو الساحر، ولا يفلح الساحر حيث أتى.

ومن رضي بأن تكون سمعته فوق منزلته فإن وراء السمعة عقولاً تزن الرجال بالآثار؛ فلا يَدَعُون السمعةَ تغلو في طيرانها، بل يأخذون بناصيتها، ويهبطون بها إلى أن تكون مع منزلة صاحبها على سواء.

ولو أيقن أولئك الذين يدسون في العلم ما ليس من العلم أن من حولهم بصائرَ نافذةً وأقلاماً ناقدةً ـ لما انسلخوا من لباس الصدق، ولكنهم قوم لا يوقنون.

يتحدث العالم في غير صدق، فتذهب الثقة به من القلوب، ويذهب معها شطر علمه وهو ما يرجع إلى النقل والرواية.

وكم من مُنتمٍ إلى العلم اطلعوا له على اصطناعه خبراً؛ فطرحوه من حساب الموثوق بنقلهم، وكذلك الرجل يخرج عن أدب الصدق مرة، فيتعدى شؤم الكذب إلى سائر أقواله، فتوشك أن تذهب كما يذهب هذيان المُبَرْسَمِين هزوًا.

كذبت ومن يكذب فإن جزاءه إذا ما أتى بالصدق أن لا يُصَدَّقا

علل التهاون بصدق اللهجة:

ينحرف الرجل في حديثه عن قصد السبيل لدواعٍ مقبوحةٍ، ومآربَ دنيئة.

وليس في وسعنا ذكر هذه الدواعي والمآرب، وإنما نسوق منها أمثلة تريكم أن من لا يَقْدُر قيمة الصدق قد يبيعه بثمن بخسٍ، وكلُّ مايرضى به ثمناً للصدق فهو بخس ولو حثوا له من هذه الصفراء والبيضاء[1] ما لا يأتي عليه حساب.

ينحرف الرجل عن الصدق؛ ليتملق ذا مقام وجيه، ولايتزلف إلى ذوى المقام الوجيهة بقول الزور إلا من صَغُرتْ، نفسه وضاق عليه مجال القول الصائب الحكيم.

نحن نعلم أن بعض ذوى المناصب قد مُسِخَتْ فطرهم؛ فلا يرضون عمن يجلس إليهم إلا أن يدخل عليهم من باب التملق والنفاق، ونعلم مع هذا أن كرم الأخلاق يدعوك إلى أن ترعى حرية ضميرك، وتحافظ على صدق لهجتك؛ فأجب داعيَه، وذر الذين يحبون أن تشيع فاحشة في الأمة؛ فإنهم قوم لا يفقهون.

(١) يقصد بالصفراء: الذهب، وبالبيضاء: الفضة (م).

ينحرف الرجل عن الصدق؛ لَيُغْرِبَ عند الناس، ويريهم أنه صاحب سمر؛ حتى يخف عليهم ظله، ويرغبوا في منادمته.

وإنما يفعل هذا من يحرص على أن يغشى كل منزل، وتتمَّ به حلقة كل مجتمع. أما من يبتغي الحياة الزاهرة الشريفة فيتقلد فضيلة الصدق في كل حال، ثم لا يوالي إلا أولي الجد، ولا يبذل خطواتِه إلا حيث تحترم الحقيقة والفضيلة.

وقد ينطوي بعض الناس على عداوة الشخص، فيرميه بمساوىء؛ ليصرف عنه القلوب، ويُسْقِطَ مهابتَه من العيون.

ولا أشأم على الرجل من أن يناضل عدوه بالبهتان.

ومن كانت له حاجه في أن يؤلم أعداءه فإنه لا يؤلمهم بأشد من احتفاظه بمكارم الأخلاق، ومن أعز هذه المكارم أن يكون حرَّ الضمير، عفيف اللسان.

وفي الناس من إذا أخذ يحدثك في شأنه أو شأن سلفه أذن لقريحته، فيخترع، وأطلق لسانه فيرتع في غير واقع.

والألمعية تشهد بأن الرجل لا يستطيع أن ينال بمثل هذا الحديث ذرة من فخر أو حمد.

وربما قام حديثه هذا شاهداً على أنه لم ينشأ في أدب متين؛ فيطرح نفسه في زراية من حيث يريد أن يرفعها إلى فخار.

ومن لا يؤمن بأن خالق الكون يجازي هذه الألسنة على ما تصنع من تحريف أو تزوير ـ لا يبالي أن يلبس الحقيقة بالباطل، ويصور بلسانه أشياء ليس لها في الواقع من مثال.

ولا يكاد الملحد يحتفظ بصدق القول إلا حين يريد أن يتشبه بذوي المروءة، وحين يخشى افتضاح زوره، ويخشى من افتضاحه ضرراً.

وانظر في قصة أبي سفيان حين استدعاه هرقل في ركب من قريش، وأخذ يسأله في شأن النبي ﷺ فإنكم تجدون أبا سفيان وهو زعيم قريش يومئذ يقول «فو الله لولا الحياء من أن يأثروا عنى كذباً لكذبت عليه».

قال أبو سفيان هذا أيام جاهليته وهو سيد قومه.

أما صدق اللهجة القائم على الإيمان فلا يختل نظمه، ولا يختلف غيب صاحبه عن حال علا نيته؛ فمن تصدى جماعة، وعني بأن يجعلهم المثل الأعلى لفضيلة الصدق ـ فليسعَ لأن يكون إيمانهم بالله راسخاً، والإيمان الراسخ مطلع كل فضيلة.

١٦ من أخلاقنا[1] للشيخ علي الطنطاوي[2]

أعرف رجلاً أنعم الله عليه بسعة المال، وفطره على صدق الود، وبسط اليد؛ فأباح إخوانه ماله، يغترقون منه اغترافاً، ويأخذون منه علاًّ ونهلاً، قرضاً حسناً لا يطالبون برده، وهدية لا يسألون المقابلة بمثلها، وهبة لا يُرتَقَبُ منهم عوضٌ عنها، ولا يسمعون كلمة منّ أو تذكير بها.

وفَتَحَ لهؤلاء الإخوان ـ وما كان أكثرهم ـ داره، وأفرد لهم جناحاً فيها لا يدخله أحد من حرمه وأهله، وأقام عليهم خادماً وطاهياً، وانقطع فيه لاستقبالهم قادمين بالبشاشة والترحيب، وإيناسهم مقيمين وخدمتهم، وتوديعهم راحلين مشيِّعاً إياهم بالكرامة، شاكرهم على تفضلهم بالزيارة، سائلهم التكرم بالعودة.

ولبث هذا الرجل على ذلك حتى أضاع ماله كله، فباع الدار وأثاثها، وغدا فقيراً يحتاج إلى الورقة السورية، فلا يجد في كل أولئك الإخوان من يدفعها إليه، لا وفاء دين، ولا مقابل هدية، ولا عوضاً من هبة، ولا قرضاً حسناً إلى أيام السعة، اللهم إلا قرضاً ربواً، ولا يرضى المرابون أن يقرضوا مفلساً.

ولعل الرجل أخطأ حين عمد إلى هذا الكرم الجاهلي فأخذ به، وترك التأدب بأدب القرآن الذي يقول: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾؛ والذي جعل المبذرين إخوان الشياطين.

---

(1) نشرت عام ١٩٤٧م، وانظر كتاب «في سبيل الإصلاح» ص٩٥-١٠٠.

(2) سبقت فب المجموعة الأولى ترجمة له.

ولعله لقي جزاءه؛ فما سقت القصة للحكم عليه، وإنما قصصتها لأنها ذكرتني بطائفة من أخلاقنا، هي كالداء في جسم الأمة، لا يجمل بالكتَّاب وحملة الأقلام السكوت عنها والرضا بها، وهم أطباؤها وأساتها، وعندهم دواؤها.

ذكرتني بما نكاد نراه كل يوم من الحوادث وما يكاد يعرف له كل قارئ شبيهاً ومثيلاً، حين يأتيك الرجل من أصدقائك أو جيرانك متذللاً متواضعاً، مظهراً للتقى والأمانة، يسألك أن تقرضه مالاً قد تكون أنت في حاجة إليه في يومك أو غدك، ويذكرك الكرم والثواب؛ وربما استعان عليك بمن لا يُرَدُّ طلبُه عندك، فتعطيه ما يريد، تضعه في كفه خالياً به، تستحيي أن تشهد عليه شاهداً، أو تأخذ به كتاباً، مع أن الله أمر بكتابة الدين إلى الأجل المسمى أمر ندبٍ واستحبابٍ، لا أمر إيجاب وافتراض؛ فيأخذه منك ويذهب شاكراً فضلك، مثنياً عليك ثناءاً يخجلك ويضايقك، ثم لا تراه بعد ذلك، ولا تبصر له وجهاً، فتفتش عنه؛ لتسأله رد المال وقد انقضت مدة الدَّين، وتجددت حاجتك إليه، فيروغ منك، وينأى عنك، فتطرق بابه، فيقال لك: هو غائب عن الدار، فتعود إليه في الصباح فيقال: هو نائم، فترجع بعد ساعة فيقال: خرج، فتبتغي إليه الوسائل وتتشفع إليه بالأصدقاء، فيلقاك شامخ الأنف مصعّراً خده، يقول: يا أخي، أزعجتنا بهذا الدين، ما هذا الإلحاح الغريب؟ أتخاف أن آكله...؟!

وينتهرك وأنت تداريه، ثم إن كان رجلاً طيباً دفع إليك الدين، ولكن قرشاً بعد قرش، وورقة[1] بعد ورقة، فتريق في استيفاء دينك ماء وجهك، وتنفق فيه

(1) نحن في الشام نسمي الليرة السورية ورقة سورية.

الثمين من وقتك، ثم لا تنتفع منه بشيء.

وإن لم يكن صاحب ذمة أكل الدين كله، وصرخ فيك حيثما لقيك: ما لك عندي شيء. اشتك للمحاكم!، وهو يعلم أنه لا سند في يدك، ولا بينة لك عليه.

وهبك أخذت منه كتاباً بدينك، أفتصبر على طول المحاكمة، ومتابعتها، وتأجيلها، وتسويفها، ورسومها، ومصارفها؟ إن ضياع المال أهون من إقامة الدعوى به[1].

ومثل هؤلاء المقترضين الأفاضل مستعيرو الكتب، أولئك الذين تركوا في قلبي غصصاً حلفت بعدها بموثقات الأيمان أني لا أعير أحداً كتاباً، ولم أنج مع ذلك منهم، ولم يردّ لي إلى الآن كتاب «كشف الظنون» الذي نسيت من استعاره مني منذ إحدى عشرة سنة...

ولهؤلاء المستعيرين نوادر شهدت منها العجب، منها أن أستاذاً محترماً في قومه جاءني مرة يلتمس إعارته جزءاً من تفسير الخازن من خزانة كتبي؛ ليراجع فيه مسألة، ويرده إليَّ عاجلاً، ففعلت؛ وانتظرت أربع... أربع سنوات والله ثم ذكرته به؛ فغضب وقال: لإيش العجلة يا أستاذ؟ لم أراجع المسألة بعد...!

والذي يذكر منهم صاحب الكتاب، ويتنازل، فيرده إليه، يرده مخلوع الجلد ممزق الأوصال.

وأنكى منه المستعير المحقق المدقق الذي يرى في الكتاب موطناً يحتاج إلى تعليق، فيكتب التعليقة التي يفتح الله بها عليه، على هامش كتابك بالحبر

(1) ولو سألتني دليلاً لنبأتك أنها كانت لأسرتنا قضية بقيت في المحاكم ثلاثاً وثمانين سنة.

الصيني الذي لا يمحى ولا يكشط، ويذيّلها باسمه الكريم!!

وشر من هؤلاء جميعاً الثقيل الذي يتظرف، ويتخفف، فيرى أن من الظرف سرقةَ الكتب، فإذا زارك وتركته في المكتبة وخرجت؛ لتأتيه بالقهوة والشاي أخذ كتاباً فدسَّه تحت إبطه، أو وضعه في جيبه ثم ذهب به وأنت لا تدري[1]..

وربما كان هذا المدين المماطل، وذلك الذي يأكل الدين وينكره، والذي يستعير الكتاب ويمسكه، ربما كانوا عند العامة من أقطاب الوقت، وأولياء الله الكبار؛ ذلك لأن الناس جهلوا حقيقة التقى، وبدلوا معناه؛ فكان التقي في صدر الإسلام هو الذي يتقي المحارم والمظالم ما ظهر منها وما بطن، ولا يدخل جوفه ولا جيبه إلا طيباً حلالاً، ويفر من مواطن الشبهات، ولا يطلب المال إلا لإمساك الرمق ونيل القوام، والعيش عيش القناعة والرضا، ولا يأخذه إلا من حلّه.

ولم يكن الرجل؛ ليشهد للرجل بالتقوى إلا إن صحبه في سفر، أو عامله في مال؛ فصار التقي اليوم من يكبِّر عمامته، ويطوّل لحيته، ويوسع كمه، ولا تفارق يده سبحته، ولا يقف لسانه عن ذكر؛ ومن يتوقر ويطيل المكث في المساجد.

وهذا كله حسن لا اعتراض عليه، غير أن حُسْنَهُ ينقلب قبحاً أبشع القبح إذا

---

(1) وآخر ما وقع لي هنا أنه كان عندي دفتر كبير مكتوب كله بخطي فيه ما سمعته من الدروس في علم النفس لما كنت في شعبة الفلسفة سنة ١٩٢٩، فقدته من غرفتي في داري في مكة التي لا أدخلها إلا خاصة أصدقائي، وكان ذلك نحو سنة ١٤٠١ أو ١٤٠٢.

اتخذه صاحبه أحبولة يصطاد بها الدنيا.

كذلك الذي كان وصيًّاً على أيتام ضعاف لا يملكون حيلة، اغتر أبوهم بلحيته وسبحته فوصى بهم إليه، فجرعهم كؤوس المذلّة والجُوع، ونشَّأهم في الأزقة نشأة اللصوص، وأكل أموالهم وهو يقرأ كل يوم بصوته الجميل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً ﴾.

وهو مع ذلك لا ينقطع عن الأذكار وحلقاتها، ويجهر بالبكاء إذا سمع الموعظة، وينكر أشد الإنكار على من يهمل السنن؛ فيشرب بشماله، أو يحلق لحيته، والناس يتبركون بلثم يده؛ فكيف السبيل إلى إفهام هؤلاء الناس ما هي حقيقة التقى كيلا يعظموا اللص، ويجعلوه وليًّاً مباركاً، ولا يغتروا بالصلاح المجاني الذي لا يكلف صاحبه مالاً، بل يجمع به المال، ويعلموا أن الله الذي وضع في نفوس الشباب شهوة الجسد وضع في نفوس هؤلاء المشايخ ـ لست أعني المشايخ كلهم ـ شهوة المال، وأنه لا فضل لأحدهما على صاحبه؛ وأن الشيخ التقي هو الذي لا يقيم للمال وزناً، ولا عبرة بغضه البصر عن النساء واتباعه سبيل العفاف؛ وأن الشاب الصالح هو الذي لا تغلبه على نفسه تلك الشهوة ولا عبرة ببذله المال...

لقد انحدرت أخلاقنا حتى صار الشاب منا حين يخوض خِضَمَّ الحياة، ويرى الاختلاف بين ما علموه من الأخلاق في المدرسة، وما تواضع عليه الناس في الحياة ـ يقف حائراً مدهوشاً لا يدري ما يأخذ وما يدع؛ فلا هو يرتضي لنفسه التفريط في أخلاقه: صدقه وأمانته وعزة نفسه، ولا هو يرتضي الحرمان من المتع

واللذائذ والمناصب العالية والمرتبات الكبيرة يناله جزاء تمسكه بما علَّموه من الأخلاق.

حدثني صديق لي أنه انتسب في شبابه إلى الشرطة، فجعلوه رئيس مصلحة السير في بلدة من بلاد الشام، وكان ذلك منذ خمس وعشرين سنة أو أوفى من ذلك، وكان مقره في مخفر في ظاهر البلد، فمر عليه رَتْلٌ من السيارات في حجاج آيبون، وكان نظام تلك الأيام أن سيارة لا تجتاز على مخفره إلا بوثيقة وإذن، لا أدري ما صفتهما فقد نسيت دقائق حديثه، ولم يكن معهم ذلك الإذن فوقفهم، ومنعهم من المرور إلا به، قال: فغاب السائق هنيهة ثم عاد وفي يده صرة وضعها على مكتبي فيها أربعون ريالاً مجيديًّا، وقال هؤلاء حجاج آيبون يريدون التعجيل بالوصول، وهذه الصرة ثمن فنجان قهوة رجاء السماح لهم... إلخ.

قال: فلما سمعت ذلك قفَّ شعري وصحت به: أتريد أن ترشوني يا كذا وكذا، وأمرت به فوقف، واستلمت الهاتف (التلفون) أهتف بمدير الشرطة أرفع إليه الأمر، وأنا أرى أنه سينزل به أشد الجزاء، فإذا به يأمر بإطلاقه، ويأذن للسيارات بأن تسافر على خلاف النظام، وأن يبعث إليه بالمال، ليجري التحقيق.

قال صديقي: وذهب المال ولم يعد، وتركت العمل، ولو أني بقيت لطرحت عن عاتقي ثقل الأخلاق التي تجعلني غريباً بين زملائي، وتحرمني الغنى، وتكسبني غضب الرؤساء، فلا يصيبني ترفيع، ولا يصل إليَّ خير.

وليست هذه القصة فريدة في بابها، ولا هي نادرة من النوادر، بل هي قصة

كل يوم، وهي الداء الذي يزداد ويسيطر، والأساة عنه غافلون.

وأين أساته وأهل السياسة مشغولون بالقتال على كراسي الحكم، هي الدنيا لهم وهي الأخرى، وأهل الأدب بين نائم يستمتع بشهيِّ الأحلام، ومستيقظ قد ألهاه هواه، فهو يملأ الدنيا بكاءاً ونحيباً؛ لأن صاحبته أسهرته بعدِّ النجوم ولم تأته، أو أنها قد وعدته بقبلة ثم وجدت أجمل منه، أو أفسق فأعطته إياها، وأهل العلم يعيش أكثرهم على هامش الحياة لا همَّ له إلا مرتبه يقبضه من دائرة الأوقاف في مطلع كل شهر، ثم لا تراه ولا يراه أحد إلى الشهر الذي بعده، أو حاشية يقرؤها ويعيدها على من حضر مجلسه قراءة تبرك لا قراءة تحقيق، فلا يرجع، ولا ينتقد، ولا يقابل قانوناً على قاعدة فقهية، ولا ينظر مشكلة من مشاكل العصر؛ ليرى حكمها.

ومن اشتغل منهم بالمسائل العامة أخذ نفسه بالاهتمام بأمر لا يقدم في الدين ولا يؤخر، ولا يتوقف عليه إيمان ولا كفر.

والشباب الناشئون؛ لجهلهم حقائق الإسلام، وبُعْدِ ما بينهم وبين المشايخ، وقَصَرِ أيديهم وأفهامهم عن نيل الكتب ذات الشروح والحواشي ـ قد زهدوا في كل ما هو شرقي واستهانوا به، وعظموا ما يقابله من كل حماقة دعيت مذهباً اجتماعيًّاً، وكل سفسطة سميت فلسفة، وكل كفر بالدين والعرض دعي أدباً، وأعانهم على ذلك أن أكثر المدرسين من الذين لم يقدر لهم فهم علوم الإسلام والغوص على كنوز كتبه.

ولست أطلق القول وأجنح إلى التعميم؛ فإن في كل فئة من هؤلاء ـ الطيبين

والمصلحين، ولكن الكثرة على نحو ما ذكرت؛ فمن أين يرجى إصلاح أخلاقنا وأوضاعنا؟

ومن أين يرجى لأخلاقنا صلاح؟ ولم نتفق بعد على الأخلاق التي ينبغي أن نتخلق بها؛ فمنا من يرى المثل الأعلى في أخلاق الجاهلية: كرم إلى حدّ التبذير، وشجاعة إلى حدّ التهوُّر، كصاحبنا الذي استهللت بحديثه هذا المقال، وعامة طائفة الزكرت في الشام، وهي أشبه بالفتوة في مصر وأكثر البدو، ومنا من يميل إلى التخلق بأخلاق أجدادنا في القرن الماضي على ما كانت عليه بلا زيادة عليها ولا نقصان منها، ومن يخالفهم مخالفة الضدّ للضدّ فيرى أن نقتبس الأخلاق الغربية برمتها.

ويتشعب بهؤلاء الرأي فيميل كل إلى الأمة التي تعلم في مدارسها، أو رحل إلى أرضها، ومن يرى اقتباس الجيد النافع من كل أمة من غير أن يحدد أو يعين.

ولا دواء لهذه الفوضى في رأيي، ولا صلاح لأخلاقنا، إلا بالرجوع إلى الإسلام الصحيح الذي جاء به سيدنا وسيد العالم محمد ﷺ لا الإسلام الذي يفهمه المتاجرون بالدين، ولا الذي تفهمه العامة؛ فإذا فعلنا فثمة كلُّ خيرٍ، ولا يكون ذلك إلا إذا شمر العلماء وحققوا المسائل، ودرسوا المشكلات، وألقوا عن المصنفين الأولين رداء التقديس، واستمدوا الأحكام من موردها، ثم ترجموا هذه الكتب القديمة إلى لغة العصر.

١٧ إشاعة السوء وموقف الإسلام منها[1] للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

إشاعات السوء عن شؤون الأمة وسير أعمالها، وأهداف إصلاحاتها، ومقاصد رجالها ـ لا تقل ضرراً في كيان الأمة، وسلامة الوطن عن التجسس للعدو على دخائلها، ومواطن قوتها وضعفها؛ فكل ذلك خدمة للعدو، وموالاة له، وقد خاطب الله المسلمين بقوله: ﴿لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ الممتحنة: ١.

بل إن موالاة العدو ـ في حال عدوانه ـ وترويج ما ينفعه في مضرة الإسلام وأهله تخرج الموالين له عن تبعيتهم لأمتهم، وتلحقهم بأمة عدوهم، وفي ذلك يقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ المائدة: ٥١.

ترويج إشاعات السوء:

ومن أشد ما يوالي به المنافقون من يكيد للأمة من أعدائها ترويج إشاعات السوء والإصغاء إليها، وقد ورد في ذلك قول الله ـ عز وجل ـ ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾ الأحزاب: ٦٠ـ٦١.

---

(١) من كتاب أحاديث في رحاب الأزهر، لفضيلة الشيخ محمد الخضر حسين، جمعها وحققها علي الرضا التونسي ص١٠٧ـ١١٠، ومجلة «الأزهر» الجزء الثاني ـ المجلد الخامس والعشرون، صفر ١٣٧٣.

وكان مما كانوا يرجفون به ما ذكره الله عنهم في قوله -عز وجل-: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلا غُرُوراً﴾ الأحزاب:١٢.

ولهؤلاء المنافقين خلفاء في كل عصر من عصور الإسلام، وفي كل وطن من أوطانه، يخذلون الناس عن أئمتهم وولاة أمرهم، ويشيعون السوء عن برامجهم وخططهم، وهذا مرض في القلوب كما وصفه الله ـ عز وجل ـ وعلى من يصاب بهذا المرض أن يعالج نفسه قبل أن يعالج بأحكام الله.

وفي هؤلاء ـ أيضاً ـ ورد قول الله ـ سبحانه ـ: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ﴾ النساء:٨٣.

أي أفشوه حيث لا يكون من المصلحة العامة إذاعته وإفشاؤه، وقد يكون ما يذيعونه كذباً ومضراً بالمصلحة، فيكون ذلك من الإثم المزدوج الذي طهر الله قلوب المؤمنين منه.

واللائق بالمسلمين إذا سمعوا قالة السوء أن يكونوا كما أراد الله للمسلمين في قوله -عز وجل-: ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ النور:١٢، إلى أن قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ. وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ النور: ١٥ـ١٦.

ولما عاد المسلمون من غزوة أحد كان فيهم من اختلفوا في الحكم على المنافقين

والمرجفين، فقال فريق للنبي ﷺ: «اقتلهم»، وقال فريق: «لا تقتلهم»، فنزل في ذلك قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ النساء:٨٨، وفي ذلك ورد الحديث النبوي: «إنها طيبة (أي المدينة) تنفي خبثها كما تنفي النار خبث الحديد» وفي رواية «خبث الفضة».

وأول فتنة في الإسلام، وهي الجرأة على خليفة رسول الله وصهره عثمان رضي الله عنه كان منشؤها إشاعاتِ السوءِ الكاذبةَ، وتضليلَ البسطاء وضعاف الأحلام، فجرّ ذلك على الأمة من الضرر ما لم تتوصل إلى مثله الدول المعادية بما لديها من جحافل وقوات حربية.

وفي الليلة الأخيرة قبل نشوب حرب الجمل توصل أصحاب رسول الله ﷺ من الفريقين إلى التفاهم على ما يرضي الله ـعز وجلـ من إقامة الحدود الشرعية على من يثبت عليه أن له يداً في مصرع أمير المؤمنين عثمان، وبات أبناء كل فريق في معسكر الفريق الآخر بأنعم ليلة وأسعدها وأرضاها لله، فما كان من القتلة ومن يتبعهم من قبائلهم إلا أن أنشبوا القتال في الصباح الباكر، وأشاعوا في كل معسكر من المعسكرين بأن المعسكر الثاني هو المهاجم له على خلاف ما اتفقوا عليه بالأمس، وبذلك كانت الإشاعات بين الطرفين أفتك بهما، وأضرّ على الإسلام من أسلحة البغاة الفاتكة.

أيها المسلمون: إن إشاعات السوء سلاح العدو، والذي يصغي إليها يُمَكِّن العدو من الفتك بالأمة والوطن، وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم؛ فاعملوا في ذلك وفقاً بهداية الله ـ عز وجل ـ وإرشاده حين يقول: ﴿وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ

قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ النور: ١٦.

وعلى ولاة الأمر أن يتصرفوا فيمن يثبت عليهم ذلك وفقاً لحكم الله ـ تعالى ـ حين يقول لنبيه: ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً . مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ﴾ الأحزاب: ٦٠ـ٦١.

إن الأمة تجتاز اليوم مرحلة من أدق مراحلها في تاريخ نضالها العنيف، هي مرحلة تقرير المصير، وهذه المرحلة ـ بما لها من الخطر والأثر في مستقبل الأمة وحاضرها ـ تقتضي منَّا أن نتيقظ لكل ما يراد بنا، سواء من العدو الغاصب، أو من أعوانه، وأن نحذر دعاة الفتنة والذين يعملون على إشاعتها بين طبقات الأمة، ولنعلم أن هؤلاء وأولئك يستهدفون غرضاً واحداً، ويعملون لغاية واحدة، هي تمزيق الشمل، وتشتيت الجمع، وتفريق الكلمة، وإشاعة الكراهية بين الحاكم والمحكوم، وإلقاء العداوة بين المؤتمين والمأموم، وهم بهذا يعملون للفتنة ومن أجلها، فإذا ما تحققت غايتهم فإن الفتنة لا تصيبهم وحدهم، ولا تصيب طائفة دون أخرى، وإنما تصيب الأمة بأسرها، وقد حذرنا الله ـ تعالى ـ منهم، ومن فتنتهم، فقال ـ جل شأنه ـ: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ الأنفال: ٢٥.

واتقاء الفتنة يكون بدفعها وإدحاضها، وإنزال العقوبة الرادعة على كل من يثبت عليه أنه كان سبباً فيها، أو في عنصر من عناصرها.

ويرى علماء الشافعية أن تكون العقوبة هي «الإعدام» لكل من يثبت عليه أنه

أحدث بين المسلمين فتنة، وأما علماء المالكية فإنهم يتركون الحد على هذه الجريمة لاجتهاد الإمام ـ أي الحاكم ـ.

ومن هنا نرى أنه لا سبيل إلى الهوادة أو المهادنة في إقامة الحد على هذه الجريمة النكراء، جريمة إحداث الفتنة بين الصفوف مناصرة لعدو البلاد الأكبر، وهو المستعمر الغاصب.

فلنتق الله في أمتنا ووطنا، وتقوى الله تدفع كل شيء، وتحول دون أي مكروه، والله يوفقنا، ويسدد خطانا إلى ما فيه النجاح والإرشاد.

١٧ البخيل[١] للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي[٢]

سألني سائل: ماذا يستفيد الإنسان من حتى بخله على نفسه؟ وأي غرض يرمي إليه من ذلك؟ فأجبته بهذا الجواب:

البخل إحدى الملكات النفسية، والمَلَكَةُ صفةٌ راسخة في النفس تصدر عنها آثارها عفواً بدون روية ولا اختيار؛ فكما لا يُسأل المسرفُ عن سبب إسرافه، والغاضبُ عن غايته من غضبه، والحاسدُ عن غرضه من حسده ـ كذلك لا يسأل البخيل عما يستفيده من بخله وحرصه؛ فكثيراً ما تعرض لأرباب هذه الملكات عوارضُ تنزع بهم إلى الرغبة عن التخلي عنها حيناً، فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً؛ لمكان تلك الملكات من نفوسهم، ونزولها منها منزلة لا تزعجها الرغبات، ولا تزعزعها الإرادات.

وربما عرض للبخيل ما يدفعه إلى بذل شيء من ماله؛ فإذا وضع يده في كيسه وحاول القبض على شيء مما فيه أحس كأنَّ تياراً كهربائياً قد سرى من نفسه إلى يده؛ فتشنَّجت أعصابُها، وتصلَّبت أناملُها، وأعيت على الالتواء والانثناء؛ فأخرجها صفراً كما أدخلها، وبودِّه أنْ لا يفعل لولا أنَّ للغريزة قوةً فوقَ الإرادة، وسلطاناً تخضع له الرغبات، وتنقاد إليه العقول، إلا إذا كان وراءها وازع من القانون يزعها؛ فإنه يكسر شرتها أحياناً، وإن لم ينتزعها انتزاعاً.

---

(١) مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة الموضوعة ص٢٢٣ـ٢٢٨.

(٢) سبقت في المجموعة الأولى ترجمة له.

ويحكى أن شحيحاً تحركت في قلبه يوماً الشفقةُ على ابنته الجائعة العارية؛ فأراد نفسه على أن يبذل لها شيئاً من ماله فَتَأَبَّتْ عليه؛ فأذن لوكيله أن يختلس لها من ماله ما يسد خلَّتها من حيث لا يعلمه بذلك، ولا يدعه ينتبه لشيء منه، علماً بأنه لا يستطيع أن يكون كما يريد.

فالوجه في السؤال أن يقال: **ما هي الأسباب التي غرست ملكةَ البخل في نفس البخيل؟** فيكون الجواب عن ذلك: أن الأسباب تختلف باختلاف الأشخاص، وأطوارهم، وأخلاقهم، وتربيتهم، ونحن نذكر أهم تلك الأسباب من حيثُ ذاتُها بقطع النظر عن افتراق ما يفترق منها، واجتماع ما يجتمع.

الأول ـ الوراثة: وهي ـ وإن كانت سبباً ضعيفاً لما يعرض للأخلاق الموروثة أحياناً من التغير والانقلاب بمعاشرة المتصفين بأضدادها، والتأثر بمخالطتهم ـ إلا أنها كثيراً ما تنمو، وتتجسَّم إذا أُغفلت ولم يعترضها ما يسد سبيلها، ويقف في طريق نمائها.

الثاني ـ التربية: إذا نشأ الطفل بين أهل أشحَّاء، ولم يكن في فطرته ما يقاوم سلطان التربية على نفسه أخذ أخذهم في الحرص، وتخلَّق فيه بأخلاقهم كما يتخلق بها في العقائد والعادات من حيث لا يفكر في استحسان أو استهجان، كأنما هي عدوى الأمراض التي تسري إلى الإنسان من حيث لا يدري بها، ولا يشعر بسريانها.

ويُحْكَى أن رجلاً دخل منزلاً يُعْرَف أهلُه بالشح والحرص، فرأى طفلاً صغيراً في يده ليمونة؛ فطلب إليه أن يعطيه إياها، فأجابه الطفل: «إن يدك لا

تسعها»!

الثالث ـ سوء الظن بالله: ذلك أن المتدين إذا أخذت عقيدة القضاء والقدر من نفسه مأخذها رسخ في قلبه الإيمانُ بأن لله ـسبحانه وتعالىـ عيناً ساهرة على عباده الضعفاء؛ فهو أرحم من أن يغفل شأنهم، ويكلهم إلى أنفسهم، ويسلمهم لصروف الليالي وعاديات الأيام؛ فلا يَلِجُّ به الحرصُ على الجمع، ولا يزعجه الخوف من البذل.

وعلى العكس منه ضعيف الإيمان، ضعيف الثقة بواهب الأرزاق، ومقسم الحظوظ والجدود؛ فهو لسوء ظنه لا يزال الخوف من الفقر نصبَ عينيه حتى يصير البخل ملكةً راسخة فيه.

الرابع ـ النكبات: كثيراً ما تحلُّ بالإنسان نكباتٌ تصهر قلبه، وتزعج غريزته من مستقرها، ومن ذلك النكباتُ التي يكون مرجعُها قلةَ المال، كأنْ يقع الرجل في خصومة يرى أنه لولا ضيقُ ذات يده لما وقع في مثلها، فكلما تمثلت له نكبةٌ لَجَّ به الحرصُ، وأغرق في المنع، حتى يصير ذلك غريزة فيه، وخلقاً ثابتاً له.

ومن ذلك جديد النعمة الذي ذاق مرارة الفقر حِقْبَةً من الزمان، وكابد منه ما كابد من الآلام والأوجاع؛ فإنه مهما حسنت حاله، وانتعشت نفسه، وفاضت خزائنه بالفضة والذهب ـ لا تذهب من فمه تلك المرارة، ولا تُضَيِّع ذاكرتُه آلامها، فلا يزال يتملك قلبه وسواس مقلق يُخَيِّل ما لا يُتَخَيَّل، ويريه ما لا يرى، كمن تمثل له خيال الشيطان مرة في أبشع صورة، وأفظع شكل؛ فهاله منظره، وذهب الخوف منه برشده؛ فلا يزال يراه في كل مكان وزمان، وفي حالتي

الأمن والخوف، والوحشة والأنس.

الخامس ـ اللؤم: فإن النفس إذا خبثت طينتُها، ولَؤُمَ طبعُها كان من أخص صفاتها الحقدُ على الوجود بأجمعه، وبغضُ الخير للناس قاطبة، فكيف يمنحهم من ذات يده ما يزيده ألماً على ألم، وحسرة فوق حسرة، وهو لو استطاع أن يمنع عنهم سارية السماء، ويعترض دونهم نابتة الأرض لفعل؟.

السادس ـ سقوط الهمة: إذا نشأ الإنسان عاليَ الهمة طموحاً إلى المعالي، محباً للذكر الحسن، والثناء الجميل ـ سهل عليه أن يبذل في سبيل ذلك كل ما يستطيع بذله من ذات يده أو ذات نفسه.

وحب المجد أسال الذهب من خزائن الأغنياء، وصيَّر نفوس الشجعان نهباً مقسماً بين شفرات السيوف، وأسنة الرماح؛ طلباً لسعادة الحياة بالذكر، وسعادة الممات بالخلود؛ فمن لساقط الهمة ضعيف النفس بدافع يدفعه إلى بذل المال على مكانته الراسخة في قلبه، وامتزاج حبه بلحمه ودمه؟ أيدفعه حبُّ الثناء، وهو لا يشعر بلذته؟ أو خوف المذمة، وهو لا يتألم منها، ولا يحس بمرارتها؟ أم سعادة الحياة وسعادة الممات؟ وهو لا يفهم للسعادة معنى غير ما فهمه الزبرقان بن بدر حينما قنع على لسان الحطيئة من المكارم بلقمة يمضغها، وحُلَّةٍ يلبسها[1].

السابع ـ فساد المجتمع الإنساني: ذلك أن كثيراً من الناس قد بلغ بهم حبُّ المال، والتعبدُ له أن صاروا يعظمون صاحبه لا لفائدة يرجونها، أو خيرٍ يطمعون

---

(١) يشير إلى ما قاله الحطيئة في الزبرقان:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي (م)

فيه ، بل لأنه ذو مال ، وذو المال في نظرهم أحق الناس بالمحبة والإكرام والإعظام ، وإن لم يحصلوا منه على طائل؛ فلو أنهم عبدوا الله -سبحانه وتعالى- بهذا النوع من العبادة لأصبحوا من عِبَاده المقربين ، فمن ذا الذي لا يحب من البخلاء أن ينال هذه المنزلة في نفوس هؤلاء المتملقين وليس بينه وبينها إلا الحرص على ما في يده ، وهو عمل يتكلفه[1] ، ولا يتعمَّل له ، بل هو أشهى الأشياء إليه ، وأكثرها ملائمة لفطرته؛ ليزداد شرفاً وعزاً ، كلما ازداد ثراءً ووفراً.

ومن هنا قال أحد البخلاء لأولاده: يا بني لأنْ يعلم الناس أن عند أحدكم مائة ألف درهم أعظم له في أعينهما[2] من أن يقسمها فيهم.

وقال رجل آخر: يا بخيل؛ فقال له : لا أحرمني الله بركة هذا الاسم؛ فإني لا أكون بخيلاً إلا إذا كنت غنياً فَسمِّ لي المال ، ولقبني بما تشاء.

هذه هي أهم الأسباب التي تألفت منها رذيلة البخل؛ فإن أغفلنا النظر إليها ، وسَلَّمْنا للسائل صحة سؤاله عما يستفيده البخيل من بخله ، حتى على نفسه ، وفرضنا البخيل مختاراً فيما يفعل غير مساق إلى هذا المورد الوبيل بسائق الغريزة الفاسدة ـ كان منال النجم أقرب من تَطَبُّق حاله هذه على قاعدة من قواعد العقل؛ لأنَّ الله -تعالى- خلق الإنسان ، وَرَكَّبَ فيه رغباتِ الشهوات مختلفة ، بعضها نفسي ، والآخر جسدي؛ فهو لا يزال يتطلبها ما لم يعجز عنها؛ فصاحب المال الكثير الذي يقنع بالشملة والمضغة ، والجرعة والظلة ، ويحمل في كل لحظه

---

(١) لعلها: لا يتكلفه. (م)

(٢) لعلها: أعينهم. (م)

أشد الآلام من مقاومة نزوات نفسه، ونزعاتها إلى ميولها ورغباتها ـ لا يمكن أن يحمل حاله على محمل العجز؛ لأنه قادر، ولا على الزهد؛ لأنه ما زهد فيما لا ينفع؛ فيزهد فيما ينفع، ولا على الخوف من الفقر؛ لأن عنده من المال ما يفني الأعمار؛ فهيهات أن يفنيه عمر واحد، ولا على رغبة في سعادة الذرية؛ لأن محبة الأب لولده لا يمكن أن تزيد على رغبته في أن يراه شريكاً له في سعادته.

فأما أن يشقى في حياته، ليسعد ولده بعد مماته فما لا يقبله العقل، ولا يدخل في دائرة من دوائر الفهم، فلم يبق لنا إلا نتوسل إلى علماء النفس أن يأذنوا لنا بالتوسع في تفسير معنى الجنون؛ حتى لا يكون مقصوراً على المعربدين والهاذين، بل يكون شاملاً للعابثين الذين لا يدرون ما يأخذون وما يدعون، والذين يجلبون لأنفسهم بإرادتهم وباختيارهم آلاماً نفسية هي أشد مما يجلبه المجانين على أنفسهم بمناطحة الجدران، ومطاردة الصبيان، كما نتوسل إلى علماء الشرائع أن يضعوا قانوناً لاستخراج المال من خزائن المقترين كما وضعوا قانوناً لحفظ المال في صناديق المبذرين[1]؛ فإن تبذير المال يضر قوماً وينفع أقواماً، أما حبسه فيضر صاحبه، ويضر معه الناس أجمعين.

---

(١) لقد تكفلت الشريعة بكل هذا(م).

١٨ الآداب العامة[1] للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

يتحدث كثير من الناس عن فئة من الشبان المصريين المتعلمين قد ظهروا في هذه الأيام، واتخذوا لأنفسهم في حياتهم العامة طريقاً غير الطريق اللائقة بهم، وبكرامتهم وبمنزلة العلم الذي يزاولونه؛ فأصبحوا متبذلين في شهواتهم، مستهترين في ميولهم وأهوائهم، ينتهكون حرمات الأعراض ما شاءوا وشاءت لهم نزعاتهم، ويعبثون بها في كل مكان عبث الفاتك الجريء الذي لا يخاف مغبة، ولا يخشى عاراً.

وأهول ما يتحدثون به عنهم في هذا الشأن أنهم يغرون الطالبات الصغيرات اللواتي لا يزلن يختلفن إلى مدارسهن، أو اللواتي انقطعن عنها منذ عهد قريب إلى منازلهن، ويَنصِبون لهن صنوف الحبائل، وأنواع الأشراك؛ لاصطيادهن، وإسقاطهن في هُوَّة الإثم والعار، وهذا ما أريد أن أتكلم عنه قليلاً.

أصحيح ما يقولون عنكم أيها الفتيان التعسون أنكم تتخذون صلة العلم التي هي أشرف الصلات، وأكرمها صلةَ فسادٍ بينكم وبين أولئك الفتيات الضعيفات، وأن الحِبَالَةَ التي تنصبونها لهن؛ لاصطيادهن إنما هي حبالة القلم الذي هو أفضل أداة للخير، وأعظم وسيلة للفضيلة، وخير واسطة للأدب والكمال؟

أصحيح ما يقولون عنكم أنكم تكتبون إليهن؛ ليكتبن إليكم، وتُهْدُون إليهن

---

(١) مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة الموضوعة ص٦٠٦-٦١٢.

صوركم؛ ليهدين إليكم مثلها، فإذا امتلأت حقائبكم وجيوبكم بصورهن ورسائلهن أخذتم تنشرونها في كل مكان، وتعرضونها في كل معرض، وأخذ بعضكم يفاخر بكثرة ما يملك منها أو بجماله ورونقه، كما يفخر المرء بأفضل المزايا وأشرف الخصال؟

أصحيح أنكم تقفون لهن بكل طريق، وتأخذون عليهن كلَّ سبيل، وتضايقونهن في مَغداهن ومَرَاحِهن، وحيث ذهبن إلى عمل، أو خرجن لزيارة، أو برزن في مجتمع، فإذا عجزتم عنهن في الطريق أرسلتم وراءهن الرسل في منازلهن يخادعنهن ويخاتلنهن، وربما توسلتم إليهن بأخواتكم وبنات أعمامكم؛ ليسفرن بينكم وبينهن، ويداخلنهن مداخلة الأصدقاء حتى يجتذبنهن إلى منازلكم؟

أصحيح أنكم تقضون أكثر لياليكم مكبين على كتابة رسائل الغرام، وأكثر أيامكم حائمين حول المنازل تنتظرون خدمها الذين اصطنعتموهم؛ ليحملوا رسائلكم إلى ساكنيها، وربما جلستم على أبوابها بجانب البوابين والحوذيين ترقبون نوافذها وكُواها[1] علها تنفرج لكم عما تحبون؟

أصحيح أنكم أصبحتم لا تقنعون في أمر أولئك الفتيات البائسات اللواتي يقعن في مخالبكم بإفساد أخلاقهن، حتى تسجلوا عليهن ذلك الفساد تسجيلاً موقعاً عليه بتوقيعاتهن، مُستَشْهَداً عليهن بصورهن وخطوطهن؛ لتملكوا عليهن أمرهن بعد ذلك، وتحولوا بينهن وبين التفلُّت من أيديكم، والحياة بعيداً عنكم

---

(١) جمع كوَّة: وهي الفرجة في الجدار (م)

في جو غير جوكم، وجوار غير جواركم، عذارى أو متزوجات؟[١]

أصحيح أنكم لا تكتفون بإفساد نفوسهن وضمائرهن حتى تفسدوا عليهن عقولهن وصحتهن، فتشركوهن معكم في شرب الخمر، وتناول المخدرات سائلها وجامدها، فلا تلبث أن تنتهي حياتهن بما تنتهي به حياة النساء الساقطات اللواتي يلفظن أنفاسهن الأخيرة في أقبية الحانات، أو بين جدران المواخير؟

أصحيح أنكم فقدتم في تلك السبيل التي تسلكونها خلق الرجولة والشهامة؛ فأصبحتم تتجملون للنساء بأخلاق النساء، وتزدلفون إليهن بمثل صفاتهن وشمائلهن، وأصبح الرجل منكم لا همَّ له في حياته إلا أن يتجمل في ملبسه، ويتكسر في مشيته، ويرقق من صوته، ويلون ابتساماته ونظراته بألوان التضعضع والفتور، ويقضي الساعات الطوال أمام مرآته متعهداً شعره بالترجيل، وبشرته بالتنضير، وثناياه بالصقل والجلاء، حتى صار ذلك عادة من عاداتكم التي لا تنفك عنكم، وحتى سرى التأنث من أجسامكم إلى نفوسكم، فلم يبق فيكم من صفات الرجولة وأخلاقها غير الأسماء والألقاب؟

إن كان حقاً ما يقولون كله أو بعضه فرحمة الله عليكم أيها الفتيان المساكين، وسلام على الفضيلة والشرف سلامَ مَنْ لا يرجو عودةً، ولا ينتظر إياباً.

إن هذه الفتاة التي تحتقرونها اليوم وتزدرونها، وتعبثون ما شئتم بنفسها

(١) الله المستعان! هذا الكلام يقوله المنفلوطي رحمه الله قبل ثمانين عاماً، فكيف لو رأى الآن ما تفتقت عنه أذهان بعض من بُلوا بالمعاكسات، عن طريق المكالمات الهاتفية، ورسائل الجوال، والجوال المصور، والإنترنت؟

وضميرها إنما هي في الغد أم أولادكم، وعماد منازلكم، ومستودع أعراضكم ومروءاتكم؛ فانظروا كيف يكون شأنكم معها غداً، وكيف يكون مستقبل أولادكم وأنفسكم على يدها؟

أين تجدون الزوجات الصالحات في مستقبل حياتكم إن أنتم أفسدتم الفتيات اليوم؟ وفي أي جو يعيش أولادكم ويستنشقون نسمات الحياة الطاهرة إن أنتم لوَّثتم الأجواء جميعها وملأتموها سموماً، وأكداراً؟

لا تتكون أخلاق الفتاة في عهد طفولتها، أو في عهد شيخوختها، بل في عهد شبابها، فإذا سَلِمَ لها ذلك العهدُ فَقَدْ سَلِمَ لها كلُّ عهدٍ بعد ذلك؛ فَدَعوها تَجْتَزْ هذه المرحلةَ الوحيدةَ من مراحل حياتها شريفةً طاهرةً تجدوا فيها بعد قليل من الزمن خيرَ زوجةٍ للزوج، وخيرَ أمٍ للولد، وخيرَ سيدة للمنزل.

لا تعجلوا عليها، وانتظروا بها قليلاً؛ لتستطيعوا أن تجدوها غداً زوجة طاهرة شريفة في منازلكم بدلاً من أن تجدوها فتاة ساقطة من دراةٍ مُطَّرحة على أعتاب المواخير والحانات.

لا تزعموا بعد اليوم أنكم عاجزون عن العثور بزوجات صالحات شريفات يحفظن لكم أعراضكم، ويحرسن سعادتكم وسعادة منازلكم؛ فتلك جناية أنفسكم عليكم، وثمرة ما غرست أيديكم، ولو أنكم حفظتم لهن ماضيهن لحفظن لكم حاضركم ومستقبلكم، ولكنكم أفسدتموهن، وقتلتم نفوسهن؛ ففقدتموهن عند حاجتكم إليهن.

إنني لا أفزع في أمركم إلى القانون، فالقانون في هذا البلد مدني لا أدبي، ولا

إلى الحكومة ، فالحكومة مشغولة بشأن نفسها عن شأن غيرها ، ولا إلى الدين فقد ضعف شأنه في نفوسكم حتى هان أمره عليكم، ولا إلى آبائكم وأولياء أموركم، فقد عجزوا عنكم، وأصبحوا يبكون مع الباكين عليكم، بل أفزع في أمركم إلى ضمائركم التي هي الأمل الباقي لنا بَعْدَ فَقْدِ جميع آمالنا فيكم؛ فأصغوا إلى صوتها ساعة تسمعوا منها هذا الرجاء الذي نرفعه إليكم، وصوت الضمير أقوى من كل صوت في العالم.

يجب أن لا يُفْتَحَ قلبُ الفتاةِ لأحد من الناس، قبل أن يفتح لزوجها؛ لتستطيع أن تعيش معه سعيدة هانئة لا تنغصها ذكرى الماضي، ولا تختلط في مخيلتها الصور والألوان، ولا أعرف فتاة في هذا البلد بدأت حياتها بغرام قط فاستطاعت أن تتمتع بعده بحب شريف.

ولا أزال أذكر حتى اليوم حادثة ذلك الفتى الذي أهدت إليه حبيبته رسمها موقعاً عليه بتوقيعها، فلما تزوجت ـ وكان لا يحب ذلك منها ـ أراد الانتقام منها فقطع رأس الصورة ووضعها على جسم عار بتلك الطريقة الفنية المعروفة، ثم أرسلها مع كتاب وشاية إلى زوجها ليلة عرسها، فما لبث أن خسرت في لحظة واحدة سمعتها وسعادتها.

وحدثني من أثق به أن كثيراً من الفتيات الفاسدات لا يتزوجن إلا بعد أن يأخذن على أنفسهن عهداً أمام أخلائهن أن يكن لهم بعد الزواج، أي بعد أن يصبحن مطلقات من قيود العذرة وروابطها، وقلما تتزوج فتاة ذات صلات فاسدة من رجل إلا وردت عليه ليلة البناء بها، أو في صبيحتها كُتُبَ الوشاية بها

من الأشخاص الذين اتصلت بهم، وأخلصت إليهم، فانتهى أمرها في حياتها الجديدة بالشقاء والعار.

نحن في حاجة إلى أن نُعَلِّم بناتنا؛ لأننا لا نريد أن يعشن جاهلات متأخرات، فتنحوا عن طريقهن أيها الغواة المفسدون؛ ليستطعن أن يختلفن إلى مدارسهن آمنات مطمئنات على نفوسهن وأعراضهن، ولا تزعجوهن بفضولكم وإسفافكم؛ فإننا لم نبعث بهن في تلك السبيل؛ ليفسدن شرفهن وعفتهن، بل ليضفن إلى فضيلة الأدب والكمال فضيلة العلم والمعرفة.

أفسحوا الطريق لهن، وأفسحوا للعاملة الخارجة في طلب رزقها، والأرملة المسترزقة لبنيها، والفقيرة العاجزة عن قضاء حاجتها إلا بنفسها، والذاهبة لصلة رحمها، ولا تكونوا حجر عثرة في سبيل حرية المرأة في ذهابها وجيئتها، واضطرابها في مذاهب الأرض سعياً وراء رزقها، وقضاء مصالحها، فإن أبيتم عليها ذلك فاعترفوا أنكم أعداؤها القساة المتوحشون؛ لأنكم تأبون عليها إلا إحدى الخطتين القاتلتين: إما الجهل الدائم، أو السقوط العظيم.

الفضيلةَ الفضيلةَ أيها القوم؛ فهي العزاء الوحيد لهذه الأمة المسكينة عن جميع آلامها ومصائبها، والأمل الباقي لها إن ضاعت ـ لا قدر الله ـ جميع آمالها وأمانيها، والشرفَ الشرفَ فربما جاء يوم ندير فيه أعيننا من حولنا، فلا نجد مما تملك أيدينا شيئاً سواه.

رابعاً: مقالات في العمل والهمة

٢٠ النجاح في الحياة[١] للأستاذ أحمد أمين

كل إنسان في الوجود يأمل النجاح في الحياة، رجلاً أو امرأة، صانعاً، أو زارعاً، أو تاجراً، أو أديباً، أو عالماً، وإن اختلفت الصورة التي يرسمها كل لغايته في النجاح.

وهناك صفات كثيرة لابد منها في النجاح، بعضها خاص بنوع العمل الذي يعمله الشخص؛ فالتاجر تلزمه صفات خاصة لنجاحه قد لا يتطلبها نجاح العالم أو الأديب وهناك صفات عامة لابد أن يتصف بها كل مريد للنجاح.

وقد دلت التجارب على أن النجاح في الحياة ـ على وجه العموم ـ يعتمد على الأخلاق أكثر مما يعتمد على العلم، ومن أمثلة ذلك ما يشاهد من تجار كبار كانوا أميين أو شِبْهَ أميين بنوا لأنفسهم مجداً في التجارة، ونجحوا فيها نجاحاً باهراً؛ بجهدهم واستقامتهم، وحسن سمعتهم، ومعرفتهم ـ بالسليقة ـ نفسيةَ الجمهور ثم رزقوا أولاداً أرادوا أن يكونوا خيراً منهم في التجارة؛ فأرسلوهم إلى ألمانيا أو فرنسا أو إنجلترا، وعلموهم على آخر طراز، ونالوا الشهادات العالية في الاقتصاد وما إليه، ثم عادوا وحلّوا محل آبائهم بعد وفاتهم، وكانت النتيجة أن خسرت تجارتهم، وأُقفلت محالُّهم بعد إفلاسهم، وأصابهم الفقر بعد الغنى.

وبين أن آباءهم الأميين، أو شبه الأميين كانوا خيراً منهم، وليس المسؤول عن نجاح الأولين، وفشل الآخرين هو الجهل أو العلم، ولكن الأخلاق، فالأب

---

(١) فيض الخاطر ١٠/ ٢٤٩ ـ ٢٥٢.

ـعلى أميته ـ كان يحسن الأخلاق التي تتطلبها التجارة، فنجح، والابن لم يحسنها، ففشل ولو كان الابن المتعلم في مثل أخلاق أبيه الجاهل لكُتب له من النجاح أكثر مما كتب لأبيه، وهكذا في كل نواحي الحياة.

قد يضرب الناس أمثلة كثيرة بقوم فاسدي الأخلاق نجحوا في الحياة برذائلهم حيث لم ينجح كثير من الناس بفضائلهم، ولديهم أمثلة كثيرة على ذلك وخاصة في أيام الحرب؛ فالتاجر المستقيم ربح بحساب أو لم يربح مطلقاً، والتاجر الذاعر[1] ربح من غير حساب، والموظف الأمين عاش على مرتبه الضئيل، والموظف الخائن حاز الأموال الطائلة حتى لم تعد تهمه الوظيفة، ثم الموظف المتملق لرؤسائه قد يرقى على أكتاف الموظف المستقيم وهكذا...

قد يكون هذا صحيحاً، ولكن لابد أن تحسب راحة الضمير للمستقيم وقلقه عند الخائن، وتحسب احتقار الرأي العام للخائن واحترامه للنزيه، وتحسب حساب المسؤولية أمام الله، وتحسب حساب أن المال الحرام قلما يفيد صاحبه، وأولاده؛ لأسباب دينية ونفسية واجتماعية، وتحسب حسابَ مَنْ ضُبِطوا في حياتهم، فعوقبوا، فخسروا الدنيا والآخرة؛ **فلو حسبت حسابَ هذا كلّه لترددت كثيراً في تسمية هذا نجاحاً.**

وهَبْهُ صحيحاً؛ فأغنياء الحرب الذين اكتسبوا من طريق الرذائل استثناءٌ من الحياة العامة، ومن نجحوا في السلم عن طريق غشهم وخداعهم وملقهم استثناء من الحياة العامة.

---

(١) لعله: الداعر(م).

أما القانون العام في كل زمان ومكان فهو أن النجاح في الحياة يتوقف كثيراً على الأخلاق التي يستلزمها العمل من صفات خاصة وعامة من اعتدال في الحياة، وضبط للنفس، وجدٍّ في العمل، وأمانةٍ واعتماد على النفس، وثقةٍ بها، وإخلاص في العمل، وإخلاص لنفسه، وللناس، وصدق في المعاملة إلى غير ذلك من فضائل.

وكلما رقيت الأمة كان من مظاهر رقيها نجاح الذين يعتمدون على أخلاقهم وفشل الذين يعتمدون على رذائلهم.

وهكذا الشأن في الأمم، تنجح الأمة في عالم التجارة إذا حسنت سمعتها، وحسنت معاملاتها، وحسن إنتاجها، وتفشل إذا انهارت هذه الأخلاق.

وتنجح في السياسة إذا صدقت في وعودها، وشرفت في معاملاتها، وخَدَمَتِ الإنسانية بأغراضها؛ فإن نجحت بغير ذلك فنجاح مؤقت، ونجاحٌ كنجاح الموظف الخائن.

ومؤرخوا الدولة الرومانية ـ مثلاً ـ مجمعون على أن نجاحها في عصر ازدهارها كان مؤسساً على أخلاقها؛ فلما تدهورت أخلاقها تدهورت أملاكها.

ثم قد ينجح المرء في الحياة بسبب النبوغ العلمي النادر، أو الذكاء العقلي اللامع، أو القدرة الفائقة على إدراك الفرص، وانتهازها ولو لم تدعمها الأخلاق الفاضلة، ولكن حتى في هذه الأحوال النادرة لو كان لهذه المزايا الفائقة مستندٌ من أخلاق فاضلة لكان صاحبها أكثر نجاحاً؛ فالأخلاق الفاضلة تقويه وتقوي نجاحه، والأخلاق السيئة تضعفه وتضعف نجاحه.

إن الذكاء اللامع، والعقلية القوية، والقدرة على انتهاز الفرص، ونحو ذلك لو دعمتها أخلاق فاضلة لتوجهت إلى خير صاحبها وخير الناس، وإن هي لم ترتكز على الأخلاق الفاضلة كانت عرضة لأن تتجه للعمل لشر الناس.

وفي ذلك من الخطر ما لا يخفى، والنابغ والذكي أقدر على الخير والشر من الرجل العادي.

وهناك أمر لابد من التنبيه إليه، ويقع في الخطأ فيه كثير من الناس، وهو أن الأخلاق الفاضلة التي تسبب النجاح يجب أن تصحبها اللباقة أو الأدب في المعاملة أو حسن المجاملة أو ما شئت من أسماء؛ فالأخلاق الفاضلة وحدها لا تكفي في النجاح إذا هي اصطحبت بجفاف في المعاملة، أو خشونة في الطباع، أو عدم ظرف ولباقة؛ قد يكون التاجر أميناً مستقيماً، ولكنه خشن غير لبق، وقد يكون الموظف مستقيماً أميناً جاداً في عمله قائماً بواجباته ولكنه جافٌّ غليظ سمج في معاملاته لرؤسائه وللناس، وقد يكون الأديب أو العالم مستقيماً في سلوكه مخلصاً لأدبه أو علمه، ولكنه غير لبق في معاملته لمن حوله، كل هؤلاء قد يفشلون في الحياة، ولا ينجحون ثم هم يخطؤون؛ إذ يظنون ويظن بعض الناس معهم أن فشلهم أتى من استقامتهم، وجدهم، وإخلاصهم.

والحقيقة أن فشلهم أتى من قلة لباقتهم وعدم ظرفهم، لا من حسن أخلاقهم.

واللباقة، والأدب، والظرف في المعاملة لا تكرهه الأخلاق، بل تدعو إليه الأخلاق، وهذه اللباقة غير الكذب وغير الملق؛ فقد يكون الإنسان صادقاً، ومع ذلك فهو مؤدب لبق.

وقد يكون الإنسان صريحاً غير متملق ومع ذلك فهو غير مؤدب لبق.

وعدم اللباقة قد يهدم الصداقة وقد يسبب كثيراً من العداوة وقد يسيء إلى السمعة، وكل ذلك يعرض للفشل، وليس المسؤول هو الأخلاق الفاضلة، ترى هذا في التاجر، والعالم، والموظف، والمحامي، وعضو البرلمان، وجميع صنوف الناس إذا خلوا من اللباقة سببوا لأنفسهم وأهلهم ومن حولهم متاعب تؤدي إلى الفشل والخيبة مع ما قد يكون لهم من كفاية نادرة، وأخلاق فاضلة، على حين أن من دونهم كفاية قد يكونون أكثر نجاحاً للباقتهم وظرفهم.

وشأن المرأة من ذلك شأن الرجل فالمرأة الفاضلة اللبقة أكثر نجاحاً في الحياة الزوجية والحياة الاجتماعية، وقد تكون الحياة جحيماً وليس لذلك من سبب إلا أن المرأة ـ مع استقامتها وسمو أخلاقها ـ قد حرمت اللباقة والظُّرف، فهي تسبب بعدم لباقتها كل يوم مشكلة جديدة قد يصعب حلها.

وبعد: فالأخلاق الفاضلة مع اللباقة والظرف والكياسة عدة النجاح.

٢١ العمل والبطالة[1] للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

لا يزال الذين ينظرون إلى ما أنزل الله بعيون حشوها التبصر، وقلوب ملؤها الاعتبار يؤمنون بأنه لم يغادر صغيرة ولا كبيرة من الإرشاد والتهذيب إلا حث عليها، ولا رذيلة ولا مفسدة إلا صد عن سبيلها.

وبذلك كان المعظِّمون لشأنه، المقيمون لشعائره في أعلى طبقة من أدب النفس وتربيتها على محاسن الشيم، وتمرينها على الأعمال النافعة.

وهذا مما يعرفه الذين آمنوا كما يعرفون أبناءهم، ولكن للهمم خمود، وللعزائم فترة لا يتيقظ من موتتها إلا من استفزَّته صروفُ الحوادث، وأَرَتْهُ كيف ترقى أمةٌ إلى مكانةِ العزِّ، وتنحط أخرى إلى وَهْدَةِ السقوط، ولا تفعل ذلك إلا بمن أدركت منه رمقَ حياةٍ لم يزل نبضُها خافقاً.

أما من سكنت إحساساته، حتى التحق عند أولي البصائر ببهيمة الأنعام- فلا يحس لها وَجْبَة، ولا يسمع لها ركزاً.

وإن تعجب فعجب ما يتخيله بعض من رُبِّي في مهد الجمود من أن هذا الدينِ القيِّم لم يرشد إخوانه إلى إلا العبادات المحضة، وأنه حجاب مسدول بينهم وبين المدنية، وروج هذا التخيل الزائف على البسطاء وقوفهم عند ظواهر آيات وأحاديث واردة في ذم متاع الحياة الدنيا، ولو اتسعت خطواتهم في التدبر

---

(١) السعادة العظمى - عدد٣ - غرة صفر ١٣٢٢ المجلد الأول ص٦٤-٦٧.

لأبصروا ما هو التحقيق.

وإيضاحه أن الشارع يفعل بالمكلف فعل الطبيب الرفيق، إذا أصابت المريض علةٌ بانحراف بعض الأخلاط قابله في معالجتها على مقتضى انحرافه في الجانب الآخر؛ ليرجع إلى الاعتدال.

لما آمن الناس، وظهر من بعضهم ما يقتضي الرغبة في الدنيا رغبةً ربما أمالته عن الاعتدال في طلبها، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إن مما أخاف عليكم ما يفتح لكم من زهرات الدنيا».

ولما لم يظهر ذلك منهم مظنته قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الأعراف:٣٢.

ولما ذمَّ الدنيا ومتاعها، همَّ جماعة من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أن يتبتلوا ويتركوا النساء واللذة والدنيا، وينقطعوا إلى العبادة، فرد ذلك عليهم رسول الله ﷺ ودعا لأناس بكثرة المال والولد بعد ما أنزل الله: ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ الأنفال:٢٨.

وأقر الصحابة على جمع الدنيا، والتمتع بالحلال منها، ولم يزهدهم، ولا أمرهم بتركها إلا عند ظهور حرص، أو وجود منع من حقه.

وقد كان المتعبدون من قبل يترهبون بالتخلي عن أشغال الدنيا، وترك ملاذها والعزلة عن أهلها وتَعمُّد مشاقها، فنفاها النبي ﷺ ونهى المسلمين عنها فقال: «لا رهبانية في الإسلام».

ومن الآيات الشاهدة لهذا الغرض قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ القصص:٧٧، لما وقع الأمر بصرف المال إلى الآخرة في قوله: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ﴾ بين الواعظ بعد بقوله: ﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا﴾ أنه لا بأس بالتمتع بالوجوه المباحة، ما لم يكن صاحبها عن الواجبات في شغل شاغل، قال مادح عمر بن عبدالعزيز:

فلا هو في الدنيا مُضيعٌ نصيبَه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

وعلى نحو هذا جرى ذكر التجارة في معرض الحط من شأنها حيث شغلت عن طاعة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً﴾ الجمعة:١١.

ولما فُقِد ذلك المعنى العارض ذكرت ولم يُهْضَم من جانبها شيء كما في قوله ـتعالى ـ: ﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ النور:٣٧.

فقد أثبت لهؤلاء الكمل أنهم تجارة وباعة، ولكنها لم تشغلهم ضروب منافع التجارة عن فرائض الله، وهذا قول المحققين في الآية.

أما ما يقوله بعضهم من أنه نفى كونهم تجاراً أو باعةً أصلاً فخلاف ظاهر الآية، والسر في اختصاص الرجال بالذكر أن النساء لسن من أهل التجارات والجماعات وما ينبغي لهن ذلك، كما أن تخصيص التجارة من بين سائر أسباب الملك؛ لكونها أغلب وقوعاً وأوفق لذوي المروءات.

ومما يزداد به هذا المقصد بياناً قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ الأعراف:٣١.

فقد بيّن بهاته الآية أن الزينة من علائق العبادة، وأنها غير منافية لها، وأن

العبادة تستدعي الإعراض عن اللذات الحسية المعتدلة.

وبالجملة فإن الآيات التي تحث على العمل والكسب كثيرة قال ـ تعالى ـ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ الجمعة:١٠، ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الجاثية:١٢، ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ المزمل:٢٠.

فالحكيم الخبير مَنْ يَقْدُرُ الوقت حَقَّ قدره، ولا يتخذه وعاء لأبخس الأشياء وأسخف الكلام، ويعلم أنه أجلُّ شيءٍ يصان عن الإهمال والإضاعة، ويَقْصُره على المساعي الحميدة التي ترضي الله وتنفع الناس، وبذلك ينتشر العمران في أطراف البلاد، وتتوفر مواد الصلاح، وتنقطع أسباب الفساد، وذلك هو معنى المدنية.

أما من كتب على نفسه البطالة، فقد رضي لها بأسوءِ الحرف وأخسها؛ إذ لا صُنْعَ لهذا المحترف غالباً إلا التَّمَضْمُضُ بكلمات التشنيع والتسخط على ما يفعله غيره وإن غَزُرَتْ فائدته، ولا تراه إلا متردداً على المجالس التي تساق إليها بضائع اللغو، ليكون أحد الحاملين لأسفارها.

ومما يعجب منه أنك تجد الرجل يحسن القراءة، وحواليه كتبٌ مفيدة يمكنه أن يقتبس منها فوائد يستضيء بها صدره من ظلمات الجهالة ولا يفعل، وتجد آخر يتقن صناعة أَوْ لَهُ استعداد لإتقانها وليس له حركة إلا الانتشار في الطرق كأنما أوجر على قيسها، ولا توفيق إلا بالله.

٢٢ الواجب[1] عبدالسلام الشربيني

لا يعرف الواجب من لا إرادة له، ولا يعرف الإرادة من لا ضمير له، ولا يعرف الضمير من لا عقل له، ولا فائدة في عقل لم تعمل فيه يد المعرفة.

وليست الإرادة أن يستبد الإنسان بسلطته إن كان من ذوي السلطات، أو يتمسك بكل شيء من غير أن يقدر أو يفهم هذا الشيء، فإن هذا يسمى جهلاً لا إرادة؛ لأنه إذا قيل: فلان له إرادة قوية كأنه قيل: فلان هذا له عقل مهذب، وضمير سليم؛ لأنه عرف كيف يستفيد منهما.

والضمير لا يكون إلا بوجود العقل المهذب، فإنَّ تركَ العقلِ بدون تربية وتهذيب يموت الضمير بموته، وينقطع الصوت الذي يؤنبنا على فعل السيئ، والذي يمدحنا ويشجعنا على فعل الحسن، أو بمعنى أصح تتنحى المحكمة المنظمة ـ التي تُنْشَأ لأنفسنا من أنفسنا ـ عن إرشادنا.

والويل كل الويل لمن لا محكمة له من نفسه، فإن لم تكن هذا المحكمة الصالحة، أو إن لم يسع إلى وجودها فكأنه أقام الناس عليه حكاماً ينفذون عليه كل أحكامهم.

ومن هنا يموت ضميره، ويصدأ عقله، وتكون حياته بين الإنسانية والحيوانية.

إن الواجب هو الذي يلهمنا الثبات أمام ما هو مفروض علينا، وهو الذي يجعلنا نزداد ثباتاً أمام هذا الشيء الواجب علينا عمله، لا متطلعين إلى مطامع،

(١) مجلة الهداية الإسلامية، الجزء الثامن، المجلد التاسع ص٥٠٥، صفر ١٣٥٦هـ ـ إبريل ١٩٣٧م.

ولا هائبين أيَّ إنسان ما دمنا في طريق الحق.

والإخلاص للواجب من شيم الأحرار، وهم أحرار؛ لأنهم يفعلون ما وجب فعله بإيحاء من ضمائرهم وعقولهم، وليسوا بعبيد يفعلون ما يؤمرون.

فإن كنا لا ننتظر من عمل الواجب شيئاً إلا أن نصل بفعله إلى ما نبتغي من آمال ومطامع فكأننا نخدع أنفسنا بأنفسنا؛ لأن من يقوم بعمل الواجب مخلصاً في عمله لا ينتظر شيئاً بعد ذلك اللهم إلا تشجيع ضميره، وهذا هو الذي يسمى بالرجل الفاضل.

وليست الفضيلة قولاً خلاّباً مزركشاً، ولكنها عمل وثبات وتضحية، تصحبها المعرفة والنزاهة والشرف.

كثيراً ما أجد الناس يرمون الحياة بالفساد والخبث، والحقيقة أنهم جدُّ خاطئين.

ما فسدت الحياة إلا بفساد الإنسان، وما فسد الإنسان إلا لعدم قيامه بالواجب؛ فلو هذَّب عقله لعمل هذا العقل على تربية ضميره، ولو رقى ضميره لأجبره هذا الضمير على عمل الواجب، ولو عمل كل إنسان ما عليه من واجبات لاتزنت الحياة، ولما رأينا فيها هذا الفساد ولا هذا الخبث، ولا شيئاً من هذه العادات التي يمقتها الناس، مع العلم بأن الناس هم الذين أوجدوا هذه العادات.

ومن الناس من لا يعرف من الواجب إلا ما يقوم به نحو نفسه؛ فهو يقوم بكل ما تتطلبه شهواته، وما سيطرت عليه شهواته إلا لموت ضميره، وأيضاً من يقوم بكل ما تطلبه نفسه من لذات هذه الحياة قد تسوقه هذه النفس إلى الخطايا، وهذا

الحب للنفس هو الذي يجعله يرتكب أكبر الآثام، ويعميه عن معرفة الصالح والطالح، ويجعله عاجزاً عن تقدير الأمور؛ ولذا تجد آخرته منقلبة؛ فبعد أن كان محبًّاً لنفسه يصير عدوًّاً لها، وقد لا يشعر بهذه العداوة.

وهل هذا إلا من ضعف الإرادة، وموت الضمير، وفساد العقل؟

إن خير ما يقوم به الإنسان نحو نفسه هو أن يروِّضها على العمل، ويدربها على الشجاعة، وأن لا يجعلها ألعوبة تتقاذف بها الأهواء، وأن يضعها في المكان اللائق بها.

وقد يجد ذوو النفوس الضعيفة صعوبة في تدريب أنفسهم على هذه الفضائل؛ ولكن ليعلموا أنه لا سعادة لهم بغيرها، فإن كان ظاهرها العذاب فباطنها الرحمة.

وما السعادة إلا أن يعمل الإنسان ما عليه من واجبات، وأن يقوم بهذه الواجبات خير قيام.

٢٣ الغني والفقير[١] للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

مررت ليلة أمس فإذا برجل بائس فرأيته واضعاً يده على بطنه كأنما يشكو ألماً، فرثيت لحاله وسألته: ما باله؟ فشكا إلي الجوع، ففثأته[٢] عنه ببعض ما قدرت عليه، ثم تركته وذهبت إلى زيارة صديق لي من أرباب الثراء والنعمة، فأدهشني أني رأيته واضعاً يده على بطنه، وأنه يشكو من الألم ما يشكو ذلك البائس الفقير، فسألته عما به فشكا إليَّ البطنة، فقلت: يا للعجب! لو أعطى ذلك الغنيُّ ذلك الفقيرَ ما فَضَل عن حاجته من الطعام ما شكا واحدٌ منهما سقماً ولا ألماً.

لقد كان جديراً به أن يتناول من الطعام ما يشبع جوعته، ويطفئ غلته؛ ولكنه كان محباً لنفسه، مغالياً بها، فضم إلى مائدته ما اختلسه من صحفة الفقير؛ فعاقبه الله على قسوته بالبطنة؛ حتى لا يهنئ للظالم ظلمُه، ولا يطيب عيشُه.

وهكذا يصدق المثل القائل بطنة الغني انتقام لجوع الفقير.

ما ظنت السماء بمائها، ولا شحت الأرض بنباتها، ولكن حسد القوي الضعيف عليهما فزواهما[٣] واحتجنهما[٤] دونه، فأصبح فقيراً معدماً، شاكياً

---

(١) مؤلفات المنفلوطي الكاملة الموضوعة ص٦٩ـ ٧١.

(٢) يقال: فثأت فلاناً عن فلان إذا سكنت غيظه عليه.

(٣) زوى عنه حقه: منعه إياه.

(٤) احتجن الشيء: إذا جذبه بالمحجن إلى نفسه، والمحجن الصولجان، والمراد أنه استأثر به.

متظلماً، غير ماؤه المياسير الأغنياء، لا الأرض والسماء.

ليتني أملك ذلك العقل الذي يملكه هؤلاء الناس؛ فأستطيع أن أتصور كما يتصورون حجة الأقوياء في أنهم أحق بإحراز المال، وأولى بامتلاكه من الضعفاء؛ إن كانت القوة حجتهم عليه، فلم لا يملكون بهذه الحجة سلب أرواحهم كما ملكوا سلب أموالهم؟ وما الحياة في نظر الحي بأثمن قيمة من اللقمة في يد الجائع. وإن كانت حجتهم أنهم ورثوا ذلك المال عن آبائهم قلنا لهم: إن كانت الأبوة غلة الميراث فلم ورثتم آبائكم في أموالهم ولم ترثوهم مظالمهم؟ فلقد كان آبائكم أقوياء فاغتصبوا ذلك المال من الضعفاء، وكان حقاً عليهم أن يردوا إليهم ما اغتصبوا منهم، فإن كنتم لابد ورثاءهم فاخلفوهم في رد المال إلى أربابه، لا في الاستمرار على اغتصابه.

ما أظلم الأقوياء في بني الإنسان، وما أقسى قلوبهم، ينام أحدهم ملء جفنيه على فراشه الوثير، ولا يقلقه في مضجعه أنه يسمع أنين جاره، وهو يرعد برداً وقراً، ويجلس أمام مائدة حافلة بصنوف الطعام قَدِيدِهِ وشوائه حلوه وحامضه ولا ينغص عليه شهوته علمه أن بين أقربائه وذوي رحمه من تتواثب أحشاؤه شوقاً إلى فُتَات تلك المائدة ويسيل لعابه تلهفاً على فضلاتها، بل إن بينهم من لا تخالط الرحمة قلبه ولا يعقد الحياء لسانه، فيظل يسرد على مسمع الفقير أحاديث نعمته، وربما استعان به على عد ما تشتمل خزائنه من الذهب وصناديقه من الجوهر وغرفه من الأثاث والريش؛ ليكسر قلبه وينغص عليه عيشه ويبغض إليه حياته وكأنه يقول له في كل كلمة من كلماته وحركة من حركاته: أنا سعيد؛

لأني غني، وأنت شقي؛ لأنك فقير.

أحسب لولا أن الأقوياء في حاجة إلى الضعفاء يستخدمونهم في مرافقهم وحاجاتهم كما يستخدمون أدوات منازلهم، ويسخرون في مطالبهم كما يسخرون مراكبهم، ولولا أنهم يؤثرون الإبقاء عليهم؛ ليمتعوا أنفسهم بمشاهدة عبوديتهم لهم وسجودهم بين أيديهم ـ لامتصوا دمائهم كما اختلسوا أرزاقهم، ولحرموهم الحياة كما حرموهم لذة العيش فيها.

لا أستطيع أن أتصور أن الإنسان إنسان حتى أراه محسناً؛ لأني لا أعتمد فصلاً صحيحاً بين الإنسان والحيوان إلا الإحسان، وإني أرى الناس ثلاثة: رجل يحسن إلى غيره؛ ليتخذ إحسانه إليه سبيلاً إلى الإحسان إلى نفسه، وهو المستبد الجبار الذي لا يفهم من الإحسان إلا أنه يستعبد الإنسان؛ ورجل يحسن إلى نفسه ولا يحسن إلى غيره وهو الشَّرِه المتكالب الذي لو علم أن الدم السائل يستحيل إلى ذهب جامد لذبح في سبيله الناس جميعاً؛ ورجل لا يحسن إلى نفسه ولا إلى غيره وهو البخيل الأحمق الذي يجيع بطنه ليشبع صندوقه؛ وأما الرابع: وهو الذي يحسن إلى غيره، ويحسن إلى نفسه، فلا أعلم له مكاناً، ولا أجد إليه سبيلاً، وأحسب أنه هو الذي كان يفتش عنه الفيلسوف اليوناني «ديوجين الكلبي» حينما سئل: ما يصنع بمصباحه؟ وكان يدور به في بياض النهار، فقال: «أفتش عن إنسان».

٢٤ متاعب الحياة[1] للأستاذ أحمد أمين

الحق أن هناك صنفين من المتاعب: متاعب حقيقية ومتاعب وهمية، وربما كانت الأخيرة أكثر من الأول؛ فمن كان فقيراً لا يجد ما يسد رمقه ورمق أسرته فهذا مصدر تعب حقيقي، ومن رزقت بزوج غير صالح فَتَعَبُها منه تعبٌ حقيقي.

ولكن هذا وأمثاله قليل بجانب المتاعب الوهمية التي يخلقها الإنسان خلقاً والتي تعود إلى حالة مرضية في نفسه أكثر مما تعود إلى سبب خارجي متعب حقاً.

ولنستعرض الآن نماذج من الناس يتعبون متاعب جمة، ومصدر تعبهم هم أنفسهم، وكان في إمكانهم أن لا يتعبوا إذا غيَّروا نفسيتهم، وأصلحوا من نظرتهم إلى الحياة.

هنالك الرجل الذي لا يعمل عملاً إلا وأغضب من حوله؛ فإذا وظف أتعب زملاءه بما يجرحهم من كلام، أو ما يصدر عنه من تصرف، وإذا ساق سيارة لم يبال بما يصنع في الطريق، وإذا أشرف على أسرته لم يعبأ بزوجته ولا ولده، وإذا تصرف أي تصرف في الحياة استطاع بقدرته العجيبة أن يحول تصرفه إلى معركة مهما كان نوع العمل بسيطاً.

وهناك المرأة التي تخلق من كل شيء سبباً للنزاع حول ما تشتري، وحول ما تلبس، وحول ما تسكن، ولا يعجبها أي تصرف من تصرفات زوجها، ولا يعجبها أي عمل من أعمال أولادها؛ فهي ناقمة أبداً ساخطة أبداً متعبة لنفسها

(١) فيض الخاطر، ١٠/ ١٩٣ ـ ٢٠١.

ولأسرتها أبداً.

وهناك الرجل الذي حطم أعصابه بسلوكه، وتوقع الفشل في كل شيء سيحدث فهو إذا تزوج اعتقد أنه سيفشل في الزواج، وإذا رزق أولاداً توقع أنهم لا ينجحون في مدارسهم، وإذا سار في الطريق توقع أنه ستصدمه سيارة أو ترام، وإذا عهد إليه عمل توقع أنه لن ينجح فيه وهكذا...

فنظرته إلى الدنيا نظرة تشاؤم مستمر، وهذه النظرة كفيلة بأن تنغص عليه، وعلى من حوله معيشتهم.

وهناك العيَّابون والظنَّانون الذين لا يعجبهم العجب، فلا أسرتهم تعجبهم ولا حكومتهم تعجبهم، ولا الجرائد إذا قرؤوها، ولا المجلات إذا تصفحوها، ولا التعليم إذا عرضت عليهم أساليبه، ولا أي نظام في بلدهم يعجبهم، ثم هم يعيبون ولا يقترحون، ويهدمون ولا يبنون، فاسودَّ العالم أمامهم، وسودوه من حولهم.

هذه بعض أمثلة من متاعب الحياة الوهمية التي أوجدها الإنسانُ بنفسه، وخَلَقَها بأوهامه أو أعصابه أو تشاؤمه، ثم رمى نفسه بها، وتعب منها، وأتعب من حوله بها.

والعالم مملوء بهذه المتاعب الوهمية التي ليس لها علاج خارجي، وإنما علاجها ليس إلا في إصلاح النفس ونظرتها إلى الحياة.

والناس في هذه المتاعب الوهمية كلابس المنظار؛ فمن لبَّس منظاراً أسود رأى الدنيا كلها سوداء، ومن لبس منظاراً أبيض رأى الدنيا كلها بيضاء.

وفي استطاعة الإنسان إذا ربى نفسه تربية صحيحة أن يتغلب على المتاعب الوهمية ، بل وعلى كثير من المتاعب الحقيقية؛ نعم إن هناك متاعبَ خارجةً عن إرادته كمتاعب الغارات الجوية ، وكوارث الحرب ، وبعض ما أنتجته المدنية الحديثة من شرور ، ولكن هذه نادرة الحصول في الحياة العامة للإنسان.

أما المتاعب اليومية الكثيرة الوقوع فيمكن التغلب عليها بتسليح النفس وتقويتها ، وأهم سلاح للنفس تستطيع به التغلب على المتاعب قدرتها على تعديل نفسها على وفق الصعاب التي تعترضها ، فإذا كانت متاعب الحياة من قلة دخل البيت أمكن بالحكمة في الإنفاق التغلب على الصعاب ، وإذا كان التعب من غضب الزوجة أو الزوج فالعلاج أن يتعود الحلم ، ويقابل الإساءة بالإحسان.

وكلما استطاع الإنسان أن يعدِّل نفسه وفق الظروف التي حوله كان أسعد حالاً ، وأقل متاعب.

يُروى أن ستة أشخاص قضت عليهم الظروف السيئة أن يُحبسوا في حجرة ضيقة مغلقة ستة أشهر ومعهم طعام قليل ، وماء قليل ، فأما اثنان منهم فتبرما أشد التبرم من هذه الحياة ، ولم يريا بصيصاً من الأمل يسري عنهما؛ فأصيبا بالجنون.

وأما ثلاثة آخرون منهم فنظروا إلى هذه الحياة بمنظار أقل سواداً من الأولين؛ فأصيبوا بنوبات عصبية متقطعة ، وأما السادس فأبعد عن ذهنه ما استطاع فكرة البؤس الذي هو فيه والتفكير فيما سيحدث ، وشغل نفسه بتأليف كتاب يستمده

من أفكاره وآرائه ومعلوماته؛ فلما فتح عليهم الباب ليطلق سراحهم كانت حالتهم ما شرحنا، ولا فرق بينهم إلا أن من نجا منهم عدَّل نفسه وفق ظروفه، وأما الخمسة الآخرون فلم يستطيعوا ذلك.

إن كثيراً من متاعبنا تنشأ من جُبننا واستسلامنا للمتاعب تطغى علينا، وتخيفنا، وتحاربنا؛ فتهزمنا.

أما من شجع قلبه، وصمم على أن يتغلب على المتاعب مهما كثرت، وكبرت فإنه يغلبها، ويظفر بها، وينجو من أضرارها.

إن موقف الإنسان أمام المتاعب كموقف الجنود في ميدان القتال، إن فروا هزموا وتغلب العدو عليهم، وإن صبروا واحتملوا وصمموا على أن يغلبوا العدو فازوا وظفروا.

من أراد أن يعالج نفسه علاجاً حقيقياً ليخفف عنه وعمن حوله ما يصدر عنه من متاعب، فليعرف نفسه أولاً.

-٢-

حدثتكم في الحديث الماضي عن متاعب الحياة وأن كثيراً من هذه المتاعب وهمي، وبعضها حقيقي.

واليوم أذكر لكم أن هذه المتاعب بعضها يكون مصدرها الشخص، وبعضها يكون مصدرها النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والأخلاقي الذي يحيط به مما له به علاقة.

فأبدأ بذكر المتاعب التي مصدرها الإنسان نفسه؛ فقد نرى ثلاثة أشخاص أو

أكثر في ظروف واحدة أو متشابهة من حيث الدخل ومن حيث الوظيفة، ومن حيث الأسرة ونحو ذلك.

وأحدهم سعيد في حياته فرح مسرور مغتبط يحمد الله على ما هو فيه من خير، والثاني شقي منقبض الصدر كثير الشكوى متململ مضطرب، والثالث وسط بين هذا وذاك ليس بسعيد كالأول، ولا شقي كالثاني، يبكي ويضحك، ويحزن ويفرح، ولا فرق بينهم إلا حالتهم الشخصية.

ومن الحكايات الطريفة في ذلك أن دلوين كانا مربوطين بحبل ومعلقين في بكرة على بئر ورجل واقف على البئر يستقبل الدلو الملآن، ويفرغه في حوض ثم ينزله إلى البئر ثانية بواسطة البكرة، وفي العادة أن الدلوين يتقابلان في منتصف البئر أحدهما مملوء والآخر فارغ، فلما تقابلا سأل الدلو الفارغ الدلوَ المملوء: لماذا تبكي؟ فقال: وكيف لا أبكي، وقد ملئت ماء رائقاً وهأنذا أصعد ليفرغني الرجل ثم ينزلني إلى قاع البئر المظلم وأنت لِمَ ترقص؟

قال الدلو الفارغ: وكيف لا أرقص وأنا أنزل أمتلئ ماءً رائقاً ثم أصعد إلى الجو المضيء المشمس؟ وهكذا يعمل الدلوان عملاً واحداً وأحدهما يبكي منه، والآخر يرقص له.

وفي الناس كثير من أمثال هذين الدلوين يعملون عملاً واحداً وظروفهم واحدة، وبعضهم يبكي ويضحك بعضهم.

كل إنسان مهما صح جسمه، ومهما صح عقله فيه نقطة ضعف جسمي ونقطة ضعف عقلي، وليس إنسان سليم الجسم سليم العقل سلامة تامة، وكلنا

نألم من هذا الضعف وهذا المرض إلى حد ما.

والجسم والعقل مرتبطان ارتباطاً وثيقاً؛ فالجسم يؤثر في النفس والعقل، والنفس أو العقل يؤثر في الجسم؛ فالإنسان قد يحس قوة في جسمه؛ فَيَصِحُّ مزاجُه ويصح تفكيرُه، وقد يمرض جسمه؛ فيسوء مزاجه، ويسوء تفكيره، بل قد يأكل أكلة ثقيلة فيثقل ذهنه، ويأكل أكلة لطيفة فتنبسط نفسه، وينبسط تفكيره، وقد تخجل الفتاة فيحمر وجهها، وقد يغضب الرجل فتحمر عيناه، ويكاد ينقدح منهما الشرر، وتتوتر أعصابه، وقد يخاف الإنسان فترتعش أطرافه، ويقف شعر رأسه، وآلاف الأمثلة من هذا القبيل تُرينا أثر الجسم في العقل، وأثر النفس في الجسم.

وكثير من متاعب الحياة الشخصية سببه المرض الجسمي، أو العقلي، وعلى الخصوص هذا المرض العقلي أو النفسي.

وكثير من متاعب الحياة ترجع إلى مزاج الشخص، والمزاج هو أساس ما يصدر عن الإنسان من سلوك، **وقد كان الأقدمون يقسمون الأمزجة إلى أربعة**: دموي، وبلغمي، أو ليمفاوي وصفراوي، وسوداوي، وقد خصصوا لكل مزاج من هذه الأمزجة صفات خاصة؛ فالدمويون يمتازون بحب الحركة، والمرح، والخفة، وسعة الأمل، والطيش، وقلة الصبر.

والبلغميون يميزهم بطء الحركة والخمول، وقلة الجلد والوداعة، والميل إلى السكون.

والصفراويون يميزهم الطموح، والعناد، وحب العمل، والشجاعة.

والسوداويون يميزهم الانقباض، والحزن، والتشاؤم، والتأمل، والتواضع.

وقد قسموهم إلى هذه الأقسام بناء على أن في الجسم سوائل مخلوطة، إذا غلب سائل منها نسب المزاج إليه، والعلم الحديث لا ينكر أقسام الناس إلى هذه الأمزجة، ولكن يعللها بأسباب أخرى، ويرى أحد علماء النفس أن الناس كلهم يمرون في حياتهم بجميع الأمزجة؛ فهم يبدؤون دمويين في الطفولة، ثم سوداويين في الشباب، ثم صفراويين في الكهولة، ثم بلغميين في النهاية.

وأيّاً ما كان فمزاج الإنسان، أو كيفية سلوكه في الحياة قد تكون مصدر سعادة له، وقد تكون هي مصدر المتاعب، والمسؤول عنها هو الشخص نفسه.

استعرض كثيراً من الأسر، وابحث سبب متاعبها تجد أن أسرة مثلاً سبب متاعبها ما أصيب به الزوج أو الزوجة، أو هما معاً من حدة المزاج، وسرعة الغضب؛ فهي أو هو يغضب لأتفه الأسباب، يغضب من طبق كسر، أو قرش ضاع، أو طفل عمل عملاً لايرضاه أو كلمة نابية، أو غير نابية صدرت من أحد أفراد الأسرة فيغضب، فإذا غضب خرج عن وعيه، وأتى بأعمال جنونية أو شبه جنونية، وكثيراً ما تسبب هذه الأعمال متاعب متسلسلة يصعب حلها.

وهكذا تصبح الأسرة بين أعمال شاذة ومعالجة لنتائجها السيئة، ولا سبب لهذا كله إلا مزاج شاذ فالمرض في أصله مرض نفسي تسببت عنه أعمال مادية شاذة ـ أيضاً ـ.

وهذه زوجة أصيبت بالإسراف؛ فهي تستولي على مرتب الزوج في أول الشهر، وتنفقه في كماليات من فستان فخم، أو أدوات زينة، ونحو ذلك، وتظل

الأسرة بعد هذا التصرف في عذاب ونزاع وعتاب، ولوم بقية الشهر.

وهذا التبذير إذا دققت النظر فيه وجدته يرجع إلى مرض نفسي أو إلى مزاج خاص سببه إما غلبة حب الظهور عند الزوجة، أو حب التعالي على مثيلاتها، أو الاعتداد بالجمال، والاعتداد بالنفس، ويضاف إلى ذلك عدم الاكتراث بالنتائج، وعدم النظر في العواقب؛ فهي تنفعل انفعالاً وقتياً، وتتصرف حسب هذه الدوافع الوقتية من غير النظر إلى النتائج.

وهذا رجل يعذب الأسرة بسقوطه في (كيف) من الكيوف وإدمانه عليه، فهو ينفق على (كيفه) أكثر ماله، ويسطو على ما لزوجته وأولاده من حقوق في هذا المال، كما أنه يفقد بهذا (الكيف) الاستمتاع الصحيح بحياة الأسرة، وأداء واجبها وما عليه من التزامات نحو زوجته وأولاده، وهذا ـ أيضاً ـ مرض نفسي، يرجع إما إلى وراثة ورثها عن أبيه، أو إلى تقليد لأصحاب صحبهم، أو انهيار أعصاب، حسَّن له بعدها أصدقاء السوء أن ينتشل أعصابه المحطمة (بكيف) من الكيوف فزادتها تحطماً.

وهذه فتاة نغَّصت على الأسرة حياتها بمزاجها، فهي تريد أن تتزوج من لا يرضاه أهلها، أو هي متسامية جداً لا يعجبها كل من تقدم إليها، ورسمت لنفسها حياة خيالية لا يحققها الواقع، أو هي تأثرت بمناظر السينما فأرادت نوعاً من الحياة غريباً عن حياتنا الشرقية، وتقاليدنا الاجتماعية؛ فهي في نزاع دائم مع أسرتها لا تريد ما يريدون، ولا يريدون ما تريد، وهذا ـ أيضاً ـ يرجع إلى مزاج الفتاة، وسرعة تأثره بالمحيط من غير نظر في النتائج، ومن غير تفكير عميق فيما

يقلد وما لا يقلد وهكذا وهكذا من آلاف الأمثلة التي تدل على أنَّ كثيراً من متاعب الحياة سببه مرض نفسي، أو مزاج شاذ؛ فيسبب لنفسه ولمن حوله من أسرته، ومن يتصل به متاعب لا تنتهي، وقد يكفي تصرف واحد من هذه التصرفات الشاذة في متاعب سنين تستوجب من الألم المتعاقب المتسلسل ما لا يعد ولا يحصى.

ولا يمكن التغلب على المتاعب التي من هذا القبيل إلا إذا عرف السبب، ثم عولج علاجاً صحيحاً عميقاً لا علاجاً سطحياً ظاهراً.

وهذه هي نقطة الصعوبة في الموضوع؛ فكثير من الأمراض النفسية لا يمكن علاجه إلا إذا عرف أصله، وعرف تاريخه، وفي كثير من الأحوال يرجع المرض النفسي إلى حالة الشخص في طفولته، أو حادث قديم حدث له في شخصه أو حدث في أسرته، وعلى ذلك أمثلة كثيرة؛ فالأبوان اللذان لم يرزقا إلا طفلاً واحداً وهما على حالة جيدة من الثراء يعتادان أن يجيبا الطفل من صغره إلى كل مطالبه، فلا يذوق ألم الحرمان، ولا يتعود شيئاً من التضحية؛ وليس له أخ أو أخت يعلمانه في البيت درس الأخذ والعطاء والأثرة والإيثار؛ فينمو عنده الاعتداد بشخصه، وعدم النظر إلى شيء إلا إلى نفسه، فَمَالُ الأبوين له وللذاته، وصحتهما ومتاعبهما لراحته، وينمو وهو مدلل، يغضب أشد الغضب إذا لم تحقق رغبته، هكذا هو في بيته وخارج بيته.

مثل هذا الشاب يكون مصدراً لمتاعب لا تنتهي؛ متاعب في مدرسته عند تعلمه، ومتاعب في وظيفته إذا وظف، ومتاعب في زواجه إذا تزوج، فإذا أردنا

أن نعرف السبب في متاعبه لا يمكن أن يتضح إلا بالرجوع إلى حالته في الطفولة، كما رأينا، وإذا أردنا العلاج فلا يصح علاج إلا بعد معرفة سبب المرض.

وهكذا لا يمكننا أن نعرف سبب المتاعب التي تصدر من بخل البخيل، وإسراف المسرف، وغضب الغضوب، وخوف الجبان، والوقوع في مصائب (الكيوف) ونحو ذلك إلا بالرجوع إلى أساسها الأول، كيف نشأ الطفل في بيته، وما هي الظروف التي أحاطت به، وما أصل هذه العادات السيئة، وكيف نمت، وإلام وصلت؟ وفي ضوء هذا كله يمكن معرفة العلاج إذا حسنت النية، وصدقت الإرادة.

أما غير ذلك فإنما يكون علاجاً كما يُعالج الصداع بحبة من الأسبرين من غير أن يعرف السبب الحقيقي للصداع، فقد يكون المعدة، وقد يكون الأمعاء، وقد يكون الأسنان، وهذا ما جعل قول سقراط باقياً على الدهر وهو «اعرف نفسك».

فمن أراد أن يعالج نفسه علاجاً حقيقياً ليخفف عنه وعمن حوله ما يصدر عنه من متاعب فليعرف نفسه أولاً، في أي نقطة هو ضعيف، وبأي مرض هو مريض، ثم يبدأ بالعلاج.

وليس هذا بالأمر الهين، فمعرفة النفس لا بد لها من كشف ستائر تحيط بها، والدخول منها إلى قاعة مظلمة لابد من تسليط الضوء عليها، وكثيراً ما يعيقه غرور الإنسان واعتقاده الكمال في نفسه، أو يعوقه جبنه وعدم جرأته على كشف هذه الستائر عن الوصول إلى حقيقة المعرفة.

ولكن على كل حال هذا هو العلاج الوحيد للتغلب على متاعب الحياة التي مصدرها مزاج الشخص، أو حالته النفسية المرضية.

١٦ كبر الهمة[1] للشيخ محمد الخضر حسين

جرت سنّة الله في خلقه، أن لا ينهض بَأَصْر المقاصد الجليلة، ويرمي إلى الغايات البعيدة، التي يشد بها نطاق السيادة الكبرى - غير النفوس التي عظم حجمها، وكبرت هممها، فلم تعلق إرادتها بسفاسف الآمال.

ولذلك لما بعث -عليه الصلاة والسلام- لإسعاف الأمة بجميع وسائل الحياة الأدبية أنشأ يؤسس مبادئ العزة والكرامة، ويعبر عن مكانتها الرفيعة باليمين والشمال، فاجْتَثَّ من الأنفس شجرةَ الذلة من جذورها، وأعتق رقابَها من الاستكانة؛ مخافة أن تهوي بها إلى أدنى درجات الضعة والدناءة، ولم يأل جهداً في إجراء دم الشهامة وكبر الهمة في عروقها الميتة، حتى أخرجها في قالب الكمال، لا تتردد إلا على أبواب الفضائل، ولا تبسط ساعديها إلا لمهمات الأمور.

أليس من الإيماء إلى هذا الخلق العظيم النهي عن السؤال لمن وجد طريقاً عملياً للاكتساب؟

في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، ليأخذ أحدكم حبله، فيأتي بحزمة حطب على ظهره، فيبيعها، فيكف الله بها وجهه- خير له من أن يأتي رجلاً أعطاه الله من فضله، فيسأله، أعطاه أو منعه».

ومن أحكام الشريعة إباحة التيمم للمكلف، وعدم إلزامه بقبول هبة ثمن الماء

---

(١) السعادة العظمى - عدد١٤، ١٦ رجب ١٣٢٢هـ المجلد الأول، ص٢٠٩-٢١٢.

للوضوء؛ لما في ذلك من المنة التي تنقص حظاً وافراً من أطراف الهمة الشامخة.

ومنها عدم إلزامه باستهابة ثوبٍ يستر عورته في الصلاة، وأبيح له أن يصلي عارياً؛ صيانة لضياء وجهه من الانكساف بسواد المطالب.

وليحذر الذين يحاولون الوصول إلى هذا الخلق الأسمى، أن يهرعوا إليه من طريق يدع التواضع دبر آذانهم، فيعودون كما بدؤوا.

ليس من كبر الهمة الترفع عن الرجل يبسط لك وجهاً رحباً، ويمنحك لساناً رطباً، وتشهد لك ألمعيتُك الوقَّادةُ بمطابقة ظاهره لما يُكِنُّه ضميره، بل ذلك نفور من النفس، وجموح إلى جهة العلو بغير انتظام، وهو ما نسميه كبراً.

ماذا يردع النفوس عن أنها تُرى حيثما نهى الله، ويغلق في وجوهها أبواب الفسوق والملاهي؟ كِبَرُ الهمة.

ماذا يقبض من الأيدي ويسد اللهى عن ابتلاع ما يدلي به الظالمون ليأكلوا فريقاً من أموال الناس؟ كِبَرُ الهمة.

ماذا يوحي إلى الرجل أن يقيم لسائر تقلباته وزناً بالقسط، حتى إذا جَسَّتْها يد الناقد الحكيم لم تجد في حركاتها طيشاً عن الأغراض التي ترمي إليها ذوو العقول النيرة؟! كبر الهمة.

كبر الهمة يعقد الألسنة عن الانطلاق في مجاري التملق والمداهنة، ويصفد الأقدام عن غشيان المنازل التي لا تطؤ فيها على بساط الاحترام والحفاوة.

كبر الهمة يصيِّر العالم الأمين عوداً مُرّاً، ومكسراً صلباً يقف للمبتدعين المرجفين موقف الشجى بين الحلق والوريد، ويصارعهم بقول الحق الذي تشتد

عراه على أكنتهم إبراماً.

كبر الهمة يستفز الموسر الكريم إلى أن يقول بمال الله الذي أتاه هكذا وهكذا، متحرياً به مصارف المبرات التي تقربه إلى الله زلفى.

يقف أحدٌ أمام بعض الكبراء؛ فيسترسل في مخاطبته بثبات جَأْشٍ، وسكون في الأعضاء ومَهَلٍ في القول، ويعقبه آخر؛ ليقوم مقامه؛ فيرجف فؤاده، وترتعد فرائصه، ويتعثر لسانه في أذيال الفهاهة؛ فهل يختلج في ضمير ذي عقل رشيد، أن الأول اتسم بالقحة المذمومة، والآخر طبع على الحياء المحمود؟

معاذ الله، إنما هو كبر الهمة وضعفها يمثلان لك الإنسانية بالسلك الذي ينظم خرزاً كثيراً تباينت معادنها شرفاً وحطة، واختلفت مناظرها سماجة وجمالاً؛ فمن الناس من تسمو بهم نفوسهم إلى الوقوف على أسرار الهداية، فيتقلبون في أبوابها، ويتمسكون بأسبابها إلى أن تعرج بهم إلى الأفق الأعلى، فَيحُلُّون من العلم بطرقها محل القطب من الرحى، وهذا الفريق هو الذي تستضيء الأمة بأنوار عقولهم، وتتوكؤ على كواهلهم القوية، ولا ينوء بهم عبؤها الرزين، فيخطون بها سراعاً إلى مجادة شامخة الذرى، ويوقدون في كل شعبة منها سراجاً منيراً.

ومنهم من تتضاءل هممهم حتى يتمكن الذبول والخمول من نواصيهم، فيزلقان بهم إلى الحضيض الأسفل من الحطة والرذالة، وتُمحى من إحساساتهم آياتُ الشعور، ورسوم العواطف التي يكون بها الإنسان رجلاً حقيقياً، فينشرون الخبائث نشر الفريق الأول للأفعال المحمودة.

وَتَقهْقُر الأمة وشقاؤها بمقدار ما يتناسل فيها من مثل هؤلاء الأرذلين.

تجد الذين تربوا على مبدأ الإذلال والإهانة، يحبون أن تشيع فاحشة الذلة في إخوانهم الذين آمنوا، فيتغالون في إطراء كل مَنْ تزمل بثياب الهوان، وخفض لهم جناح المسكنة.

وإنها لأحدى العلل التي نخرت منها عظامنا من قبل أن يدركنا الموت الذي يجعلنا من أصحاب القبور.

أما الحر الذي رُبِّي في مهاد العز، وفُطِر على كرامة النفس فإنه لا يرفع إلا من شأن شريف الهمة، الناسج على مثال العزة التي هي من شعائر الإيمان.

وإذا استبنا أن كبر الهمة سجية من سجايا الدين، تصدر عنها الأعمال العظيمة، وتضم تحت جناحيها فضائل شتى ـ فَلِمَ لا نعقل عليها نفوس أبنائنا، ونرشَحَهم بلبانها في أدوار تربيتهم الأولى؟ ليستشعروا بالآداب المضيئة، ويتجلببوا بالقوانين العادلة، ولنا حياة طيبة في العاجل، وعطاء غير مجذوذ في الآجل.

خامساً: مقالات في المدنية والعمران

٢٦ مدنية الإسلام والعلوم العصرية[(١)] الشيخ محمد الخضر حسين

خذ أيها الباحث الحكيم بمجامع نظرك السديد، وجُلْ به جولة بديعة الإحاطة في قوانين الشريعة المقدسة، التي نعت بها الكتاب العزيز، وأرشدت إليها السنَّة، ثم ارجع البصر كرتين إلى الأسباب أسبابِ ارتقاء الأمم الحية، وبسطها أجنحة الاستعمار في الأرض، ولتكن هكذا كل ذرة من ذرات جسمك عيناً تبصر، وأذناً تصغي، وفؤاداً يذكر، إلى أن تتأصل في صدرك شجرة الحكمة البارعة، وتتفرع أغصانها تحت طي لسانك.

وهلم إلينا من بعد نتجاذب أطراف الأحاديث بيننا بقسطاس صحيح، ولهجة صادقة لا تدخل على الأحكام إلا من باب الإنصاف؛ لكيما نعلم عين اليقين أَنْ لا سبيل على استيفاء لوازم الحياة الاجتماعية إلا بإقامة قواعد الدين على الوجه الذي اهتدى إليه الخلفاء الراشدون، ومن كان على شاكلتهم من السلف الصالح، وهو المثال الذي لابد لنا من محاذاته ولو بعد حين من الدهر؛ لأنهم أبناء العصر الذي نزل فيه القرآن، وأخوان اللغة التي ورد على أساليبها؛ فهم أعرف بمساقاته، وأعرق في فهم مغازيه ممن سواهم.

ما تسنى لهم انتهاج تلك الطريقة الواضحة إلا لخلو جامعتهم -على سعة دائرتها- من طائفة تجهل ما هيَّةَ الحياة الصالحة وقفت عُرْضَةً في وجوه الخلف تسد عليهم طرق العلم بأسباب الانتظام في شؤونهم السياسية والمعاشية حتى

---

(١) السعادة العظمى - عدد١٢، ١٦ جمادى الثانية ١٣٢٢ المجلد الأول ص١٧٧-١٨٠.

توهم ذو بصيرة عشواء أن الإسلام والنظام لا يجتمعان.

ولربما رجفت هذه الراجفة في صدور ضعفاء الأحلام من الناشئة الحديثة.

ما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً أيُّ مدنية قويمة لم يكشف الإسلام غشاوتها؟ أو حضارة نافعة لم ينشر بين أخوانه لواءها؟

تسابقت الدول في طباق العمران بمعرفة العلوم الرياضية التي من فروعها الحساب، والمساحة، وعلم التكسير، وعلم رفع الأثقال، وعلم الحيل المائية، والهوائية، والمناظر، والحرب، والهيأة، والميقات، والفنون الطبيعية التي من فروعها علم الفلاحة، وعلم المعادن، وعلم الطب وفروعه.

ومن كان على بينة من الشريعة القَيِّمة عارفاً بغايات هذه الفنون لا سيما في مثل هذا العصر الذي كشف عنا الغطاء، وأرانا من نتائجها ما أرى-لا يسعه إلا استلحاقها بالعلوم الإسلامية؛ لتستخدم في بعض الشعائر المفروضة، ويتطرق بها إلى اغتنام السعادة في الدنيا التي هي الكافل للسعادة الأبدية.

ولقد فعل ذلك ذوو الفطر السليمة من علمائنا الذين لم ينكثوا أيديهم من التأسّي بذلك السلف في التمتع بلذة النظر، وأخذ الأشياء النافعة من أي وجهة صدرت؛ فَمَحَّصوها بتطبيق أصول الديانة عليها، وغرسوها في معادن معارفهم العالية؛ فَرَبَتْ، وأنبتت من كل زوج بهيج.

ولقد أَعَجبَ مَنْ سوانا نباتُها، فاستمالوا إليهم غصونها؛ فاستحكمت جذورها عندهم، واجتنوا منها ثمراً لذيذاً.

شهد الله أن ليس الغرض من ترديد صدى هذه الجملة الأخيرة على الآذان

نشر فضيلة كانت مطلوبة، أو الإعلان بمنة قوبلت بالكفران، كلا! ثم كلا؛ إن ذلك لا يجدي نفعاً، ولا يطفئ لوعة، بل المراد إيقاد نار الغيرة على استرجاع ما أَوْرَثَناه آباؤنا الأولون.

وليست العلة في تجافينا عن هذه الفنون، وعدم تعهدها بالتنمية إلى أن أصبحت بضاعتها لدينا مزجاةـ إلا ما خُيِّل إلى بعض الجاهلين بحقائقها من أنها حية تسعى، تساور الأفكار فتلسع عقائدها الصحيحة:

وإذا امرؤ لسعته أفعى مرة ... تركته حين يُجَرُّ حبلٌ يَفْرَقُ

ثم سرت عدوى ذلك الوهم إلى إحساسات كثير ممن يظن بهم القيام بأحمالها الخفيفة، ولربما تحاشى عن تعاليمها بعض العالمين بما فيها من المنافع؛ رهبة من إساءة الظن به، واتهامه بالإلحاد الذي تزعم العامة أنه منقوش على كل سطر من صحائفها.

هذا مع إخلادنا إلى الخمول إخلادَ مهيضِ الجناح إلى الأرض؛ فلا تتطاول أعناقنا، أو تشخص أبصارنا إلى الاستطلاع عن الوسائل التي تأخذ بساعد الأمة إلى التدرج في طبقات السؤدد والاستعلاء؛ فنسعى لها سعيها.

ومن الناس مَنْ أشربوا في قلوبهم اليأس والقنوط، فلا يرجون للإسلام تقدماً، فيميتون في أنفسهم كل قوة واستعداد، ويثبطونها عن المجاراة في مثل هذه الفنون، مما يستجلب به مصلحة، أو يدرأ به مفسدة، فإذا سمعوا منادياً ينادي لمراجعة التفاتنا، واستدراك ما فاتنا نَغَضُوا إليه رؤوسهم سخرية، كأنما تَطَلَّب نشر الأموات، أو كلفهم البلوغ إلى أسباب السموات، سبحانك هذا ضلال مبين

نُنْفِدُ له ماء الشؤون، ونأسف له أسفاً أليماً.

كما أن بعض المتدربين في هذه الفنون، قد يأخذهم التعاظم شأن المقلد الأعمى إلى أن يلقوا على أفواههم كلمات يهتفون بها جانب العلوم الدينية ومستتبعاتها، يرددونها بكل مكان، ويلوكونها لوك الخيل للشكائم صباحاً ومساءاً، غدواً ورواحاً، ويريدون أن تَرَدَّى الناس جميعاً في سواء الجهالة بها.

أبمثل هاته الإرادة ينفخون في عروق الأمة حياةً جديدة؟ أولم يشعر هؤلاء بأن علوم الديانة هي عنصر المدنية الكبرى؟ ولماذا لا يقتدون بأهل النجارة والحياكة والفلاحة وسائر الصنائع؟ فإنهم على عِلْم -أعانهم الله- أن الهيأة الاجتماعية لا يستقيم أَوَدُها إلا بحركاتهم اليومية، ولا يحومون حول هذه الآراء العقيمة التي لا تصدر إلا ممن حرم نظره من التعلق بما وراء هذه الحياة الدنيا.

اللهم ألهمنا طريقة عادلة يستوي على ظهرها القيمِ السائرون في مضيق الإفراط، والخابطون في مهامه التفريط.

٢٧ مدنية الإسلام والخطابة[1] للشيخ محمد الخضر حسين

أتى على هذا العالم حين من الدهر، ومعظمه تحت قبضة دولتي الفارسيين والرومانيين، لا يخشون فيه منازعاً ولا يهابون معارضاً، وذلك قبل بعثته -عليه الصلاة والسلام- بنحو ثلاثة قرون.

وانتشبت خلال هذه الأزمنة المستطيلة والآماد البعيدة بين هاتين الدولتين حروب دموية كان شررها مستطيراً، ولم تأخذهم بأبناء جنسهم المكرم رأفةٌ تغل أيديهم عما أرهقوهم به من الخسف والعدوان، وساموهم به من سوء العذاب الذي كانوا يصبون صواعقه على رؤوسهم صبّاً متوالياً.

انقسمت دولة الرومان سنة ٣٩٥م إلى قسمين، قسم في الشرق وعاصمته القسطنطينية، وقسم في الغرب وعاصمته رومة، وبعد هذا التقسيم بنحو ثمانين سنة، منيت الدولة الرومانية الغربية بغارة شعواء شنتها عليهم البرابرة، اندفعوا عليهم من آسيا اندفاع السيل مِنْ عَلُ؛ فأيقظوا في قارة أوروبا فتنةً رمت بشواظها ذات اليمين وذات الشمال، وعاثوا فيها بأضرب الفساد وأنواع البغي، وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وكذلك يفعل المتوحشون.

كل ذلك يفصِّله لك التاريخُ بتبيان لا يشوبه غموض، ويذكرك بأيامه الخالية تذكرة نافعة.

ولم تزل تلك الفتن قائمة على سوقها، والجهالة المظلمة ضاربة أطنابها

(١) السعادة العظمى - عدد١٣، غرة رجب ١٣٢٢هـ المجلد الأول، ص١٩٣-١٩٧.

بمشارق الأرض ومغاربها، إلى أن انفتحت في الحجب المحدقة بأنوار الحضرة المحمدية كوةٌ نفذت منها بوارق لمعت في جزيرة العرب أولاً، ثم انبعثت منها أشعة إلى سائر أطراف المعمورة، فقشعت ببهرتها سحائب الهمجية الغالبة، وأخمدت نيران الضلالة المرهقة.

وإن المنصفين من مؤرخي الإفرنج على ذلك لمن الشاهدين، قال أحد فلاسفتهم وكتّابهم «شارل ميسمر» في كتابه تذكار العالم الإسلامي: «الإسلام أفاد العالم، فيلزم أوروبا أن تحافظ على حياة أهله».

وقال المسيو «دروي» أحد وزراء معارف فرنسا السابقين في كلامه على الأمة العربية ـ نقلته إحدى المجلات المصرية ـ: «وبعد ظهور النبي ﷺ الذي جمع قبائل العرب أمة واحدة تَقَصَّد مقصداً واحداً، ظهرت للعيان أمة كبيرة، مدَّت جناحها من نهر تاج في إسبانيا إلى نهر الجانج في الهند، ورفعت على الإشادة أعلام التمدن في أقطار الأرض أيام كانت أوروبا مظلمة بجهالات أهلها في القرون المتوسطة».

ثم قال: «إنهم كانوا في القرون المتوسطة مختصين بالعلوم من بين سائر الأمم، وانقشعت بسببهم سحائب البربرة التي امتدت على أوروبا حين اختل نظامها بفتوحات المتوحشين، ورجعوا إلى الفحص عن ينابيع العلوم القديمة، ولم يكفهم الاحتفاظ على كنوزها التي عثروا عليها، بل اجتهدوا في توسيع دائرتها، وفتحوا طرقاً جديدة لتأمل العقول في عجائبها».

ولعلك بعد أن تصغي إلى هذه الشهادة التي لا تختلج بريبة تنفث في رُوْعك،

ما لنا نرى إخوان الإسلام بمعزل عن سعادة الحياة وراحة العيش، يوم أصبح غيرهم يتقلب في سعة الملك وبسطة من الرفاهية. فنجيب: تأمّلْ جيداً ـبصَّرك الله ـ أن الوادي الذي يهيم فيه المسلمون لهذا العهد غير الطريقة التي سنّها كتاب الله، وشرحت وجهتها السنّة الصحيحة.

ما عليه غالب المسلمين الآن إنما هو مثال ينطبق عليه ما توسوس عليه الكتب المحشوة بالتُرَّهات الباطلة، والخرافات التي تؤثر في العقائد والأخلاق خَمةً وفساداً، ككتاب ألف ليلة وليلة، وقصة عنترة، وقصة فتوح اليمن، وكتاب أعلام الناس، وكتاب قصص الأنبياء المنسوب لأبي منصور الثعالبي، وكتاب مُجَّاني الأدب وبعض كتب المواعظ والتفاسير المملوءة بالأحاديث الموضوعة، وقصص الإسرائيليين.

هذه الكتب وأشكالها هي الآن أكثر انتشاراً بين عامة المسلمين من الكتب المعتمدة، ويحسبون أن ما فيها هو من التعاليم الدينية، ولا يدرون بأنها فتحت علينا باباً من الغواية وآخر من المعرة، لا يسدهما إلا البراءة منها وحرقها أينما وجدت.

ولو طهرنا أفكارنا مما اشتملت عليه هذه الأسفار من القاذورات، وأفرغنا فيها من التعاليم الثابتة والآداب الحقة وابلاً غزيراً ـ لأثمرت في جوارحنا أعمالاً صالحة نستوفي أجورها مرتين.

من المسؤول أولاً عن هذا الانقلاب العظيم الذي أودى بالمسلمين قاطبة إلى مرارة العيش وكدر الأنفس وهم لا يشعرون؟

هم سادتنا العلماء؛ فإنهم تنازلوا عن شيء كثير من خطتهم، وضيقوا في نطاقها إلى حد لا يسع إرشاد الأمة وإصلاحها، ولا ينكر ما حدث منذ أزمنة غير قريبة، وامتدت سلسلة تعسة وشقاية لهذا العصر من اتخاذ بعض المتردين برداء العلم اسم الدين شراكاً يقتنصون منه مآربهم الشخصية، ومنهم من تختم المطامع والجشع على أفواههم؛ فيكتمون ما أنزل الله ويشترون به ثمناً قليلاً، والذي يتولى كبر هذه المسؤولية خطباء المنابر، فإن كثيراً منهم غيّروا الخطب تغييراً فاحشاً كاد يخرج بها عن دائرة حكمتها التي شرعت لها.

شرعت الخطب للإرشاد إلى ما غايته راحة في الدارين، وسعادة في الحياتين، وما مثل الخطيب في قومه إلا كمثل الطبيب الحكيم يُسْلَم إليه شخصٌ؛ ليتكفل بالمحافظة على صحته، فلا يمكنه توفية هذه المحافظة حقها إلا بتفقد بدن ذلك الإنسان، وتعهده في جميع الأزمنة، فإن طرأ على بِنْيَتِه اعتلال، أو مزاجه انحراف بادر إلى معالجته بدوائه المناسب له، وإلا فشأنه التحذير مما تتولد منه العلل، وتتعفن به الأخلاط.

وكما أن الطبيب لا يخص مراقبته بالأعضاء الرئيسية الدماغ والقلب مثلاً ويترك ما عداه غير مأسوف عليه ـ كذلك الخطيب لا يقف بتذكرته النافعة عند حد العبادات المحضة؛ فإن التمكن من القيام بقواعدها له شروط ووسائل لا يتم إلا بها؛ فلا بد من استلفات الأنظار إلى استجماعها، والتنشيط إلى الاستعداد فيها، ومن هنا وجب أن يكون الخطيب بحاثاً عن أحوال الأمة، متفطناً لمصالحهم الدينية والدنيوية.

إن أدرك الناسَ فتورٌ عن إقامة شعائر الدين استمالهم إليها ببواعث الترغيب تارة، وقرَّعهم بسيوف الترهيب تارة أخرى، وإن تخبطتهم شياطين التدابر والتخاذل عوَّذهم من شر عاقبتها الوخيمة بِرُقْيَةِ الآيات والأحاديث التي تحيي في نفوسهم عواطف المحبة والائتلاف، وإن آنس من أخلاقهم عوجاً وحيفاً كعدم الصدق في المعاملات والتظاهر بالمداهنة والنفاق بشبهة أنها دهاء وسياسة- عالج استقامتها بمواعظه الحسنة وفي المواعظ شفاء الصدور، وإن خامر عزائمهم داء الفشل والتلذذ بالراحة الوقتية؛ فَقَيَّدا سواعدهم عن أعمالهم الصناعية التي بلغت بها الأمم التي يضرب بها المثل في القوة والسيادة مبلغاً عظيماً- استنهضهم بلسان الشريعة السامية، للمسابقة في ميدانها والمزاحمة على إحراز غاياتها، وأنذرهم سوء المنقلب الذي يتقلب فيه البطالون.

٢٨ تهيئة الشرق لوراثة الحضارات والمدنيات[١]

للعلامة محمود محمد شاكر

لبثت في أسر «الوظيفة الحكومية» عشر سنوات متواليات أعمل فيها ولها، ثم تنزل القدر فعافتني وعفتها، وانطلقت أطوي الأرض أنظر بعينيَّ إلى آفاق تترامى على مطرح البصر، وكأني آبدٌ قد حطَّم القيود، وانفلت من بين أعواد الحديد التي كانت تمسكه من ورائها، وملأت رئتيَّ من الهواء الحر، يا رب، أين كنت؟ إن طبيعتي التي فُطِرْتُ عليها تأبى أن تألف هذه الأنفاس المقتّرة المعطاة على المنة لصدور تنطوي على قلوب حية تنبض وتتحرك وتسمو بآمالها إلى الخير النبيل.

وبقيت أياماً، هي من حياتي كأنها ذكرى فرحة قديمة انبعثت على حين غفلة من كهوف النفس المهجورة التي يختبئ في ظلماتها ما يمضي من أفراح الحياة.

وتوالت الأيام تتسحب على ظلال العمر، وتجلت الأحلام العزيزة التي لا تفنى وسكنت االنفس إلى حريتها، وبدأت أبحث عن واجبي في الحياة، فمكثت على لبث أتأمل وأفكر، والروح في فترة من هدوء ورضاً، حتى اهتديت بحمد الله إلى الطريق والغاية.

نحن شعوب متخاذلة قد غفلت عن حقيقة الحياة، فواجبنا أن نعمل على

---

(١) العصور العدد الثاني ٩ ديسمبر ١٩٣٨ ص٣٧-٣٩، وانظر جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، جمعها وقرأها وقدم لها د. عادل سليمان جمال ٨٠٩/٢.

إيقاظ هذه الشعوب من سِنَةِ النوم التي طالت بها، وقتلت فيها مادة النشاط التي تدفعها إلى تحقيق الأغراض النبيلة التي خلق من أجلها الإنسان على الأرض.

أجل... وهذه الشعوب نفسها، هذا الشرق قد أثبت في التاريخ مرات أنه قادر على صناعة الحضارات والمدنية، يتقنها، ويستجيدها، ويطهرها من أدران البلاء التي تعصف بإنسانية الإنسان كما تعصف الريح بأوراق الشجر؛ فَلِمَ لا يثبت الشرق مرة أخرى في التاريخ الحديث أنه لم ينس هذه الصناعة؟ وأن أنامله الرفيقة لا تزال قادرة على نسج الثياب الرفيعة التي تلبسها الإنسانية؛ لتزهى بها، وتبدو في زينتها؟

هذه المدنية الأوربية المحدثة من أمامنا قد عملت عملها، وأتمت ما وجدت له على طريقتها ومذهبها، وجعلتنا ننظر إليها ذاهلين كأنما نرى معجزة تحققها أيدي مردة من الجن ليسوا من الإنس في أصل ولا نسب.

إن هذا الوهم الكبير هو الذي أعجز الشرق عن العمل، ورماه في براثن الأمم المستأسدة الضارية، وجعله كالفريسة تنتفض تحت أقدامه عجزاً وهلعاً واستكانة.

ولكن الحين قد حان، وآن للشرق أن ينظر إلى الحقائق الواقعة؛ ليعرف كيف يعمل.

إن أوروبا، التي هي مصدر المدنية الحديثة تقف على هذه الأرض موقفاً ظاهراً لمن يتأمل.

هذه دول الحضارة الحديثة من أمامنا قد هبت كلها في جنبات الأرض تملأها

حديداً، وناراً، وضجيجاً في الأرض، وصخباً طائراً في السماء.

والرجال على الأرض كأنهم قنابل معدة مهيأة لتنفجر، وفي كل ناحية أمة مُقْعِيَةٍ[1] متربصة تكاد تثب، والحياة تتدافع بهذا وذاك وهؤلاء، فلا تلبث أن تصطدم هذه الأمم بعضها ببعض، ويومئذ لن تثبت الأرض، ولن تسكن السماء، وتتطاير أشلاء الحضارة الحديثة إلى أعلى؛ لتسقط على أهل هذه الحضارة، وتطويهم في أكفانها، وتدفنهم في قبورها.

إن المدنية الأوربية المحدثة في هذا العصر، تحمل في داخلها كل عناصر التهدم، وكل أسباب الفناء والبلى، وأهم هذه العناصر والأسباب، هذه الحالة الحربية التي شملت كل دولة أوربية، ودفعتها إلى زيادة التسلّح بكل أدوات الدمار والهلاك، والسرعة الجامحة التي تعمل بها هذه الأمم في كل ما يمس الاستعداد الحربي.

ولا شك في أن هذه الإرادة وحدها مع الإسراع في تنفيذها سوف تؤدي حتماً إلى اختلال التوازن في القوى المتساندة، وسينتهي هذا الاختلال باصطدام قوى الشر جملة واحدة، وسيعقب هذا الاصطدام انفجار هائل يشوِّه وجه الإنسانية الباغية أبد الدهر، ويتركها مثلاً في العالمين.

ولو أن هذا الاستعداد الحربي العظيم كان نتيجة للدفاع عن مبادئ استقرت على أصولها في نفوس القائمين بأمرها لقلنا عسى أن تنتفع الإنسانيةُ بانهزام الباطل وانتصار الحق، وإن ضحَّت في سبيل ذلك بالملايين من البشر الذين

---

(1) أقعى الكلبُ: جلس على مؤخرته مُفْتَرِشاً رجليه، وناصباً يديه.

تأكلهم هذه الحروب الضروس، ولكان ثَمَّة أمل في عودة الحضارة إلى منزلة من الإصلاح تعمل فيها لسعادة الإنسان بعد الشقاء الكبير الذي تعس به.

ولكن الواقع غير ذلك؛ فإن الحرب الحديثة المقبلة إنما هي بغيٌ؛ لقد بغى بعضهم على بعض في العلم؛ فضربوا للإنسان أسوأ الأمثلة على أن ضَرَرَ العلم أكبر من نفعه[1]، وأن الشقاء قرينٌ لعلم هذه المدنية الطاغية، وأن الفرد فيها حيوان يُستغل، فيا لشناعة هذا الاستغلال الذي هزم العقل والإرادة، وردهما إلى أدنأ درجة في تاريخ الإنسان على الأرض!.

هذه أوربًّا التي نفضتْ على كلمة «الحرية» من تهاويل الخيال، وتخاليف الفن، وتحاسين الإبداع، وزخارف الأرض، حتى بدتْ فتنةً يتهاوى في فتونها كل غاوٍ وحليم ـ تثبتُ للناس أن «الحرية» كلمة ضامرة ضعيفة لا معنى لها، ولا حياة فيها.

ولعل التاريخ كله لم يشهدْ عصراً ضاعت فيه كل معاني هذه الكلمة مع كثرة دورانها على الألسنة مثل الذي شهده في هذا العصر؛ ففي كلّ ناحية في أوربا يضرب الحصار على حرية الأفراد، وحرية الجماعات، وعلى حرية السر، وحرية العلن، وعلى حرية الرأي، وحرية الضمير.

في فرنسا ـ باعثة هذه الفتنة في أوربا ـ في إنجلترا، في ألمانيا، في إيطاليا، في روسيا، في كل بلد، يشهد التاريخ أفظع استبداد تستبد به السياسة الدولية، وتتعسف به المعاهدات والمحالفات القائمة على مصالح البغي السياسي والحربي،

---

(1) يعني به العلم المادي (م).

في إزهاق الروح الحقيقية التي تحملها كلمة «الحرية».

إن كل عمل، بل كل رأي، بل كل فكر، بل كل شيء في أوربا الآن تقتسره السياسة الحربية على صورة تنفعها، فإن لم تكن تنفعها فلا تضرها، حتى صارت العقول الإنسانية آلة في يدها تصرفها كيف تشاء، وفسدت معاني الأشياء، وطغى غرور القوة والاعتداد بها في العلم والفن والأدب، وفي كل شيء، واختلط الحق بالباطل اختلاطاً فاسداً لا أمل في تطهيره إلا بجهد كبير تبذله نفوس هادئة ساكنة حكيمة تتجرد للعمل، وتعمل للحق، وتختار صالحَ كلِّ شيء، وتنفي فساده، وتحريفه، وغلوَّه، وغروره؛ ليكون الانتفاع به أقرب لإنقاذ الإنسانية من مصير مخيف، يرتد بها إلى وحشية الغرائز الدنيا التي تتحكم في مراشد العقل والقلب بغير حكمة ولا رويَّة.

هذه الصور الدانية الآن للحالة الظاهرة في أوروبا غير ناظرين إلى الاختلاط الفكري القبيح بين المذاهب المتباينة، ولا إلى الفساد الكبير في المبادئ العقلية التي تبني عليها سعادة القلب الإنساني، ولا إلى تشاجر الأهواء الاجتماعية في حرب الفضيلة والرذيلة، والخير والشر، والعدل والبغي، ولا إلى انحلال القوى الاقتصادية وتزعزع الأسس المالية، ولا إلى ما يمد كل هذه بأكبر أسباب الفساد إلا وهو غرور هذه المدنية بعلمها، ورأيها، وفهمها، وادعائها إدراك سر الحقيقة في كل ما تتناوله بالبحث والتحليل.

أما الشرق فهو الآن يموج، ويهتز، ويمتد بآماله، ويطالب بحرياته؛ فبذلك تُهَيِّئُهُ ضرورةُ الحياة الحاضرة لانتزاع الخير المحض مما يقع إليه من مدنية وحضارة،

وتهيئه طبيعتُه الموروثةُ للاستفادة من نتاج الحضارات والمدنيات قديمها وحديثها، وتهيئه ما انحدر معه في أعصابه من الحكمة القديمة، والرزانة التقليدية؛ لتعبئة قواه التاريخية كلها؛ فيأخذ الحضارة الحديثة، فيصهرها، ويذيبها، ويعيد تكوينها موسومة بسمته: الحرية، العدل، الشرف، الفضيلة، سكينة النفس، التقوى تقوى الله في عمل الدنيا وعمل الآخرة، تلك سمات الشرق التي يَسِمُ بها مدنيته الجديدة التي يتهيأ اليوم لوراثتها عن سالف الحضارات والمدنيات.

سادساً: مقالات في الشباب

٢٩ـ نهوض الشباب بعظائم الأمور: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

٣٠ـ إلى شباب محمد: للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

٣١ـ كيف يتقي الشاب أخطار الشباب: للأستاذ علي سيد أحمد منصور

٣٢ـ إلى الشباب: للعلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي



نهوض الشباب بعظَائِم الأُمور[١]

للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

يسبق إلى الأذهان أن الفتى حديث السن؛ لقلّة ما مَرَّ عليه من التجارب، تخفى عليه عواقب الأمور ويقصر باعه عن حل المعضلات، وتصريف الأمور بحكمة، ومن هنا نرى الناس يحتملون أخطاء الشباب أكثر من احتمالهم أخطاء غيره، ويعتذرون عنه بحداثة سنة، كما قال عمر بن الخطاب ﵁ لمن أنكر عليه عزل خالد بن الوليد من قيادة الجيش الفاتح للشام: «إنك حديث السن، مُغْضَبٌ في ابن عمك».

وهذا حق بالنظر إلى الشباب الذين ينشأون نشأة عادية، فتنمو عقولهم على قدر ما يمر عليهم من السنين، وعلى قدر ما يلاقون من تجارب الحياة.

ما استقامت قناة ُفكري إلا ... بعد أن أعوج المشيب قناتي

ولكنَّ التاريخ والمشاهدة يدلان على أن في الشباب من يبلغ في حصافة العقل، وحسن التدبير المنزلة الكافية لأن يُلْقَى على عاتقه ما يُلْقَى على عواتق الكهول أو الشيوخ من عظائم الأمور.

وفي مثل هذا الفتى يقول بعض الأدباء: «قد لبس شبابه على عقل كهل، ورأي جزل، ومنطق فصل، حمدت عزائمه، قبل أن تحمل تمائمه».

وفي مثل هذا يقول آخر: «وكان بارعاً في العلم أو السياسة إلى درجة تسمو

---

(١) مجلة الهداية الإسلامية، وكتاب الدعوة إلى الإصلاح ص١١٩.

على سنِّه».

وفي مثل هذا الفتى يقولون: «كان حسن السيرة رفيقاً بالرعية، على حداثة سنِّه».

وقد يقولون: لا تنظر إلى صغر سن فلان، وانظر إلى عظم ما بلغه من المجد، كما قال البحتري:

لا تنظرن إلى الفياض من صغر في السن وانظر إلى المجد الذي شادا

إن النجوم نجوم الأفق أصغرها في العين أذهبها في الجو إصعادا

وإذا قلَّبنا صفحات التاريخ دلَّتنا على رجال ظهرت عبقريتهم، وكفايتهم للقيام بأعمال جليلة وهم في أوائل عهد شبيبتهم.

نقرأ في السيرة النبوية أن النبي ﷺ ولّى عتاب بن أسيد مكة وقضاءها وهو في سن الحادية والعشرين، وولّى معاذ بن جبل على اليمن وهو دون سن العشرين، وولّى أسامة بن زيد إمارة جيش فيه الشيخان أبو بكر وعمر، وسنُّ أسامةَ يومئذ تسعَ عشرةَ سنةً.

وولّى عُمَر بنُ الخطاب ﷺ كعبَ بنَ صور قضاء البصرة وهو في سن العشرين، وكان يدعو ابن عباس في المعضلات، ويجلسه بين الأشياخ وهو دون سن العشرين، وقلّد عثمانُ ﷺ عَبد الله بن عامر ولاية البصرة و هو ابن خمس وعشرين سنة، قاد الجيوش، وفتح ما بقي من بلاد الفرس، حتى انقرضت على يده الدولة الساسانية.

وولَّى الحجاجُ محمدَ بنَ القاسمِ بنِ محمد بن الحكم الثقفي قيادة جيش أخمد

ثورة في الفرس، وقيادة جيش افتتح السند، وكان عمر هذا القائد سبع عشرة سنة حتى قال فيه بعضهم:

قاد الجيوش لسبع عشرة حجّة ... يا قربى ذلك سؤدداً من مولد

وظهر نبوغ مخلد بن يزيد المهلبي في أوائل عهد شبابه، وفيه يقول حمزة ابن بيض الحنفي :

بلغت لعشر مضت من سنيـ ... ـك ما يبلغ السيد الأشيب

فهمّك فيها جسام الأمور ... وهـمّ لداتـك[1] أن يلعبوا

وكان مخلد هذا والياً على جرجان، وتوفي في عهد عمر بن عبد العزيز، وهو ابن سبع وعشرين سنة، وقال عمر بن عبد العزيز: اليوم مات فتى العرب، وأنشد متمثلاً :

على مثل عمرو تذهب النفس حسرة ... وتضحي وجوهُ القوم مغبرّةً سودا

وولىَّ المأمون يحيى بنَ الأكثم قضاء بغداد وهو في سن الحادية والعشرين، وتولى أبو شجاع بن نظام الدين الوزارة للمسترشد، وسنه دون العشرين، ولم يل الوزارة أصغر منه .

وإذا انتقلنا إلى النظر في شباب الملوك وجدنا رجالاً تقلدوا الملك في سن العشرين أو فيما دونه أو فيما يزيد عليه بقليل، وأخص حديثي وما أسوقه من الأمثال بمن تولوا الملك في عهد الشباب، وظهرت لهم آثار تدل على كفايتهم للقيام بأعباء الملك، وأضع في أول سلسة هؤلاء الشباب من الملوك الخليفة

---

(١) يعني: أقرانك.

هارون الرشيد فإنه تولى الخلافة وهو في سن الحادية أو الثانية والعشرين، وماذا أقول في هارون الرشيد وصحف التاريخ مملوءة بمآثره الحميدة، وبما بلغه الإسلام في عهده من العزة والعظمة؟

وإذا لم يكن بدٌّ من ذكر خصلة من خصاله الزاهرة، فإنه كان يدع القضاء يتمتع بحريته الكاملة، ومما حدثنا به التاريخ أن يهودياً كان قد رفع عليه قضية لدى القاضي أبي يوسف وحكم القاضي لليهودي، وكان هارون في المجلس فبادر إلى تنفيذ ما حكم به القاضي.

ومن عظماء شباب الملوك ملك شاه بن ألب أرسلان الملقب بالسلطان العادل، تولّى الملك وهو في سن التاسعة عشرة أو العشرين، وقد ملك من كاشغر - أقصى مدينة في بلاد الترك - إلى بيت المقدس، وكان مغرماً بالعمران، لهجاً بالصيد، مظفراً في الحروب، وكانت السبل في أيامه آمنة: تسافر القوافل أو الأفراد مما وراء النهر إلى أقصى الشام من غير خوف ولا رهبة.

وأصدق شاهد على إخلاصه في سياسة الأمة أنه خرج لقتال أخيه أبي سعيد بن ألب بن أرسلان؛ فقال في دعائه: «اللهم انصر أصلحنا للمسلمين، وأنفعنا للرعية».

ومن عظمائهم محمد بن ملك شاه؛ فقد تولى السلطنة وهو في سن العشرين، وسار سيرة حسنة، وكانت له الآثار الجميلة من العدل الشامل، والبرّ بالفقراء والأيتام، وكان ساهراً على أن تكون عقيدة الأمة سليمة يخشى أن يدخلها الإلحاد؛ فتتزعزع قوتها المعنوية، وما تفشَّى الإلحاد والإباحية في قوم إلاَّ فقدت

الرجولة من نفوسهم، وركِب العدو أعناقهم.

ومن عظمائهم محمود بن محمد بن ملك شاه فقد تولى السلطنة في خلافة المستظهر بالله، وخطب له في بغداد وهو في سن الحلم، وكان هذا السلطان متوقداً ذكاءاً، قوياً في العربية، عارفاً بالتواريخ، شديد الميل إلى أهل العلم والفضل، وهو الذي مدحه الشاعر حَيْصَ بَيْص بقصيدته التي يقول فيها:

يا ساري الليل لا جدب ولا فرق فالنبت أغيد والسلطان محمود

قيلٌ تألفت الأضداد خيفته فالمورد الضنك فيه الشاء والسِّيْد[1]

ومن عظمائهم فنا خسرو عضد الدولة بن بويه فقد ولّي سلطنة فارس وعمره خمسة عشرة سنة، واستولى على العراق والجزيرة، وهو أول من خوطب بالملك في الإسلام، وكان شهماً حازماً متيقظاً محباً لأهل الفضل، وقصده فحول الشعراء ومدحوه بأحسن المدائح، ومن هؤلاء المتنبي ومما قال فيه:

ومن أعتاض عنك إذا افترقنا وكل الناس زور ما خلاكا

ومنهم محمد بن عبد الله السلامي وهو الذي يقول فيه:

وبشرت آمالي بِملْكٍ هو الورى ودارٍ هي الدنيا ويومٍ هو الدهر

---

(١) السِّيد: الذئب، تقول العرب: سيد الغضا، كما قال طرفة في معلقته المشهورة:

وكرِّي إذا نادى المضاف مُحنباً كسيد الغضا نبَّهته المتوردِ

يقول: إن مما أفتخر به: أني أَكُرُّ وأنهض إذا استجد بي المهموم، وأركب فرساً محنباً ـ وهو الذي تقوست رجلاه وهي خصلة محمودة في القوس ـ.

وحالي هذه كسيد الغضا ـ وهو أخبث أنواع الذئاب ـ إذا انتبه لورود الماء(م).

ومن عظماء شباب الملوك في الشام أو مصر، أبو الفتح غازي بن السلطان صلاح الدين المعروف بالملك الظاهر؛ فقد سَلَّم إليه والده مملكة حلب وسِنُّه أربعة عشر سنة، وكان ملكاً حازماً، عالي الهمة، حسن السياسة، كثير الاطلاع على حال الرعية وأخبار الملوك، باسطاً للعدل، مجّلاً للعلماء، مجيزاً للشعراء، ورثاه راجح بن إسماعيل الحلبي بقصيدة بديعة يقول في طالعها:

سل الخطب إن أصغى إلى من بمن علقت أنيابه ومخالبه

ثم يقول:

أيا تاركي ألقى العدو مسالماً متى ساءني بالجد قمت ألاعبه

ومن شباب ملوك مصر خمارويه بن أحمد بن طولون، فقد تولى ملك مصر وهو ابن عشرين سنة، وكان هذا الملك يمثل الثبات ومقارعة الخطوب، فقد أصابه في أوائل ولايته ما يكسر العزم، ولكنه مازال ينهض حتى ثبت لقتال الخارجين عن طاعته، ووصل أصحابه إلى «سر من رأى» بالعراق، وعظم أمره، واستولت الهيبة منه في القلوب.

وإذا نزل بِقَدْره شيء فهو أنه كان ينفق الأموال الطائلة في الملاهي والزينة، كما فعل في تجهيز ابنته «قطر الندى».

وممن يذكر في هذا القبيل علي بن الحاكم العبيدي، الملقب بالظاهر، فقد تولّى ملك مصر وعمره ست عشرة سنة، وكان على خصال حميدة من نحو السخاء والحلم والتواضع والعدل في الرعية، والنظر في إصلاح البلاد، وكان لا يدَّعي ما كان يدَّعيه والده وجدُّه من المزاعم، وله كتاب يتبرأ فيه من الغلاة فيه وفي آبائه.

ومن هؤلاء العظماء المظفّر موسى بن الملك العادل؛ فقد ملكه والده مدينة الرُّها وهو في سن العشرين، واتسع ملكه بعد، وكان سلطاناً واسع الصدر، كريم الأخلاق، ويقول المؤرخون: إنه أحسن إلى الناس إحساناً لم يعهدوه ممن كان قبله؛ فكان محبوباً إلى الناس مؤيداً في الحروب، ومن شعرائه أبو الحسن علي ابن محمد المعروف بابن النبيه، ويعجبني من مديحه له قوله:

قام بالدنيا وبالأخرى معاً ... فهي ضراتٌ به قد رضيت

حسن الظاهر للناس وللـ ... ـه منه حسناتٌ خفيت

ومن عظماء شباب الملوك في تونس أحمد بن محمد بن الأغلب؛ فقد ولي الملك بالقيروان وهو في سن العشرين، وكان حسن السيرة، رفيقاً بالرعية، كثير الصدقات، وكان مولعاً بالعمارة؛ فبنى بأفريقية حصوناً كثيرة بالحجارة، والكلس، وأبواب الحديد.

ومن هؤلاء العظماء باديس بن المنصور، فقد تولّى الملك بالقيروان وعمره إحدى عشرة سنة، وكان ملكاً كبيراً حازم الرأي شديد البأس، وأذكر من مآثره أن الفقيه الزاهد محرز بن خلف بعث إليه بكتاب يعظه فيه، ويطلب رفع مظلمة وقعت على أحد تلاميذه، ومما يقوله في الكتاب: «لا يغرنك توالي زخارف الدنيا عليك، وشاور في أمرك من يتقي الله، وخَفْ من لا يحتاج إلى عون عليك، أنت على رحيل؛ فخذ الزاد».

ولما وصل الكتاب إلى باديس، أصدر أمراً بتحرير طلبة العلم كافة، ورفع الظلم عنهم جملة.

ومن هؤلاء العظماء المعزّ معد بن منصور العبيدي تولى الملك وهو في الثانية والعشرين من العمر، وثبَّت دعائم دولتهم بالمغرب، ثم أسس الدولة العبيدية بمصر، وكان عاقلاً حازماً أديباً.

ومنهم المعزّ بن باديس؛ فقد تولّى الملك وهو في السنة الثامنة من العمر، وكان ملكاً جليلاً، عالي الهمة، حريصاً على تنفيذ أحكام الشريعة الغراء، واجتمع بحضرته من أفاضل الشعراء ما لم يجتمع إلا بباب الصاحب بن عباد.

ويدخل في صف هؤلاء المستنصر بالله محمد بن زكريا؛ فقد تقلّد الملك في تونس وعمره عشرون سنة، فنهض بأعباء الملك، وعلا صيته، وأبقى آثاراً علمية وأدبية وعمرانية أبقت له ذكراً جميلاً، وهو الذي قدم عليه حازم القرطاجني من الأندلس، فأكرم نزله، ومدحه بقصيدته الطائية المعروفة، وقصيدته الرائية التي يقول في نسيبها:

ولا تعجبوا يوماً لكسر جفونها   فإن إناء الخمر في الشرع يكسر

ويقول في حال الأعداء:

وقد شابه الأعداء جمعاً مؤنثاً   لذاك غدت في حالة الفتح تكسر

ومن عظماء شباب السلاطين بالمغرب الأقصى إدريس بن إدريس الحسني؛ فقد أخذت له البيعة بالمغرب الأقصى وعمره إحدى عشرة سنة؛ فقد نشأ في كفالة مولى أبيه راشد، فأقرأه القرآن الكريم، وعلمه السنّة، وروَّاه الشعر وأمثالَ العرب، وأطلعه على سير الملوك، ودربه على ركوب الخيل والرمي بالسهام، فلم يصل إلى السنة الحادية عشرة حتى ترشح للأمر، واستحق أن يبايع، وظهر

من ذكائه ونبله ما أذهل العامة والخاصة.

صعد المنبر يوم بيعته وخطب، ومما قال في خطبته: «أيها الناس! إنا قد ولّينا هذا الأمر الذي يضاعف للمحسن فيه الثواب، وللمسيء الوزر، ونحن ـ والحمد لله ـ على قصد جميل، فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا؛ فإن ما تطلبونه من إقامة الحق إنما تجدونه عندنا».

وكان عاملاً بكتاب الله قائماً بحدوده، وبذلك استقام له الملك وعظم أمره.

ومن هؤلاء العظماء علي بن محمد بن إدريس، أخذت له البيعة بعد وفاة أبيه، وكان يوم بويع في سن العاشرة من العمر، فظهر ذكاؤه ونبله، وسار بسيرة أبيه وجده في العدل، وإقامة الحق، وقمع الأعداء، وضبط البلاد والثغور، ويقول المؤرخون: كانت أيامه خير أيام.

ومن هؤلاء العظماء علي بن يوسف بن تاشفين، بويع وعمره ثلاث وعشرون سنة، وكان حليماً عادلاً وقوراً آخذاً بالحزم؛ فضبط الثغور، وملك من البلاد ما لم يملكه أبوه من قبله.

ومن عظماء شباب الملوك بالأندلس عبد الرحمن الناصر، تولّى الملك غير متجاوز الثانية والعشرين من عمره، درس عبد الرحمن القرآن والسنّة، وأجاد النحو والتاريخ، وبرع في فنون الحرب والفروسية، وزهت في عصره العلوم والزراعة والصناعة، وساد الأمن في البلاد، وكان للعلماء في عصره الحرية المطلقة، يواجهونه بالأمر بالمعروف، ويتلقى منهم ذلك بصدر رحب.

ومواقف منذر بن سعيد في نصحه له معروفة في التاريخ، وهو الذي خطب

على المنبر في بعض المجالس الحافلة منكراً عليه بالإسراف في تشييد المباني وزخرفتها ، وهو الذي خاطبه في أحد المجالس بقوله :

يا باني الزهراء مستغرقاً ... أوقاته فيها أما تمهل

لله ما أحسنها رونقاً ... لو لم تكن زهرتها تذبل

وكان القضاة في عهده على استقلال لا يخشون معه لومة لائم ، وكان القاضي ابن بشير يحكم عليه لخصمه ، ويتوعده بالاستقالة إذا لم يتمثل ما حكم به عليه.

ومن هؤلاء العظماء أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل بن فرج أحد ملوك غرناطة ، تولّى الملك وهو في السادسة من العمر ، وكان الغالب على أيامه الهدنة والصلاح والخير ، وكان وزيره الأديب الكبير أبو الحسن بن الجياب ، ثم توزَّر له لسان الدين بن الخطيب.

ومن هؤلاء العظماء ابنه محمد بن يوسف بن إسماعيل ، بُويع له بعد وفاة أبيه يوسف وعمره تسع سنين ، وكان وزيره لسان الدين بن الخطيب بعد أن توزر لأبيه من قبله ، ووصفه ابن الخطيب فقال : مُتَحلٍّ بوقار وسكينة ، وسافرٌ عن وسامة يكتنفها جلباب حياء وحشمة ، كثير الأناة ، ظاهر الشفقة ، عطوف مخفوض الجناح ، مائل إلى الخير بفضل السجية؛ فأنست العامة بقربه ، وسكنت الخاصة إلى طيب نفسه ، وحمد الناس فضل عفافه وكلفه بما يعنيه من أمره ، وكان ـ مع هذه المزايا ـ مثلاً في الفروسية ، قال بعض مادحيه :

إن ألَّمتْ هيعةٌ طا ... ر إليها غير وان

يصدع الليل بقلبٍ ... ليس بالقلب الجبان

وأختم حديثي هذا بحديث ملوك تقلدوا في أوائل شبابهم ولايات كانوا فيها مظهر اليقظة والحزم، وتولوا الملك بعده، فساروا فيه سيرة عبقري زادته التجارب خبرة بطرق السياسة الرشيدة.

ومن هؤلاء الملوك هشام بن عبد الرحمن الداخل ـ مؤسس الدولة الأموية بالأندلس ـ فقد كان والده عبد الرحمن يوليه في صباه الأعمال، ويرشحه لولاية الملك، ولما توفي عبد الرحمن تولى هشام الخلافة وعمره ثلاثون سنة، وكان يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

ويدخل في نظم هؤلاء الملوك عبد الرحمن بن الحكم الأموي، وكان أبوه الحكم يوليه قيادة الجيوش العظيمة في الأندلس وهو ابن خمس عشرة سنة، فيهزم الأعداء، ويعود ظافراً.

وأذكر من هذا القبيل تميم بن المعزّ بن باديس، فوض إليه والده المعزّ ولاية المهدية وهو في سن الثالثة والعشرين، وتولى الملك بعده وهو في سن الثانية والثلاثين، وكان حسن السيرة محمود الآثار، معظماً لأرباب الفضائل، وقصدته الشعراء من الآفاق، وكان هو نفسه معدوداً من طبقات الأدباء، ومن شعره:

فإما الملك في شرف وعزٍّ   عليَّ التاج في أعلى السرير
وإما الموت بين ظُبا العوالي   فلست بخالد أبد الدهـور

والغرض من حديثنا عن أولئك الشباب الذين تولّوا أموراً جليلة القدر عظيمة الشأن، فقاموا بأعبائها خير قيام ـ أن نستنهض همم أبنائنا للأخذ بأسباب قوة الفكر، وسعة الدراية لأول عهد التمييز، ولمواصلة السير في سبيل السيادة

بجد وحزم؛ لكي نراهم وهم في ريعان الشباب قد بلغوا بجودة النظر واستقامة السيرة أن كانوا موضع آمال الأمة، يعملون لسلامتها، والاحتفاظ بعزتها.

وواجب على ولي أمر الناشئ أن يشعره بأن بلوغ الفتى المنزلة المحمودة في السيادة وهو في مقتبل العمر ـ ليس بالأمر المتعذر أو المتعسر.

وليس من شك في أن هذا الشعور يريه السيادة قريبة التناول، فيشمر عن ساعد الجد، وسرعان ما يبلغ ذروتها.

ومن أدرك السيادة في عنفوان شبابه، فإن مات مات سيداً، وإن عاش إلى زمن الكهولة أو الشيخوخة، كانت سيادته أطول عماداً، وأرفع ذكراً، وأطيب ثمراً.

٣٠ إلى شباب محمد [(١)] للشيخ العلامة محمد الخضر حسين

أيها الشباب الناهضون:

تعلم حق اليقين أنه دين الإسلام منبع العزة في الدنيا، ومرقاة السعادة في الأخرى، يدري هذا من درس أصول الدين، واطلع على أسرار أحكامه وآدابه، ولا يزال المسلمون في سلامة وسيادة، حتى حادوا عن سبيله، ونكثوا أيديهم عن عروته الوثقى، وكان عاقبة ذلك أن سقطت أوطانهم في أيدي أعدائهم، وأصبحوا لا يملكون لأنفسهم رأياً ولا نفاذاً.

وكان يهوِّن هذا الخطب أنَّ انحراف المسلمين عن شريعتهم الذي كان سبب ضعفهم ـ لم يكن إلاَّ إهمال الواجبات العملية عن غفلة، أو تغلب شهوة، والغفلة تداوى بالتنبيه، والشهوات تقاوم بالموعظة الحسنة.

ولكن أمتنا بعد أن انحدرت بها الأهواء في تلك الحفرة من الذلة أصيبت بعلة أخرى هي أسوء أثراً، وأشأم عاقبة من علتهم الأولى، وهي ابتلاء كثير من أبنائنا بزيغ العقيدة، ومحاكاة المخالفين حتى في الآراء المخالفة لجوهر الدين.

وإذا كان خسران العقيدة ـفيما سلفـ قد يبتلى به أشخاص متفرقون، ويبالغون في كتمانه، وإنما يظهر في لحن خطابهم، أو ينقله عنهم بعض من يسرون إليه به ـ فإنه في هذا العصر قد تفشى حتى أصبح الملاحدة، والإباحيون،

---

(١) مجلة الهداية الإسلامية الجزء الثاني من المجلد الثالث عشر، والدعوة إلى الإصلاح ص١٠١ـ١٠٣.

يصرخون في المجالس العامة، أو على صفحات المجلات أو الجرائد بما لا يختلف علماء الإسلام في أنه رِدَّة وخروج على الدين إلى حد بعيد.

وليس من العجب أن يُلْحِد أبناؤنا الذين نشأوا في بيئات لا تعرف من الدين إلا اسمه، ولم يلاقوا إلاَّ النفر الذين تصدوا لمحاربة الدين بجهالة أو بسوء قصد.

وإنما العجب أن تجد الإلحاد والإباحية في نفر نشأوا في معاهد إسلامية، ولكنهم يتسترون بتأويل القرآن المجيد، والحديث النبوي الشريف تأويلاً لو سلكناه في تأويل كلام أحدهم لغضب منه، وعدَّه رمياً له بالعيِّ أو العبث بأوضاع اللغة العربية.

إذن فالزائغون عن الرشد في أوطاننا صنفان:

١ـ **صِنْفٌ نشأوا في بيئات شأنها الطعن في الدين**، ولا عمل لها إلاَّ إيراد الشبه مجردة من الحجج التي تدفعها، وتُقِرُّ الحقائق في مواضعها.

٢ـ **وصِنْفٌ نشأوا في معاهد إسلامية**، ولكنهم لم يدرسوا الدين دراسة جِدٍّ وتحقيق تجعلهم في حصانة من أنْ تأخذهم الشبه، وتخدعهم زخارف الحياة، ولم يملكوا من خشية الله ـتعالى ـ ما يمنعهم أنْ يقولوا على الله غير الحق.

وتقويم الصنف الأول من الملاحدة أيسر من تقويم الصنف الثاني؛ إذ الصنف الأول قد يجلس إليك بصفتك داعياً إلى الإصلاح، فيصغي إليك عندما تتصدى لدفع شبهة وإقامة حجة، فإذا بصر بالشبهة ذهبت، وبالحجة أضاءت لم يلبث أن يجيب دعوتك متأسفاً عما سبق له من الغواية، مغتبطاً بما وفقه الله إليه من هداية.

أما الصنف الثاني وهم الذين يلحدون بعد قطع مراحل من التعليم الديني ـ ففي دعوتهم من ظلمات الزيغ إلى نور الرشد عُسْرٌ؛ إذ يُخَيِّل إليهم أنهم عرفوا ما يعرفه الدعاة، ولم يجدوا موصلاً إلى حق، وهذا التخيل يصدهم عن الإصغاء إلى الدعوة، وإذا أصغوا إليها فإنما يقصدون في غالب أمرهم استكشاف موضع ضعف يهاجمونها منه.

وهذا الصنف أشد ضرراً على الأمة من الصنف الأول؛ إذ الصنف الأول قد يكون إلحاده مقصوراً عليه، وإن قام بدعاية إلى الإلحاد فإنَّ الناس لا يستمعون إليه؛ إذ هو محمول على الجهل بحقائق الدين وأصوله.

أمَّا ذلك الذي يخرج لهم في زي رجال الدين، أو يذكر أنه درس الدين حتى انتهى إلى غاية بعيدة ـ فكثيراً ما يغرّ الغافلين من الشباب أو العامة؛ إذ يسبق إلى أذهانهم أنَّه يتكلم على بينة، ولا ينتبهون لما يحمل في صدره من زيغ، ولا لما يضمر في نفسه من أغراض دنيئة.

أقول هذا أيها الشباب الناهضون؛ لأذكركم بأنكم ستلاقون شُبَّاناً سرى إليهم وباء الإلحاد والإباحية من اتصالهم بنفر أعرف بطرق المكر، أو أبرع في صناعة البيان، فخذوهم بالحكمة والرفق، وسعة الصدر عند المناقشة؛ فإنكم تدعون إلى الحق، وللحق ضياء ينكشف إزاءه كل باطل، وإن خرج في ثوب مستعار من الحق.

وأنكم ستلاقون فئة ممن يدّعون أنهم درسوا الدين وهم زائغون عن سبيله، وقد يجنحون بكم إلى طريقة التأويل الفاسد، فازدروا أقوالهم، وارموا في

وجوههم بالحجة، ولا تهابوهم ولو لبسوا العمائم؛ فإنها قد تنصب على رؤوس لا تفكر إلاَّ في وسائل المكر بالدين الحنيف.

وهذه الخيانة تكسبهم ضعفاً، وتجعل مسالك القول أضيق عليهم من سَمِّ الخياط؛ فلا يقفون لجدالكم إلا بمقدار ما يعرفون قوة إيمانكم وثبات أقدامكم.

وإنكم ستلاقون فئة بَاضَ اليأس من الإصلاح في قلوبهم وفَرَّخ، ويصارحونكم بأن الدعوة إلى الحق في هذا العصر من قبيل النقش في الماء، أو الضرب في حديد بارد، فإنْ تعذر عليكم اقتلاع هذا اليأس من نفوسهم فاعلموا أنَّ خلف يأسهم جبناً، ولا خير لكم في محادثة الجبناء.

وإنكم ستمرون بأشخاص مَردوا على التهكم والاستهزاء، فيهمسون في الآذان، ويتغامزون بالأعين، وكذلك كان أمثالهم يستهزؤون بالدعاة إلى الخير، فَيجِدُون من الدعاة إخلاصاً وثباتاً يذهب كل استهزاء من حولهما لاغية، فدعوا المتهكمين والمستهزئين في هزلهم، وامضوا في سبيل دعوتكم إلى الحق والفضيلة، فستجنون بتأييد الله ـ تعالى ـ ثمرتها، وتحمدون عاقبتها، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

٣١ كيف يتقي الشاب أخطار الشباب[١] للأستاذ علي سيد منصور

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فيا أيها السادة، لما كانت مرحلة الشباب هي المرحلة الرهيبة في حياة الإنسان حيث تحفُّه أثناء قَطْعِها الأخطارُ، وتعترضه عقبات الأهواء، وتتفتح أمامه مهاوي الفساد، وتهجم عليه جيوشُ الشهوات، وكان قاطعُها في حاجة ماسة إلى سلاح قوي يتَذرَّع به لدفع غائلة أهوالها، ومرشدٍ يرشده لأفضل السبل وأبعدها عن أخطارها؛ حتى يتسنى له أن يسير إلى مراده في أمان ويبلغ غايته بسلام، ولما كنت أنا أحد المجتازين تلك المرحلة، الخبيرين بأحوالها- أحببت أن أتحدث إليكم عما وصل إلى علمي من شؤونها، باذلاً قصارى وسعي في تشخيص ما وقعت عليه من أدوائها؛ كي تضموا ما أذكره لكم عنها إلى ما لديكم من معلومات تتعلق بها؛ فيتكون لديكم العلم الكافي للتخلص من آفاتها.

وقبل التعرض لذكر أخطارها ينبغي أن نذكر مقدمة نشرح فيها حقيقة الشباب ونبين مقدار أهميته في حياة الإنسان.

شرح حقيقته: هو نَضَارةُ الجسدِ، وقوته، وقدرته على مزاولة أعماله بخفة ونشاط، وهو اللمحة التي يكون فيها القلب ميداناً للأفكار المختلفة، والآمال المتضاربة، واللحظة التي إذا وُفِّق الشخص فيها لضبط نفسه، وإيقافها

(١) مجلة الهداية الإسلامية، الجزء السادس، المجلد الرابع ص٣١٣، ذو القعدة ١٣٥٠هـ.

عند حدود الواجب ـ عاش بقية حياته في سعادة وهناء، وإذا أطلق لنفسه العنان في متابعة الهوى قضى على عوامل سعادته، وعاش معيشة التعساء.

وهو الريح العاصفة التي تعصف بالألباب؛ فتميل بها عن جادة الصواب إن لم يتداركها لطف الكريم الوهاب، والتيارُ الكهربائي الذي يسحر العقولَ؛ فيجعلها تبصر الأشياء مصبوغة بغير صبغة الحقيقة، وتطيش في الآراء والأحكام.

أما بيان أهميته: فقد أجدني في غنى عن ذلك؛ إذ كل ما نشاهده حولنا من المظاهر والآثار كالمباني الشاهقة والصروح العالية والمصنوعات المدهشة وقوة الدول، وانتصارها، وعزها وهيبتها ـ كل هذا متوقف على الشباب وإن يكن لبعض الشيوخ أثر في ذلك فقدرته على إبراز هذا الأثر وليدة جِدِّه وعمله في عهد الشباب.

فالشباب هو الفرصة التي ينتهزها العاقل لبناء صرح مجده وسعادته فيها؛ فهو دعامة العز، وأساس العلى وسلم الرقي والفخار؛ فمن لم يُشَمِّر فيه عن ساعد الجد، ويستغله للعلم النافع لم يستطع بعده الحصولَ على شيء من أسباب الفلاح، وقضى ما بقي من حياته على أسوأ حال، ولقد أدرك ذلك الشاعر الحكيم فقال:

إذا المرء أعيته المروءة ناشئاً فمطلبها كهلاً عليه شديد

وإذا قد علمنا أنه على هذا الجانب العظيم من الأهمية ينبغي أن نذكر أخطاره بعد أن نبين السبب الذي جعله مثاراً لهذه الأخطار دون سواه، ثم نتبع كل خطر ببيان كيفية الوقاية منه.

أما السبب في ذلك هو توفر الدواعي المثيرة لغرائز الشرور التي جبل عليها الإنسان فيه؛ ولهذا كان أكثر ما يظهر من الشبان الأفعال السيئة، ومن أجل ذلك كانت الوسيلة الوحيدة التي يتوسل بها العاملون إلى إصلاح أخلاق الشبان هي إضعاف دواعي غرائز الشر، وتقوية غرائز الخير فيهم.

هذا هو السبب، ولنتكلم الآن عن المسببات وهي الأخطار مبتدئين بالأهم فالأهم.

الخطر الأول: يولد الشاب، ويترعرع، ويستمر في قطع أطوار الحياة ومراحلها؛ فأول خطر يستهدف له، ويحس به **هو خطر الشهوة الجنسية**، فيحتل هذا الخطر قَلْبَه، ويملك عليه أعصابه ولبَّه، وتتضاءل أمامه كل وسائل المقاومة، فيصبح من أجله في اضطراب شديد، وقلق عظيم؛ فإذا لم يُحَطْ بسياج يقيه عاقبته، ويحول بينه وبين أهواله أعمل فيه معاول الهدم، وانتزع من قلبه بذور الخير، وصيَّره مجرداً من عوامل الفلاح، وتَعَسّر إخراج أثر هذا الخطر من قلبه.

ولو فرض إمكانُ إخراجه فلا يخرج حتى يترك قلبه خرقة بالية لا تصلح لشيء في الحياة، وأرضاً سبخة لا تنبت بها أشجار السعادة؛ فمن المُشَاهد أن من لم يتحصن منه بالوسائل المشروعة، وسلك سبل الفسوق ـ يصاب بالأمراض الفتاكة التي تضعفه عن القيام بواجباته، ويتجرد من الغيرة والشهامة والعزة وكل الصفات العالية التي لا يكون الرجل كاملاً إلا بها، ويبدد أمواله فيما لا ينفع، فيغدو فقيراً معدماً، ولا يرجى له بحال أن يسلك سبل الهداية؛ فمن شبَّ على شيء شاب عليه، ومن شاب على شيء مات عليه.

وإذا لم يسلك هذه السبل فلا بد من تأثره بالطوارئ الناجمة عن الاختلاط كالحب والغرام مما يعبث بالقلب، ويفعمه بالأماني الباطلة؛ فينصرف عن واجباته، وتضيع أوقاته فيما لا يجدي، وإن نجا من ذلك فلا ينجو من الذكريات الأثيمة، والأفكار الخبيثة التي تلعب بعقله، وتصرفه عن سبل السعادة.

أما السياج الذي ينبغي إحاطة الشاب به؛ لينجو من ذلك الخطر فهو يتركب من عدة أمور:

أولاً: على أولياء أمور الشبان أن يزودوهم في صغرهم بالأخلاق العالية، ويشوهوا لهم الرذيلة، ويشرحوا لهم آثارها الوخيمة في الدنيا والآخرة؛ فإنهم إذا علموهم ذلك في ذلك العهد الذي تكون فيه نفوسهم على استعداد عظيم لقبوله وتأثيره فيها، ثم سوَّلت لهم أنفسهم الفاحشة ـ ردعتهم ضمائرهم عن ذلك، وخافوا تلك العواقب السيئة.

وعليهم أن يزوجوهم عند بلوغهم أشدَّهم، فيضعف في أنفسهم الداعي إلى الفساد.

وليعلم أولئك الأولياء أن هذين الأمرين من حقوق الأبناء عليهم التي أمر بها الشارع الشريف.

ثانياً: على الشاب أن يتزوج عند بلوغه الحلم إذا كان في وسعه ذلك، ولا يسوِّف طمعاً في المآرب البعيدة من أنه سيتزوج في المستقبل فتاةً راقيةً ذات حسب ونسب وجمال؛ فإن ما يجنيه من وراء ذلك التسويف المنافي للدين على فرض حصوله وإن كان ذلك نادراً لا يقاس بجانب ما يعتري جسمه ودينه من الأمراض

والعلل في تلك المدة، وإذا لم يستطع الزواج فليكثر من الصوم، وليتجنب ما استطاع أكلَ المواد المثيرة للشهوة؛ فإن ذلك يساعده على ضبط نفسه.

وقد أمرنا النبي ﷺ بذلك حيث قال: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء».

ثالثاً: على الشاب أن يتجنب النظر إلى الأجنبيات؛ فالنظر بريد الزنا، وعدمه راحة للقلب، وفيه سعادة عظيمة كما قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾.

ولقد أجاد بعض الشعراء في وصف أثر النظر حيث قال:

وأنت إذا أرسلت طرفك رائداً ... لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر ... عليه ولا عن بعضه أنت صابر

وعليه ألا يقرأ أحاديث الخلاعة والمجون، ولا الجرائد والمجلات التي تنشر صور السيدات على أشكال مثيرة للشهوة، أو تتعرض لِذِكْرِ الغرام؛ فإن ذلك يحرك بالقلب الهوى، ويقدح زناد العشق، ولا يذهب إلى دور الصور المتحركة والتمثيل الخليعة؛ فإنها تسوقه إلى هاوية الفجور، ولا يسكن بالأوساط التي لا احتشام فيها؛ فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

رابعاً: يجب على الشاب الذي يودُّ أن يعيش سعيداً أن لا يصحب الأشرار؛ فإن صحبتهم تقود إلى ملابسة الرذيلة، وتصرف المرء عن طريق الخير؛ وذلك لأنهم يحبذون شرورهم لمن صاحبهم، ويشجعونه على ارتكابها.

بل إن طَبْعَهُ يسرق من طباعهم ولو لم يقصد ذلك؛ فكم شاهدنا من شبان كانوا على جانب عظيم من الهداية، فلما اصطحبوا بالأشرار أصبحوا مجردين من كل خير.

وهذا مصداق قوله ﷺ: «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة».

خامساً: يجب على الشاب إذا هاجت، وسولت له نفسه الفاحشة أن يبادر في الحال بالاشتغال بأمر آخر يكون صارفاً له عنها؛ وذلك كأن يقوم من مكانه الذي هو فيه، ويذهب للرياضة، أو لزيارة صديق صالح، وكأن يقرأ في كتاب، أو يتوضأ ويصلي؛ فإن اشتغاله بمثل هذه الأمور مما يكبح جماح النفس.

وخير الأمور التي تصرفه عنها هو مراقبته لله ـ تعالى ـ فإنه إذا أشعر نفسه أنه في حضرة الله ـ تعالى ـ وأنه يراه حيثما كان، وعلم أنه سيحاسبه على ذلك، ويجازيه عليه في الدنيا والآخرة؛ ففي الدنيا بإذهاب بهاء الوجه، وبركةِ الرزق والعمر، وتسليطِ الفساق على عرضه، وابتلائه بالمصائب العديدة، وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار الحامية.

إنه إذا أشعر نفسه ذلك كله وقت هياج الشهوة فلا بد من انطفاء لهيبها، ورجوع النفس إلى صوابها.

وهذه المراقبة هي معنى الإحسان الذي بينه النبي ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك».

سادساً: على أولياء أمور النساء ألا يسمحوا لهن بالخروج في الطرقات متبرجات متزينات؛ فإنهم إذا سمحوا لهن بذلك كانوا قاضين على أخلاق أبنائهم، وصارفين لهم عن واجباتهم الدينية والأخروية.

وعلى الحكومة أن تسن القوانين لمنع هذا التبهرج الشنيع؛ فإنها إذا ظلت تاركة باب الحرية للنساء في التبرج مفتوحاً على مصراعيه كانت جانيةً بذلك على أخلاق رجال المستقبل، وسائقة لهم إلى بؤر الهلاك، ومانعة لهم من النهوض بأمتهم إلى العلى؛ وكيف يرجى للشبان النهوض بأمتهم وقد أضحت قلوبهم غرضاً تنتابه سهام النساء من كل صوب حتى مزقتها، وملأتها بالأفكار المقلقة، والأماني الباطلة؛ فأصبحت خراباً لا يوجد بها أثر لِلْفِكَر السامية والأماني المفيدة؟!.

وعلى الشاب المسكين في هذا العصر الذي أصبحت النساء فيه لا تقع العين إلا عليهن في كل مكان أن يجاهد نفسه، ويصرف نظره عنهن، وإن كان ذلك شاقًّاً عليه؛ فهو سهل بجانب الثمرة التي يجنيها من وراء ذلك، وليعلم بأن الجنة حفت بالمكاره، وأن النار حفت بالشهوات، وهو خير له من التقلب على جمر وخزات النفس، والاكتواء بمياسم الذكريات الأليمة.

هذه هي أهم الوسائل التي يتقي بها الشاب ذلك الخطر الداهم.

قد يقول قائل: إن تقيد الشاب بهذه الوسائل شاقٌّ جدًّاً، ومن المتعسر فعل واحدة منها عند ثوران النفس، فأقول له: نعم إن التقيد بها شاقٌّ، ولكن عند بدء استعمالها فقط، فإذا كان لدى الشخص إرادةٌ قويةٌ وعزيمةٌ صادقةٌ، ووطَّنَ

نفسه على استعمال هذه الوسائل مدة من الزمن؛ فإنها تصبح عادة من عاداته لا يجد فيها أدنى مشقة.

وهذا أمر مقرر في علم التربية وقد ضربوا لذلك مثلاً بمن يريد أن يتعلم الكتابة، ويحسِّن خطه فإنه يجد ذلك في بدء الأمر شاقًّا حتى إذا زاوله كثيراً صارت الكتابة وحسن الخط عادة لديه لا يجد فيها أدنى صعوبة.

٣٢ إلى الشباب[١] للعلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

أوجّه طلائع الحديث في هذه الليلة إلى الشباب الذين هم الساق الجديد في بناء الأمة، والدم المجدِّد لحياتها، والامتداد الطبيعي لتاريخها، وهم الحلقات المحققة لمعنى الخلود الذي ينشده كل حيٍّ عاقل ويتمناه حتى إذا فاته في نفسه التمسه في نسله، وقربت له الأماني معنىً من معنىً، فتعلّل بالخيال عن الحقيقة، وتسلّى بشبه الشيء عن الشيء، ودأب جاهداً في تدنيته وتوفير الراحة والهناء والسعادة له، ويعلِّل نفسه بأنه سيرث اسمه وماله وهو لا يعلم أنه سيموت اسمه و يُبدَّد ماله، ومازالت التَعِلاَّت صارفة عن اليأس منذ طبع الله الطباع.

وأقول: الشباب، ولستُ أعني بهذا اللفظ معناه المصدري في عرف اللغة، ولا ذلك الطور الثالث من عمر هذا الصنف البشري في مقاييس الأعمار.

وإنما أعني بهذا اللفظ طائفة من الأناسي انتهوا في الحياة إلى ذلك الطور الثالث بعد الطفولة واليفاعة، فَجَمَعَتْهُم اللغة على شبيبة وشبّان، وَوَصَفَتْهُم بالمعنى في نحو لطيف من أنحائها فقالت: شباب وشبيبة، كما وصف القرآن محمداً بأنه رحمة، وكما وصفت الخنساء الظبية بأنها إقبال وإدبار، ثم جمعتهم سنَّة التكامل على القوة والفتوة، وجَمَعهم اتحاد السنِّ أو تقاربُه على التعاطف والأخوة، وجمعهم الدين على التكاليف والواجبات، ووقفت بهم الحياة على

---

(١) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ٤/٢٦٧-٢٧١.

جددها[1]، تعرض عليهم السعادةَ في صور ملتبسة بالشقاءِ، والشقاءَ في صورٍ ملتبسة بالسعادة، واكتنفتهم الملائكة والشياطين، أولئك يدعونهم إلى الجنة محفوفةً بالمكاره، مسوقة بالصبر والألم، وهؤلاء يدعونهم إلى النار ملفوفة بالشهوات، مسوقةً بالإغراء والتزويق والتزيين.

ووقفنا ـ نحن معاشر الآباء ـ من ورائهم، نتمنَّى لهم، ونتجنَّى عليهم، ونقترف في حقهم، ولا نعترف بظلمنا إياهم، ونُرخي في تربيتهم أو نشدِّد، ولكننا لا نقارب ولا نسدّد، ونعطيهم من أفعالنا ما نمنعهم منه بأقوالنا: ننهاهم عن الكذب ونكذب أمامهم الكذب الحريت، وننهاهم عن الرذائل جملة وتفصيلاً، ثم نخالفهم إلى ما ننهاهم عنه، فيأخذون الرذيلة عنا بالقدوة والتأسي، ويحتقروننا؛ لأننا قبحنا لهم الكذب بالقول، ثم أشهدناهم بالعمل على أننا كاذبون.

إلى هؤلاء الشباب الوارثين لحسناتنا وسيئاتنا، المهيئين لخيرنا وشرنا، الحاملين لخصائصنا وألواننا إلى مَنْ بعدهم من أبنائهم، المتبرمين هنا بحالة هم مقدمون عليها كرهاً، فقد كنا مثلهم شباباً وسيصبحون مثلنا شيوخاً، وسيلقون من أبناؤهم ما لقينا نحن منهم، وسيلقى منهم أبنائهم ما لقوه هم منا؛ جزاءً وفاقاً وقصاصاً عدلاً، وسنَّة أجراها الواحد القهار، وجرى بها الفَلَك الدوار.

إلى هذا الجيل الذي عودتنا الحياة المدبرة أن نشفق عليه، وعودته الحياة المقبِلة أن يشفق منا ـ أتوجه، وإياه أعني، وإليه أسوق الحديث، داعياً له بما دعا له

---

(١) جمع جادة.

شوقي في قوله :

إن أسأنا لَكَمُ أو لم نُسِئ نحن هلكى فَلكُمْ طول البقاء

متمنياً له ما تمنَّاه له شوقي في قوله :

هل يمدُّ الله لي العيشَ عَسَى أن أراكم في الفريق السعداء

لا أخالف شوقي إلا في التخصص فقد خاطب بهذا شباب النيل ، وأنا أهتف بشباب العرب ، وبشباب الإسلام ، أهتِفُ بشباب العرب أن يراعوا حق العروبة وأن يكونوا أوفياء لها ، وأن يعلموا أنها ليست جنسية تميز ، ولا نسبة تعرف ، وأنها ليست جلدة تسمُّر أو تحمُّر ، ولا بلدة تعمر وتقفر ، وأنها ليست جزيرة يحيط بها البحر ، ولا قلادة تحيط بالنحر ، وأنها ليست متاعاً مما يرث الوارثون ، ولا أرضاً مما يحرث الحارثون ، وإنما هي خلال وخصال ، وهمم تتشقَّقُ عن فعال ، وإنما هي بناء مآثر ، وتشييد أمجاد ومحامد ، وإنما هي مساعٍ من الكرام إلى المكارم ، ودواعٍ من العظماء إلى العظائم ، وإنما هي عزائمُ ، لا تعرف الهزائم ، وإنما هي عزَّة وكرامة ، وشدة في الحفاظ وصرامة ، وإنما هي طموح وجموح : طموح إلى منازل العزِّ ، وجموح عن مواطن الذلِّ ، وإنما هي رجولة وبطولة ، وأصالة وفحولة ، وإنما هي طبع أصيل ورأي جليل ، ولسان بالبيان بَلِيْل ، وعقل على الحكمة دليل ، فمجموع هؤلاء هو العروبة ، وجامع هؤلاء هو العربي ، وما عداه فهو تعلل بباطل ، وتعلق بضلال ، وتَخَلُّق يكذبه الخلق ، وخيانة للعروبة في اسمها وفي وسمها ، وعقوق للأجداد ، كأنما عناهم المعري بقوله :

جَمالَ ذي الأرض كانوا في الحياة و هُمْ بَعْد المماتِ جَمالُ الكُتْبِ والسِّيَرِ

ثم أهتف بشباب الإسلام ليعلموا أن الإسلام ليس لفظاً تلوكه الألسنة المنفصلة عن القلوب، وتتناوله قوانين التعريف بموازينها الحرفية، وتقلِّبه اشتقاقات اللغة على معانيها الوضعية، فينزل به إلى المعاني الوضعية من السلم إلى الاستسلام، إلاَّ أن في الإسلام الشرعي نوعاً من معنى الإسلام اللغوي، ولكنه أرفع تلك المعاني وأعلاها، هو معنى تتقطع دونه الأفهام والأوهام، معنى لو طاف طائفهُ بعقول العرب أهل اللغة قبل الإسلام لرفع هممهم عن عبادة الشجر والحجر، ولَسَما بهم حينما بُعثَ محمد ﷺ عن الجدل بالباطل ليدحضوا به الحق: هو إسلام الوجه لله عنواناً لإسلام القوى الباطنة له، هو المعنى الذي خالطت بشاشته قلب نبي التوحيد إبراهيم فقال: أسلمتُ وجهي، وتذوقته بلقيس حين هداها الله فقالت: وأسلمت.

ألاَ وإن في الاستسلام نوعاً من المعاني لم يتخيله وضع ولا عرف، ولم يتداوله نقل ولا استعمال حتى جاء محمد بالهدى ودين الحق، ونقل اللغة من طور إلى طور، هو استسلام الجوارح ـ وسلطانها القلب ـ لله ولعظمته وقدرته وعلمه حتى توحِّده وحده، وتعبده وحده، وتدعوه في النائبات وحده، وتنيب إليه وحده، وتذعن إلى سلطانه وحده، وتخشاه وحده، فتستقل عن الأغيار بقدر ذلك الاستسلام إليه، وتتحرر بقدر العبودية له، وتتوحد قواها بقدر إفراده بالألوهية، وتعتز بقدر التذلل لعظموته، وتنجح في الحياة بقدر اتِّباعها لسننه، وتصفو من الكُدُرات الحيوانية بقدر اتِّصالها به، وتتزكى سرائرها بقدر إيمانها به، وتبعد عن الشرور والآثام بقدر قربها منه، ثم تسود الكائنات بأمره،

وتُخْضِعُ الكون لسلطانها بسلطانه، وتكشف أسرار الوجود بصدق التأمل في آياته، والتفكر في بدائع ملكوته.

هذه بعض معاني هذا الدين العظيم دين الله السماوي الذي بلّغه محمد ﷺ وفسره بأقواله، وشرحه بأفعاله، ووسعته لغة العرب، وحمله إلينا الأمناء الهداة، وعصمه القرآن آية الله الكبرى ومعجزة الدهر الخالدة وكتاب الكون الأبدي، وكنز الحكمة المعروض على العقول والأفكار، وعلى الأسماع والأنظار؛ لتأخذ منه كل جارحة حظها من الغذاء.

أيها الشباب: شاع بين الناس مبدأ فطري توارد عليه المُحْدَثون والقدماء، ونصره الحس، وهو أن الكبير قريب من الموت يغذّ إليه السير مكرهاً كمختار وعجلان كمتريث، ومن ثم فهو قريب من الله، والقرب من الله مدعاة عند العاقل المتأله إلى الاستعداد للقائه، والتزود للدار الآخرة بأهبها وليوم الفاقة العظمى بالأعمال الصالحة، وقد قال شاعر حكيم يصوّر هذا القرب:

وإن امرءًا قد سار خمسين حجَّة ... إلى منهل من وِرْدِهِ لَقَرِيبُ

تواضعوا على هذا وأكثروا فيه القول، وأداروا عليه النصائح والمواعظ للجماعات المتدينة، يُزْجُونها للشيوخ المسرعين إلى الموت، الذين طووا المراحل ودنوا من الساحل ـ حتى أوهموا الشبان أن الشباب عصمة لهم من الموت، وأنتج لهم القياس الفاسد أنهم بعيدون عن الله، ولا يبعد في نظر المتوسم في غرائب النفوس أن يكون تخصيص الشيوخ الهرمين بتلك المواعظ بعض السبب في اغترار الشبان وانهماكهم في الشهوات واسترسالهم مع النزوات، وبعض

السبب في إبعادهم عن الله مضافاً إلى جنون الشباب، وسلطان الهوى، وتنبه الغرائز الحيوانية.

وأنا أرى أن الشبان أحق الناس بذلك الوعظ وبالتوجيه إلى الله، والتقريب منه، وبالتعهد المنظم، والحراسة اليقظة حتى تكون أقوى الملكات التي تتربى فيهم ملكة الخوف من الله، في وقت قابلية الملكات للثبوت والاستقرار في النفوس، وفي وقت تنازع الخير والشر للنفوس الجديدة.

وإنها لكبيرة أن ينشأ الشاب على الخير والاتصال بالله من الصغر، ولكن جزاءها عند الله أكبر؛ لما يصحبها من مغالبة للهوى في لجاجه وطغيانه، ومجاهدةٍ للغريزة في عنفوانها وسلطانها.

ولهذا السر عدَّ ﷺ الشابَّ الذي ينشأ في طاعة الله أحدَ السبعةِ الذين يظلِّلهم الله بظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظله، وعدَّ الشيخَ الزانيَ أحدَ الثلاثة الذين يلعنهم الله واللاعنون من عباده؛ لأن المعصية من مثله خالصة لوجه الشيطان؛ لم تصحبها داعية، ولم يخففها عذر، ولم تسبقها مغالبة ولا جهاد.

أيها الشباب: ساء مثلاً مَنْ أوهمكم أن بينكم وبين الموت فسحةً وإمهالاً، لقد علمتم أن الموت لا يخاف الصغير، ولا يعاف الكبير.

وأسوء منه نظراً مَنْ تَوَهَّم أنكم لذلك أبعد عن الله من حيث المعاد؛ فإنكم أقرب إلى الله من حيث المبدأ، وأن أثر يد الله فيكم لأظهر، وأن المسحة الإلهية على شبابكم لأوضح، وإن أغصانكم الغضة المورقة لمطلولة بنداء السماء، وقد وخزتها خضرته من كل جانب، وإن نفحات الله لتشم من أعطافكم وشمائلكم؛

فلئن كنا قريباً من لقاء الله بالموت فلأنتم أقرب إليه بالحياة، ولئن صحبكم الاتصال به في جميع المراحل فيا بُشراكم، ولئن كنا نقبل عليه كارهين مُتَسَخِّطين على الموت فأنتم مقبلون من عنده فرحين بالحياة مستبشرين؛ فَصِلوا حبلكم بحبله واحفظوا عهده، وحذارِ أن تقطعكم عنه القواطع.

أيها الشباب: إن الشباب نسب بينكم ورحم وجامعة، ولا مؤثِّر في الشباب إلا الشباب؛ فليكن بعضكم لبعض إماماً، وليعلِّم المهتدون الضُّلالَ.

دينكم ـ **أيها الشباب** ـ لا يفتننكم عنه ناعق بإلحاد، ولا ناعٍ بتنقص.

وربّكم ـ **أيها الشباب** ـ لا يقطعنكم عنه خنَّاس من الجِّنة والناس.

وكتاب ربّكم ـ **أيها الشباب** ـ هو البرهان والنور، وهو الفَلَج والظهور، وهو الحجة البالغة، والآية الدامغة؛ فلا يزهدنكم فيه زنديق يؤول، وجاهل يعطل، ومستشرق خبيث الدخلة، يتخذه عضين؛ ليفتن الغافلين، ويلبِّس على المستضعفين.

إن دينكم شَوَّهَتْه الأضاليل، وإن سيرة نبيكم غمرتها الأباطيل، وإن كتابكم ضيعته التآويل؛ فهل لكم يا شباب الإسلام أن تمحوا بأيديكم الطاهرة الزيف والزيغ عنها، وتكتبوه في نفوس الناس جديداً كما نزل، وكما فهمه أصحاب رسول الله عن رسول الله؟.

إنكم قد اهتديتم إلى سواء الصراط؛ فاهدوا إلى سواء الصراط، إنكم لو عبدتم الله الليل والنهار لكان خيراً من ذلك كله عند الله وأقرب زلفى إليه أن تجاهدوا في سبيله بهداية خلقه إليه.

إن تلك الفئة القليلة من أصحاب محمد ﷺ ما فتحوا الكون بقوة العَدد

والعُدد، ولكن بقوة الروح؛ فانفخوا في هذه الأرواح الضعيفة التي أضعفها الضلال عن طريق الحق تنقلبْ ناراً متأجّجة.

حيّاكم الله وأحياكم، وأبقاكم للإسلام تذودون عن حياضه، وتوردون في رياضه، وللغة العرب تصلون أسبابها، وتردون عليها نضرتها وشبابها، ولمواطن الإسلام تصونون عرضها، وتردون قرضها، وتحفظون سماءها وأرضها، والسلام عليكم ورحمة الله و بركاته .

سابعاً: مقالات في العبادات والعادات

٣٣ يوم عاشوراء وعادات الناس[١] للشيخ علي محفوظ

إن لله ـ تعالى ـ نفحاتٍ يتعرض لها الموفقون من عباده ويغفل عنها المخذولون، ومن رحمته أَنِ اختص من الأيام والليالي والأشهر ما شاء، وتسمى المواسم، ثم أرشد عباده إليها طالباً منهم أن يَجِدِّوا في طاعته عسى أن يمسهم شيءٌ من رحمته وإحسانه؛ فالمواسم هي الأوقات التي رسمها الشارع؛ لطلب القرب منه فيها، والقيام بشكره على نعمه.

والمواسم معالمُ الخيرات، ومظانُّ التجارات التي بالغفلة عنها يفوت الربح العظيم؛ فإن البضائع لا تروج إلا في المواسم، والله ـ تعالى ـ إذا أحب عبداً شرح صدره للهداية، واستعمله في هذه الأوقات الفاضلة بأفضل الأعمال؛ ليثيبه أفضل الثواب ويجزيه أحسن الجزاء على ما قدم من خير العمل ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً﴾.

ولكن الشيطان ـ لعنه الله ـ قد آلى على نفسه أن يصد الناس عن سبل الخير، ويقعد لهم بكل صراط مستقيم؛ ليحول بينهم وبين إحسان الله ورحمته، ويقذف بهم في مهاوي الشقاء والخسران؛ فزين لهم في هذه المواسم أموراً بعيدة عن الهدى والرشد، ورسم لهم فيها من ضروب الهوى ما استمال به قلوبهم، ووضع لهم مكان كل سنة بدعة حتى تعرضوا لمقت الله، وغضبه بدل رضوانه وإحسانه.

---

(١) مجلة الهداية الإسلامية، الجزء الثامن، المجلد الثاني ص٤٤٣، محرم ١٣٤٩هـ.

الدين واضح ، والحلال بيِّن ، والحرام بيِّن ، والسنة جليَّة نيِّرة ، والبدعة خفيَّة مظلمة؛ فلا تكون السنة يوماً بدعة ، ولا تكون البدعة يوماً سنة إلا إذا عميت البصائر ، وانصرفت النفوس عن هدي رسول الله ﷺ وسار كلٌّ وراء شهوته وهواه ، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ .

فإن السير وراء الهوى يعمي باصرة القلب حتى لا تعرف للخير سبيلاً .

وللإيمان الصحيح نورٌ يسطع في العقول ، فيهديها في ظلمات الحيرة ، ويضيء أمامها السبيل إلى الحق الذي لا يشوبه باطل ، ويسهِّل عليها أن تتجنب كل أذىً يتعثر فيه السالك.

والإيمان الصحيح لا يبيح لصاحبه أن يعمل عملاً قبل أن يتبصر فيه ، ويعلم أنه نافع له في دينه ودنياه ، و«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» .

ولا يسمح له أن يترك أمراً حتى يشهد عنده البرهان أو العيان بأنه ليس مما يجب عليه أن يأتيه بحكم إيمانه.

الإيمان الصحيح يجعل من نفس صاحبه رقيباً عليها في كل خطرة تمر بباله ، وكل نظرة تقع منه على ما بين يديه من آيات الله في خلقه.

ماذا يقع في يوم عاشوراء؟

يقع في هذا اليوم كثير من البدع ، منها ما لا أصل له في الدين القويم ، ومنها ما ينبني على أحاديث موضوعة أو ضعيفة كاتساع الناس في اتخاذ الأطعمة الخاصة بهذا اليوم ، واعتبارهم له عيداً وموسماً من مواسم المسلمين.

وهذا من تلبيس الشيطان على العامة ـ فإنه قد ثبت أن هذا اليوم تعده اليهود عيداً وكانت تصومه كما في مسلم: «كان أهل خيبر يصومون يوم عاشوراء يتخذونه عيداً، ويلبسون نساءهم فيه حليهم وشارتهم» أي لباسهم الحسن الجميل.

فأمرنا الشارع الحكيم بمخالفتهم بصوم يوم قبله أو بعده، قال الإمام الشافعي رحمه الله أخبرنا سفيان أنه سمع عبدالله بن أبي زيد يقول سمعت ابن عباس يقول: «صوموا التاسع والعاشر، ولا تشبهوا باليهود».

وفي رواية له عنه: «صوموا يوم عاشوراء وخالفوا اليهود، وصوموا قبله يوماً أو بعده يوماً».

ولم يشرع فيه توسعة في مطعم، ولا غيره؛ لهذه المخالفة.

وما ورد في صلاة ليلة عاشوراء ويومها وفي فضل الكحل فيه لم يصح عن الرسول ﷺ، ومن ذلك حديث عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ رفعه: «من اكتحل بالإثمد يوم عاشوراء لم يرمد أبداً» وهو حديث موضوع وضعه قتلة الحسين رضي الله عنه.

قال الإمام أحمد رحمه الله: «والاكتحال يوم عاشوراء لم يرد فيه عن رسول الله ﷺ فيه أثر وهو بدعة».

فلقد أحدث الشيطان بسبب قتل الحسين رضي الله عنه بدعتين:

الأولى: الحزن، والنوح، واللطم، والصراخ، والبكاء، والعطش، وإنشاد المراثي، وما إلى ذلك من سبِّ السلف، ولعنهم، وإدخال البريء مع المذنب،

وقراءة أخبار مهيجة للعواطف ، مثيرة للفتن كثير منها كذب.

وكان قصدُ مَنْ سنَّ هذه السنَّة السيئة في ذلك اليوم فتحَ باب الفتنة ، والتفريق بين الأمة؛ فإن هذا ليس مستحبًّاً ، ولا جائزاً باتفاق المسلمين ، بل إحداث الجزع والنياحة للمصائب القديمة من أكبر المحرمات.

الثانية : بدعة السرور والفرح واعتبار هذا اليوم عيداً يلبسون فيه ثياب الزينة ، وذلك أنه كان بالكوفة ، وقوم من الشيعة ينتصرون للحسين ، ويغلون في حبه رأسهم المختار بن عبيد الكذاب ، وقومٌ من الناصبة يبغضون عليًّاً وأولاده ومنهم الحجاج بن يوسف الثقفي.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال : «سيكون في ثقيف كذاب ومبير» .

فكان ذلك الشيعي هو الكذاب ، وهذا الناصبي هو المبير؛ فأحدث أولئك الحزن ، وهؤلاء السرور ، ورووا أن من وسَّع على عياله يوم عاشوراء وسَّع الله عليه سائر سنته.

وقد سئل الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ عن هذا الحديث فقال : «لا أصل له وليس له سند إلا ما رواه ابن عيينة عن ابن المنتشر وهو كوفيٌّ سمعه ورواه عمن لا يعرف» .

ورووا أنه من اكتحل يوم عاشوراء لم يرمد ذلك العام ، ومن اغتسل يوم عاشوراء لم يمرض ذلك العام؛ فصار قوم يستحبون في هذا اليوم الاكتحال والاغتسال والتوسعة على الأهل ، وهذه بدعة أصلها من خصوم الحسين ، كما

أن بدعة الحزن من أحبابه.

والكل باطل، وبدعة وضلالة؛ ولذا قال العز بن العز الحنفي: «إنه لم يصح عن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ في يوم عاشوراء غير صومه وإنما الروافض لما ابتدعوا المأتم وإظهار الحزن يوم عاشوراء؛ لكون الحسين قُتِل فيه ابتدع أهل السنة إظهار السرور واتخاذ الحبوب والأطعمة والاكتحال، ورووا أحاديث موضوعة في الاكتحال والتوسعة على العيال».

وقد جزم الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة بوضع حديث الاكتحال، وتبعه غيره منهم مثلاً[1] علي القارئ في كتاب الموضوعات.

ونقل الحافظ السيوطي في الدرر المنتثرة عن الحاكم أنه منكر.

وقال الجراحي في كشف الخفاء ومزيل الإلباس: «قال الحاكم ـ أيضاً ـ: الاكتحال يوم عاشوراء لم يرد عن النبي فيه أثر وهو بدعة». اهـ

ولم يستحب أحد من الأئمة الأربعة، ولا غيرهم لا هذا ولا هذا؛ لعدم الدليل الشرعي بل المستحب يوم عاشوراء عند جمهور العلماء هو صومه مع صوم يوم قبله؛ فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «قدم النبي المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: ما هذا؟ قالوا: يوم صالح هذا يوم نجَّى الله ـ عز وجل ـ بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى.

قال: فأنا أحق بالصوم منكم، فصامه، وأمر بصيامه» متفق عليه.

أي أن موسى صامه؛ شكراً، ونحن نصومه تعظيماً له.

---

(١) لعلها: مُلاَّ.

وعنه ـ أيضاً ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع» رواه مسلم.

وعن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن صيام يوم عاشوراء فقال: «يكفر السنة الماضية» رواه مسلم.

ومن بدع اليوم الشحذ على الأطفال باسم زكاة الفطر؛ رجاء أن يعيشوا، وهو شائع في مصر ويزعم بعض أرباب الأموال أن ذلك كاف عما وجب في زكاته، ولا يخفى أنه ضلال.

ومنها البخور الذي يطوف به على البيوت قومٌ من العاطلين الذين لا خلاق لهم، فيرقون الأطفال منه مع كلمات يقولونها بمحضر من أمهاتهم يوهمونهن أن ذلك وقاية لهم من العين وكلِّ مكروهٍ إلى السَّنَةِ القَابلة.

وهذا أمر يحتاج إلى توقيف من صاحب الشريعة ﷺ ولم يثبت إلا أنه بدعة وضلالة.

ومن البدع السيئة في هذا الموسم طواف البنات بأطباق الحلوى ينادين عليها بقولهن: «يا سي على لوز» فهذه ضلالة؛ فإن البنات قد بلغن حدَّ الشهوة، ويخرجن متبرجات بزينة على صورة الخلاعة تعبث بهن الكهول والشبان في الشوارع وعلى قارعة الطريق، ولا يخفى ما في ذلك من الفتنة وفساد الأخلاق نعوذ بالله من الشيطان وحزبه، ونسأله ـ تعالى ـ السلامة من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

٣٤ الصيام[1] للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة: ١٨٣.

هذه الآية مدنية، وهكذا الشأن في كل آية استفتحت بهذا العنوان، بخلاف ما افتتح بـ: يا أيها الناس؛ فقد وقع في الآيات المكية والمدنية، وإنما ابتدأت بهذا المطلع الذي يخص المؤمنين لأنها سيقت للتكليف بأمر فرعي وهو الصوم، وكذلك جرت سنة كتاب الله أن يفتتح الأوامر الفرعية بـ: **يا أيها الذين آمنوا**، نحو ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ الحج: ٧٧، ونحو ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ البقرة: ٢٥٤، وكقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ المائدة: ٩٠، إلى غير ذلك.

ويصدر الأوامر الاعتقادية بـ: يا أيها الناس، والسر في ذلك أن الفروع لا تصح إلا مع وجود شرطها وهو الإيمان؛ فناسب توجيه الخطاب إلى من حصلوا على شرط صحتها وهم الذين آمنوا، مع ما في ذلك من تقوية الداعية لهم، والمبالغة في التهييج إلى العمل؛ فكأنه يقول لهم: أيها المؤمنون شأن المؤمن بالله أن يتلقى أوامره بغاية القبول وسرعة الامتثال.

ومن يرى من الأصوليين عدم تكليف غير المؤمنين بفروع الشريعة لا يحتاج إلى بيان وجه العدول عن يا أيها الناس في الأوامر الفرعية.

---

(١) السعادة العظمى ـ عدد١٤، ١٦ رجب ١٣٢٢هـ المجلد الأول، ص٢٦٨ـ٢٧١.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ﴾ الصيام في اللغة الإمساك عما تنازع إليه النفس، كالكلام والطعام والشراب والنكاح.

وفي الشريعة الإمساك عن المفطرات بياض النهار.

وشرع الصيام لتصفية مرآة العقل، ورياضة النفس بحبسها عن شهواتها وإمساكها عن خسيس عاداتها، وليذوق الموسرون لباس الجوع؛ فيعرفون قدر نعمة الله عليهم، وتهيج عواطفهم إلى مواساة الفقراء.

وللصوم عند من تنبهوا لأسرار العبادات ثلاث درجات: صوم العامة وهو كف البطن والفرج عن شهوتيهما، وصوم الخاصة وهو ما تقدم مع قصر الجوارح عن أفعال المخالفات، وصوم خاصة الخاصة وهو صوم القلب وترفعه عن الهمم الدنيَّة والأفكار الدنيوية التي لا تراد للدين وإلا فهي من زاد الآخرة ومطاياه، وهذه هي الدرجة الكاملة التي جمعت بين عمل الظاهر والباطن.

وينبئك على حطة الدرجة الأولى وقصور صاحبها عن الانخراط في زمرة الصائمين حقيقة، قوله ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه».

وقال أبو بكر العربي: كان من قبلنا من الأمم صومهم الإمساك عن الكلام مع الطعام والشراب؛ فكانوا في حرج ثم أرخص الله لهذه الأمة في الإمساك عن الكلام؛ ليرفعها بالكرامة في أعلى الدرج؛ فوقعت في ارتكاب الزور، واقتراب المحظور في حرج، فأنبأنا الله ـ سبحانه ـ على لسان رسوله أن من اقترب زوراً، أو أتى من القول منكوراً، أن الله ـ سبحانه ـ في غنى عن الإمساك عن طعامه

وشرابه».

يسمع الناس بحديث: «لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»، وحديث «كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصيام فهو لي وأنا أجزي به»، وحديث: «الصيام جُنّة»، فيضعونها في غير مواضعها، ويحملونها على غير محاملها، باعتقاد أنها صادقة على أهل الدرجة الأولى وهو خطأ صراح؛ كيف تكون رائحة فم تَقَذَّر بتناول الأعراض والتمضمض بنحو الكذب والهذيان والمراء أطيب عند الله من ريح المسك؟ وكيف يستاهل صيامٌ تَجهَّم وجهه بسماجة المعاصي أن يضاف إلى ملك الملوك -جلَّ جلاله- ويتولى جزاءه بنفسه؟.

وكيف يكون الصيام جُنّة ووقاية من عذاب الله، وقد انخرق سياجه، وتدنس ذيلُه بقول الزور والتلبس بالآثام التي تهيء له في نار جهنم وطاءاً وغطاءاً؟.

نعم، لأهل تلك الدرجة ثواب عن صيامهم، ولكنه لا يبلغ في الموازنة مبلغ ثقل أوزارهم؛ فيستحقون هذه الكرامات.

ومما يعاكس حكمة الصيام، ويهدم أصل مشروعيته، الإسراف في الأكل سواد الليل، والتفنن في الأطعمة تفنن ذوي الأرواح القدسية على الأذواق العجيبة وأسرار الملكوت، ومنهم من لا يقنعهم التمتع بها في بيوتهم حتى ينقلون أحاديثها اللذيذة عندهم إلى المنتديات العامة والمجتمعات التي تضم أشتاتاً من الناس، ويتواجدون لسماعها ولا تواجد الأم بنغمات صبيّها عند ما يكاد يبين لها عن مآربه الخفية.

وإنه ليعظم في عينك الرجل باديء الرأي حتى تحسبه واحداً من رجال الأمة ، فما يروعك إلا وقد أخذ يسوق إليك حديث الأطعمة ، ويشخص لك هيآتها يحلِّلها لك تحليلاً كيماوياً ثم يطبخها بلسانه مرة أخرى.

وإن لفقه النفس أثراً عظيماً في تعديل المخاطبات ، وتحسين العادات.

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ هذا التشبيه عائد إلى أصل إيجاب الصوم ، والمعنى أن الصوم لم يُفْرَض عليكم وحدكم حتى يعظم وقعه في نفوسكم ، بل كان مكتوباً على الأمم الماضية من لدن آدم إلى عهدكم.

وما يقوله بعض المفسرين من أن التشبيه يعود إلى وقت الصوم وقدره -أيضاً- لا يلتفت إليه بدون أثر صحيح يثبته ، وكل ما جاء في القرآن مطلقاً أو مبهماً لا ينبغي تقييده أو حمله على معنى معين إلا بحديث ثابت.

وفائدة هذا التشبيهِ تهوينُ هذه العبادةِ الشاقةِ ، وتخفيفُ وطأتها على الأنفس ببيان عدم اختصاصهم بإيجابها؛ لأن الأمور الشاقة إذا عُمِلت سهل تحملها ، ولم تشفق الأعناق من التطوق بعدتها.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ تصيرون أتقياء؛ فإن الصوم يقهر النفس ، ويخطمها عن مألوفاتها ، وذلك مما يورث التقوى ، وقد فسرت «الجنّة» في حديث «الصيام جنّة» بالوقاية والسترة من المعاصي؛ رعاية لهذا المعنى ، وهو ثاني فهمين في الحديث.

أولهما: ما أشرنا إليه فيما سبق ، وقد كنّى - عليه الصلاة والسلام - عن طهارة نفوس الصائمين من رجس المعاصي ، وتخلصها من البواعث على

الفواحش بغلق أبواب النار وتصفيد الشياطين، كما كنّى عن تنزيل الرحمة، وحسن القبول للأعمال بفتح أبواب الجنة في قوله: «إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة ـ وللبخاري «أبواب السماء» ـ وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين» وحمل هذا الحديث على الكناية أعظم للمنة، وأتم للنعمة وأفيد للصائمين من حمله على ظاهره، ولا مانع من حمله على الحقيقة ـ أيضاً ـ.

٣٥ الحج المبرور[1] للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ورد في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ سئل: أي الأعمال أفضل؟ فقال: إيمان بالله وبرسوله، قال السائل: ثم ماذا؟ قال: ثم الجهاد في سبيل الله، قيل: ثم ماذا؟ قال: ثم حج مبرور.

وقد ثبت في صحيحي البخاري ومسلم وأكثر كتب السنة المعتبرة أن النبي ﷺ قال: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة».

والحج المبرور: هو الذي وفيت أحكامه، ولم يخالطه شيء من الإثم.

والذي يستعرض أعمال الحج، وأحكامه يجدها ترجع إلى عناصر يكمل كل منها الآخر، ومدارها على أن يجدد المسلم حياته بالحج؛ فيقطع صلته بكل مكان يعلق بها من شوائب الإثم، أو الانحراف عن طريق الله ووسائل مرضاته، ويبدأ حياته جديدة نقية، بنفس راضية تقية، بعد توبة نصوح يشهد الله عليها في أطهر بقاع الأرض، مخاطباً ربه ـ عز وجل ـ قائلاً: «لبيك اللهم لبيك» وملتزماً أن لا يعمل من ذلك الحين إلا ما يرضي الله من عمل، وأن لا يقول إلا ما يقربه إلى

---

(١) من كتاب أحاديث في رحاب الأزهر، لفضيلة الشيخ محمد الخضر حسين، جمعها وحققها علي الرضا التونسي ص٩٦ـ٩٨، و مجلة «الأزهر» الجزء الأول ـ المجلد الخامس والعشرون، غرة المحرم ١٣٧٣.

ربه من خير وحق، وأن لا يعود إلى أهله ووطنه إلا وهو إنسان آخر يؤثر مرضاة الله في كل ما يصدر عنه، ويكون في جانب الحق في كل ما يصطدم فيه الحق والباطل، ويحرص على أن يكون من أهل الخير، كلما دعته الظروف، وسنحت له الفرص لعمل الخير.

كما أن المدرسة مصنع يدخله غير العارفين ثم يتخرجون منه علماء عارفين كذلك الحج فرصة من فرص الحياة يتعرض لها المسلمون بما ارتكبوا في حياتهم من هفوات، وما وقع منهم مما لا يرضى الله عنه، فيجددوا توبتهم العظمى في البلد الحرام والشهر الحرام، ويهتفون من أعماق قلوبهم معاهدين ربهم على التزام أوامره واجتناب نواهيه قائلين: (لبيك اللهم لبيك) فلا ينتهون من مناسكهم إلا وهو على عهد مع الله -عز وجل- بأن يكونوا من أهل الاستقامة في حياة جديدة قامت مناسك الحج حائلاً بينها وبين شوائب الماضي، فيعفو الله عما سلف على قدر ندم صاحبه عما فرط منه، وعلى قدر ثباته على عهده مع الله بأن يكون من أهل السلامة والاستقامة والتقوى.

إن عشرات الألوف من المسلمين يقفون بين يدي الله -عز وجل- في عرفة، في البقعة المباركة التي وقف فيها رسول الله ﷺ وصفوة خلق الله من أصحابه الأكرمين والتابعين لهم بإحسان.

وهذه الألوف التي لا تحصى، ترفع أصواتها بالدعاء إلى الله الرحمن الرحيم معلنة أنها أجابت دعوته، وأنها تعاهده - عز وجل - على أن تتوخى رضاه في أقوالها وأفعالها، ولن تكتفي هذه الجموع العظمى بهذا العهد العظيم مع الله،

بل إنها بعد الإفاضة من عرفات إلى مزدلفة تدفع من مزدلفة إلى منى قبل أن تطلع الشمس، وفي منى تعلن مقاطعتها للشيطان، وترمز لهذه المقاطعة برميه عند الجمرة الكبرى، ثم عند الجمرة الصغرى والوسطى، وجمرة العقبة في أيام التشريق وهي الأيام الثلاثة التي بعد يوم النحر.

هذه المقاطعة الرمزية للشيطان في كل ما ينتظر أن يسول به للمسلم في حياته من شر، أو إثم، يقوم بها الحجاج جميعاً بعد ذلك العهد الذي قطعوه لربهم كلما هتفوا له: (لبيك اللهم لبيك)، فتخرج نفوسهم نقية طاهرة مثيبة إلى الله، مستريحة من أوزار الماضي، ومستقبلة حياة جديدة صالحة، وأياماً سعيدة هنيئة.

هذا هو الحج المبرور؛ لأنه يرجع بالمسلم إلى الله، ويرجع المسلم إلى سعادته التي كفلها له الإسلام، ودله على طريقها، وضمن له الجنة إذا التزم هذا الطريق فلم يخرج عنه.

يا حجاج بيت الله الحرام، إن الله ـ عز وجل ـ قد هيأ لكم الفرصة الثمينة؛ لتجددوا أنفسكم، وترجعوا إلى ربكم، وتكونوا من خيرة أبناء بلادكم وأمتكم، فتسعدوا في الدنيا، وتكونوا من أهل الجنة في الآخرة.

وسبيل ذلك أن تكونوا من أهل الحج المبرور، ولا يكون حجكم مبروراً إلا بالتوبة الصادقة، ومقاطعة الشيطان إلى الأبد وفي كل شيء.

نسأل الله ـ عز وجل ـ أن يتم عليكم هذه النعمة، وأن يجعلكم من عباده الصالحين.

٣٦ عيد الأمس، عيد اليوم، عيد الغد[1] للعلامة محب الدين الخطيب

ما انفك هذا الشرق العربي يستقبل الأعياد بقلوب أبنائه دون عقولهم، إلى أن فاجأتنا أعياد أَفَقْنا فيها من رقادنا، فشعرنا بحاجتنا إلى استقبالها بعقولنا دون قلوبنا.

وتلك عادة من عاداتنا السيئة أن تكون نظرتنا الأولى إلى كل أمر من أمورنا منتزعةً من قلوبنا، وضلال مشاعرنا، وميول أنفسنا؛ مهملين كل الإهمال عقولنا التي بنورها يتبدد دَيْجور الليالي، وبمقياسها تقدر المنافع الحقيقية، وبقسطاسها يرجح جانب الصواب في كل حادث.

الأعياد السنوية عند الأمم هي الحد الفاصل بين عام مضى وعام أقبل؛ لذلك كان من شأن كل أمة أن تتفرغ في أيام عيدها لاستعراض حوادث العام المنصرم فتصفى حسابه، وتنظر في مبلغ ما نالته فيه من ربح، فتعده عيداً سعيداً يجدر بأفرادها أن يتبادلوا فيه عبارات التهاني، أو مقدار ما أصابها فيه من خسران فتفكر في أسباب تلافيه، ويتمنى بعضهم لبعض أن يعود عليهم أمثاله بخير مما عاد به عليهم في عامهم الذي هم فيه.

ولو كان أفراد جيلنا والجيل الذي تقدمنا قاموا بعملية هذا الجرد الاجتماعي في فرصة كل عيد سنوي لما كنا دون الأمم التي نهضت في تلك البرهة من الزمن، وأعني بها الأمة اليابانية، والأمة البلغارية، والأمة الفنلندية، وسائر الأمم التي

---

(1) الحديقة ٦/٧ ـ ١٠، عام ١٣٤٩هـ، وقد كتبها رحمه الله في ٩ ذي الحجة ١٣٣٧هـ.

سَرَتْ مسراهن ، ونجحت نجاحهن.

ظللنا ـ كما كانت تفعل طبقة آبائنا ـ نستقبل الأعياد بسرور وغرور ، غير شاعرين بمساعي اليابانيين والبلغاريين والفنلنديين في سبيل نهضتهم الوطنية والصناعية والتهذيبية ، وما انقضى نحو خمسين عيداً حتى انجلت عنهم وعنا غيوم الأزمان ، فظهروا للعالم بمظهر المغالب للطبيعة في الحصول على مقومات الحياة ، وظهرنا بمظهر الذي عاند الطبيعة ؛ ليمنع مقومات الحياة من أن تتسرب إليه ؛ فحصلوا هم منها على القسم الوافر رغم الطبيعة ، ونحن أخذنا منها بالقسم اليسير الذي أرغمتنا طبيعة الزمان على الأخذ به.

وها نحن نرى الآن بأعيننا ما بيننا وبين اليابانيين من المسافات الشاسعة في ميدان الارتقاء ومعترك الحياة : هم يلبون داعي الوطنية بالألوف ، ونحن نلبيه بالمئات ، وهم يشعرون بحاجة الوطن إليهم في ساعة حاجته إليهم ، ونحن نشعر بذلك متأخرين ، هم يقدمون للوطن من رؤوس أموالهم علماً منهم بأن حياة أفراد الوطن متصلة بحياة الوطن نفسه ونحن نمن على الوطن إذا جدنا عليه بحثالة الكأس ، وفضلات المائدة.

لقد كانت الحرب المنصرمة امتحاناً للأمم يُبتلى فيه مَضاء سلاحها التهذيبي ، وكنا في جملة من دخل هذا الامتحان فعلمنا من نتيجة ذلك أننا بدأنا نشعر بالحياة ، وأن فينا من قواها نسيساً لم يكن فينا قبل عشرين عاماً.

لذلك يمكننا أن نعلم من الجرد الاجتماعي الذي نجريه في عيدنا هذا أن ثروتنا الوطنية والتهذيبية في نماء وتقدم ، ولكنهما ـ ويا للأسف ـ قد تسربا إلينا بضغط

طبيعة الزمان علينا ، وإرغامها إيانا على مجاراتها للتسلح بمقومات الحياة.

ولو أننا جاريناها بلا ضغط منها علينا ، بل لو اندفعنا في طريق الترقي مقاومين ما قد يعترضنا من العقبات ـكما يفعل اليابانـ لكنا اليوم بمنزلة اليابانيين صناعة ، ووطنية ، وتهذيباً.

إن هذا اليوم له ما بعده ، ونحن واقفون في هذه الساعات على برزخ بين الحياة والموت؛ فإما أن يندفع كل فرد منا في سبيل الحياة بلا تردد ، ويسارع إلى أن يكون قدوة لغيره قبل أن يكون غيره قدوة له ، وإما أن يلبث كل واحد منا واقفاً يراقب كل ما يبدر من الآخرين ليفعل كما يفعلون؛ فتكون النتيجة بقاء الجميع وقوفاً أوشبه وقوف ، وذلك هو الموت بعينه.

الواجبات الوطنية كثيرة ، والسبيل التي سارت فيها الأمم الراقية واضحة أمامنا ، فليكن حديثنا في هذا العيد دائراً حول هذا البحث شعارنا(إلى الأمام... دائماً إلى الأمام...) وبهذا يكون عيدنا سعيداً ، ونكون واثقين من أننا وأولادنا سنستقبل بعقولنا وقلوبنا بمنافعنا ومسراتنا أعياداً سعيدة إلى الأبد.

ثامناً: مقالات في السياسة والإجتماع

٣٧ الشورى في الإسلام[1] للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

أتى على العالم حينٌ من الدهر وهو يتخبط في جهل وشقاء، ويتنفس من نار البغي الطاغية على أنحائه الصعداء، حتى نهض صاحب الرسالة الأعظم ﷺ بعزم لا يحوم عليه كلال، وهمة لا تقع إلا على أشرف غرض، فأخذ يضع مكان الباطل حقاً، ويبذر في منابت الآراء السخيفة حكمة بالغة، وما لبث الأمم أن تقلدت آداباً أصفى من كواكب الجوزاء، وتمتعت بسياسة يتجلى بها العدل في أصرح مظهر، وأحسن تقويم.

وضع الإسلام للسياسة نظاماً يقطع دابر الاستبداد، ولا يبقي للحيف في فصل القضايا أو الخلل في إدارة الشؤون منفذاً، أوصى الرعاة بأن لا ينفردوا عن الرعية بالرأي في قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**﴾ آل عمران:١٥٩، وقوله: ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**﴾ الشورى:٣٨، ثم التفت إلى الأمة وعهد إليها بالرقابة عليهم ومناقشتهم الحساب فيما لا تراه مطابقاً لشرط الاستقامة، فقال ـتعالىـ: ﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ**﴾ آل عمران:١٠٤.

ولم يكن الأمراء الراشدون احتراماً لهذا القانون الإلهي يكرهون من الناس، أو يحجرون عليهم البحث في الشؤون العامة، ومجادلتهم فيها بلهجة ناصح أمين.

---

(١) مجلة البدر الجزء الخامس من المجلد الثاني الصادر في منتصف جمادى الأولى ١٣٤٠هـ تونس، وانظر (هدى ونور) ص٣٩.

وهذه صحف التاريخ حافلة بقصص الذين كانوا يقفون للخليفة عمر ابن الخطاب ـ وهو يخطب على منبر المسجد الجامع ـ فينكرون عليه عزل عامل اعتقدوا أمانته ، أو يجادلونه في رأي عزم على أن يجعله قانوناً نافذاً ، فلا يكون منه سوى أن يقول لمن نطق عن بينة «أصبت» ويرد على من أخطأ في المناقشة رداً جميلاً .

وإن شئت مثلاً من سيرة الأمراء الذين تقلبوا في فنون من أبهة الملك ، ولبسوا من عظمته بروداً ضافية فقد حضر القاضي منذر بن سعيد مجلس الخليفة الناصر بمدينة الزهراء ، فتلا الرئيس عثمان بن إدريس أبياتاً تمضمض فيها بشيء من إطراء الخليفة ، حتى اهْتَزَ طرباً ، وكان منذر بن سعيد ينكر على الناصر إفراطه في تشييد المباني وزخرفتها؛ فأطرق لحظة ثم قال :

يا باني الزهراء مستغرقاً أوقاته فيها أما تمهل

لله ما أحسنها رونقاً لو لم تكن زهرتها تذبل

فما زاد الناصر على أن قال : «إذا هب عليها نسيم التذكار ، وسقيت بماء الخشوع ، لا تذبل إن شاء الله» فقال منذر : «اللهم اشهد فإني قد بثثت ما عندي» .

في مقدرة ذلك الخليفة أن يفصل منذر بن سعيد عن وظائفه ، أو يبعث به إلى المنفى غير آسفٍ عليه ، ويجعل عذره في ذلك العقاب خطبه التي كان يلقيها على منبر الجامع ، ويتصدى فيها لنقد أعمال الدولة بلهجة قارصة.

ولكنه أمير نفذت بصيرته إلى روح الشريعة الغَرَّاء ، ودرس تاريخ الخلفاء قبله

عن عبرة؛ فعرف أن لا غنى للدولة عن رجال يجمعون إلى العلم شجاعة، وإلى الشجاعة حكمة، حتى يمتطوا منصب الدعوة إلى الإصلاح بحق، ويكونوا الصلة التي يظهر بها أولوا الأمر وبقية الشعب في مظهر أمة تولي وجهها شطر غاية واحدة، ثم لا يغيب عن مثل ذلك الخليفة العادل أن الدولة لا تحرز مجداً خالداً وسمعة فاخرة إلا أن يعيش في ضلالها أقوام حرة، وفي مقدمتهم علماء يجدون المجال للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فسيحاً.

يصفون بعض الأمم بمحررة الشعوب، ويلقبون عاصمة بلادها بمطلع الحرية، إلا أن ناشر لواء الحرية بحق، ومعلم البشر كيف يتمتعون بالحقوق على سواء مَنْ وضع لطاعة الأمراء حداً فاصلاً؛ فقال: «**إنما الطاعة في المعروف**» وجعل الناس في موقف القضاء أكفاء فقال ﷺ: «**أيها الناس إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**».

كم ظهر في بلاد العرب من سيد بلغ في الرئاسة أن أحرز لقب ملك كآل جفنة وغسان، وربما وجد من بينهم من لا يَقِلُّ في قوته النفسية الفطرية عن الفاروق رضي الله عنه فما بالهم لم يأخذوا في السياسة بنزعته، ويرموا إلى أغراضها عن قوس حكمته؟.

لا عجب أن يمتطي ابن الخطاب تلك السياسة الفائقة، ويجول بها بين الأمم جولته التي رفعت الستار عن أبصارهم، حتى شهدوا الفرق بين سيطرة الدول المستبدة وسيرة الخليفة الذي ينام في زاوية من المسجد متوسداً إحدى ذراعيه.

إنْ هو إلا الإسلام أقام له أساسها، وأنار سراجها، فبنى أعماله على أساس راسخ، واستمد آراءه من سراج باهر، فكانت صحف آثاره أبدع عند عشاق السياسة القيمة من مناظر الروضة الغناء.

تدرب الخلفاء العادلون على مذاهب السياسة وفنون الحرب بما كانوا يتلقونه من حضرة الرسول ـعليه الصلاة والسلامـ من الحكم السامية كحديث «**الحرب خدعة**» أو ما يشهدونه من التدابير المحكمة كوسيلة التكتم في الأمور الجارية عند الدول لهذا العهد، وهي أن يبعث الرئيس الأعلى إلى الرئيس الأدنى أو يناوله رسالة مختومة، ويأمره أن لا يفك ختامها إلا في محل أو وقت يسميه له.

وقد جاء في صحيح البخاري وغيره أن حضرة صاحب الرسالة ـ عليه الصلاة والسلام ـ ناول عبد الله بن جحش ـ وهو أمير نجد ـ كتاباً وقال له: «**لا تقرأه حتى تبلغ مكان كذا**».

فلما بلغ عبد الله ذلك المكان، قرأ الكتاب وأخبر الجند بما في ضمنه من الأمر.

إن اختلاف الأمم في عاداتها وحاجاتها، يستدعي أن تكون سياستها ونظاماتها مختلفة، كما يقتضي أن يكون المدبرون لأحكام الأمة وتراتيبها المدنية ممن وقفوا على روحها، وأحاطوا خبرة بمزاجها، حتى لا يضعوا عليها من الأوامر والنواهي ما يجعل سيرها بطيئاً، أو يردها على عقبها خاسرة.

وكذلك الإسلام يقيم السياسة على رعاية العادات، ويسير بها على ما يطابق المصالح، ولهذا فصَّل بعضَ أحكامٍ لا يختلف أمرها باختلاف المواطن كآية: ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ** ﴾ البقرة:١٧٩ وحديث: «**البينة على المدعي واليمين**

على المدعى عليه».

ووكل البقية إلى أنظار الراسخ في العلم بمقاصد الشريعة، البصير بما يترتب على الوقائع من آثار المفاسد والمصالح.

وإن تعجب فعجب لبعض من لا يدري أن الإسلام نورٌ إذا نفذ في قلب لا ينطفئ منه حتى يكون الواحد ثلاثة والثلاثة واحداً[١]، فكتب في إحدى المجلات مقالة عقد فيها موازنة بين الإسلام والدين الذي يعتنقه إلى أن قال: «قد يقول البعض أن الإسلام تطور عما كان عليه، وقطع إلى الأمام شوطاً بعيداً، لأن الأتراك قد أعلنوا الدستور، ولأن الفرس أدخلوا الإصلاحات البرلمانية، ولأن معاهد العلم والجامعات منتشرة في كل نواحي العالم الإسلامي، ولكنا نحيل القارئ الكريم إلى ما جاء في تقارير المذابح الأرمنية والفضائع الوحشية التي أتاها الأتراك أنفسهم».

وليس في وسع هذا المقام ولا من غرضه التعرض للروايات المصنفة في حوادث الأرمن كما أنني أنبش مقابر التاريخ الأندلسي، أو ألفت نظر ذلك الكاتب لفتة حقيقية إلى ما تقاسيه بعض الشعوب الإسلامية اليوم من أهل دين يقدسه، ويتقلد عقائده.

ولكني أذكره بأن الطرق المنطقية لا تبيح له الاحتجاج على عدم مطابقة التعاليم الإسلامية للإصلاحات المدنية بمذابح الأرمن، ولو انعقد الإجماع على صحة روايتها.

---

(١) لعله يشير إلى بعض الكتاب النصارى (م).

وإنما يرجع في الترجيح بين الأديان إن شاء إلى شرائعها، ونصوص الذين أوتوا العلم من أئمتها، وإن شريعة تقوم على قواعد: «الضرر يزال، المشقة تجلب التيسير، العادة مُحَكَّمَة» ويقول أحد العظماء من فقهائها: «تَحْدُثُ للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من المعاملات والسياسات» - لا يحق لأحد أنْ يَرمِيَها بمجافاة الإصلاح والبعد عما تقتضيه طبائع العمران، إلا أن يفوته العلم بحقائقها، أو يحمله التعصب الجامد على جحودها.

٣٨ بيئة الإسلام الأولى التي اختارها الله لمولد خاتم رسله وظهور أكمل رسالاته[1] للعلامة محب الدين الخطيب

بلدة لا كالبلاد، لجيل لا كالأجيال، من أمة لا كالأمم...

بلدة اختارها الله ـ في الدهر الأول ـ لأول بيت قام في الأرض؛ لتوحيد الله والعبادة الخالصة والنسك السليم: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ ﴾ آل عمران: ٩٦ـ ٩٧.

قال الحسن بن أبي الحسن البصري رحمه الله: «كان الرجل قبل الإسلام يَقتل، فيضع في عنقه صوفة ويدخل أرض الحرام، فيلقاه ابن المقتول، فلا يهيجه حتى يخرج من حدود الحرم».

وقد وصف الله في سورة (العنكبوت الآية: ٦٧) هذه الميزة لبيت الله الحرام، ومنَّ بها على أهله فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾.

وفي سورة (القصص: ٥٧ـ ٥٩) ـ وهي مكية ـ نعى الله على الحارث بن عامر ابن نوفل بن عبد مناف وأمثاله من رجالات قريش وشبابهم أنهم تخوَّفوا من إقامة الحق بالدخول في الإسلام يوم كانت مكة هي بيئةَ الإسلام الأولى ومشرقَ

(١) مع الرعيل الأول ص١٨ ـ ٢٤.

دعوته ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) وكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾.

ومما خاطب الله قريشاً ـ فيما أنزله من القرآن بمكة ـ ومنَّ عليهم بهذه الميزة الكبرى لبلدتهم دون بلاد الأرض كلها قوله ـ جلَّ ثناؤه ـ: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ(٤)﴾ قريش.

إن حرم مكة الآمن لا ينحصر في حرم الكعبة، ولا يقتصر على البلدة كلها، بل يعم أرض الحرم إلى مسافات بعيدة أقيمت لها أعلام في كل ناحية من نواحيها، فما كان خارج هذه الأعلام يسمى الحل، وما هو في داخل نطاقها يسمى الحرم، وفي الحرم تأمن الطير ـأيضاًـ كما يأمن الإنسان؛ فلا تنفر عن أوكارها، ويأمن فيه حتى الوحش، فلا يحل اصطياده.

بل من جملة تحريمها تحريمُ قطع شجرها، وقلع حشيشها.

وقد خطب رسول الإنسانية الأعظم ـ صلوات الله عليه ـ يوم فتح الله عليه مكة، فقام على باب الكعبة يقول لقريش ومن وراءها من جماهير الناس، ولكتائب الفتح من المهاجرين والأنصار:

«إن الله حرَّم هذا البلد يوم خلق السموات والأرض؛ فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحلَّ القتال لأحد قبلي، ولم يحلَّ لي إلا في ساعة من نهار؛

فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا يُنَفَّرُ صيدُه، ولا يلتقط لقطته إلا من عَرّفها، ولا يختلى خلاه».

فقال عمه العباس: يا رسول الله إلا الإذخر ـ وهو نبات طيب الرائحة ينتفعون به ـ فقال ﷺ: «إلا الإذخر».

وقد حيل بين من يلجأ إلى الحرم من المجرمين وبين حقوق الله والناس بما رواه سعيد بن جبير عن عبدالله بن عباس أن القاتل إذا عاذ ببيت الله في مكة أعاذه البيت، ولكن ليس على أحد من ساكني الحرم أن يؤويه، أو يطعمه ويسقيه، حتى يضطر إلى الخروج من حدود الحرم فإذا خرج أخذ بذنبه.

ومن أعجب ما امتازت به مكة عن بلاد الله جميعاً بين زمن مولد حامل أكمل رسالات الله وزمن هجرته ـ أنها بلدة لم يشعر أهلها بحاجتهم إلى حكومة، ولم تمس حاجتهم إلى إقامة شرطة تحمي أهل العافية فيهم من أهل البغي والشر؛ لأنهم قلما عرفوا فيهم مُواطناً من أهل مكة تنزع نفسه إلى البغي والشر(١).

وأكثر ما كان يقع فيهم الباطل أن يمطل المدين دائنه في وفاء ما في ذمته له، فكان يستعين عليه بأهل العافية؛ فيحصل منه على حقه بلا حاجة إلى قضية أو محكمة.

ولأجل هذا انعقد في بيت وجيه من وجهاء مكة وشريف من أشرافها وهو عبدالله بن جدعان التيمي ـ من أسرة أبي بكر الصديق ـ حِلْفٌ اشترك فيه طائفة من أهل الفُتُوَّة والمروءة في قريش، وتعاقدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من

---

(١) أين الكاتب رحمه الله من الحال في هذه الأزمان والله المستعان (م).

أهلها أومن غيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على مَنْ ظلمه حتى تُرَدَّ عليه مظلمته.

وكان رسول الله ﷺ لا يزال يومئذ فتى، روى طلحة الندى ـ وهو طلحة ابن عبدالله عوف الزهري قاضي مكة في القرن الأول للإسلام ـ أن رسول الله ﷺ قال: «لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حُمْرَ النعم، ولو أُدعى به في الإسلام لأجبت».

إن الناس هم الناس، وفيهم الطيب والوسط والخبيث، تشترك في ذلك الأمم كلها، غير أنها تتفاضل بنسبة أهل هذه الأصناف الثلاثة بعضهم إلى بعض؛ فمن الأمم من تطغى نسبة الخبيث من أهلها على من فيها من الطيبين والعنصر الوسط؛ فهي من شر الأمم، ومنها من يكثر فيها العنصر الطيب وتكون له الكلمة النافذة والتوجيه المطاع في المجتمع؛ فهي من أكرم الأمم معدناً، ومنها من تعظم فيها نسبة الطبقة الوسطى؛ فيعم فيها الخير ويستتب الاستقرار.

يقول النبي ﷺ فيما قرره من حقائق: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا».

وقد علق شيخ الإسلام ابن تيمية على هذا الحديث في كتابه منهاج السنة **(٢: ٢٦٠-٢٦١)** بقوله: «فالأرض إذا كان فيها معدن ذهب، ومعدن فضة كان معدن الذهب خيراً؛ لأنه مظنة وجود أفضل الأمرين فيه؛ فإن قُدِّر أنه تعطل ولم يخرج ذهباً كان ما يخرج الفضة أفضل منه؛ فالعرب في الأجناس ـ وقريش فيها، ثم هاشم من قريش ـ مظنةُ أن يكون فيهم الخير أعظم مما يوجد في غيرهم؛ ولهذا

كان في بني هاشم النبي ﷺ الذي لا يماثله أحد في قريش، فضلاً عن وجوده في سائر العرب وغير العرب.

وكان في قريش الخلفاء الراشدون، وسائر العشرة، وغيرهم ممن لا يوجد له نظير في العرب وغير العرب.

وكان في العرب السابقين الأولين مَنْ لا يوجد له نظيٌر في سائر الأجناس؛ فلا بد أن يوجد في الجنس الأفضل ما لا يوجد مثله في المفضول، وقد يوجد في المفضول ما يكون أفضل من كثير مما يوجد في الفاضل، كما أن الأنبياء الذين ليسوا من العرب أفضل من العرب الذين ليسوا بأنبياء، والمؤمنون المتقون من غير قريش أفضل من القرشيين الذين ليسوا مثلهم في الإيمان والتقوى، وكذلك المؤمنون المتقون من قريش وغيرهم أفضل ممن ليس مثلهم في الإيمان والتقوى من بني هاشم؛ فهذا هو الأصل المعتبر في هذا الباب، دون من ألغى فضيلة الأنساب مطلقاً، ودون من ظن أن الله ـ تعالى ـ يفضل الإنسان بنسبه على من هو أعظم إيماناً وتقوى منه؛ فكلا القولين خطأ، وهما متقابلان، بل الفضيلة بالنسب فضيلةُ جُمْلَة، وفضيلةٌ لأجل المَظِنَّةِ والسببِ، والفضيلةُ بالإيمان والتقوى فضيلةُ تعيينٍ وتحقيق وغاية؛ فالأول يَفْضُل به؛ لأنه سببٌ وعلامة، ولأن الجملة أفضل من جملة تساويها في العدد، والثاني يفضل به؛ لأنه الحقيقة والغاية، ولأن من كان أتقى لله كان أكرم عند الله، والثواب من الله يقع على هذا؛ لأن الحقيقة قد وجدت فلا يعلق الحكم بالمظنة، ولأن الله يعلم بالأشياء على ما هي عليه فلا يستدل بالأسباب والعلامات».

بهذا فسر شيخ الإسلام ابن تيمية حديث معادن الناس، وكان ينظر ـ وهو يعالج هذا الموضوع الدقيق ـ إلى آية الحجرات ١٣ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، كما ينظر إلى حديث عبدالله بن عمر قال: إنا لقعود بفناء رسول الله ﷺ إذ مرت امرأة، فقال بعض القوم: هذه ابنة محمد ﷺ ـ والحقيقة أنها كانت درة بنت أبي لهب، وكانت زوجة للحارث بن نوفل، ثم تزوجها دحية الكلبي ـ فقال رجل: إن مثل محمد ﷺ في بني هاشم مثل الريحانة في وسط النتن؛ فانطلقت المرأة فأخبرت النبي ﷺ فجاء ـ عليه السلام ـ يُعرَفُ في وجهه الغضب، ثم قام على القوم فقال: «ما بال أقوام تبلغني عن أقوام؟ إن الله ـ عز وجل ـ خلق الخلق فاختار من الخلق بني آدم، واختار من بني آدم العرب، واختار من العرب مضر، واختار من مضر قريشاً، واختار من قريش بني هاشم، واختارني من بني هاشم؛ فأنا خيار من خيار؛ فمن أحب العرب فبحبي أَحَبَّهم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم».

قال الحافظ العراقي: «وهو حديث حسن، أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، ورواه من غير هذا الإسناد ـأيضاًـ وروى نحوه من حديث أبي هريرة، ورواه الطبراني في المعجم الأوسط وقال: حديث صحيح».

فالتفاضل بالتقوى هو الأصل، وهو الحقيقة والغاية، وكرم المعدن فضيلةُ جملةٍ، ومظنة أن يوجد فيه الخير أكثر مما يوجد في غيره.

إن البيئة التي ولد فيها خاتم رسل الله، وهي قريش سكان شعاب مكة وبطاحها ـ قد تفاوت رجالها ونساؤها في سرعة الاستجابة لدعوة الإسلام؛ فهذا

عمر بن الخطاب كان من مشركي قريش يوم كان أبو بكر أول رجل من قريش استجاب لهذه الدعوة، وأخذ يحببها بحكمته ورجاحة عقله ودماثة خلقه إلى طائفة من أعز شباب قريش في بطحاء مكة، من أمثال عثمان، والزبير، وعبدالرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم من مسلمي الرعيل الأول؛ فهل أزرى بعمر أن تأخر إسلامه عن إسلام هؤلاء وعن إسلام أخته وصهره؟.

وهذا خالد بن الوليد كان في وقعة أحد قائد خيل المشركين، وكان المفروض فيه لما عاد من غزوة أحد إلى مكة أن يكون ثملاً بخمرة ما اتفق له من فوز؛ فيكون ذلك أبعد له عن الاستجابة لنداء الحق.

لكننا رأيناه في أوائل السنة الثامنة للهجرة يزهد في عظيم الجاه الذي كان لأبيه وبيته في أم القرى، ويخرج متوجهاً إلى المدينة؛ ليلتحق بدعوة الحق؛ **فالتقى في الطريق بين مكة والمدينة بعمرو بن العاص السهمي**، وعثمان بن طلحة أحد بني عبدالدار سدنة الكعبة، قال عمرو: فقلت لخالد: إلى أين يا أبا سليمان؟

قال خالد: والله لقد استقام المنسم، وإن الرجل لنبي، إني أذهب والله لأسلم، فحتى متى؟.

قال عمرو: وأنا والله ما جئت إلا لأسلم.

وقال صاحب مفتاح بيت الله الحرام مثل مقالتهما.

فلما دخلوا على رسول ﷺ ونظر إليهم من بعيد قال لأصحابه: «لقد رمتكم مكة بأفلاذ كبدها».

قال عمرو: فتقدم خالد فأسلم وبايع، ثم دنوت فقلت: يا رسول الله، إني أبايعك على أن تغفر لي ما تقدم من ذنبي.

فقال ﷺ: يا عمرو بايع، فإن الإسلام يجبُّ ما قبله، وإن الهجرة تجبُّ ما قبلها.

ونقل الحافظ ابن حجر في الإصابة عن الزبير بن بكار أن رجلاً سأل عمرو ابن العاص: ما أبطأ بك عن الإسلام، وأنت أنت في عقلك؟

فأجابه: إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدُّم، وكانوا ممن توازن حلومهم الجبال؛ فلما بعث النبي ﷺ فأنكروا عليه قلدناهم، فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا وتدبرنا، فإذا حقٌّ بَيِّنٌ؛ فوقع في قلبي الإسلام، فعرفت قريش ذلك من إبطائي عما كنت أسرع فيه من عونهم عليه؛ فبعثوا إليَّ فتى منهم فناظرني في ذلك، فقلت: أنشدك الله ربك ورب آباءك من قبلك ومن بعدك أنحن أهدى، أم فارس والروم؟

قال: بل نحن أهدى ـ أي أعقل وأعظم بصيرة وإدراكاً لحقائق الأمور ـ.

٣٩ معدن سليم كريم[1] للعلامة محب الدين الخطيب

شعب ظهر فجأة من بين تلك الصحاري التي لا يكاد يعرفها أحد.

شعب جديد بدأ يمثل دوره على مسرح الحياة بعد أن ظل نهباً مقسماً، تناوئ كل قبيلة منه القبيلة الأخرى، فيحتدم النزاع، وتقع الحرب الطاحنة.

ها قد رأيناه يتَّحد، ويجمع شمله الشتيت، للمرة الأولى.

ذلكم هو الشعب الناهض الذي تملَّك نفسَه حبُّ الحرية، وساعدته على النجاح صفاتُه النبيلة؛ فقد كان متقشفاً في طعامه، مخشوشناً في لباسه، نبيلاً في أخلاقه، كما كان طروباً، سريع البديهة، حاضر النكتة.

كان شريف النفس، أرْيَحيًّا؛ فإذا استثرته مرة فهو قاسٍ، غضوبٌ، شرس، لا يني عن أخذ ثأره، ولا يرده عن انتقامه شيء.

ذلكم هو الشعب الذي قلب ـ في لحظة واحدة ـ إمبراطورية الفرس، بعد أن ظل السوس ينخر في عظامها قروناً عدة.

وانتزع من خلفاء قسطنطين أجمل ضواحيهم، ثم سحق مملكةً جَرمانيةً حديثة العهد تحت قدميه، وشرع يهدِّد ـ بعد ذلك ـ بقية أوربا، بينما كان ـ في ذلك الوقت نفسه ـ يوالي فتوحه، وانتصاره في الجانب الآخر من المعمورة، حتى وصلت جيوشه الظافرة إلى الهملايا.

لم يكن ذلك الشعب فاتحاً فحسبُ ـ كغيره من الشعوب الأخرى ـ بل كان

---

(١) مع الرعيل الأول ص٤ ـ ٦.

داعياً إلى دين جديد، ومبشراً به -أيضاً-.

كان داعياً إلى دين جديد؛ فقام يناوئ الثَّنَوية[١] الفارسية، والمسيحية التي أفسدتها الخرافات والبدع، حاملاً إلى الناس توحيداً خالصاً لم يلبث أن دان به الملايين من الناس.

إن ديانة العرب الأولى كانت واهية لا ترتكز على أساس متين، ومتى أقررنا ذلك سهل أن نفرض أنه كان من اليسير على العرب أن يقبلوا ديناً آخر؛ فيدينوا بالمسيحية أو اليهودية مثلاً.

هذا كلام صحيح؛ ولكن إلى حدٍّ ما...

إن المسيحية انتشرت لهذا السبب نفسه في جهتين: في الحبشة جنوباً، وفي سوريا شمالاً، حيث لقيت شيئاً من القبول.

وقد انتصرت كذلك في مدينة نجران في وقت مبكر، ودانت شبه جزيرة سينا بالمسيحية كما تنصر عرب سوريا.

على أن هذا النجاح لم يكن ـ في أي مكان تقريباً ـ إلا مظهراً من المظاهر، لا حقيقة من الحقائق.

أما في أواسط بلاد العرب، وفي قلب جزيرتهم، حيث نبتت جرثومة[٢] العربي القُحّ وأُرومَتُه- فلم تنجح الدعاية للدين المسيحي، ولم تكن لترى ثَمّ إلا أثراً ضعيفاً له إن لم نقل معدوماً.

---

(١) يعني بها المجوسية التي يدين أهلها بإلهية اثنين: النور، والظلمة (م).

(٢) جرثومته: أصله (م).

كانت المسيحية في ذلك الزمن ـ على وجه عام ـ بما تحويه من معجزات ، وبما فيها من عقيدة التثليث ، وما يتصل من ذلك من رب مصلوب قليلة الجاذبية ، بعيدة عن التأثير في نفس العربي الساخر الذكي.

وآية ذلك ما نراه واضحاً فيما حدث للأساقفة الذين سعوا إلى تنصير المنذر الثالث ملك الحيرة حوالي سنة ٥١٣ من الميلاد؛ فإن المنذر لَيُصغي إلى ما يقوله الأساقفة بانتباه إذ دخل عليه أحد قُوَّاده فأسرَّ إليه بضع كلمات ، ولم يكد ينتهي منها حتى بدت على أسارير الملك أمارات الحزن العميق؛ فتقدَّم عليه أحد القساوسة يسأله ـ متأدِّباً متلطِّفاً ـ عما أشجاه؛ فأجابه الملك :

يا له من خبر سيِّئ! لقد أعلمني قائدي أن رئيس الملائكة قد مات ، فواحسرتا عليه!

فأجابه القسِّيس : هذا محال أيها الملك ، فقد غشَّك من أخبرك بذلك ، إن الملائكة خالدون ، ويستحيل عليهم الفناء!

قال الملك : أحقٌّ ما تقول؟ وتريد مع ذلك أن تقنعني بأن الله ذاته يموت!

العربي رجل عمليٌّ ماديٌّ ، لا يُعنى بغير الحقائق ، حتى في شعره؛ فهو لا يسبح في الخيال والوهم ، ولا يميل إلى الأخذ بتلك الألغاز والمعميات الدينية التي يعتمد الإنسان في استيعابها على التخيُّل أكثر من اعتماده على التعقل.

٤٠ حقيقة المسلم(١) للأديب مصطفى صادق الرافعي

لا يعرف التاريخُ غيرَ محمد ﷺ رجلاً أفرغَ الله وجودَه في الوجود الإنساني كلِّه، كما تنصبُّ المادة في المادة، لتمتزجَ بها، فتحوّلها، فتحدثَ منه الجديد، فإذا الإنسانية تتحوَّل به وتنمو، وإذا هو ﷺ وجودٌ سارٍ فيها؛ فما تبرح هذه الإنسانية تنمو به وتتحوَّل.

كان المعنى الآدميُّ في هذه الإنسانية كأنما وَهَنَ من طول الدهر عليه، يتحَيَّفُه ويمحوه ويتعاوره بالشر والمنكر، فابتعث الله تاريخ العقل بآدم جديد بدأتْ به الدنيا في تطوُّرِها الأعلى من حيث يرتفعُ الإنسانُ على ذاته، كما بدأتْ من حيثُ يُوجدُ الإنسانُ في ذاته، فكانت الإنسانية دهرَها بين اثنين: أحدهما فتحَ لها طريقَ المجيء من الجنة، والثاني فتح لها طريقَ العودةِ إليها: كان في آدم سرُّ وجودِ الإنسانية، وكان في محمدٍ سرُّ كمالها.

ولهذا سُمِّيَ الدينُ (بالإسلام)؛ لأنه إسلام النفس إلى واجبها، أي إلى الحقيقة من الحياة الاجتماعية، كأن المسلمَ يُنكر ذاته فيُسْلمها إلى الإنسانية تُصرِّفُها وتَعْتَمِلها في كمالها ومعاليها، فلا حظَّ له هو من نفسه يمسِكها على شهواته ومنافعه، ولكنْ للإنسانية بها الحظ.

وما الإسلام في جملته إلا هذا المبدأ: مبدأ إنكار الذات و(إسلامها) طائعةً على المَنْشط والمَكْره لفُروضها وواجباتها، وكلما نكَصَتْ إلى منْزعها الحيواني،

(١) وحي القلم ١٢/٢

أسلمها صاحبُها إلى وازعها الإلهي، وهو أبداً يرُوضُها على هذه الحركة ما دام حيّاً، فينتزعها كلَّ يوم من أوهام دنياها، ليضعَها ما بين يدي حقيقتها الإلهيَّة: يروضُها على ذلك كلَّ يوم وليلة خمسَ مرّات مُسماة في اللغة خمسَ صلوات، لا يكون الإسلام إسلاماً بغيرها، فلا غروَ كانت الصلاة بهذا المعنى كما وصفها النبي ﷺ هي عِمَادُ الدين.

بين ساعات وساعات في كلِّ مطلع شمس من حياة المسلم صلاة، أيْ إسلامُ النفس إلى الإرادة الاجتماعية الشاملة[1] القائمة على الطاعة للفرضِ الإلهي، وإنكارٌ لمعانيها الذاتية الفانية التي هي مادةُ الشرِّ في الأرض، وإقرارُها لحظات في حيِّز الخير المحض البعيد عن الدنيا وشهواتها وآثامها ومنكراتها، ومعنى ذلك كلِّه تحقيقُ المسلم لوجود روحِه، إذ كانت أعمالُ الدنيا في جملتها طُرُقاً تتشتَّتُ فيها الأرواح وتتبعثر، حتى تضلَّ روحُ الأخ عن روح أخيه فتنكرها ولا تعرفها.

وهذا الوجود الروحيُّ هو مبعثُ الحالة العقلية التي جاء الإسلامُ ليَهديَ الإنسانيةَ إليها: حالة السلام الروحاني الذي يجعل حربَ الدنيا المهلكة حرباً في خارج النفس لا في داخلها، ويجعلُ ثروةَ الإنسان مقدَّرة بما يعامل الله والإنسانية عليه، فلا يكون ذهبُه وفضَّتُه ما كتبتْ عليه الدول: «ضُرِبَ في مملكة كذا»، ولكن ما يراه هو قد كُتبَ عليه «صُنِعَ في مملكة نفسي»، ومن ثمَّ لا يكون وجودُه الاجتماعيُّ للأخذ حَسْبُ، بل للعطاءِ أيضاً؛ فإن قانون المال هو الجمع، أما

---

(١) هذه هي حكمة صلاة الجماعة والحث عليها وكونها أفضل من غيرها وأن الثواب الأكبر فيها وحدها.

قانون العمل فهو البذل.

بالانصراف إلى الصلاة وجمْع النيَّةِ عليها يستشعر المسلمُ أنه قد حطَّمَ الحدودَ الأرضية المحيطةَ بنفسه من الزمان والمكان، وخرجَ منها إلى روحانية لا يَحَدُّ فيها إلا بالله وحدَه.

وبالقيام في الصلاة يُحقِّقُ المسلمُ لذاته معنى إفراغ الفكر السامي على الجسم كلِّه؛ ليمتزجَ بجلالِ الكون ووقاره، كأنه كائنٌ منتَصبٌ مع الكائنات يسبِّحُ بحمده.

وبالتولِّي شطر القبلة في سَمْتِها الذي لا يتغيَّر على اختلاف أوضاع الأرض، يعرف المسلمُ حقيقةَ الرمز للمركز الثابت في روحانية الحياة، فيحملُ قلبُه معنى الاطمئنان والاستقرار على جاذبيَّة الدنيا وقلقِها.

وبالركوع والسجود بين يدي الله يُشعرُ المسلمُ نفسَه معنى السموّ والرِّفعةِ على كلِّ ما عدا الخالق من وجود الكون.

وبالجلسة في الصلاة وقراءةِ التحياتِ الطيبات، يكونُ المسلمُ جالساً فوقَ الدنيا يحمدُ اللهَ، ويُسلِّمُ على نبيِّه وملائكتِه، ويشهدُ(١)، ويدعو.

وبالتسليم الذي يخرجُ به من الصلاة، يُقْبِلُ المسلمُ على الدنيا وأهلها إقبالاً جديداً: من جهتي السلامِ والرحمة.

هي لحظاتٌ من الحياةِ كلَّ يوم في غير أشياء هذه الدنيا، لجمع الشهوات وتقييدها بين وقتٍ وآخرَ بسلاسلها وأغلالِها من حركات الصلاة، ولتمزيقِ الفنَاء خمسَ مرات كلَّ يومٍ عن النفس، فيرى المسلمُ من ورائه حقيقةَ الخلود،

---

(١) لعلها: ويتشهد (م)

فتشعرُ الروحُ أنها تنمو وتتّسع.

هي خمسُ صلوات، وهي كذلك خمسُ مرَّاتٍ يَفْرَغُ فيها القلبُ مما امتلأ به من الدنيا، فما أدقَّ وأبدعَ وأصدقَ قوله ﷺ: «جُعلتْ قُرَّةُ عيني في الصلاة»[1].

لم يكن الإسلامُ في حقيقته إلا إبداعاً للصيغةِ العمليَّة التي تنتظمُ الإنسانيةُ فيها، ولهذا كانت آدابُه كلُّها حرَّاساً على القلب المؤمن، كأنها ملائكةٌ من المعاني، وكان الإسلامُ بها عملاً إصلاحيّاً وقعَ به التطورُ في عالَمِ الغريزة، فنقلَه إلى عالم الخلُق، ثم ارتقى بالخُلُق إلى الحق، ثم سما بالحق إلى الخير العام، فهو سموٌّ فوق الحياة بثلاث طبقات، وتدرُّجٌ إلى الكمال في ثلاث منازل، وابتعادٌ عن الأوهام بمسافة ثلاث حقائق.

وبتلك الأعمال والآداب كانت الدنيا المُسْلمةُ التي أسَّسها النبي ﷺ دنيا أسلمتْ طبيعتُها، فأصبحتْ على ما أراد المسلمون لا ما أرادتْ هي، وكأنها قائمةٌ بنواميسَ من أهليها، لا على أهليها، وكان الظاهرُ أن الإسلام يغزو الأممَ بالعرب ويفتتحها، ولكنَّ الحقيقةَ أنَّ إقليماً من الدنيا كان يحاربُ سائرَ أقاليم الأرض بالطبيعة الأخلاقية الجديدة لهذا الدين.

وكأن الله ـ تعالى ـ ألقى في رمال الجزيرة روحَ البحر، وبَعثَها بعثَه الإلهيَّ لأمره، فكان النبي ﷺ هو نُقطةَ المدِّ التي يفورُ البحرُ منها، وكان المسلمون

---

(١) كان محمد ﷺ يستبطئ الصلاة وقد جاء وقتها، من شدة شوقه إليها فيقول: «أرحنا بها يا بلال» ولا أفصح ولا أدق في تصوير نفسيته ﷺ وأشواق روحه العالية من قوله: «أرحنا بها»، فهذا كمال الاتصال بينه وبين خالقه.

أمواجه التي غُسلتْ بها الدنيا.

لهذا سمع المسلمون الأولون كلامَ الله ـ تعالى ـ في كتابه، وكلامَ رسوله ﷺ، لا كما يسمعون القولَ، ولكن كما يتلقَّونَ الحكمَ النافذَ المقْضيّ، ولم يجدوا فيه البلاغةَ وحدَها، بل روعةَ أمرِ السماء في بلاغة، واتصلوا بنبيِّهم، ثم بعضُهم ببعض، لا كما يتصل إنسانٌ بإنسان، بل كما تتصل الأمواج بقوةِ المد، ثم كما يُمدُّ بعضها بعضاً في قوة واحدة.

وحقَّقُوا في كماله ﷺ وجودَهم النفسي، فكانوا من زخارف الحياة وباطلِها في موضع الحقيقةِ التي يُرى فيه الشيءُ لا شَيء.

ورأوا في إرادته ﷺ النقطةَ الثابتةَ فيما يتضاربُ من خيالاتِ النفس، فكانوا أكبر علماء الأخلاقِ على الأرض، لا من كُتُبٍ ولا علم ولا فلسفة، بل من قلبِ نبيهم وحدَه.

وعرفوا به ﷺ تمامَ الرجولة، ومتى تَمَّتْ هذه الرجولةُ تمامَها في إنسان، رجعتْ له الطفولةُ في روحه، وامتلك تلك الطبيعةَ التي لا يملكُها إلا أعظمُ الفلاسفة والحكماء فأصبحَ كأنما يمشي في الحياة إلى الجنة بخُطُوات مسدَّدة لا تزيغُ ولا تنحرف، فلا شرَّ ولا رذيلة، ودنياه هي الدنيا كلُّها بشمسها وقمرها، يملكُها وإن لم يملك منها شيئاً، ما دامت في قلبه طبيعةُ السرور، فلا فقرَ ولا غنى مما يشعرُ الناس بمعانيه، بل كل ما أمكن فهو غنىً كاملٌ؛ إذ لم تَعُدْ القوةُ في المادة تزيد بزيادتها وتنقص بنقصها، بل القوةُ في الروح التي تتصرفُ بطبيعة الوجود، وتدفع قوى الجسم بمثل دوافع الطفولةِ الناميةِ المتغلِّبة، حتى لَتَجْعَلُ من النور

والهواء ما يؤتَدَمُ به مع الخبز القَفَار، كما يؤتَدَمُ باللحم وأطايبِ الأطعمة.

وبذلك لا تتسلَّط ضرورةٌ على الجسم ـ كالجوع والفقر والألم ونحوها ـ إلا كان تسلُّطها كأنه أمرٌ من قوَّةٍ في الوجود إلى قوَّةٍ في هذا الجسم: أن تظهر لتعملَ عملَها المُعجزَ في إبطالِ هذه الضرورة.

وهذا الجنسُ من الناس كالأزهار على أغصانها الخضْر، لو قالت شيئاً لقالت: إنَّ ثروتي في الحياة هي الحياةُ نفسُها، فليس لي فقرٌ ولا غنى، بل طبيعةٌ أو لا طبيعة.

ولقد كان المسلم يُضربُ بالسيف في سبيل الله، فتقعُ ضرباتُ السيوف على جسمه فتمزِّقُه، فما يحسُّها إلا كأنها قُبَلُ أصدقاء من الملائكة يلْقَونه ويعانقونه.

وكان يُبتلى في نفسه وماله، فلا يشعر في ذلك أنه المُرَزَّأُ المُبْتلى يُعرفُ فيه الحزن والانكسار، بل تظهر فيه الإنسانية المنتصرةُ كما يظهرُ التاريخ الظافرُ في بطله العظيم أصيبَ في كلِّ موضع من جسمه بجراح، فهي جراحٌ وتشويهٌ وألم، وهي شهادة النصر.

ولم تكن أثقال المسلم من دنياه أثقالاً على نفسه، بل كانت له أسبابَ قوة وسمو، كالنَّسر المخلوق لطبقات الجوِّ العليا، ويحمل دائماً من أجل هذه الطبقات ثِقْلَ جناحيه العظيمين.

وكانت الحقيقة التي جعلها النبي ﷺ مثلَهم الأعلى، وأقرَّها في أنفسهم بجميع أخلاقه وأعماله ـ أن الفضائل كلَّها واجبةٌ على كل مسلم لنفسه؛ إذ إنها واجبةٌ بكل مسلم على غيره، فلا تكون في الأمة إلا إرادةٌ واحدة متعاونة، تجعل المسلم

وما هو روح أمته تعمل به أعمالها هي لا أعمالَه وحدها.

المسلم إنسانٌ ممتدٌ بمنافعه في معناه الاجتماعي حولَ أمته كلِّها، لا إنسانٌ ضيِّقٌ مجتمعٌ حولَ نفسِه بهذه المنافع، وهو من غيره في صدق المعاملة الاجتماعية كالتاجر من التاجر، تقول الأمانة لكليهما: لا قيمةَ لميزانك إلا أن يُصدِّقه ميزان أخيك.

ولن يكون الإسلامُ صحيحاً تاماً حتى يجعلَ حاملَه مثلاً من نبيِّه في أخلاق الله، فما هو بشخص يضْبِط طبيعتَه: يقْهرها مرةً وتقهره مراراً، ولكن طبيعة تضبِط شخصها فهي قانون وجوده.

لا يضطرب من شيء، وكيف يضطرب ومعه الاستقرار؟

لا يخاف من شيء، وكيف يخاف ومعه الطمأنينة؟

لا يخشى مخلوقاً، وكيف يخشى ومعه الله؟

أيها الأسد، هل أنت بجملتك إلا في طبيعةِ مخلبك وأنيابك...؟

٤١ حركة الإسلام في أوربا[1] للعلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

الإسلام روح تجري، ونفحة تسري، وحقيقة ليس بين العقول وبين قبولها إلاَّ مواجهتها لها، وليس بين النفوس وبين الإذعان لها إلاَّ إشراقها[2] عليها من مجاليها الأولى، لذلك نراه في جميع مراحل التاريخ يقطع الفيافي بلا دليل، ويقطع البحار بلا هاد، ويغزو مجاهل إفريقيا في الوسط والجنوب، ومنتبذات آسيا في الوسط والشرق، ثم يدخل شرق أوروبا مع الفتوحات العثمانية، كما دخل غربها في القديم مع الفتوحات الأموية، وكما دخل جنوبها مع الفتوحات القيروانية، وهو في كل ذلك يقتحم الأذهان، من غير استئذان.

وليست تلك الفتوحات الحربية هي التي غرسته أو مكَّنت له؛ لأنَّ الفتح في الإسلام لم يكن في يوم ما إكراهاً على الدين؛ **وإنما مكنت للإسلام طبيعته**، ويسره، ولطف مدخله على النفوس، وملاءمته للفطر، والأذواق، والعقول.

ولو بقي الإسلام على روحانيته القويّة، ونورانيته المشرقة، ولو لم يفسده أهله بما أدخلوه عليه من بدع، وشانوه به من ضلال ـ لطبق الخافقين، ولجمع أبناءه على القوة والعزّة والسيادة حتى يملكوا به الكون كله.

ولكنهم أفسدوه واختلفوا فيه، وفرّقوه شيعاً ومذاهب؛ فضعف تأثرهم به،

---

(١) صحيفة البصائر التي كان يصدرها الشيخ، العدد ١٤٧، السنة الرابعة من السلسلة الثانية(١٩/مارس ١٩٥١م)، وانظر آثار الإمام البشير (٢/٣٨٥ـ٣٨٦).

(٢) لعلها: إشرافها، كما في الطبعة الأولى للآثار(م).

فضعف تأثيره فيهم، فصاروا إلى ما نرى ونسمع.

لا يعود المسلم إلى العزة والسيادة حتى يغيّر ما به، فيرجع إلى حقائق القرآن يستلهمها الرشد، ويستمد منها تشديد العزيمة، وتسديد الرأي، وإصابة الصواب ومتانة الأخلاق، فيأخذ دينه بقوة تهديه إلى أن يأخذ دنياه بقوة، ويقوده كل ذلك إلى أخذ السعادة بأسبابها.

ولو كان المسلم مسلماً حقًّا لعرف نفسه، ولو عرف نفسه لعرف أخاه، ولو عرف أخاه لكان قويًّا به في المعنى، كثيراً به في المادة.

ويوم نصل إلى هذه الدرجة نكون قد أعدنا تاريخ الإسلام من جديد، ونكون قد أضفنا إلى هذا العنصر المادي العصري الفوار عنصراً روحانياً فواراً يُلَطِّف من حدته، ويخفف من شدته، فيتكون منهما مزاج صالح يصلح عليه الكون كله، لا المسلمون وحدهم.

إنك لترى للمسلمين وجوداً في كل قطر، وتسمع عنهم نبأً في كل ناحية، ولكنهم متفرقون في زمن أصبح فيه التكتل شرطاً للحياة، ومتباعدون في وقت أصبح فيه التقارب أساساً للقوة، ومتناكرون في عصر أصبح فيه التعارف أقوى وسائل التعاون، ومنصرفون عن الجامعة الإسلامية الواسعة إلى جوامع أخرى ضيقة الآفاق من جنسية وإقليميه في هذا الزمن الذي يتداعى فيه أتباع الأديان القديمة، ومعتنقو النحل الحديثة إلى التجمع حول المبادئ الروحية أو الفكرية.

وهناك في الأقاصي من شمالي أوروبا طوائف من إخواننا المسلمين المنحدرين من السلائل التركية والصقلبية التي امتزجت في شبه جزيرة البلقان، ثم مدت

مدها إلى النمسا وهنغاريا، ثم نزحت منها مجاميع إلى الشمال، فكان من بقاياها هذه المجموعة المتوطنة في «فنلندا».

ولا نشك في أن إخواننا هؤلاء قد اصطبغوا بصبغة ذلك الوطن في حياتهم الدنيوية وطرق معايشهم، ولا نشك أنهم أخذوا فيها بنظام العصر وقوته وجده، ولكنهم في حياتهم الدينية مستضعفون محتاجون إلى إمداد من إخوانهم المسلمين في جميع الأقطار، تُقَوِّي ضعفهم المادي، وتكمل نقصهم العلمي، وتشعرهم بالعزة والكرامة، وترفع رؤوسهم بين مواطنيهم.

٤٢ داء المسلمين ودواؤهم[١] للعلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

الباحث في أحوال المسلمين بحث تَقَصٍّ واستقراء رجل من اثنين: رجل من أنفسهم ورجل من غيرهم، وكلا الرجلين يجتمع بصاحبه في نقطة تبعث الحيرة وهي: كيف يسقط المسلمون هذا السقوط المريع وفيهم كل أسباب الصعود وبين أيديهم كل ما ارتقى به أسلافهم، فأصول الدين من كتاب وسنة محفوظة لم يَضِعْ منها شيء، وأسباب التاريخ واصلة لم ينقطع منها شيء، واللغة إن لم ترتق لم تنحدر، والعرب الذين هم جذْمُ[٢] الإسلام ما زالوا يحتفظون بكثير من الخصائص الجنسية ومعظمها من المكارم والفضائل، والأرحام العربية ما زالت تجد من بين العرب من يَبُلُّها بِبَلالها، فلم تجفُ الجفاء كله، وإن لم توصل الوصل كله، والتجاوب الروحاني الذي تردِّد صداه كلمة الشهادة في نفوس المسلمين وكلمة التلبية في جنبات عرفات لم يتلاشَ تماماً، والأرحام المتشابكة بين المسلمين لم تجف الجفاف الذي يقطع الصلة، ومن السنن الكونية المقرَّرة في سقوط الأمم وعدم امتداد العزة والرقي فيها أن ينسى آخرها مآثر أوَّلها فينقطع التيَّار الدافع فيتعطل التقدم.

والمسلمون لم ينسوا مآثر سلفهم، بل هي بينهم مدوَّنة محفوظة مقطوع بها

---

(١) مجلة (المسلمون) السنة الثالثة، العدد٩، ذو القعدة ١٣٧٣ هـ، وانظر آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

(٢) جذم: يعني أصل.

بالتواتر، بل هم أكثر الأمم احتفاظاً بمآثر السلف وتدويناً لها، ولا يعرف بين أمم الأرض أمة كتب علماؤها فيما يسمونه الطبقات والسير مثل ما كتب المسلمون في ذلك.

والباحث الأجنبي معذور إذا تحير، وقد يخفف عنه ألم الحيرة ابتهاجه بهذا السقوط، وإن بحثه عن الداء ليس بقصد الدواء، فقد عودنا كثير من هؤلاء الباحثين الأجانب أنهم لا يبحثون لذات البحث، ولا يدرسون هذه المواضيع لوجه التاريخ الخالص، فضلاً عن أن نجد عندهم ما يطلب من العالم المخلص، وهو أن يرمي ببحثه وبإعلان نتائج بحثه إلى تنبيه الضال؛ ليهتدي، والمريض؛ ليسعى في الاستشفاء، والساقط؛ ليأخذ بأسباب الصعود والنهوض، وإفهامه أن الأيام دول، وأن من سار على الدرب وصل، بل نرى أكثرهم يتعمَّد إضلالنا في تعليل الأشياء؛ كي لا يقف المريض على حقيقة دائه فيغفل مغتراً، أو يعالج داءه بداء أضر، أو يضع الدواء في غير موضعه، وقد نرى منهم من ينتهي من بحثه بنتيجة وهو أن سبب انحطاط المسلمين هو الإسلام نفسه، وإنَّ من يستطب لدائه بإشارة عدوه لحقيق بأن يسمع مثل هذه النصيحة.

أما الباحثون في أحوال المسلمين من المسلمين فهم ينقسمون إلى فريقين ـ بعد اتفاقهم على أن الجسم الإسلامي مريض وأن مرضه عضال ـ **فريقٍ منهم هُدِيَ إلى الحق** فعرف أن الجسم الإسلامي لا مطمع في شفائه إلاَّ إذا عولج بالأشفية القديمة التي صحَّ بها جسم سلفه، وغذي بالأغذية الصالحة التي قوي عليها سلفه؛ وذلك أنه أقام الدين؛ فاستقامت له الدنيا، وانقاد إلى الله؛ فانقاد له عباد

الله ، وأخذ كتاب الله بقوة؛ فمشى على نوره إلى السعادة في الدارين ، وأرشده إلى أنَّ سعادة الدنيا عزٌّ وسلطان ، وعدلٌ وإحسان ، وأنَّ سعادة الآخرة حياة لا نصب فيها ولا نهاية ، واطمئنان لا خوف معه ولا كدر في أثنائه ، ورضوان من الله أكبر.

وفريق منهم ضلَّ عن الحق في الدواء؛ لأنه ضلَّ قبل ذلك في تشخيص الداء ، وضلَّ من قبل ذلك في طريقة البحث ، فتلقَّاها من أعداء الإسلام زائغة ملتوية ، وضلَّ من قِبَل أولئك في أسلوب التفكير، فهو يفكر بعقل ملتاث بلوثات هذه الحضارة الخاطئة الكاذبة المستمدة من أصول الاستعمار الذي يسقي الأقربين ما يرويهم، ويغذي الأبعدين بما يرديهم، ثم يجتثهم من أصولهم، ولا يلحقهم بأصوله ، ويتركهم متعلقين بأسباب هذه الحضارة مفتونين بها ، مهجورين منها ، وقل ما شئت في العاشق المهجور، الذي لا يملك من أسباب الحب إلاَّ القشور ، ولا يملك من أسباب الوصل شيئاً.

وقد علمنا من سنن الحب أنَّ أعلاه ما كانت معه كبرياء تزع ، واعتداد بالنفس يأخذ ويدع ، وقوتان إحداهما تدلل ، والأخرى تذلل.

أمَّا هؤلاء العشاق المتيَّمون بحضارة أوربا وعلومها وتهاويلها فقد فقدوا الشخصية التي تحفظ التوازن في ميدان العشق ، وتحفظ لصاحبها خط الرجوع.

هذا الفريق المزوَّر على الإسلام، الذي لا صلة له به إلا بما لا كسب له فيه كاسمه ولقبه ـ يرى أنه لا نجاة للمسلمين إلا بالانسلاخ عن ماضيهم ودينهم ، والانغماس في الحضارة الغربية ومقتضياتها من غير قيد ولا تَحَفُّظ ، وهو يعمل لهذا جاهداً، يُسِرُّهُ المُسِرُّ كيداً، ويعلنه المعلن وقاحة ، وإنك لتعرف ذلك منهم في

لحن القول، وفي مظاهر العمل، وفي إدارة الكلام على أنحاء معينة، وفي البداوات الخاصة، وفي اللفتات العامة، حتى لتعرفه في أسباب معيشتهم الشخصية، ولكنهم يتناقضون ويتهافتون، فيبتدئون من حيث انتهى سادتهم؛ فسادتهم يرون أن اللعب إنما يحلو بعد الجد، وأنَّ القشور إنما يلتفت إليها بعد تحصيل اللباب، وأنَّ الكماليات تأتي بعد الضروريات، وأنَّ الوقت رأس مال لا يجوز تبديده في غير نفع.

ولكن هذه الطائفة منَّا تفعل عكس ذلك كله وتختصر الطريق إلى اللهو؛ لأنه يروي شهواتها، وإلى الكماليات والمظاهر؛ لأن لها بريقاً هو حظ العين وإن لم يكن للعقل منه شيء، وأن عصارة رأيهم في علاج حالة المسلمين تترجم بجملة واحدة، هي: أن النجاة في الغرق.

هؤلاء الدارسون لعلل المسلمين منهم هم علة علل المسلمين، وهو أنكى فيهم من المستعمرين الحقيقيين، فلقد كان دهاة الاستعمار في القرن الماضي يباشرون الشعوب الإسلامية كفاحاً ووجهاً لوجه، صراعاً في الحرب، وحكماً في السلم، فيمارسون منها خصماً شديد المراس، قوي الأسر، متين الأخلاق؛ فلم ينالوا منها إلا ما تناله القوة من الضعف، وهو محصور في التسلط على الماديات، أمَّا القلوب والعقول والعقائد والاعتزاز بالقوى والخصائص فلم تستطع أن تخضعها، ولم يستطع سلطانهم أن يمتدّ إليها، وهي عناصر المقاومة، المدَّخرة ليوم المقاومة، ولن تجد فيما ترى وما تقرأ أمة قاومت الغاصب فدحرته ولو بعد حين إلاَّ لأنَّ هذه العناصر بقيت فيها سليمة قوية، وبقيت هي عليها

محافظة.

ولكن أولئك الدهاة أتونا من جهات أخرى فهادنونا على دخن، وحبَّبوا إلينا مدنيتهم من جهاتها القوية، ثم أعشونا ببريقها، وابتلونا بما يلائم النفوس الضعيفة الحيوانية من شهواتها، وقالوا: إنَّ وراء هذه المدنية علماً هو أساسها، وإن وراء العلم ما وراءه من سعادة، وفتحوا لناشئتنا أبواباً أمامية يدخلون منها، وأبواباً خلفية يخرجون منها إلى عالم غير عالمهم الأصلي، وجاءت البلايا تزحف، فنقلتها تلك الناشئة تجري ركضاً، ودعت الكأس الأولى إلى ما بعدها، وأصبحنا نتنافس في تقديم هذا القربان من ناشئتنا للاستعمار، وما زدنا بسفهنا على أن جهزنا له جيشاً من أبنائنا يقتل فيه خصائصنا وروحانيتنا، ليقاتلنا به، وليوليه ما عجز عنه لصعوبة مراسنا وشدة احتراسنا، وليرجع إلى أهليه مملوء النفس باحترام أستاذه، مصمم العزم على التمكين له، وقد كنا لا نحترمه ولا نصادقه، ولا نصافيه، ولا ندمث له موضع الإقامة.

ما هو موقع الغلط في أبنائنا؟ إنهم بتعلمهم في الغرب بلغة الغرب، وبلباسهم لباس الغرب، وانتحالهم رسومه في الأكل والشرب، ظنوا أنهم أصبحوا كالغربيين؛ فانسلخوا في مظاهرهم ومخابرهم عن خصائصهم الأصلية الموروثة، فخسروها ولم يربحوا شيئاً، إذ لم يقع في تقديرهم أن جُلَّ الأحوال التي قلدوا فيها الأوربي هي ألوان إضافية اصطبغ بها بعد أن استكمل وسائل عزه وقوته، فلا تحسن في العين، ولا ترجح في الوزن إلاَّ ممن وصل إلى درجته، وقطع المراحل التي قطعها في الحياة، وأنهم ظنوا غلطاً في الفهم أنَّ هذه الحضارة غربية،

وأخطأوا؛ فإن الحضارات ليست شرقية ولا غربية، وإنما هي تراث إنساني متداول بين الأمم تتعاقب عليه فيزيد فيه بعضها، وينقص منه بعضها، ويبتكر بعضها بعض الفروع فينسب إليه، ويلونها بعضهم بألوان ثابتة، فتبقى شاهدة له حتى تضمحل.

إنَّ جُلَّ أبنائنا الذين التقطتهم أوربا لتعلّمهم عكسوا آية فرعون مع موسى؛ ففرعون التقط موسى؛ لينفعه، ويتخذه ولداً، وربَّاه صغيراً وأحسن إليه، فكان موسى له عدُّواً وحَزَنَاً وسخنة عين.

أمَّا أبناؤنا فقد التقطتهم أوربا وعلمتهم وربتهم فكانوا عدواً لدينهم، وحزناً لأهله، وسخنة عين لأهليهم وأوطانهم، إلا قليلاً منهم دخل النار فما احترق، وغشي اللج فأمن الغرق.

والسبب في هذا البلاء هو استعداد فينا كاستعداد المريض للموت، وشعور بالنقص في أنفسنا؛ لبعد عهدنا بالعزة والكرامة، ولموت أشياء فينا تصاحب موتها في العادة يقظة أشياء؛ فَفَقْدُ الإحساس بالواجب تصحبه يقظة الشهوات الجسدية، وقوة الإحساس بالواجب هي التي أمْلَتْ على بعض خلفائنا أن يعتزل النساء كلما هم بالغزو[1]، وهي التي حملت كثيراً من قضاة سلفنا على أن يقمعوا شهواتهم الجسدية بالحلال قبل أن يجلسوا للخصوم في مجالس الحكم.

---

(١) كما في قصة عبدالملك بن مروان مع إحدى جواريه عندما وقفت له بالباب لما أراد الغزو؛ فأعرض عنها وتذكر قول جرير:

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم عن النساء ولو باتت بأطهار (م)

وموت النخوة تصحبه سرعة التقليد ، وعادة الخضوع للغالب وسرعة التحلل والذوبان.

إنَّ الغرب لا يعطينا إلاَّ جزءاً مما يأخذ منَّا ، ولا يعطينا إلاَّ ما يعود علينا بالوبال ، وقد أَعَنَّاه على أنفسنا ، فأصبح المهاجر منَّا إلى العلم يذهب بعقله الشرقي فينبذه هناك كأنه عقال على رأسه لا عقل في دماغه ، ثم يأتينا يوم يأتي بعقل غربي ، ومنهم من يأتي بعقل غربي ، ومعه امرأة تحرسه أن يزيغ.

٤٣ حالة المسلمين[1] بقلم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

تتردّدُ على أقلام الكُتَّاب العرب، وعلى ألسنة خطبائهم منذ عهد قريب كلمات: **الوعي**، **اليقظة**، **النهضة**، منسوبة إلى الإسلام، أو مضافة إلى المسلمين، والكلمة الأولى منهن حديثة الاستعمال في المعنى الاصطلاحي المراد منها وإن كانت عريقة النسبة في معناها الوضعي، والوعي في معناه الاجتماعي الذي يعنيه هؤلاء الكُتَّاب والخطباء إدراك بعد جهل، واليقظة في قصدهم تنبُّه بعد غفلة، والنهضة معناها حركة بعد ركود.

فهل هذه الأقلام والألسنة متهافتة على هذه الكلمات تصف حقيقة، أم تصور خيالاً؟ فإن الصفات لا تتحقق إلا بظهور آثارها في الخارج، وبشهادة الواقع الذي لا يمارى فيه لها، والوعي الحقيقي يصحبه رعي، ويعقبه سعي، واليقظة الحقيقية يصحبها علم لا هوينا فيه، ويتبعها عمل لا تردد فيه.

والنهضة الحقيقة يَصْحَبُها حزم لا هوينا فيه، ويتبعها عزم، ويسوقها إقدام لا إحجام فيه إلى غاية لا اشتباه فيها.

وهل هذه الآثار وهذه الدوال موجودة حقيقة في المجتمعات الإسلامية؟

لا نثبت، فنكون متفائلين في موضوع لا ينفع فيه التفاؤل، ولا ننكر؛ فنكون مثبطين في مقام ينفر فيه التثبيط، إنما نقول ـ مقرِّرين للواقع إن شاء الله ـ.

إنَّ المعاني الحقيقية للألفاظ الثلاثة لا تظهر إلا إذا سبقتها إرهاصات، أو

(١) مجلة الأخوة الإسلامية العدد السابع عشر بغداد شوال ١٣٧٢هـ.

أمارات، كما يسبق الفجر طلوع الشمس، وأدلُّها تقارب القلوب، وتعارف الشخوص، أو تجاوب الشعور، وتجانس الأفكار، وتعاطف الأرواح، وتهيؤ الطباع إلى الاستحالة من صبغة إلى صبغة، وإلى الانسلاخ من جلدة إلى جلدة، وصدق التوجيهات من النتائج إلى المقدمات، ومن الوسائل إلى الغايات، وسهولة التغلب على المضائق، وسرعة الاستجابة إلى داعي الحق إذا دُعِيَ إليه، وخفَّة الإقدام إلى الأمام، وتلمس القيادة الرشيدة، والشعور بالحاجة إلى توحيدها، وغير ذلك من العوارض التي تظهر لمثل هذه الأطوار من حياة الأمم، وهل هذه الإرهاصات موجودة؟

نعم يوجد بعضها القليل، ولكن آفته الكبرى أنه مُتّجه إلى غير القبلة المشروعة، وإن الرياح تسوق سحبه إلى غير أرضنا.

لِنَخْرُجْ من النفاق الغرَّار الخادع إلى الصدق والصراحة فنقولَ: الموجود من تلك الأشياء الثلاثة هو الأسماء مفسَّرة في الغالب بغير معانيها، مصوَّرة بغير صورها الحقيقية.

وإذا فسد التصور فسد التصوير؛ لأننا ما زلنا نبني تصوراتها على أُسس من الأماني، ونزجُّها بالفأل ومعاني الفأل، فلا تنتهي بنا إلى الأعمال، وإنما تنتهي إلى الخيال ثم إلى الخبال، وما زلنا على بقية من الافتتان بالتفسيرات القاموسية التي تقول لنا مثلاً: إنَّ اليقظة التي هي الصحو من النوم، ولو أن نائماً صحا من نومه صحواً كاملاً ولم يبق في أجفانه فتور ولا ترفيف، ولكنه بقي في مضجعه لم يعمل عملاً ولم يأت شيئاً من مستلزمات الصحو، ونواقض النوم ـ لكان هذا

كافياً في تحقيق المعنى القاموسي، ولكنه لا يفيد المعنى الاجتماعي بل يُعَدُّ كما لو كان يغط في نومه، وكذلك تقول في معنى اليقظة ومعنى النهضة.

تصحيح معاني هذه الكلمات يستلزم إصلاحاً شاملاً للمفاسد النفسية، ويتغلغل إلى مكامن الأمراض فيها، فيطهرها؛ ليبني العلاج على أصل صحيح وإلى عروق الشرِّ منها فيمتلخها، ليأْمَنَ النكسة.

ومردُّ ذلك كله إلى الأخلاق؛ فهي أول ما فسد بيننا؛ فتكون أول ما أفسد علينا كل شيء.

فلتكن هي أولَ ما نُصْلِح إنْ كُنَّا جادِّين في تثبيت الوعي، واليقظة، والنهضة؛ لأن الأخلاق إذا استقامت تفتحت البصائر للوعي، وتهيأت الشواعر لليقظة، وانبعثت القوى للنهضة، فكان الوعي بصيراً، وكانت اليقظة عامّة وكانت النهضة شاملة، وكانت الحياة لذلك كله كاملة.

نعترف أن نومنا كان ثقيلاً، وبأنَّ عمر أمراضنا كان طويلاً.

نعرف أنَّ النوم الثقيل لا يصحو صاحبه لا بصوت يصخّ، أو بضرب يصكّ، وأنَّ المرض الطويل لا يشفى المبتلى به إلاَّ بتدبير حكيم قد يفضي إلى البتر أو القطع، وقد أصابنا من القوارع ما لو أصاب أهل الكهف لأبطل المعجزة في قصتهم، ومما كانوا به مثلاً في الآخرين.

ولكننا لم نصحُ من نوم إلاَّ لنستغرق في نوم، ولم ننفلت من قبضة مُنَوِّم إلا لنقع في قبضة مُنَوِّم.

صَحَوْنا من نوم الاتكال، فنقلنا إلى نوم التواكل، وخرجنا من نوم الجهل

ومن نوم الركود إلى طفرة تدقُّ الأعناق، وانفلتنا من تنويم تُجَّار الدين فوقعنا في تَنْوِيم تجار السياسة.

أولئك يمنوننا بسعادة الآخرة من دون أن يسلكوا بنا سبيلها الواضحة، وهؤلاء أصبحوا يُغَنُّون لنا بسعادة الدنيا دون أن يدلونا على نهجها الصحيح، وكانت العاقبة لذلك كله ما نرى وما نحس وما نشكو.

وما أضلنا إلا المجرمون الذين يدعونا بعضهم إلى الجمع بوسيلة التفريق، ويدعونا بعضهم إلى النجاة بطريقة التغريق، والأولون هم رجال الدين الضالون اللذين فرَّقوه إلى مذاهب وطوائف، والآخرون رجال السياسة الغاشون الذين بَدَّلوا المشرب الواحد، فجعلوه مشارب.

فهل هَبَّة من روح الإسلام على أرواح المسلمين تذهب بهؤلاء وهؤلاء إلى حيث ألقت[1]، وتجمع قلوبهم على عقيدة الحق الواحدة، وألسنتهم على كلمة الحق الجامعة، وأيديهم على بناء حصن الحق على الأُسس التي وضعها محمدﷺ.

ولا مَطْمَع لنا في الوصول إلى هذه الغاية إلاَّ إذا أصبح المسلم يلتفت إلى جهاته الأربع فلا يرى إلا أخاً يشارك في الآلام والآمال، فهو حقيق أن يشاركه في العمل.

إنَّ الوسائل إلى هذه الغاية كثيرة، وأقربْها نفعاً، وأجداها أثراً أنْ تُربَّى الأحداث من الصبا على غير ما ربَّانا آباؤنا، وأن نحجب عليهم نقائصنا، فإن

(١) هذا اقتباس من قول زهير: إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم (م).

اطلعوا عليها سميناها باسمها، وأنها نقائص، وأنها سبب هلاكنا، وحذرناهم من التقليد لنا فيها، فإذا شبُّوا على هذه الهداية سلكنا بهم سبيل الحق الواحدة ووجهناهم بتلك القابلية إلى وجهة واحدة، وحميناهم من هذه التيارات الفكرية التي تتجاذبهم، ومن الذئاب الغربية التي تتخطفهم.

إنَّ شبابنا اليوم يتخبّط في ظلمات من الأفكار المتضاربة، والسبل المضلة، تتنازعه الدعايات المختلفة التي يقرأها في الجريدة والكتاب، ويسمعها في الشارع وفي المدرسة، ويرى مظاهرها في البيت وفي المسجد، وكل داعٍ إلى ضلالة فكرية أو إلى نحلة دينية مفرِّقة يرفع صوته ويجهر، ويزين ويغري، ويعد ويمني، ونحن ساكتون، كأنَّ أمر هؤلاء الشبان لا يعنينا، وكأنَّهم ليسوا منَّا ولسنا منهم، ولا عاصم من تربية صالحة موحدة يعصمهم من التأثر بهذه الدعايات، ولا حامي من مذكر أو معلم أو مدرسة أو قانون يحميهم من الوقوع في هذه الأشراك.

إن شبابنا هم هدف هذه الدعايات وهم ميدان الصراع، وموضوع النزاع بين دعاة الفكرة الجامعة وصوتهم ضعيف وعملهم ضئيل، وبين دعاة الشيوعية والإلحاد والوطنيات الضيقة والعنصريات المحدودة وأصواتهم عالية، وأسنادهم قوية، ومحرِّكهم الأول واحد، وإن لم يشعروا به أو غالطوا أنفسهم وغالطونا فيه.

وما هم إلاَّ أسلحة في يده موجهة إلى شبابنا، إنْ لم يصب بواحد منها أصاب بالآخر، وهو الظافر على كل حال إن لم تعالجه بما يبطل كيده، ويفلُّ أسلحته كلها، وهو حماية هذا الشباب وتحصينه بالمعوذات من فضائل الإسلام وأخلاقه

وروحانيته، وإن فيه العوض المضاعف عن كل ما تمنيه به الدعايات الخارجية.

إذا كان الشباب لا يفهم الدين من البيت ولا من المسجد ولا من المدرسة ولا من المجتمعات، فإن فهم شيئاً منه في شيء منها فهمه خلافاً وشعوذة وتخريفاً ـ ففي أي موضوع يفهم الإسلام على حقيقته طهارة وسمواً واتحاداً وقوة وعزَّة وسيادة؟!

إنْ عاملناه بالإنصاف نقول له معذور إن زلَّ وضلَّ بالانسياق مع هذه التيارات الخاطئة التي تختلف بالأسماء والمبادئ، وتتفق في الغاية، وهي حرب الإسلام في أبنائه لتحاربه بعد ذلك بأبنائه.

وإذا كان الشاب يجلس إلى أبويه وذويه فلا يسمع إلا المذهب والخلاف، ولمز المخالفين بالمذهب قبل المخالفين بالدين، ثم يجلس إلى العالم الديني فلا يسمع إلا «عندنا وعندهم» ثم يجلس في المدرسة فلا يسمع ذكراً للإسلام، ولا تمجيداً لمبادئه وعظمائه وتاريخه، ولا يرى فيها شيئاً من مظاهره بل لا يسمع إلا تحقيراً لماضيه، وغضاً من أمجاده.

إذا كان لا يسمع في مضطربه إلاَّ هذا، ولا يرى إلاَّ هذا ـ فكيف نطمع أن ينتصر مع هذه الدعايات الجارفة؟ إننا حين نطمع في هذا لفي غيٍّ بعيد.

إن شبابنا؛ لجهلهم بالإسلام أصبحوا لا يثقون بماضيه؛ وكيف يثقون بماض مجهول وهذا حاضره؟ أم كيف يدافعون عن هذا الماضي المجهول إذا عرض لهم الطعن فيه في الكتاب الطاعن؟ أم سمعوا اللعن له من الأستاذ اللاعن؟ أم كيف يفخرون بالمجهول إذا جليت المفاخر الأجنبية في كتاب يقرره قانون، ويزكيه

أستاذ؟ اعذروا الشبان، ولا تبكوا على ضياعهم فأنتم الذين أضعتموهم، ولا تلوموهم ولوموا أنفسكم.

أهملتموهم فذوقوا وبال الإهمال، وأنزلتموهم إلى اللجة، وقلتم لهم: إياكم أن تغرقوا، ثم استرعيتم عليهم الذئاب، ومن استرعى الذئب ظلم.

لا أحمق منَّا: نُلَقِّن أبنائنا الخلاف في الدين والدنيا بأعمالنا، ونقول لهم بألسنتنا اتّحدوا، وإنَّ صالحةً يأخذها الابن عن أبيه بطريق القدوة خير من ألف نصيحة باللسان.

النهضات الصادقة تبدأ من الأخلاق وتنتهي إلى الأخلاق، وما زادت بحوث الفلسفة ماضيها وحاضرها في الأخلاق شيئاً على ما جاء به الإسلام، وأقرَّته الفطر السليمة، ويزيد الإسلام على هذه الفلسفات ويشقُّ بقوة العرض للفضيلة، والتشويق لها، وشرح آثارها في الفرد والجماعة، وبيان صلتها الوثيقة بالأقانيم الثلاثة: الحق، والخير، والجمال.

وإن شعراء العرب الفطريين لأَدَقُّ تصويراً للفضائل، وأصدق تعبيراً عليها، وتفسيراً لآثرها، وحثًّا على التحلي بها من جميع الفلاسفة النظريين، وقد أثرت الماديات في هذا العصر على عقول فلاسفته، ورانت عليها العصبيات الجنسية والإقليمية حتى انعكس نظرهم في فهم الفضيلة؛ فسموها بغير اسمها، فأصبحت القوة فضيلة يدعى إليها بدل الرحمة، والظلم فضيلة يُتَمَجَّد بها بدل العدل، والاستعباد فضيلة يتغنى بها بدل الحرية.

وكل هذا يدل على أن الفضيلة في نظر الفلسفة العملية الجديدة هي لباس

للعقل لا نبع منه، وأنها خاضعة للحكم لا للحكمة.

أمَّا الفضائل في نظر الإسلام وحكمه فإنها صبغة لا تتحول، وحقيقة لا تتغير ولا تتبدل؛ فالصدق في معناه الإسلامي هو الصدق لا تتصرف في معناه المصالح والمنافع، ولا تتلاعب به الأهواء والمطامع، والوفاء هو الوفاء، والعدل، والإحسان، والرفق، والعفو عند القادر، كل أولئك من الفضائل الثابتة ثبوت الحقائق لا تنال منها تصاريف الأيام، ولا يتصور أن يأتي على الناس يومٌ تُجْمِع فيه عقول العقلاء على أنَّ الصدق مثلاً رذيلة تَصِمُ صاحبها بالذم إلاَّ إذا جوزنا مجيء يوم يخرج فيه الكون من تدبير الله إلى تدبير الشيطان ويكون أفضل الذكر فيه أن يقال كلما ذكر الشيطان: رضي الله عنه.

فالموازين القرآنية للفضائل هي التي يجب أن تحكم في العقول حتى تأْمَنَ على الفضيلة ما يجري بيننا على «الأوراق النقدية».

ونحن أهل القرآن أحق الناس بالدعوة إلى هذا، وتبيّنه ونشره في هذا العالم المضطرب الذي فقد الفضائل الإنسانية؛ فانحدر إلى حيوانية عارمة توشك أنْ تفضي به إلى الفناء.

نحن أهل القرآن ـ الذي وضع الموازين القسط للفضائل، وحثَّ عليها وجعلها أساساً للسعادة، وسُلَّماً للسيادة ـ أولى الناس بأنْ نَزِنَ النهضات بحظوظها من الفضائل، وأن نبني بأيدينا أساس نهضتنا على صخرة الفضائل طبقاً عن طبق، ونحن ـ لو أجلنا بصائرنا في القرآن ـ أبعد الناس عن فساد التصور في تسمية هذه الحركات المتهافتة في المجتمعات الإسلامية نهضة.

٤٤ الشعور السياسي في الإسلام[1] للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

بثَّ الإسلام في نفوس معتنقيه ديناً قيماً، وأدباً راقياً، وسَنَّ لهم قواعد ليقيموا عليها أحكام مدنيتهم، ويهتدوا بها في تدبير سياستهم، وبعد أن وقف ذوو البصائر منهم على كُنْه الروح الذي يتماسك به العمران، ولا ينهض شعب أو يملك حياة مستقلة إلاَّ إذا ضرب فيه بأشعته ـ شعروا بحق القيام على تدبير شؤونهم بأنفسهم، وأخذوا ينشرون تلك المبادئَ الشريفةَ، والتعاليم المحكمة بين أمم كانت تعثو في الأرض فساداً، وتخوض في الباطل خوضاً إلى أنْ كان ما أدهش العقول عن فتوحات نسخت ليل الجهالة، وجعلت آية العلم الصحيح مُبْصَرَة.

كان الشعور السياسي منبثاً في نفوس الأمة قاطبة، حتى إذا نهض الرئيس الأعلى لقتال يحمي ذَمارهم، أو عمل يرفع شأنهم خَفُّوا إلى دعوته، وأسلموا أنفسهم وأموالهم إلى رأيه وتدبيره.

ما هي العوامل التي أحيت ذلك الشعور، وجعلته يتألق بين جوانحهم تألق القمر في سماء صاحية، فأَكْبَر هممهم، وشَدَّ عزائمهم، حتى تراءى لهم الجبل ذرة، واستهانوا بالموت الذي ـ كما قال بعض الحكماء ـ لا مرارة إلاَّ في الخوف منه؟.

---

(١) مجلة الفجر، المجلد الثاني من السنة الثانية الصادر في شهري صفر وربيع الأول سنة ١٣٤٠هـ تونس.

أحيا ذلك الشعور تلقيهم للكتاب الحكيم عن تدبر وإنعام في مراميه الاجتماعية والسياسية.

ومما يبعثهم على تجريد النظر لاجتلاء حقائقه، والكشف عن مقاصده أنه القانون الأساسي الذي لا تخضع الأمة إلاَّ لسلطانه؛ فكان العلماء ـ وهم بمنزلة نواب الأمة ـ يرقبون سير الهيئة الحاكمة، وما عليهم سوى أن يزنوا أعمالها بذلك الميزان السماوي، فيصفوها للناس بأنها جادة أو هازلة.

فالشعور السياسي نورٌ يسطع في الشعوب على قدر ما ينتشر بينها من معرفة حقوقها، والطرق الكافلة لحفظ مصالحها.

ولقد كنَّا نتلقى عن تجربة أن السلطة القابضة على زمام شعب يسوء أن يتنبه لحياته الشريفة، وينهض للمطالبة بحقوقه العالية تَصْرِفُ دهاءها إلى منابع التعليم، فتسد مسالكه، فإن لم تستطع ضَيَّقت مجاريَه، أو خلطته بعناصر تفتك بالإحساسات السامية، وتقلب النفوس التي فطرها الله على الحرية إلى طاعة عمياء.

أحيا ذلك الشعور أنَّ الله قَيَّض لهم رؤساء ما كانوا ليعدوا أنفسهم سوى أنهم أفراد من الشعب يقومون بتدبير جانب من مصالحه، فطرحوا التعاظم جانباً، وجلسوا لذوي الحاجات على بساط المساواة.

وكذلك قلوب الرعية إنما تنجذب إلى رجال الدولة، وتلتف حولهم بعاطفة خالصة، على قدر ما يبعدون عن مظاهر الأُبَهَةِ، ويخففون من شعار العظمة.

أرسل سعد بن أبي وقاص المغيرة بن شعبة إلى رستم القائد الفارسي، فأقبل

إليه حتى جلس معه على سريره، فوثب عليه أتباع رستم وأنزلوه، فقال المغيرة بصوت جهير: «إنا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضاً، فظننت أنكم تتواسون كما نتواسى، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض، اليوم علمت أنكم مغلوبون، وإن مُلْكاً لا يقوم على هذه السيرة، ولا على هذه العقول».

أراد المغيرة أن يبثَّ في الجنود الفارسية النُفْرَة من قائدها، حتى ترتخي عزائمهم عن نجدته، فما كان إلاَّ أن أيقظهم لما خص به ذلك القائد نفسه من الميزة والاعتلاء بغير حق، وأَومَأَ إلى أن الإسلام قرر قاعدة المساواة على وجهها الصحيح، فلا فضل لرئيس على أدنى السوقة إلا بتقوى الله.

وقد نجح دهاؤه ونفذت فيهم مقالته، حتى صاحت طائفة منهم قائلة: «صدق والله العربي فيما قال».

ومن مثل هذا القصة، نَفْقَهُ أن سقوط تلك الممالك تحت رايتهم لم يكن نتيجة البسالة والسيف وحدهما، بل كان الأثر الأعظم للدهاء في السياسة.

أحيا ذلك الشعور أن رأوا باب الحرية مفتوحاً على مصراعيه، ولم يجدوا دون مناقشة أولي الأمر حاجباً، فكان اطمئنانهم في سيرهم ووثوقهم بسلامة مستقبلهم مما يذكرهم بالسكينة، ويعظهم بأن يكونوا كالكنانة بين يدي أميرهم العادل، يرمي بعيدانها الصلبة في وجه من يشاء.

ومن ألقى نظرة في التاريخ الإسلامي عرف أن الرجال الذين أسسوا ملكاً لا سلف لهم به كعبد الرحمن الداخل، أو جددوا نظامه بعد أن تقطعت أوصاله

كعبد الرحمن الناصر ـ إنما استقام الأمر بما كانوا ينحونه في سياستهم من العدل في القضية، وتَلَقِّي الدعوى إلى الإصلاح بإذن صاغية، وصدر رحيب.

ماذا يخيل إليك من حال الأمة لعهد المنصور بن أبي عامر حين تقرأ في تاريخ دولته أن أحد العامة رفع إليه الشكوى بأحد رجال حاشيته فالتفت إليه، وكان ممن انتظم بهم عقد مجلسه، وقال له: انزل صاغراً، وساوِ خصمك في مقامه، حتى يرفعك الحق أو يضعك، ثم قال لصاحب شرطته الخاص به: خذ بيد هذا الظالم، وقدِّمه مع خصمه إلى صاحب المظالم؛ لينفذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحق من سجن أو غيره.

وإن الذي يتحلى بمزية إنصاف الضعيف من القوي، وتتمتع رعيته بمثل هذا العدل ـ لجدير بأن يبلغ من العز الشامخ والتأييد الراسخ حيث جذب عنان الملك من يد هشام بن الحكم، واستقل بالأمر، وغزا ستاً وخمسين غزوة، دون أن تنتكس له راية، أو يتخاذل له جيش.

ذاق المسلمون طعمَ سياسةٍ أعدلَ من القسطاس المستقيم، وعرفوا أن الدولة التي لا تقوم على قواعد المساواة، والشورى، وحرية التصريح بالرأي ـ ليست هي الدولةَ التي أذنت لهم شريعتهم بأن يلقوا إليها أمرهم عن طاعة وإخلاص، والحركات التي قلبت الدول رأساً على عقب كنهضة أبي مسلم الخرساني في الشرق، والمهدي بن تومرت في الغرب إنما نجحت وكان لها ذلك الأثر الخطير؛ لأنها تقوم بجانب دولة نامت عينها عن الحقوق الموكلة إلى رعايتها، وهامت بها الأهواء في أودية السَرَف والتفنن في الملاذ، حتى سَئِمَ الناس تكاليفها، ومالأوا

الثائرين على إبادتها.

ولكن الفتن التي ترفع رأسها في مثل إمارة عمر بن عبد العزيز، أو صلاح الدين الأيوبي، أو عبد المؤمن بن علي لا تلبث أن تتضاءل وتنطفئ، كما تنطفئ الذُّبالة إذا نفد الزيت من السراج، وما ذاك إلاّ أن العدل متماسك العُرَى، وجمال الشَرْعِ يلوح في مُحَيَّا الدولة؛ فلا تجد نار الفتنة من القلوب النافرة ما يذهب بلهبها يميناً ويساراً.

فالإحساس السياسي الذي يربيه الإسلام في نفوس من يتقلدونه، إنما يرمي بأشعته إلى مبادئ مقدسة، وغايات شريفة، فإذا ربطوا قلوبهم باحترام أمير أو وزير أو زعيم، وبسطوا أيديهم إلى مؤازرته؛ فلأنه يرعى مبادءهم، ويولي وجهه شطر غاياتهم.

تاسعاً: مقالات في الإصلاح والدعوة إلى الله

٤٥ الدعوة[1] للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

ما من قائم يقوم في مجتمع من هذه المجتمعات البشرية داعياً إلى ترك ضلالة من الضلالات، أو بدعة من البدع، إلا وقد آذن نفسه بحرب لا تخمد نارها، ولا يخبو أوارها حتى تهلك، أو يهلك دونها.

ليس موقف الجندي في معترك الحرب بأحرج من موقف المرشد في معترك الدعوة، وليس سلب الأجسام أرواحها بأقرب منالاً من سلب النفوس غرائزها.

ولا يَضَنُّ[2] الإنسان بشيء مما تملك يمينه ضَنَّه بما تنطوي عليه جوانحه من المعتقدات، وإنه ليبذل دمه صيانة لعقيدته، ولا يبذل عقيدته صيانة لدمه، وما سالت الدماء، ولا تمزقت الأشلاء في موقف الحروب البشرية من عهد آدم إلى اليوم إلا حماية للمذاهب، وذوداً عن العقائد.

لذلك كان الدعاة في كل أمة أعداءها وخصومها؛ لأنهم يحاولون أن يرزؤوها في ذخائر نفوسها، ويفجعونها في أعلاق قلوبها.

الدعاة أحوج الناس إلى عزائم ثابتة، وقلوب صابرة على احتمال المصائب والمحن التي يلاقونها في سبيل الدعوة، حتى يبلغوا الغاية التي يرونها، أو يموتوا في طريقها.

الدعاة الصادقون لا يبالون أن يسميهم الناس خونة، أو جهلة، أو زنادقة، أو

---

(١) مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة الموضوعة ص٢٩٥ ـ ٢٩٩.

(٢) يضن: يبخل.

ملحدين، أو ضالين، أو كافرين؛ لأن ذلك ما لا بدَّ أن يكون.

الدعاة الصادقون يعلمون أن محمداً ﷺ عاش بين أعدائه ساحراً كذاباً، ومات سيد المرسلين، وأن الإمام الغزالي عاش بالكفر والإلحاد ومات حجة الإسلام، وابن رشد عاش ذليلاً مهاناً حتى كان الناس يبصقون عليه إذا رأوه، ومات فيلسوف الشرق؛ فهم يحبون أن يكونوا أمثال هؤلاء العظماء أحياءً وأمواتاً.

سيقول كثير من الناس: وما يغني الداعي دعاؤه في أمة لا تحسن به ظناً، ولا تسمع له قولاً؛ إنه يضر نفسه من حيث لا ينفع أمته، فيكون أجهل الناس وأحمق الناس.

هذا ما يوسوس به الشيطان للعاجزين الجاهلين، وهذا الداء الذي ألمَّ بنفوس كثير من العلماء؛ فأمسك ألسنتهم عن قول الحق، وحبس نفوسهم عن الانطلاق في سبيل الهداية والإرشاد، فأصبحوا لا عمل لهم إلا أن يكرروا للناس ما يعلمون، ويعيدوا عليهم ما يحفظون، فجمدت الأذهان، وتبلدت المدارك، وأصبحت العقول في سجن مظلم لا تطلع عليه الشمس، ولا ينفذ إليه الهواء.

الجهل غشاء سميك يَغْشى العقل، والعلم نار متأججة تلامس ذلك الغشاء فتحرقه رويداً رويداً؛ فلا يزال العقل يتألم لحرارتها ما دام الغشاء بينه وبينها، حتى إذا أتت عليه انكشف له الغطاء؛ فرأى النار نوراً، والألم لذة وسروراً.

لا يستطيع الباطل أن يصرع الحق في ميدان؛ لأن الحق وجود، والباطل عدم، إنما يصرعه جهل العلماء بقوته، ويأسهم من غلبته، وإغفالهم النداء به، والدعاء إليه.

محال أن يهدم بناء الباطل فرد واحد في عصر واحد، وإنما يهدمه أفراد متعددون؛ في عصور متعددة، فيهزه الأول هزة تباعد ما بين أحجاره، ثم ينقض الثاني منه حجراً، والثالث آخر، وهكذا حتى لا يبقى منه حجراً على حجر.

الجهلاء مرضى، والعلماء أطباء، ولا يجمل بالطبيب أن يحجم عن العمل الجراحي؛ فراراً من إزعاج المريض، أو خوفاً من صياحه وعويله، أو اتقاءاً لسبه وشتمه؛ فإنه سيكون غداً أصدق أصدقائه، وأحب الناس إليه.

وبعد: فقليل أن يكون الداعي في الأمة الجاهلة حبيباً إليها، وقليل أن ينال حظه من إكرامها وإجلالها إلا بعد أن تتجرع مرارة الدواء، ثم تشعر بحلاوة الشفاء.

الدعاة في هذه الأمة كثيرون ملء الفضاء، وكظة[1] الأرض والسماء، ولكن لا يكاد يوجد بينهم داعٍ واحد؛ لأنه لا يوجد بينهم شجاع واحد.

أصحاب الصحف، وكتاب الرسائل، والمؤلفون، وخطباء المجامع، وخطباء المنابر كلهم يدعون إلى الحق، وكلهم يعظون وينصحون، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولكن لا يوجد بينهم من يستطيع أن يحمل في سبيل الدعوة ضراً، أو يلاقي في طريقها شراً[2].

رأيت الدعاة في هذه الأمة أربعة: رجلاً يعرف الحق ويكتمه عجزاً وجبناً، فهو ساكت طول حياته لا ينطق بخير ولا شر، ورجلاً يعرف الحق وينطق به

---

(١) الكظة: البطنة.

(٢) ليس هذا الكلام على إطلاقه (م).

ولكنه يجهل طريق الحكمة والسياسة في دعوته، فيهجم على النفوس بما يزعجها وينفرها، وكان خيراً له لو صنع ما يصنعه الطبيب الماهر الذي يضع الدواء المر في «برشامة» ليسهل تناوله وازدراده؛ ورجلاً لا يعرف حقاً ولا باطلاً، فهو يخبط في دعوته خبط الناقة العشواء في بيدائها، فيدعو إلى الخير والشر والحق والباطل، والضار والنافع، في موقف واحد؛ فكأنه جواد امرئ القيس الذي يقول فيه:

مكَرٍّ مفَرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معاً ....

ورجلاً يعرف الحق ويدعو الأمة إلى الباطل دعوة المُجِّد المجتهد، وهو أخبث الأربعة وأكثرهم غائلة؛ لأنه صاحب هوى يرى أنه لا يبلغ غايته منه إلا إذا أهلك الأمة في سبيله، فهو عدوُّها في ثياب صديقها؛ لأنه يوردها موارد التلف والهلاك باسم الهداية والإرشاد؛ فليت شعري من أي واحد من هؤلاء الأربعة تستفيد الأمة رشدها وهداها؟!

ما أعظم شقاء هذه الأمة وأشد بلاءها؛ فقد أصبح دعاتها في حاجة إلى دعاة، ينيرون لهم طريق الدعوة، ويعلمونهم كيف يكون الصبر والاحتمال في سبيلها؛ فليت شعري متى يتعلمون، ثم يرشدون؟

٤٦ الدعوة إلى الخير[1] للشيخ محمد عبدالعزيز الخولي

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥)﴾ فصلت.

أصدق الحديث كتاب الله ـ تعالى ـ لأنه كلام العليم الحكيم: العليم بالنفوس، وما يسعدها، وما يرقيها، وبالأمم وما يدنيها من السعادة والعزة وما يقصيها.

وهو الحكيم في أمره، ونهيه، ووصفه، وفعله؛ فلا يكون منه إلا ما يتفق مع مصلحة الأفراد والأسر والجماعات والأمم، وإذا وصف أدوية الأمراض والعلل فخير الأوصاف وصفه، وخير الأدوية دواؤه؛ فالشفاء من العلل مُعْقِبه لا محالة.

وإذا كان ذلك شأن الله وشأن كلامه فاستمع لإرشاده، وتمسك بقرآنه، وتدبر معناه ومرماه وفحواه ومغزاه، وكن من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، ومن الذين ظهرت آثار الموعظة الحسنة في قلوبهم وأخلاقهم وأعمالهم، ولا تكن من الذين قالوا: سمعنا وعصينا؛ فإن ذلك الشقاء بعينه والخسارة ليست بعدها خسارة.

ولا أظنك من هؤلاء وقد اتخذت الإسلام ديناً، وجعلت كتاب الله إماماً، فالظن بك أن تكون المستمع المنصت لما يلقيه عليك العليم الحكيم من النصائح،

(١) مجلة جمعية مكارم الأخلاق، العدد الأول، ص ١٦ـ ٢١، رجب ١٣٤٣هـ.

فاستمع أرشدني الله وإياك إلى الصراط المستقيم الذي لا يضل سالكه، ولا تلعب بعقله وفطرته الأهواء والشهوات.

الإنسان يتكلم كثيراً، ولكن النافع من كلامه قليل، والله ـ جل شأنه وتعالت حكمته ـ يرشدنا في هذه الآيات إلى خير الكلام، وأصدقه، وأحسنه، وأنفعه قال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ (٣٣)﴾ فصلت.

فأعذب الناس لفظاً، وأحسنهم قولاً الذي يدعو إلى الله، وإلى دينه الحقِّ، وشريعته الحكيمة العادلة الكفيلة بسعادة الناس في دنياهم وأخراهم.

وكيف لا يكون أحسن الناس كلاماً وقد سلك مسلك الرسل في الدعوة إلى الحق، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والعمل على تطهير النفوس من رذائل الأخلاق، ومحدثات الأمور، وتكميلها بما يرفع شأنها، ويعلي أمرها.

واعلم أن الدعوة إلى الله لا تنفع ولا تجدي إلا إذا كانت صادرة عن نفس طيبة لله مخلصة قد امتلأت بحب الدين، ورسخت فيها أخلاقه وأعماله؛ فإن الكلمة منها تؤثر بالنفوس ما لا تؤثره السيوف، وتسوقها إلى الخير ما لا تسوقها القوة الغاشمة، وإن الكلام إذا خرج من القلب وصل إلى القلب، وإن خرج من اللسان لم يتجاوز الآذان.

وهل تظن بكلام لا يبرهن عليه عملك أن تكون له قيمة عند الناس؟

هيهات هيات؛ فقبل أن تنصب نفسك داعية إلى الخير هذبها بالأخلاق الطيبة، والأعمال الصالحة من صدق، وكرم، وعزة، وشهامة، ونجدة،

ومروءة، وصلاة، وزكاة، وحج، وصيام؛ فإن لهذه من التأثير في كمال النفوس، وسوقها إلى الخير أثراً كبيراً، وصلاحاً عظيماً.

ولهذا قرن الله الدعوة إليه بالعمل الصالح؛ لأنه عماد الدعوة، ووسيلتها التي تجعلها نافعة مفيدة؛ فكمِّل نفسك تستطعْ تكميل غيرك، وهذِّب خلقك يتأدبِ الناس بأدبك، وينهجوا مثل نهجك.

وإن الدعوة إلى الله كما تكون باللسان تكون بالأعمال، والناس يتأثرون بالأعمال أكثر مما يتأثرون بالأقوال.

فالحكومة التي يرأسها وزير قائم على رعاية المصالح، وإعطاء الحقوق، والضرب على أيدي الظالمين، والصلابة في الحق، وعدم التأثر بالأهواء والشهوات ـ يغلب في أفراد حكومته وموظفيها تلك الشيم العالية، والمكارم الطيبة.

والبلد الذي استقام علماؤه، ونصبوا أنفسهم حراساً على الدين، ودعاة إليه يهتدي أهل البلد بهديهم، ويرتسمون طريقتهم.

وناظر المدرسة وأساتذتها إذا كانوا مثالاً صالحاً في أخلاقهم وأعمالهم وإخلاصهم وقوة عزيمتهم ـ نشأ تلامذتهم على شاكلتهم متأدبين بآدابهم، سالكين مسلكهم.

وكذلك رب الأسرة إذا كان ورعاً تقيَّاً نهاره في عمله، وليله في بيته، لا يقصر في واجب الله أو الناس، ولا تؤثر في نفسه الشهوات التي أضلت كثيراً، وظنوا أنها السعادة، وإنْ هي إلا الشقاوة.

هذا الشخص يتخلق بأخلاقه، ويعمل بأعماله زوجُهُ، وبنوه، وبناته، بل وأقرباؤه، وجيرانُه، ومن يختلط بهم في العمل؛ فاستقامة رب البيت مدعاة لاستقامة أهل البيت، وإن المنبت الطيب لا ينبت إلا طيباً، والبيئة الفاسدة لا تنشئ إلا فساداً.

فيا معشر الرؤساء كلكم راع ومسئول عن رعيته؛ فليتق الله كل فيما يرعاه، وليكن له مثالاً طيباً، وأسوة حسنة، وقدوة صالحة.

ولما كان الدعاة إلى الحق يتصدى لهم معارضون مفسدون يسيئون سمعتهم، ويعرقلون أعمالهم كما جرت سنة الله في خلقه كما نطق به القرآن ﴿وكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ الأنعام:١١٢.

ولما كانت سنة الله فيهم كذلك، وكان لا بد لهم من التصادم مع أنصار الباطل، وأعداء الحق ـ ندبهم الله إلى أن يقابلوا قولهم وعملهم بلين من القول، وجميل من العبارة لا يدل على التراجع عن الحق، ولكن على التمسك به فيقول كل منهم: ﴿إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ (٣٣)﴾ فصلت، المنقادين لأوامر الله ـ سبحانه وتعالى ـ والمحافظين على حدوده؛ فإن أسأتم إليَّ فلي رب يحميني، وإله يدفع عنِّي، وما أنا ممن أتى منكراً، أو زوَّر قولاً إن هو الطريق مستقيم استبانت لي أعلامُه، ووضحت محجتُه، فسلكته على بصيرة، وإن الذي وفقني لسلوكه لسوف يوفقني لغايته، وما يضرني كيدكم شيئاً إن كان الله يريد نفعي ونصري.

ثم بيَّن ـ جلَّ جلاله ـ أنه لا تستوي الحسنة ولا السيئة، بل لين القول مقدّم على جافِّه، ورقيقه مقدَّم على غليظه، ومقابلة الهفوة بالعفو، والإيذاء بالصفح

أنجح في باب الدعوة، وأرجى للإجابة ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلا تَنسَوْا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ البقرة:٢٣٧.

ولذلك قال ـ جلَّ جلاله ـ:﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ(٣٤)﴾ فصلت:٣٤، أي صديق قريب؛ فمقابلة السيئة بالحسنة، والرذيلة بالفضيلة تجعل الأعداء أصدقاء، والمشاغبين مسالمين، والمنافقين مخلصين، والبعيد عن حقك وعملك قريباً منك.

وذلك أهم ما تصبو إليه نفس الداعي أن يهتدي الناس بهديه، ويتأدبوا بأدبه، ويتخلقوا بخلقه أي أن يكونوا على الصراط المستقيم الذي سلكه ـ صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض؛ فالمسالمة في الدعوة ـوإن طالت مدتهاـ أولى من المعاداة والمشاكسة، ولنا برسول الله ﷺ أسوة حسنة؛ فإنه مكث أربع عشرة سنة يدعو إلى الله بقوله وعمله، ولم يجرد سيفاً، ولم يعلن حرباً إلا بعد أن خشيَ على دينه من أعمال الكفار، وبعد أن أخرج هو وأتباعه من ديارهم وأموالهم ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ(٣٩)﴾ الحج.

واعلم أن مقابلة السيئة بالحسنة أمر شاقٌّ لا يقدر عليه إلا شخص وطَّن نفسه على الصبر، ومرَّنها عليه حتى صار عادة له.

وكذلك لا يقوم بها إلا شخص له حظٌّ عظيم من الكمال الخلقي، والتهذيب النفسي، والعمل الصالح ولذلك يقول ـ جلَّ ثناؤه ـ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤)﴾ السجدة.

فأخبر ـ جلَّ ثناؤه ـ بأنهم لم يصيروا أئمة في الهداية، وقادة في الدعوة إلا بعد أن تحلوا بالصبر، وكانوا موقنين بآيات الله إيقاناً ظهرت آثاره في أعمالهم وأخلاقهم؛ فلما كانوا كاملين صابرين جعلهم الله أعلاماً للهداية، وأئمة في الخير.

فيا من نصبت نفسك للدعوة، وأقمت نفسك مقام الرسل الدعاة الهداة تحمَّل كلَّ ما يلاقيك من المحن بقلب ثابت، وجأش رابط، ولا تزعزعنَّك الكروب؛ فإنها مربِّية الرجال، ومهذِّبة الأخلاق، ومكوِّنة النفوس.

وإن رجلاً لم تعركه الحوادث، ولم تجرِّبه البلايا لا يكون رجل إصلاح ولا داعي خلق إلى حقٍّ؛ فوطِّن النفس على تحمُّل المكروه، وابذل كل ما تستطيع من قوة ومال يهدك الله طريقاً رشداً، ويصلح بك جماعات بل أمماً ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾ العنكبوت.

٤٧ عذاب المصلحين[1] للأستاذ أحمد أمين

قـرأتُ قولـه ـ تعـالى ـ: ﴿أَفَكُلَّمَـا جَـاءكُمْ رَسُـولٌ بِمَـا لا تَهْـوَى أَنفُـسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ البقرة: ٨٧.

وقرأت حديث ورقة بن نوفل مع رسول الله، إذ حدثه الرسول بما نزل عليه من وحي فقال له ورقة: «ليتني حياً إذ يخرجك قومك» قال رسول الله ﷺ: «**أو مخرجي هم؟**».

قال: «نعم؛ لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي».

وقرأت كثيراً من سير المصلحين المجددين، فرأيت أكثرهم ـ في اضطهاد الناس لهم ـ سواء، ورأيت تاريخهم يكاد يتشابه؛ دعوة حارة إلى الإصلاح يتبعها تألب العامة عليهم، واضطهادُ الرأي العام لهم، والتنكيل بالمصلح، ثم انتصار الأفكار الجديدة التي أتى بها هذا المصلح، بعد أن يكون قد انهدت قواه، أو انتقل إلى رحمة الله.

لماذا كل هذا؟ ولماذا يتشابه التاريخ حتى كأنه قانون طبيعي؟ ولماذا يتكرر هذا المنظر في الشرق والغرب وكل مكان حل به الإنسان؟

السبب في هذا الفكرة الجديدة تأتي وقد التأمت أفكار الناس على نمط خاص، وتجمعت وشد بعضها بعضاً، وتماسكت حلقاتها.

وتأتي الفكرة الجديدة غريبة عن هذه الأفكار المألوفة فلا تجد مكاناً بينها، ولا

---

(١) فيض الخاطر (١٤١/٣ـ١٤٤).

تجد نفسها منسجمة مع الأفكار الموجودة ، ويشعر الناس أَنَّ هذه الفكرة نابية عن أفكارهم ، غير منسجمة مع النظام العلى[1] الذي استقر في أذهانهم ، فيكرهونها ، ويقفون في سبيلها ، وكل ما كانت الفكرة الجديدة أبعد عن المألوف كانوا لها أكثرهم كراهية ومقتاً ، وأشد تحمساً لمناهضتها وطردها أو القضاء عليها.

إنَّ أفكار كل إنسان تُبنى بنياناً مما رآه وسمعه وقرأه وصادفه في حياته ، وهي مع تكونها في أزمان مختلفة تكون وحدة منسجمة ، ولا تقبل أن يزيد عليها إلا ما لاءمها وانسجم معها ، فإذا رأت فكرة جديدة لا تلتئم مع هذا النظام المحبوك ، ولا تستطيع أن تكون حلقة في شبكة العقلية المنسوجة ـ طوردت وأقصيت.

ثم إن هذا النسيج من الأفكار يشعر أنه أتت الفكرة الجديدة الغريبة عنه ، ودخلت فيه ، وأفسدت نظامه ، وأقلقت راحته ، فهو يَصُدُّها ويقف في سبيلها ، ولا يسمح بالدخول ، كطائفة من الدجاج مؤتلفة منسجمة نشأت في بيت واحد ثم دخلت عليها دجاجة جديدة لم تنشأ في بيئتها ، ولم تعتد عاداتها؛ فهي تطَارَدُ وتُبْعَدَ عن الحَبِّ ، وتُنْقَّر ، وتُعَذَّب.

ثم إنَّ المخ يشعر أنه إن قَبِل هذه الفكرة اقتضته تعديلاً في نظامه ، وتجديداً في أوضاعه ، وتغييراً في نسيجه ، ومجهوداً كبيراً في إعادة ترتيب القديم والمألوف. وهذه عملية شاقة لا يرتضيها العقل في سهولة ويسر ، ولا سيما أنه يشعر أن الفكرة الجديدة ستكلفه إعادة تقويم الأشياء ، ووزنها وزناً جديداً ، وهو قد استنام إلى ما حدث ، وألف ما كان.

---

(١) هكذا في الأصل ولعله : العام ، أو الكلي (م).

ومخ الإنسان ـ وهو مركز عقله ـ أحدث الأعراض وجوداً في الإنسان، ومادته التي يتكون منها رخوة هينة لينة، لم تتصلب تصلب الأعضاء القديمة في أسلافنا من الحيوان كاليد والرجل ونحوهما.

ومن أجل هذا كان المخ أشد الأعضاء حساسية بالتعب وكراهية لمداومة العمل؛ وليس من الناس إلا القليل القادر على إعمال العقل، وتحريك المخ زمناً طويلاً.

والفكرة الجديدة تُكَلِّف المخ عناءً شديداً في قبولها، لما يترتب عليها من أعمال كثيرة؛ ولذلك هو يرفض كل هذا العناء؛ فيرفض الفكرة؛ ويستريح؛ ولذلك كان أكثر الناس يخافون التفكير؛ لأنه مؤلم لهم، فما يبدأ فيه حتى يشعر بانقباض في صدره، وصداع في رأسه، وما أقل من يجد في التفكير لَذَّتَهُ.

ومن أَجْلِ هذا كان دعاة التجديد والإصلاح في كل أمة وفي كل عصر نادرين جداً، وندرتُهم لم تأتِ من ندرة الذكاء، وإنما أتت ـ في الأغلب ـ من ندرة احتمال العقل الصبر على البحث وراء الحق، وندرةِ الشجاعة في اعتقاد الحق والجهر به؛ فالناس ـ إلا في القليل النادر ـ يألفون الحياة كما هي لا كما ينبغي أن تكون، وهم بين من لا يجد زمناً إلا لتحصيل قُوْتِه، ومن يجد الفراغ، ولكن لا يستطع عقله الصبر على البحث الحر، أو يجد كل ذلك ويستطيعه، ولكن لا يستطيع الجهر به؛ لما يتوقع من متاعب وآلام: مساسٍ بسمعته، وقدحٍ في ذمته، وتهكمٍ على عقله، وتجريحٍ لِخُلقه، ونيلٍ من دينه.

والتاريخ يجري على نمط واحد منذ تكونت الجمعية البشرية إلى اليوم، يلمع

فيها أفراد قلائل في كل عصر، يخرجون على إلف الناس، وما اعتادوه في أفكارهم وعقائدهم وعواطفهم؛ فيتألب عليهم الناس؛ لكسلهم العقلي، ولأن الدعوة الجديدة تقلق راحتهم وتدعوهم إلى قلب نظامهم العقلي والعاطفي، كالذي يدعو كسلاناً أن يغير نظام بيته أو نظام معيشته، وبدلاً من أن يوجه غضبه إلى نفسه؛ لكسلها أو جمودها، يحول غضبه على من سبب له هذا القلق؛ ثم لا يقتصر على محاربته بالأساليب الشريفة، بل يحاربه بكل سلاح، ولا يتورع عن أن يختلق عليه، و يتهمه بما يستطيع من تهم، ويرى أن كل وسيلة تقضي إلى قتل هذه الفكرة الجديدة جائزة ومشروعة؛ فإذا وصل إلى هذا الغرض بإعدام الفكرة أو إعدام قائلها، اطمأن واستراح؛ لأنها تتفق مع طبيعته في الكسل، واستنامته إلى ما ألف.

وقد اعتدنا أن نجد مسألتين تتصلان بهذه الظاهرة التاريخية:

الأولى ـ أن أكثر من يناصر الفكرة الجديدة يكونون عادة من الشباب، أو من ينتفع بها من الطبقات والأفراد؛ وتعليل ذلك واضح؛ فالشباب لم تتجمد بعد شبكة أفكارهم، ولا يزال فيها مرونة تصلح لأن تتقبل شيئاً جديداً كما تصلح للتشكيل الجديد، ولأن عواطفهم الحارة ترحب بالشيء الجديد الذي يتطلب منهم عملاً وقوة ونزالاً.

وأما من ينتفعون بالفكرة فأمرهم واضح، فقد ارتبطت الفكرة بمصالحهم، فهم يؤيدونها لما وراءها من مغنم.

والثانية ـ أننا نرى ـ في الغالب ـ تأييد السلطات للفكرة القديمة ومناهضتهم

للفكرة الجديدة، سواء كانت الفكرة الجديدة تمسهم مباشرة أو لا تمسهم؛ وسبب ذلك أن السلطات في الغالب تتطلب السلامة أكثر مما تتطلب التقدم، والرأي العام والسواد الأعظم من الناس يناصر الأفكار القديمة لما أسلفنا؛ فالسلطات يهمها ـ محافظة على السلامة والطمأنينة والهدوء ـأن تغضب على من يغضب الرأي العام، ويقلق راحته، لأن في راحة الجمهور راحة السلطات، ولأن السلطات كالأفراد أحب شيء إليها راحتها من التفكير، ومن وجع الدماغ، والفكرة تحمل في ثناياها حرباً، وحركة، واضطراباً، وانقساماً إلى معسكرات، وذلك يتطلب مجهوداً من السلطات كانت في غنى عنه؛ فهي ـ أيضاً ـ تغضب على من سبب لها هذا القلق والاضطراب، ودعاها إلى التفكير، ورسم الخطط.

لهذا كانت عظمة المصلحين في تحملهم هذه الصعاب كلها أكثر من عظمتهم في العثور على الحق؛ لأن عثورهم على الحق في هدوء بينهم وبين أنفسهم، أما تحقيق هذا الحق فلا يتم إلا بكل هذه المصاعب التي ألممنا بها.

ومع هذا فإنا نرى أن الأفكار الجديدة الصالحة تبقى على الرغم مما لاقت من صعاب، وعلى الرغم من موت دعاتها، بل إن موت دعاتها يخفف من غضب المعاندين للفكرة؛ لأن السواد الأعظم من الناس لا يستطيع الغضب على المعاني ما لم تُجَسَّم في شخص؛ فإذا مات هذا الشخص الحسي فترت قوة المعارضة للمعاني، ويأتي جيل الشباب الذي اعتنق الفكرة الجديدة، فيكتسح الجيل القديم المعارض، ويتبوأ مراكزه في الحكم وفي العمل، فتسود أفكاره، حتى تبلى أفكاره وهو أيضاً، و يمثل الدور من جديد.

هذا هو قانون الطبيعة منذ خُلِقَ الإنسان، يجري الناس شوطاً، فيلهم القادة فكرة أو أفكاراً يستلزمها الرقي، فيعارضها أعداء الرقي، ثم يموت الدعاة والمدعوون، ويموت النزاع، وتسود الفكرة، ثم يتجدد تمثيل الرواية.

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لكان طبيعياً، ولكنَّ الناس بجهلهم يخلقون معسكرات غير طبيعية تدعو إلى النزاع غير الطبيعي، فيفتحون مدارس تعلم على أنماط مختلفة، فتخلق عقليات مختلفة، ويعددون النظم التي تخلق مطامع مختلفة، ويشرعون نظماً اقتصادية تكون طبقات متعادية، إلى أمثال ذلك، فيكثر العداء بين الأفكار، ويضيع جهد المصلحين في التقريب بين العقليات، مع أن عوامل التبعيد الأساسية لا تزال تعمل عملها.

والأمة العاقلة التي يدرك قادتها هذه الحقائق تقضي على عوامل هذه الاختلافات، ولا يبقى لديها حرب في الآراء إلا ما تقضي به الطبيعة مما يتفق وتقدم الزمان.

٤٨ الدعوة الشاملة الخالدة[١] للعلاَّمة الشيخ محمد الخضر حسين

بينما العالم يتخبط في جهل وغواية فإذا بنور يلوح تحت سماء مكة، وتنبعث أشعته في اليمين واليسار، حتى أخذت بلاد العرب من أطرافها، وضربت في أقاصي الشرق والغرب، فانقلب الجهل إلى علم، والغواية إلى هدى، ذلك هو نور الدعوة التي قام بها أكمل الخليقة محمد بن عبد الله ﷺ.

ترمي هذه الدعوة الصادقة إلى أهداف سامية: إصلاح العقائد، والأخلاق والأعمال، وتنقية النفوس من المزاعم الباطلة، وتحرير العقول من أسر التقليد، حتى تحت ضياء الحجة[٢]، وعلى ما يرسمه لها المنطق السليم.

جاء الرسول الأعظم بهذه الدعوة الشاملة، فكانت مصدر خير ومطلع حكمة، وقد أيدها الله ـ تعالى ـ بما يضعها في النفوس موضع القبول، ويجعلها قريبة من متناول العقول.

ومن أقوى مؤيداتها الآيات القائمة على أنَّ المبلغ لها رسول من رب العالمين، وسيرته ـ عليه الصلاة والسلام ـ مملوءة بأرقى الفضائل وأَسنى الآداب وأجَلّ الأعمال، حتى إنَّ الباحث في السيرة على بصيرة ليجد في كل حلقة من سلسلة حياته معجزة، ولو استطعت ـ ولا إخالك تستطيع ـ أن تضعها في كفه، ثم تعمد

---

(١) مجلة لواء الإسلام العدد السابع من السنة الأولى في أول ربيع سنة ١٣٦٧هـ، وانظر كتاب: (هدى ونور) ص٤٣ـ٤٥، للشيخ محمد الخضر، عناية الأستاذ علي الرضا الحسيني.

(٢) هكذا في الأصل، ولعل هناك سقطاً، ولعله: حتى صارت.... (م).

إلى سيرة أعظم رجل تحدث عنه التاريخ، فتضعها في الكفة الأخرى، لعرفت الفرق بين من وقف في كماله عند حد هو أقصى ما يبلغه الناس بذكائهم وحزمهم، وبين من تجاوز ذلك الحد بمواهبه الفطرية، وبما خصه الله به من معارف غيبية، وحكم قدسية.

هي دعوة الحق اتجه إليها أقوام لا يؤمنون بأنها وحي سَمَاويّ، فاطلعوا على جملة من حقائقها، ووقفوا على جانب من أسرارها، فشهدوا لها بأنها محكمة الوضع، سامية الغاية، وألموا بأطراف من سيرة المبعوث بها، فاعترفوا بأنه أكبر مصلح أنقذ الإنسانية من غمرات الاستبداد، وعلمها بأقواله وسيرته العملية كيف تتمتع بحقوقها كاملة، وتحتفظ بحريتها وهي آمنة.

دعوة تأبى الخمول والإحجام، حيث ينبغي لها أنْ تظهر في شهامة وإقدام، توجه نصائحها إلى الأمم على اختلاف طبقاتها وتفاضل درجاتها؛ فتسدي النصيحة إلى الملوك فمن دونهم من ذوي المناصب السياسية، والقضائية، والتنفيذية، وتأخذ بأيدي العاملين من نحو التُّجَّار، والصُّنَّاع، والزُّرَّاع إلى أن يسيروا في الطريق الكافل للسلامة والنجاح، وأقبلت على الأسرة فرسمت لها نظماً تيسر لها أن تعيش في ألفة وهناءه، فقررت للزوجة والقرابة من نحو الأبوة والبنوة حقوقاً عادلة، وأوجبت على من يستطيع إسعاد ذوي الحاجات بمال أو جاه أن يسعدهم ما استطاع، وأوصت مع هذا برعاية حقوق الجوار.

وراعت في معاملة المخالفين ما تستدعيه العزة من الحزم، ثم ما تستدعيه العاطفة الإنسانية من الرفق، ففرقت بين من يدخل تحت سلطانها، وبين من

يناصبها العداء، فمنحت المسالمين من الحقوق ما تطمئن به نفوسهم، وتنعم به حياتهم، وأذنت في تقويم المناوئين بالقدر الكافي للنجاة من عدوانهم.

طلعت الدعوة المحمدية على الناس فصيحة البيان، قوية الحجة، حكيمة الأساليب، ولم تسلم مع هذا من طوائف يرمون أمامها أو وراءها عن قوس إلحاد وقح، أو جهل قاتم، ولولا أن الله ـ تعالى ـ تكفل بحفظها، وقيض لها في كل عصر أنصاراً رسخوا في فهم مقاصدها، وتصدوا للذود عن ساحتها بيقظة وحزم ـ لتمكن أولئك المفسدون من إخفات صوتها، وطمس معالمها.

وليست دعوة الإسلام بالدعوة التي ترشد إلى مواطن الإصلاح، ثم تترك الناس وشأنهم كما يفعل وعاظ المساجد والجمعيات[1]، بل هي دعوة تحمل في مبادئها فرضاً على الأمة أن تقوم بتنفيذ ما تقرره من حقوق، أو تفرضه من واجبات؛ إذ لا ينفع تَكَلُّمٌ بحق لا نفاذ له.

---

(١) لو قال: بعض وعاظ ... (م).

٤٩ قرآن الفجر[١] للأديب مصطفى صادق الرافعي

كنتُ في العاشرة من سنِّي وقد جمعتُ القرآنَ كلَّه حفظاً وجوَّدته بأحكام القراءة، ونحن يومئذٍ في مدينة «دمنهور» عاصمة البحيرة، وكان أبي كبير القضاة الشرعيين في هذا الإقليم، ومن عادته أنه كان يعتكف كل سنة في أحد المساجد عشرة الأيام الأخيرة من شهر رمضان يدخل المسجد، فلا يبرحه إلا ليلة عيد الفطر بعد انقضاء الصوم؛ فهناك يتأمل ويتعبد ويتصل بإلهه الحق، وينظر إلى الزائل بمعنى الخالد، ويطل على الدنيا إطلال الواقف على الأيام السائرة ويغير الحياة في عمله وفكره، ويهجر تراب الأرض؛ فلا يمشي عليه، وتراب المعاني الأرضية فلا يتعرض له، ويدخل في الزمن المتحرر من أكثر قيود النفس، ويستقر في المكان المملوء للجميع بفكرة واحدة لا تتغير، ثم لا يرى من الناس إلا هذا النوعَ المرطَّبَ الروح بالوضوء، المدعوَّ إلى دخول المسجد بدعوة القوة السامية، المنحنيَ في ركوعه؛ ليخضع لغير المعاني الذليلة، الساجدَ بين يدي ربه؛ ليدرك معنى الجلال الأعظم.

وما هي حكمة هذه الأمكنة التي تقام لعبادة الله؟ إنها أمكنة قائمة في الحياة، تشعر القلب البشريّ في نزاع الدنيا أنه في إنسان لا في بهيمة.

وذهبت ليلة فبتُّ عند أبي في المسجد؛ فلما كنا في جوف الليل الأخير أيقظني

(١) وحي القلم ٣/٢٨ـ٣١

للسَّحور، ثم أمرني فتوضأت لصلاة الفجر وأقبل هو على قراءته؛ فلما كان السَّحر الأعلى هتف بالدعاء المأثور: اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض، ولك الحمد، أنت بهاء السموات والأرض، ولك الحمد أنت زين السموات والأرض، ولك الحمد أنت قيام السموات والأرض ومن فيهن ومن عليهن، أنت الحق ومنك الحق.... إلى آخر الدعاء.

وأقبل الناس ينتابون المسجد، فانحدرنا من تلك العِلْيَة التي يسمونها الدكة، وجلسنا ننتظر الصلاة، وكانت المساجد في ذلك العهد تضاء بقناديل الزيت، في كل قنديل ذبالة يرتعش النور فيها خافتاً ضئيلاً يبص بصيصاً كأنه بعض معاني الضوء لا الضوء نفسه؛ فكانت هذه القناديل والظلام يرتج حولها، تلوح كأنها شقوق مضيئة في الجو، فلا تكشف الليل ولكن تكشف أسراره الجميلة، وتبدو في الظلمة كأنها تفسير ضعيف لمعنى غامض يومئ إليه ولا يُبَيِّنُه، فما تشعر النفس إلا أن العين تمتد في ضوئها من المنظور إلى غير المنظور كأنها سرّ يشف عن سرّ.

وكان لها منظر كمنظر النجوم يتم جمال الليل بإلقائه الشُّعل في أطرافه العليا، وإلباس الظلام زينته النورانية؛ فكان الجالس في المسجد وقت السحر يشعر بالحياة كأنها مخبوءة، ويحس في المكان بقايا أحلام، ويسري حوله ذلك المجهول الذي سيخرج منه الغد، وفي هذا الظلام النوراني تنكشف له أعماقه منسكباً فيها روح المسجد؛ فتعتريه حالةٌ روحانيةٌ يستكين فيها للقدر هادئاً وادعاً راجعاً إلى نفسه، مجتمعاً في حواسه، منفرداً بصفاته، منعكساً عليه نور قلبه؛ كأنه خرج من

سلطان ما يضيء عليه النهار، أو كأن تلك الظلمة قد طمست فيه على ألوان الأرض.

ثم يشعر بالفجر في ذلك الغَبَش عند اختلاط آخر الظلام بأول الضوء شعوراً نديًّاً كأن الملائكة قد هبطت تحمل سحابة رقيقة تمسح بها على قلبه؛ ليتنضَّر من يُبْس، ويَرِقَّ من غلظه، وكأنما جاءوه مع الفجر؛ ليتناول النهار من أيديهم مبدوءاً بالرحمة مفتتحاً بالجمال؛ فإذا كان شاعرَ النفس التقى فيه النور السماويّ بالنور الإنساني فإذا هو يتلألأ في روحه تحت الفجر.

لا أنسى أبداً تلك الساعة ونحن في جو المسجد، والقناديل معلقة كالنجوم في مناطها من الفلك، وتلك السرج ترتعش فيها ارتعاش خواطر الحب، والناس جالسون عليهم وقار أرواحهم، ومن حول كل إنسان هدوء قلبه، وقد استبهمت الأشياء في نظر العين؛ ليلبسها الإحساس الروحاني في النفس؛ فيكون لكل شيء معناه الذي هو منه ومعناه الذي ليس منه، فيخلق فيه الجمال الشعري كما يخلق للنظر المتخيَّل.

لا أنسى أبداً تلك الساعة، وقد انبعث في المسجد صوت غِرد رخيم، يشقُّ سُدْفَةَ الليل في مثل رنين الجرس تحت الأفق العالي وهو يردد هذه الآيات من آخر سورة النحل﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا

يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾.

وكان هذا القارئ يملك صوته أتمَّ ما يملك ذو الصوت المطرب؛ فكان يتصرَّف به أحلى مما يتصرَّف القمري وهو ينوح في أنغامه، وما كان إلا كالبلبل هزته الطبيعة بأسلوبها في جمال القمر، فاهتز يجاوبها بأسلوبه في جمال التغريد.

كان صوته على ترتيبٍ عجيبٍ في نغماته؛ يجمع بين قوة الرقة وبين رقة القوة، ويضطرب اضطراباً روحانياً كالحزن اعتراه الفرح على فجأة؛ يصيح الصيحة تترجح في الجو وفي النفس، وتتردد في المكان وفي القلب، ويتحول بها الكلام الإلهي إلى شيء حقيقي، يلمس الروح فيَرفَضُّ عليها بمثل الندى؛ فإذا هي ترف رفيفاً، وإذا هي كالزهرة التي مسحها الطل.

وسمعنا القرآن طريًّا كأول ما نزل به الوحي، فكان هذا الصوت الجميل يدور في النفس كأنه بعض السر الذي يدور في نظام العالم، وكان القلب وهو يتلقى الآيات كقلب الشجر يتناول الماء ويكسوها منه.

واهتز المكان والزمان، وبدا الفجر كأنه واقف يستأذن الله أن يضيء من هذا النور!

وكنا نسمع قران الفجر، وكأنما محيت الدنيا التي في الخارج من المسجد وبطل باطلها، فلم يبق على الأرض إلا الإنسانية الطاهرة ومكان العبادة؛ وهذه هي معجزة الروح متى كان الإنسان في لذة روحه مرتفعاً على طبيعته الأرضية.

أما الطفل الذي كان فيَّ يومئذٍ فكأنما دُعيَ بكل ذلك ليحمل هذه الرسالة ويؤديها إلى الرجل الذي يجيء في من بعد؛ فانا في كل حالة أخضع لهذا الصوت: ادع إلى سبيل ربك؛ وأنا في كل ضائقة أخشع لهذا الصوت: واصبر وما صبرك إلا بالله!

٥٠ كلمة الحق[١] للعلاَّمة أحمد محمد شاكر[٢]

ما أَقلَّ ما قلنا (كلمةَ الحق) في مواقف الرجال، وما أَكثر ما قصّرنا في ذلك، إن لم يكن خوفاً فضعفاً، ونستغفر الله، وأَرى أَنْ قد آن الأوان لنقولها ما استطعنا؛ كفَّارةً عما سَلَف من تقصير، وعما أَسْلَفْتُ من الذنوب، ليس لها إلاَّ عفوُ الله ورحمته، والعمر يجري بنا سريعاً، والحياة توشك أن تبلغ منتهاها.

وأَرى أنْ قد آنَ الأوانُ لنقولها ما استطعنا، وبلادُنا، وبلاد الإسلام تنحدر في مجرى السَّيْل، إلى هُوَّة لا قرار لها، هُوَّةِ الإلحاد والإباحية والانحلال، فإن لم نقف منهم موقف النذير، وإن لم نأخذ بحُجَزِهم عن النار انحدرنا معهم، وأصابنا من عَقَابيل ذلك ما يصيبهم، وكان علينا من الإثم أضعاف ما حُمِّلوا.

ذلك بأن الله أخذ علينا الميثاق ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾ آل عمران: ١٨٧.

وذلك بأن ضرب لنا المثل بأَشقى الأُمم ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩)﴾ المائدة.

---

(١) نشرت في مجلة الهدي النبوي المجلد الخامس عشر، والسادس عشر، وهي في كتاب (كلمة الحق) الذي جمع مقالات الشيخ رحمه الله وقدم له الأستاذ عبدالسلام هارون، وترجم للمؤلف محمود شاكر ـ رحم الله الجميع ـ.

(٢) سبقت في المجموعة الأولى ترجمة له.

وذلك بأن الله وصفنا ـ معشرَ المسلمين ـ بأننا خيرُ الأمم : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ ﴾ آل عمران : ١١٠ .

فإن فقدنا ما جعلنا الله به خير الأُمم ، كنَّا كَمَثَل أشقاها ، وليس من منزلة هناك بينهما .

وذلك بأن الله يقول ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ وكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً (٣٩) ﴾ الأحزاب .

وذلك بأن الرسول ﷺ قال : « **أَلاَ لا يمنعنَّ أحدكم رهبة الناس أن يقول بحقٍّ إذا رآه الناس أو شَهِدَه؛ فإنه لا يُقرِّب من أَجَلٍ ذلك ، ولا يُبَاعد من رِزْقٍ ، أَنْ يقولَ بحقٍّ ، أو يُذَكِّرَ بِعَظِيمٍ** » .

وذلك بأن رسول الله ﷺ قال « **لا يحقرنَّ أحدكم نفسه** ، قالوا : يا رسول الله ، كيف يحقر أَحدنا نفسه ؟ قال : **يرى أمراً لله عليه فيه مقال ، ثم لا يقولُ فيه؛ فيقولُ الله ـ عز وجل ـ له يوم القيامة : ما منعك أن تقولَ فيَّ كذا وكذا ؟ فيقولُ خَشْيَة الناس ، فيقولُ : فإياي كنت أَحقَّ أن تَخْشَى** » .

نريد أن نقول (كلمة الحق) في شؤون المسلمين كلها ، نريد أن ننافح عن الإسلام ما استطعنا ، بالقول الفصل ، والكلمة الصريحة ، لا نخشى أحداً إلاَّ الله ؛ إذ نقول ما نقول في حدود ما أنزل الله لنا به ، بل ما أوجب عليه أن نقوله ، بهدي كتاب ربنا ، وسنة رسوله .

نريد أَن نحارب الوثنية الحديثة والشرك الحديث ، اللذين شاعا في بلادنا وفي أكثر بلاد الإسلام ، تقليداً لأُوربة الوثنية الملحدة ، كما حارب سلفنا الصالح

الوثنية القديمة، والشرك القديم.

نريد أن ننافح عن القرآن، وقد اعتاد ناس أن يلعبوا بكتاب الله بين أَظهرنا، فمن متأول لآياته غيرِ مؤمن به، يريد أن يَقْسِرَها على غير ما يدل عليه صريح اللفظ في كلام العرب، حتى يوافق ما آمن به، أو ما أُشْرِبَتْهُ نفسه، من عقائد أُوربة ووثنيتها وإلحادها، أو يُقَرِّبه إلى عاداتهم وآدابهم - إن كانت لهم آداب - ليجعل الإسلام ديناً عصريَّاً في نظره ونظر ساداته الذين ارتضع لبانهم، أو رُبِّي في أحضانهم!!.

ومِنْ مُنكرٍ لكل شيء من عالم الغيب، فلا يفتأ يحاور ويداور؛ ليجعل عالم الغيب كله موافقاً لظواهر ما رأى من سنن الكون، إن كان يرى، أو على الأصح لما فهم أَن أُوربة ترى!! نعم، لا بأس عليه - عنده - أن يؤمن بشيء مما وراء المادة، إن أثبته السادة الأُوربيون، ولو كان من خرافات استحضار الأرواح!!

ومِنْ جاهلٍ لا يفقه في الإسلام شيئاً، ثم لا يستحي أن يتلاعب بقراءات القرآن وألفاظه المعجزة السامية ،فيكذب كل الأئمة والحفاظ فيما حفظوا ورووا؛ تقليداً لعصبية الإفرنج التي يريدون بها أن يهدموا هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ ليجعلوه مثل ما لديهم من كتب.

وهكذا ما نرى وترون.

نريد أن نحفظ أعراض المسلمين، وأن نحارب ما أحدث (النسوانُ) وأنصار (النسوانِ) من منكرات الإباحة والمجون والفجور والدعارة ،هؤلاء (النسوانُ) اللائي ليس لهن رجال، إلاَّ رجال (يُشْبِهْنَ) الرجال!! هذه الحركة النسائية

الماجنة، التي يتزعمها المجددون وأشباه المجددين، والمخنثون من الرجال، والمترجلات من النساء، التي يهدمون بها كل خلق كريم، يتسابق أولئك وهؤلاء إلى الشهوات، وإلى الشهوات فقط.

نريد أن ندعو الصالحين من المؤمنين، والصالحات من المؤمنات: الذين بقي في نفوسهم الحفاظ والغيرة ومقومات الرجولة، واللاتي بقي في نفوسهن الحياء والعفة والتصوُّن إلى العمل الجدِّي الحازم على إرجاع المرأة المسلمة إلى خدرها الإسلامي الموصون، إلى حجابها الذي أمر الله به؛ طوعاً أو كرهاً.

نريد أن نثابر على ما دَعَوْنَا وندعو إليه من العودة إلى كتاب الله وسنة رسوله في قضائنا كله، في كل بلاد الإسلام، وهدم الطاغوت الإفرنجي الذي ضُرب على المسلمين في عقر دارهم في صورة قوانين، والله ـ تعالى ـ يقول:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُول رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً (٦١) ﴾ النساء، ثم يقول: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (٦٥) ﴾ النساء.

نريد أن نتحدث في السياسةِ السياسةِ العليا للأمة الإسلامية، التي تجعلهم (أمة واحدة)، كما وصفهم الله في كتابه، نسمو بها على بدعة القومية، وعلى أهواء الأحزاب.

نريد أن نُبَصِّر المسلمين وزعماءَهم بموقعهم من هذه الدنيا بين الأمم، وتكالب الأمم عليهم بغياً وعَدْوَاً، وعصبية وكراهية الإسلام أولاً وقبل كل شيء.

نريد أن نعمل على تحرير عقول المسلمين وقلوبهم من روح التهتك والإباحية، ومن روح التمرد والإلحاد، وأن نريهم أثر ذلك في أوربة وأمريكا، اللتين يقلدانها تقليد القردة، وأن نريهم أثر ذلك في أنفسهم وأخلاقهم ودينهم.

نريد أن نحارب النفاق والمجاملات الكاذبة، التي اصطنعها كُتَّاب هذا العصر أو أكثرهم فيما يكتبون وينصحون! يظنون أن هذا من حسن السياسة، ومن الدعوة إلى الحق (بالحكمة والموعظة الحسنة) اللتين أمر الله بها!.

وما كان هذا منهما قط، وإنما هو الضعف والاستخذاء والملق والحرص على عَرَض الحياة الدنيا.

وما نريد بهذا أن نكون سفهاء أو شتامين أو منفِّرين، معاذ الله، و(**ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان، ولا الفاحش ولا البذيء**) كما قال رسول الله ﷺ.

ولكنَّا نريد أن نقول الحق واضحاً غير ملتوٍ، وأن نصف الأشياء بأوصافها الصحيحة بأحسن عبارة نستطيعها، ولكنا نربأ بأنفسنا وبإخواننا أن نصف رجلاً يعلن عداءه للإسلام، أو يرفض شريعة الله ورسوله ـ مثلاً ـ بأنه (صديقنا)، والله ـ سبحانه ـ نهانا عن ذلك نهياً حازماً في كتابه.

ونربأ بأنفسنا أن نضعف ونستخذي؛ فنصف أمةً من الأمم تضرب المسلمين بالحديد والنار، وتهتك أعراضهم، وتنهب أموالهم، بأنها أمة (صديقة) أو بأنها

أمة (الحرية والنور) إذا كان من فعلها مع إخواننا أنها أمة (الاستعباد والنار)! وأمثال ذلك مما يرى القارئ ويسمع كل يوم والله المستعان.

نريد أن نمهد للمسلمين سبيل العزة التي جعلها الله لهم ومن حقهم إذا اتصفوا بما وصفهم به :أن يكونوا (مؤمنين).

نريد أن نوقظهم وندعوهم إلى دينهم بهذا الصوت الضعيف، صوت مجلتنا هذه المتواضعة ولكننا نرجو أن يدوِّي هذا الصوت الضعيف يوماً ما؛ فيملأ العالم الإسلامي، ويبلغ أطراف الأرض، بما اعتزمنا من نية صادقة نرجو أن تكون خالصة لله وحده؛ جهاداً في سبيل الله، إن شاء الله.

فإن عجزنا أو ذهبنا، فلن يعدم الإسلام رجلاً أو رجالاً خيراً منا، يرفعون هذا اللواء، فلا يزال خَفَّاقاً إلى السماء، بإذن الله.

٥١ أدب المناظرة[١] للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي

أنا لا أقول إلا ما أعتقد، ولا أعتقد إلاَّ ما أسمع صداه من جوانب نفسي؛ فربما خالفت الناس في أشياء يعلمون منها غير ما أعلم ، ومعذرتي إليهم في ذلك أن الحق أولى بالمجاملة منهم، وأن في رأسي عقلاً أُجِلُّه عن أن أنزل به إلى أن أكون سيقة للعقول، وريشة في مهاب الأغراض، والأهواء.

فهل يجمل بعد ذلك بأحد من الناس أن يرميني بجارحة من القول، أو صاعقة من الغضب؛ لأني خالفت رأيه، أو ذهبت غير مذهبه، أو أن يرى أن له من الحق في حملي على مذهبه، أكثر مما يكون لي من الحق في حمله على مذهبي؟

لا بأس أن يُؤَيِّد الإنسان مذهبه بالحجة والبرهان، ولا بأس أن ينقض أدلة خصمه، ويزيفها مما يعتقد أنه مبطل لها، ولا ملامة عليه في أن يتذرع بكل ما يعرف من الوسائل إلى نشر الحقيقة التي يعتقدها إلا وسيلة واحدة لا أحبها له، ولا أعتقد أنها تنفعه، أو تغني عنه شيئاً، وهي وسيلة الشتم والسباب.

إن لإخلاص المتكلم تأثيراً عظيماً في قوة حجته، وحُلول كلامه المحلَّ الأعظم في القلوب والأفهام.

والشاتم يعلم عنه الناس جميعاً أنه غير مختص فيما يقول؛ فعبثاً يحاول أن يحمل الناس على رأيه، أو يقنعهم بصدقه، وإن كان أصدق الصادقين.

أتدري لِمَ يَسُبُّ الإنسانُ مناظرَه؟ لأنه جاهل وعاجز معاً، أما جهله؛ فلأنه

---

(١) الموضوعة مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة طبعة دار الجيل، بيروت(٢١٠-٢١٣).

يذهب في وادٍ غير وادي مُناظِره ، وهو يظن أنه في واديه ولأنه ينتقل من موضوع المناظرة إلى البحث في شؤون المناظر ، وأطواره وصفاته وطبائعه ، كأن كل مبحث عنده مبحث « فسيولوجي » .

وأما عجزه فلأنه لو عرف إلى مناظره سبيلاً غير هذا السبيل لسلكه ، وكفى نفسه مئونة ازدراء الناس إياه ، وحماها الدخول في مأزق هو فيه من الخاسرين ، محقاً كان أم مبطلاً .

لا يجوز بحال من الأحوال أن يكون الغرض من المناظرة شيئاً غير خدمة الحقيقة وتأييدها ، وأحسب أن لو سلك الكُتَّاب هذا المسلك في مباحثهم لاتفقوا على مسائل كثيرة هم لا يزالون مختلفين فيها حتى اليوم ، وما اختلفوا فيها إلا لأنهم فيما بينهم مختلفون ، يسمع أحدهم الكلمة من صاحبه ، ويعتقد أنها كلمة لا ريب فيها ، ولكنه يبغضه؛ فيبغض الحق من أجله؛ فينهض للرد عليه بحجج واهية ، وأساليب ضعيفة ، وإن كان هو قوياً في ذاته؛لأن القلم لا يقوى إلا إذا استمد قوته من القلب، فإذا جيء بالحجج والبراهين لجأ إلى المراوغة والمهاترة ،فيقول لمناظره مثلاً : إنك جاهل لا يعتد برأيك، أو إنك مضطرب الرأي لا ثبات لك ، تقول اليوم غير ما قلت بالأمس ، وهناك يقول له الناس : رويداً، لا تخلط في كلامك ، ولا ترواغ في مناظرتك ، ولا شأن لك بعلم صاحبك أو جهله؛ فإنه يقول شيئاً ، فإن كان صحيحاً فسلم به ، أو باطلاً فبين لنا وجه بطلانه.

وهبه قولاً لا تعلم قائله ، ولا شأن لك باضطراب صاحبه وثباته ، فربما كان

بالأمس على رأي تبين له خطؤه اليوم، والمرء يخطئ مرة ويصيب.

فإذا ضاق بمناظره وبالناس ذرعاً فرَّ إلى أضعف الوسائل وأوهنها، فَسَبَّ مناظره، وشتمه، وذهب في التمثيل به كل مذهب، فيسجل على نفسه الفرار من تلك المعركة، والخذلان في ذلك الميدان.

على أن أكثر الناس متفقون على ما يظنون أنهم مختلفون فيه، فإنَّ لكل شيء جهتين: جهةَ مدحٍ، وجهة ذم، فإما أن تتساويا، أو تكبر إحداهما الأخرى، فإنْ كان الأول فلا معنى للاختلاف، وإن كان الثاني وجب على المختلفين أن يعترف كل منهما لصاحبه ببعض الحق، لا أن يكون كل منهما من سلسلة الخلاف في طرفها الأخير.

كان يقع بين ملك من الملوك ووزيره خلاف في مسائل كثيرة حتى يشتد النزاع بينهما، وحتى لا يسلس أحدهما لصاحبه في طرف مما يخالفه فيه؛ فحضر حوارهما أحد الحكماء في إحدى الليالي وهما يتناظران في المرأة، يعلو بها الملك إلى مصاف الملائكة، ويهبط بها الوزير إلى منزلة الشياطين، ويسرد كل منهما على مذهبه أدلته، فلما علا صوتهما، واشتد لجاجهما خرج ذلك الحكيم، وغاب عن المجلس ساعة، ثم عاد وبين أثوابه لوحٌ على أحد وجهيه صورة فتاة حسناء، وعلى الآخر صورة عجوز شوهاء، فقطع عليهما حديثهما وقال لهما: أحب أن أعرض عليكما هذه الصورة؛ ليعطيني كل منكما رأيه فيها، ثم عرض على الملك صورة الفتاة الحسناء فامتدحها ورجع إلى مكان الوزير، وقد قَلَّبَ اللوح خِلْسَةً من حيث لا يشعر واحد منهما بما يفعل، وعرض عليه صورة

العجوز الشمطاء؛ فاستعاذ بالله من رؤيتها ، وأخذ يذمها ذماً قبيحاً ، فهاج الملك على الوزير ، وأخذ يرميه بالجهل وفساد الذوق ، وقد ظن أنه يذم الصورة التي رآها هو ، فلما عادا إلى مثل ما كانا عليه من الخلاف الشديد استوقفهما الحكيم ، وأراهما اللوح من جهتيه فسكن ثائرهما ، وضحكا ضحكاً كثيراً ، ثم قال لهما : هذا ما أنتما فيه منذ الليلة ، وما أحضرت إليكما هذا اللوح إلا لأضربه لكما مثلاً؛ لتعلما أنكما متفقان في جميع ما كنتما تختلفان فيه لو أنكما تنظران إلى المسائل التي تختلفان فيها من جهتيها ، فشكرا له همته ، وأثنيا على فضله وحكمته ، وانتفعا بحيلته انتفاعاً كثيراً ، فما كانا يختلفان بعد ذلك إلا قليلاً .

عاشراً: مقالات في العلم والتحقيق

٥٢ـ العلم والعقل : للشيخ عبدالقادر المغربي

٥٣ـ الإنسان على الأرض : للعلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور

٥٤ـ عمر الإنسان : للعلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور

٥٥ـ الفلسفة والعلم والدين : للشيخ عبدالباقي سرور نعيم

٥٢ العلم والعقل[1] للشيخ عبدالقادر المغربي

إن الإسلام دين علم وعقل قبل كل شيء؛ فهو قبل أن يكلف أتباعه تحصيل أي غرض من أغراض الدنيا يكلفهم بأن يكونوا عقلاء صحيحي الفهم، ثاقبي الفكر، جيدي البصيرة، يتدبرون الأمور قبل الشروع فيها، ويقلبون وجوه الرأي في مواردها ومصادرها، ومباديها ومصايرها؛ فلا تقع إلا على مقتضى الحق والعدل والمصلحة والواجب؛ كما يكلفهم أن يكونوا علماء عارفين بأسباب المصالح، وطرق المنافع، واقفين على الحقائق الكونية، ملمين بتفاصيل التجارب العملية التي اهتدى إليها البشر في سابق أدوارهم، ومختلف أطوارهم مما يتعلق بتصحيح العقائد والعبادات، وتقويم الأخلاق والملكات، وإتقان أمر المعايش والمعاملات، وترقية شأن الصناعات والتجارات، وتحسين سائر مقومات الحياة.

فالقرآن لما دعا الناس إلى الإسلام، وكلفهم قبول تعليمه وهدايته كان يقيم العقل حكماً بينه وبينهم، ويعجب من انصرافهم عنه، وإهمالهم له، وترك الاستضاءة بنوره؛ فكان يقول وهو يحاجهم: ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ﴾.

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾.

﴿ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾.

---

(1) الحديقة ٨/ ٤٠ ـ ٥٢، عام ١٣٥٠هـ

﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ .

و(الأبصار والألباب): العقول، وقد تكرر(أفلا تعقلون) في القرآن بضع عشرة مرة في صدد التوبيخ والتعجيب.

وكفى بهذا مزية ومنقبة للعقل مذ جُعِل للدين أصلاً ، ولمصالح الدنيا عماداً.

وإنما حرم الخمر في الإسلام؛ خشية أن يسطو على العقل، فيفسده، أو يضعفه.

والعقل مِلاك سعادة الإنسان، وقوام حياته.

أما العلم فالقرآن رفع من شأنه ونوَّه بمنزلته بما لم يسبقه إليه سابق من الكتب السماوية، فقد قال ـ تعالى ـ: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾

بل إذا تدبرنا أول آيات القرآن نزولاً وجدناها تحض على العلم،وترفع من مكانة العلم، وهي قوله ـ تعالى ـ:﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾.

﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ .

فقد نوَّه في الآيتين بشأن القلم والكتابة، والعلم والتعلم.

هذا الشأن من شؤون الحياة ومصالح الدنيا هو أول ما فاجأ به القرآن البشر المخاطبين، وأوقعه في أذهانهم؛ **أفلا يكون معنى ذلك أن الإسلام دين علم**، وأنه لا يرضى للمنتسبين إليه إلا العلم؟

ولا نظن أن كلمة من كلمات القرآن ـ عدا كلمة «الله» ـ تكررت فيه بقدر ما

تكررت فيه كلمة (العلم).

فالإسلام إذاً هو (دين العلم) كما أنه (دين التوحيد).

ولما أراد الله أن يلقن نبيه ﷺ دعاء يدعو به لقنه أن يطلب في دعائه المزيد من العلم إذ قال له: ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾.

والعلم إذا أطلق في لسان الشرع كان المراد به العلم النافع الموصل إلى سعادتي الدنيا والآخرة، ذلك العلم الذي يتعلق بمصالح البشر مباشرة، وله الأثر البيِّن والنفع الظاهر في إتقان تلك المصالح، وإحكام أمرها، وتوثيق عراها.

أما العلوم المبنية على الوهم والتدجيل فإن الشارع لا يقيم لها وزناً.

والعلم لا ينمو في نفس صاحبه إلا بالعمل، والممارسة والتطبيق؛ فإن العمل بالعلم على هذه الصورة يزيده ثباتاً ورسوخاً، ويؤدي إلى انكشاف أمور من ذلك العلم كانت مجهولة، وانفتاح أبواب إلى غوامضه، وأسراره كانت مسدودة.

وهذا الأصل في العلم مما قرره الإسلام أيضاً في جملة ما قرر من الأحكام.

فالعمل بالعلم يتسبب عنه ـ بتيسير الله ـ علم جديد، ومعرفة غضة لم تكن حاصلة من قبل.

قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: «كل وعاء يضيق بما جُعِلَ فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع».

ووعاء العلم هو العقل، ولا جرم أن العقل يتسع وينمو كلما مُدَّ بالعلم وغذِّي بمسائله، ومن كلام جعفر الصادق: «يهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل».

والمسلمون في زمن سلفهم الصالح كانوا على غير ما هم عليه اليوم من أمر العلم والتعلم، وحب الاستطلاع، والحرص على تعرف الحقائق من غير لبس، والجهر بها من دون ما خشية، فلم يكن أحد من الصحابة ولا التابعين يقبل من آخر علماً إلا إذا عقله، وتدبره، وفهم السر فيه، ووجه المصلحة المتأتية عنه، ويقول لراويه انظر يا هذا ماذا تقول، وخف الله، واحذره فيما تروي من النقول.

أما في هذه العصور المتأخرة فقد اختلط الحابل بالنابل، واجترأ الراوي والناقل، وتراكمت على العقول الأبحاث والمسائل، وصار من مقتضى الورع أن يذعن المسلم لكل ما تنقله الرواة، وتتداوله الأفواه، وإن صادم أحياناً أصلاً من أصول الإسلام، ولم يقم عليه دليل ولا برهان.

وهذه الفوضى العلمية التي خالفنا فيها سلفنا الصالح هي من أكبر أسباب انحطاطنا عنهم، وانخزالنا عن مثل مواقفهم، وَفقْدِنا ما كان لهم من عزٍّ وصولة، وملك ودولة، حتى صدق علينا مضمون الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾.

ذكر السيد أمير علي الهندي في كتابه (تاريخ الإسلام) أنه كان يكتب على مدخل كل مدرسة في الأندلس هذه العبارة: «الدنيا تستند على أربع أركان: علم الأفاضل، وعدل الأكابر، ودعاء الصالحين، وجلال الشجعان».

وكما حذَّر الشارع من العلم الوهمي الذي لا ينفع حذَّر من دعاته وحملته، ونبَّه الناس إلى غوائلهم.

وعلماء السوء أنواع: الذين يحللون الحرام ويحرمون الحلال، أو يتخذون

العلم حِبَالة لحظوظهم ومنافعهم الخسيسة أو وسيلة للإضرار بالناس، أو يتعلمون من العلم أوهاماً ينافحون دونها؛ ليستفيدوا من ورائها جاهاً أو حطاماً، وغير هؤلاء ممن اتخذ العلم آلة شر وضر وإفساد.

هؤلاء علماء السوء نعوذ بالله من شؤمهم.

٥٣ الإنسان على الأرض[١] للعلاَّمة محمد الطاهر بن عاشور[٢]

جرى بين التلاميذ في خلال زمان قريب كلام في تقدير عمر نوح ـ عليه السلام ـ فحدا بقلم بعض العلماء المحققين[٣] إلى تبيان الحق، ذلك البحث الذي نشرته مجلة السعادة العظمى في عددها الرابع.

ولقد أجاد في دفعه وأقنع، ولكن أرى بقية تبيان هذه المسألة وتعضيداً للكاتب الأول بالتحقيق النظري، والسنة الطبيعية عادلاً عن توجيه إمكانه بفلتات الطبيعة؛ فإن الطبيعة إذا فلتت في عام أو عامين أو قرن أو قرنين، لا تذهب في فلتتها إلى حدّ آلاف سنة، ثم إن الآية تقضي أنه لبث في قومه تلك المدة، والقوم هم هم بحسب ما يعرف من بقاء قوم الرجل معه، وأنهم الذين استأصلهم الله تعالى بالطوفان، كما داموا على كفرهم والسخرية بشرعة ربهم.

ومن المحال أن تكون هاته كلها فلتات من الطبيعة، ونشر هاته المسائل بعد طيِّها هو الذي قضى علينا أن لا نتركها تلوح وما تلوح، وتناجي بسرها وما تبوح.

ستكون خطة بحثنا هنا في التحقيق: هل منح الإنسان بمائة وعشرين سنة من

---

(١) السعادة العظمى، العدد ٦ ربيع الأنور ١٣٢٢هـ، ص٨٧ـ٩١، وقد كتبها رحمه الله وعمره خمسة وعشرون عاماً.

(٢) سبقت في المجموعة الأولى ترجمة له.

(٣) الشيخ محمد النخلي.

العمر موهبة طبيعية أم جعلية؟ وهل هي هبة قديمة تقارن نشأته أم طارئة على ذلك بحدثان ؟

يثبت علم الجيولوجيا ـ وإن اختلفت آراء أصحابه في طرق الإثبات ـ أن الأرض التي نحن عليها قد مرَّت عليها تقلبات مهولة معجبة في أحقاب طويلة جرَّأَ طولها العلامة «هتون» الجيولجي البركاني الشهير أن يقول «إني لم أجد في بنية العالم أثراً للبداية ولا أملاً بالنهاية» .

وأثبت أن الأرض ما كانت في ابتداء نشأتها في الزمن الأول من الأزمان الكبرى التي تبدلت فيها أطوارها كما هي اليوم ، ولا كانت في الزمن الثالث الذي خلقت فيه الحيوانات والإنسان كما كانت أولاً[1] ولا تكون غداً كما تكون اليوم ، بل هي كأبنائها يَعْتَورها طفولة وشباب ، وفتوة وهرم.

والذي أنبأهم بذلك ما وجدوا في البحث عن أعضاء الحيوان من جثث

---

(١) هذا شيء اصطلحوا عليه أنتجته الفلسفة الجيلوجية والنظر في تكوين الأرض بآثارها طبقاتها ، قسموا أزمان الأرض باعتبار أطوار عظيمة مرَّت على خلقتها إلى أربعة أقسام :

الأول : زمن تكوين الأرضين الأصلية وهي الصخور العرية عن الحفريات «أي المسام التي يمكن أن تبرز نباتاً» .

الثاني : زمن رسوب الأرضين الثانوية المركبة من طفل وفحم وحجارة جيرية ورملية.

الثالث : الذي خلق فيه الحيوان والكائنات العضوية.

الرابع : ما نشأ بعد الاختلاط الطوفاني من نقل الماء أتربة المواضع بعضها إلى بعض وتسمى الأرضين الطوفانية.

كائنات عضوية لا تعرف في كائنات العصر الذي دون فيه تاريخ العلوم، والذي ابتدأ البشر فيه كتابة مشاهداتهم، لا نقول قبل أن يكتب أرسطو كتاب نعت الحيوان، بل قبل أن ينقش سكان وادي النيل على مسلاتهم ونواويسهم صور حيواناتهم المعروفة، وقبل أن يرسمها مصورو قرطاجنة على الفسيفساء[١].

ما أشبه الليلة بالبارحة، لم يزل التاريخ يعضد بعضه بعضاً، قد أثبت العلماء اليوم أن «الكركدن»[٢]قد أخذ ينقطع تناسله منذ مدة، ولا يلبث معنا على الأرض غير زمن قليل حتى يبارحنا ملتحقاً بإخوانه من أصناف الحيوان التي أخنى عليها مرُّ الزمان، فإذا كان اليوم من يتنافس في قرنه يضع الإناء المنحوت منه في مواضع التباهي والفخر فما نحن ببعيد أن نصير نتنافس اقتناء عظامه من طبقات الأرض ومصارع الهلك؛ لنضعها بالمشاهدة العمومية والمكاتب الزولوجية؛ تعليماً لخلفنا، وتصديقاً لسلفنا.

---

(١) هي المسماة اليوم «موزاييك» وهي قطع صغيرة من الحجارة المنحوتة يحصل من التئامها صور وأشكال من تلوين أجزائها اللطيفة.

(٢) وربما قيل الكركند حيوان يسميه العرب الحريش أخذاً من الأحرش، لخشن الظاهر من الحيوان وغيره لأن جلده شديد، وحسبه أنه لا تعمل فيه طعنة ناب الفيل إذا احتدما لخصام، ذكره صاحب القاموس وشدد داله، ونسب تشديد نونه إلى العامة، وذكره في (ح ر ش) من الصحاح ويسمى الحمار الهندي وهو عدو الفيل له قرن على رأسه يفتك به فتكاً شديداً، وله شبه بالفيل في جلده وبعض خرطومه، ولكن له شبه بالحمار؛ من أجل ذلك قيل في الخرافات أنه متولد بين الفيل والفرس، قضى ثقل قرنه عليه أن يكون مطأطئ الرأس لا عن حياء بل عن مكر ودهاء، ويقول البعض إن الحرش غيره، وهو غلط والبعض إنه ضرب منه.

هذه الأطوار التي لحقت كرتنا ، فصرعت أصنافاً من الحيوان شديدة القوى ، ورمتها رمي الملتقف أيدي الزيال والنوى ما نالت من الإنسان ما نالت من غيره ، كأن حيلة البشر قد أنجته من حيث لا يجد حيلة ، وكأن هذا الضعف الذي كان قرينه ـ وإن أضرَّ به عند ملاقاة الضواري ـ فقد نفعه يوم تركه يتعظ بمصارعها ، ويربع في مراتعها ، كما اللين الصوفة حين تدقها المطارق ، وأضرها حين ترمي بها الرياح فجاج المخارق، لكنها نالت منه شيئاً واحداً، هو عدم نسبي، وهو الأخذ من العمد؛ فقد كان البشر في أول العالم يبلغ بعيشه إلى ألف من السنين، دام على ذلك يبسط لها يداً، ثم ينفضُّ عنها وما يبعد أحداً حتى رمى الله هذا العالم بالطوفان الكبير في آخر حياة نوح ـ عليه السلام ـ فذلك كان الطور الرابع للأرض أنهك من قواها ما أنهك، وأبرد من حرارتها ما أبرد، يومئذٍ كتب الله على البشر، كما تقول التوراة، أن لا يعيش أكثر من مائة وعشرين سنة، ولكن التوراة أثبتت أن إبراهيم وإسحاق ويعقوب ومن عاصرهما من ذوي الأسماء قد جاوزوا بآجالهم هذا العمر المكتوب على البشر دام ذلك إلى زمن موسى.

وفي الحقيقة ما كان الطوفان إلا حائلاً للبشر دون العيش المديد، ولكنه ترك بقية تزيد على المائة والعشرين وإن كانت هي الغاية المقصودة غبَّاً على ما تذكر التوراة، ولكن الوصول إلى الغايات في ناموس الكون الذي سنه الله ـ تعالى ـ لا يكون إلاَّ على درج الوصول التدلي هبوطاً والارتقاء صعوداً ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ الأحزاب :٦٢ .

ولقد أفضى ضعف الأرض بالإنسان إلى أن صيَّر عيشه إلى الأجل الموهوب له

بعد النجاة من أهوال الطوفان شيئاً نادراً هو المعدود من فلتات الطبيعة، وما عيش مائة وعشرين سنة اليوم ومائة وثلاثين إلاَّ شيئاً واحداً في الوقوع من الندرة والتعجب الموقع المتطرف.

وقد يعد كثير من العلماء العمر الطبيعي اليوم مائة سنة فقط، وهو المعضود بالتجربة التي هي آخر ملجأ نريد أن نثوب إليه في تحقيق العمر الطبيعي في كل عصر.

قد رأيت أن المائة والعشرين من السنين ما كانت إلا موهبة طبيعية باعتبار زمن معلوم ومبتدأ طور أخير من أطوار الأرض، هو خاتمة الأطوار المزعجة، والانتقالات المهولة.

وأما انتقالها بعد ذلك في مراتب الضعف ومتابعة كل من عليها لها في هذا الانتقال فشيء تدريجي خفي، كما ينتقل الرجل كل يوم إلى وهدة من وهدات السقوط بعد اكتهال، أو انتقال اليافع إلى ربوة من النهوض قبل الفتوة.

واستقراء أحوال عيش الأمم في كل عصر هو معدل العمر الطبيعي فيه.

لاشك أن وراءنا من أخبار العالم أعجب مما رأينا، وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً ﴾ الفرقان: ٣٨.

وكتاب آنسنا صدقه في غير موضع، وآمنّا به في كل عظيم، وبعد أن رأيناه والزمان ينصره في كل آونة، ويصدِّق وعد الله ـ تعالى ـ الذي وعد بقوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ فصلت: **٥٣**، ما كان ينبغي لنا أن نسرع إلى

منابذته لنعق ناعق، أو نخنع فيه إلى سوق سائق، بل نجعله الشهيد وإن تمالأت على غيره الخلائق، وسنجد من معونة الله ـ تعالى ـ وَعِدتِه ما يصوّب أعمالنا إن كنا شبح اليوم أو هامة غد، والله يفتح بصائر المؤمنين إلى مقدرة قدر أمور أدركها منكروها، وعذر فيها بعد الخبرة واشوها.

٥٤ عمر الإنسان[1] للعلاَّمة محمد الطاهر بن عاشور

كتبت في مجلة السعادة في عددها السادس شذرة في عمر الإنسان تحت عنوان «الإنسان على الأرض» جعلتها تعضيداً لمن كتب في عددها الرابع كلمة «عمر الإنسان الطبيعي».

ولكن اتحدت الوجهة واختلف الطريق، فإني عدلت عن اعتبار الفلتات الطبيعية في عمر الإنسان؛ لأني رأيته جواباً على تسليم الأصل الذي بنى عليهم الشاكون شكهم، وإنما أردت البحث في مستند الأصل الذي أصَّلوه أن عمر الإنسان لا يتجاوز المائة والعشرين سنة؛ من أجل ذلك بحثت في المسألة بحثاً فلسفياً ترديدياً؛ ليرى المبصرون أنْ لا دليل من العقل يجعل هذا الحد طبيعياً للبشر، وأنْ ليس المرجع في هاته التحديدات إلاَّ لاستقراء غالب عيش الأمم في كل عصر.

وإذا كان ما حددوه عمراً للإنسان منذ كتب البشر التاريخ، ونشهد أنه قد انحطَّ في عصرنا هذا عن ذلك الحد ـ فلا بِدْعَ أن يكون قبل ذلك أطول، لاسيَّما وقد أثبت العلم يقيناً باختلاف أطوار مرت على الأرض، وأنها كأبنائها يعتورها طفولة وشباب وهرم، ذلك كله بَيَّنَّاه فيما كتبنا أولاً مع بسط وترديد.

ومما زاد بي عدولاً عن اعتبار الفلتة أنَّ الأطباء الذين إليهم المرجع في هذا التحديد يرون أنه لا يمكن أن يتعدى الإنسان ما حدّ له من العمر، بل يتحلل إن بلغه تحللاً، وما بالطبع لا يتخلف ولا يختلف.

---

(١) مجلة السعادة العظمى عدد(٨)، ١٦ربيع الثاني ١٣٢٢هـ، ص١١٩ـ١٢٢.

ولا ينقص من شجاعتنا على هدم هذا الأصل، أن يصادق عليه الشيخ ابن خلدون و الفخر ابن الخطيب ـ رحمهما الله ـ فإنا لا نعلم الأول إلا فيلسوفاً تاريخياً، ولا الثاني إلاَّ رجلاً عالماً له سعة اطلاع على كلام الحكماء لم يخوِّله مرتبة الحكم اليقيني أو يكسبه صوتاً معهم.

وما كان واحد منهما بالفيلسوف الطبيعي، وإنما ذكرا ذلك الكلام في كتابيهما كما تذكر الأصول الموضوعة في كتب العلوم.

ثم أضفتُ إلى ذلك أدلةً ما تصل إلى إيثار اليقين، ولكنها لا تقصر بعد اجتماعها عن أن تكسب الحق قوة، منها: أن الأصل في الفلتات القلةُ، والفلتة ـوإن لم يضعوا لها حداً تقف عنده ـ إلاَّ أنَّ اسمها وحده كافٍ في اعتبار قدرتها كمًّا وكيفاً، ولو كثرت لانقلبت عادة؛ إذ ليس أصلها من الأحكام العقلية التي لا يخرج الشاذ منها عن شذوذه ما بلغت به الكثرة.

وظاهر القرآن والتاريخ يقتضي أن نوحاً ـ عليه السلام ـ عاش هذا الزمن وقومه هم هم، وأنهم الذين عاقبهم الله ـ تعالى ـ بالطوفان ومن الآيات التي تقتضي طبيعة سوقها ذلك قوله ـ تعالى ـ في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُون (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُون (١١٠) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ

مُبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُون (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴾ الشعراء.

وأما احتمال أن المعاقبين خلفهم فشيء بعيد عن سنة الله في الخلق، وإذا كان طول عمر نوح معجزة فمن الضروري أن يقارنها القوم المتحدين بها ليشهدوا بآيات ربهم.

ومن الأمثال التعجبية «الآباء يأكلون الحصرم، والأبناء يضرسون».

ومنها أن الطوفان قد أبرد حرارة الأرض وأنهك قواها، وذلك لنجعل مناسبة لاقترانه بقِصر عمر البشر؛ تصحيحاً للتاريخ العتيق بالإمكان كما تقتضي مدارات هذا الزمان، ولا شك أنه إن أفقد شيئاً عظيماً من حرارة الأرض ـ وحق له أن يفعل ذلك فإنه ما كان وادياً فائضاً أو مطراً وابلاً، ولكنه غمر ماء يعم الأرض كلها إلى قمم أشهق جبالها فماذا ترى مثل هذا الفعل ـ فقد أعدمها شيئاً ما كان ليرجع إليها من بَعْد.

وإذا كان الطوفان قد أتى على جانب عظيم من الأرض فلا بِدْعَ إنْ هو أنهك بعض قواها، وأبرد من حرارتها جزءاً عظيماً تسري أدواؤه إلى كلها، كما يصاب الجسم الواحد في بعض مواضعه فيألم كله، إذا صح عدم عموم الطوفان.

وربما وجدنا الأمم التي لم يصلها على هذا التقدير أطول أعماراً من الأمم التي يسمونها طوفانية.

ومن العجائب التي تنافي ما ينتحله الشيخ ابن خلدون من الفلسفة ، أن تسمعه يسند طول عمر نوح إلى قرانات كوكبية غريبة ، ناسياً أن الكواكب التي اقترنت ما طلعت على نوح وحده ، بل على العالم كله؛ فمن الواجب أن يعيش كل البشر الموجود يومئذ كما عاش نوح حذو النعل بالنعل؛ فلا معجزة ولا خصيصة.

وتأثير الكواكب في بعض الأشخاص دون بعض من تدجيلات الكهان ، التي ما كان ينبغي أن تأخذ مكاناً من عقل الشيخ ابن خلدون حتى يشوه بها كتابه ، ويموه صوابه.

ثم ماذا يصنع في أعمار غير نوح من الأنبياء وغيرهم الذين ذكرتهم التوراة « العهد القديم » وهي الملجأ في التاريخ العتيق « المقدس » .

أنا لا أرى هذا التحديد المنسوب للحكماء إلاَّ شيئاً سرى لهم من قولها في سفر التكوين ص٣٦ : « فقال الرب لا يدين روحي لي الإنسان إلى الأبد لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مائة وعشرين سنة » .

وربما لوَّحْنا فيما كتبنا أولاً إلى الانزواء عن الحكم فيه بعد ما رأينا من ذكرها أعماراً أخرى من الطوفان أطول من الأجل المكتوب.

نعم قد كان نوح أطول ذوي الأسماء التاريخية عمراً حسب ما يؤخذ من الأعمار المسرودة في التوراة ، ولكن ذلك لا يوجب له خاصية ولا يقتضي قراناً أو طالعاً أو جواً خاصاً إنما هي اتفاقية لازمة في كل ما يقال عليه بالتشكيك ، فكل أفراد تشككت في شيء مهما بلغت كثرتها فإن نسبة أقصر أفرادها إلى الذي يليه كنسبة أدناها إلى الذي فوقه ، وتجد نسبة أطول رجل في العالم للذي يليه كنسبة

آخر قصير لأقصر رجل ، وما ذلك لقرانات أو معجزات وإلاَّ لكان لكل صنف قران خاص، وجو خاص إن شئت وطبع خاص، ولعل هذا يشوش الطبيعة ويكثر حركة الكون .

هذا هو المراد من المنع ، ووجه العدول عن التسليم لأصلهم ، حتى نخنع إلى الاعتراف بالفلتة ، والله أعلم بصحة ما نقول .

٥٥ الفلسفة والعلم والدين[1] للشيخ عبدالباقي سرور نعيم

الفلسفة عبارة عن نظريات محدودة تفسر بها ظواهر الكون، وهي مذاهب مختلفة تتجلى فيها شخصية أصحابها، وما كانت قط علماً خاصاً له موضوع وغاية، بل هي في الحقيقة مذاهب تقوم في كثير من نواحيها على الاستنتاج كما تقوم على الظن الشخصي تارة، والرغبة والميل تارة أخرى؛ فنظرياتها ليست وليدة الاستنتاج دائماً، ولا ناشئة عن التفكير المنطقي غالباً، بل كثيراً ما تكون ناتجة عن الميل الشخصي، أو حب المتابعة والتقليد لفيلسوف سابق؛ فالمذهب الجديد يضم بين جوانبه قضايا مسلمة كثيرة، بعضها مأخوذ بالحرف من مذهب سابق، وبعضها قائم على الهوى والميل الشخصي.

ومن أجل ذلك كثرت المذاهب الفلسفية، وتعددت وناقض بعضها بعضاً؛ ذلك بأنها غير قائمة على قواعد متفق عليها، ولا على بَدائِهَ معترفٍ بها، بل قائمةٌ على التقليد تارة، وعلى الهوى والميل تارة أخرى.

ومن هنا كانت المذاهب الفلسفية ضعيفة الأثر في هداية الناس إلى سعادتهم الدنيوية فضلاً عن سعادتهم الدينية.

أما العلم فهو ينقسم إلى قسمين: قسم عملي أنتج الماكينات والآلات والأجهزة، وهذا بالطبيعة قد أنتج تقدماً دنيوياً، وساعد على رقي الحضارة.

والقسم الثاني: هو الفروض التي فرضها العلماء وسموها نظريات العلم،

---

(1) الحديقة ٥/ ١٥٦ ـ ١٦١، عام ١٣٤٩هـ

وهذه قابلة للتغيير والتبديل ، وما وضع منها من مدة قرن لا يبقى منه في القرن التالي إلا نظرية أو نظريتان ، والباقي له قيمة محدودة بالزمان.

لا يمضي على الفروض العلمية جيل أو جيلان حتى تأخذ العقول في وزنها ، والبحث عن قيمتها ، والفحص عن نصيبها من الصحة ومطابقة الواقع.

وينتج من هذا الوزن والبحث أساليب حديثة تكتسح طرق التفكير العتيقة؛ فينتابها التغير، وتخضع لمبادئ مستحدثة؛ فكل قرن له أساليبه وفروضه ، وكل قرن يأتي بتبديل وتغيير في أساليب البحث وفروض العلم.

والجاهل الغبي يظن أن فروض العلم ثابتة لا تتغير، مع أن نظريات القرن السابع عشر قد أتت عليها نظريات القرن الثامن عشر ، وفروض القرن الثامن عشر قد محتها فروض القرن التاسع عشر.

ذلك شأن العلم في سيره ، وتلك سنته في حياته ، لا يبقى منه سوى ما صلح للعمل ، وأصبح ملك المعامل والمصانع.

أما ما في الكتب فهو عرضة للتغير وللتبدل؛ لأن حركة العقل في تقدم ، والفروض ما وجدت إلا لتقنى ، وقد كتبت على أنها فروض لا على أنها حقائق؛ فمن الجهل والظلم للعلم أن نظن أن فروضه ونظرياته حقائق ثابتة لا تقبل النقص.

من هنا يتبين لك أن الحقائق العلمية شيء والنظريات العلمية شيء آخر.

وهنا يأتي سؤال: هل بين العلم والدين تناقض؟ وهل بين الدين والفلسفة تنازع؟ وهل يمكن أن يتآخى العلم مع الدين؟

قبل الإجابة على هذه الأسئلة ينبغي أن يحدد معنى العلم تحديداً تامًّا؛ فإن أرادوا من العلم المعنى الواقعي الحسي الذي أنتج الحضارة فليس بينه وبين الدين تناقض ألبته؛ لأنه عبارة عن تطبيقات تعمل في المعامل، وهذه الأمور لها دخل في إصلاح البشرية وتهذيب الحضارة، وهي بهذا الاعتبار غرض من أغراض الشارع يأمر ويحث عليه؛ فهي من مطالبه، وداخلةٌ في فروض الكفايات؛ فلها نصيب وافر من أوامره وتعاليمه.

أما إن أريد بالعلم تلك الفروض التي يفرضها العلماء وهي قابلة للتغير والتبدل ـ فالأمر يحتاج إلى تفصيل: فتارة تكون تلك الفروض قريبة من المعنى العلمي أي بينها وبين المحسوسات درجة واحدة من الاستنتاج، وهذه لقربها من المحسوسات لا تصادم الدين؛ لأنها تبحث فيما يقرِّب من عمل المعامل، وغايتها ضبط الصور المتعددة، ووضعها تحت نظام كلي بقدر الإمكان.

وتارة تكون باحثة في أصل الكائنات، أو أصل الأنواع كفروض دارون، وهي في الواقع ليست حقائق علمية، بل مذهب فلسفي لا يجوز أن يطلق عليه اسم العلم، وإن ادُّعي فيه ذلك؛ لأن مواد الدليل غير موجودة، بل هو قائم في الحقيقة على قياس التمثيل، وهو لا يفيد إلا ظنًّا ضعيفاً، خصوصاً إن كان قياس الغائب على الشاهد.

وهذا النوع إن وجد فيه ما يصادم الدين، أو يناقضه فلا يضر الدين في شيء؛ لأنه ليس من العلم القائم على الحس والمشاهدة، أي ليس من العلم الواقعي، بل هو محض فرض تُتَخَيَّل له علاقات منتزعة.

أما الفلسفة فلا تضر مخالفتها للدين؛ لأن مذاهبها متباينة متخاذلة، فإذا لم يُتَّفَقْ فيها على مذهب صحيح كانت المذاهب كلها عرضة للخطأ، وإذا كانت عرضة للخطأ لم تكن حسية واقعية فهي تحمل في كيانها عوامل انخذالها ودحضها.

هذا هو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال.

حادي عشر: مقالات في اللغة والأدب

٥٦ طرق الترقي في الكتابة[1] الشيخ محمد الخضر حسين

ليست هذه الصناعة كغيرها من الفنون لها قواعد مضبوطة ومسائل مدونة يتدارسها الكتاب، فتنتهي بهم إلى معرفة إيراد الكلام في معاريض الفصاحة وحسن الاطراد في أنحائها، وإنما هي عبارة عن تنبيهات ترشد إلى الجهات التي تنمو بها قوى التفنن في تصاريف الألفاظ، والتأنق في تحسين هيأتها التأليفية.

ولا نستفيق جهداً ـ إن شاء الله ـ في البحث عن تلك التنبيهات واستقصائها، والإيماء إلى الكيفيات التي ينبغي أن توضع التراكيب في قوالبها؛ عسى أن تبعث تذكرتها في أفئدة نصراء اللغة العربية من أبناء هذا العصر نشاطاً جديداً؛ فيجهدوا أنفسهم عصبة واحدة؛ ليلجوا بنا في حدائق ناضرة، ومروج خَضِرة مما تستبدعه الأنفس، وتلذه الأسماع.

الإجادةُ في وضع الأقاويل أحكم وضع لا يأخذ بناصيتها إلا من كانت له قوةٌ حافظة، وقوة مائزةٌ، وقوة صانعةٌ؛ **فالقوة الحافظة** يستوعب بها الكاتب من مواد اللغة ما يسعه لكل غرض يأخذ في تفصيله وتفهيمه، حتى يكون آمناً مطمئناً من أن يكبوَ لسانه عِيًّاً وفهاهةً عندما يدفع لوصف خيل، أو نظام جيش، أو حالة حصن، أو سلاح، أو معمل أو صورة حرب مثلاً.

والقوة المائزة يمتاز بها ما يحسن من الكلام بالنظر إلى ترصيف كَلِمِهِ، وتآلف

(١) السعادة العظمى ـ عدد٨، ١٦ربيع الثاني ١٣٢٢ المجلد الأول، ص١٥٤ـ١٥٦.

حروفه، بالنسبة إلى المقامات التي يوجه إليه بسياقاته؛ فقد يتفق مِقْولان لشخص واحد، ويكون أحدهما أحسن في نفسه، والآخر أحسن بالنسبة إلى موقعه.

والقوة الصانعة هي التي تتولى العمل في ترتيب الألفاظ والمعاني، والتدرج من بعضها إلى بعض، فَتُصْدِرُها ملتئمة النسج غير متخاذلة النظم، بريئة من التمايز الذي يجعل كل جملة كأنها منحازة بنفسها.

لا تكمل القوة المائزة إلا بالانصباب على مطالعة المنشآت البعيد الغور في بيانها، المنتمية إلى الطرف الأعلى في عذوبة ألفاظها ورشاقة معانيها، وبتوسم ما أُرْسِلِ في طيّها من الاعتبارات المناسبة بذوق جيّد ومَهَلٍ في النظر؛ فمعرفة الفنون البلاغية وحدها غير كافية لاستواء هذه القوة واستحكامها؛ فقد نجد في المتضلّعين من قوانينها الخبيرين بِلُحْمَتِها وسُدَاها مَنْ لا يفرِّق بين الأقاويل المتفاوتة في بلاغتها وصفاء ديباجتها، وإن ارتفع بعضها فوق بعض درجات.

ولا تبلغ القوة الصانعة مبلغ التمكن وسرعة الترسل إلا بعد ارتياضها بالتمرين، والاستخدام في كل غرض تحقق عليه إرادتها في أزمنة متوالية.

ومما يربط بالأسف والتحسر على قلب كل مسلم أينع في صدره غُصْن الغيرة على اللغة الفصحى ـ أنك ترى في الذين أوسعوا العلوم الأدبية خبرةً، وساروا في التطلع على الإنشاءات الرفيعة عَنَقَاً فسيحاً [1]، حتى أدركوا مغامزها، وأشرفوا

---

(١) هذا تضمين لقول الشاعر في الشاهد النحوي:

يا ناق سيري عنقاً فسيحاً إلى سليمان فتستريحا

والشيخ الخضر رحمه الله إمام في الاقتباس والتضمين.

على ما وراء أَكَماتها ـ يعجز عن التصرف في صوغ فقرات تَلُمُّ شقاقاً، أو تؤكد إخاءاً مثلاً؛ ذلك لفقده القوة الصانعة، التي لا يقيم صلبها إلا الإدمان على العمل، وهو القاعدة التي يجري عليه كل تقدم وارتقاء.

ومن الطرق التي تنهض بالكاتب في زمن يسير، وتساعد قوته الصانعة على الإجابة في طرفة عين، وتطبع في صحيفتها مَلَكَةَ الهجوم على المعاني وبثِّها في ألفاظ رصينة غير متوعرة ـ انحيازه إلى دَرَيٍّ بشعاب هذه الصناعة يقف به على المنافذ التي يسري منها الخلل إلى التآليف، ويبصره بالمذاهب التي ارتقت من نحوها التحارير الفائقة.

ولقد قال أئمة الصناعة الشعرية: لا تجد شاعراً إلا وقد لزم شاعراً آخر المدة الطويلة، وتَعَلَّم منه قوانين النظم، واستفاد منه الدَّرَبة في أنحاء التصاريف البلاغية؛ فقد كان كثَيِّر أخذ علم الشعر عن جميل، وأخذه جميل عن هدبة ابن خشرم، وأخذه هدبةُ عن بشر بن أبي خازم، وكان الحطيئة قد أخذ علم الشعر عن زهير، وأخذه زهير عن أوس بن حجر، وكذلك جميع شعراء العرب المجيدين، والشِّعر والكتابة أخوان.

٥٧ اللغة والأمة[1] للأستاذ محمد صادق عنبر

اللغة من الأمة كالقلب من الجسم: كلاهما ألطف شيء وأدقه، وكلاهما لا تكون بدونه الحياة.

وما من أمة خلعت دهراً لبسته، فخرجت بذلك من ماضيها، وطفقت تعمل لحاضرها وتمهد لمستقبلها ـ إلا كانت لغتها معقداً لهذه الأطراف الثلاثة من التاريخ؛ ذلك أن اللغة من مُشَخصات الأمة الناطقة بها؛ فما فرَّطت أمة في جانب لغتها إلا كان ذلك إيذاناً بفدح مصابها، أو إيذاناً بوشك ذهابها، بل ليس هذا التفريط إلا انقطاعاً من سلك التاريخ، وما انقطعت أمة من سِلْكه إلا جهلته، فكان مَثَلُها مثلَ الرقيق الذي يألف من فقدان حريته أن يجهل حريته إذا مَلَكَ أمرَه؛ فهو إن لم يجد مالكاً يسخره كرهاً سخَّر نفسه طوعاً على أن يؤجر بمساك حياته؛ إذ تكون حريته مادة في معدته بعد أن كانت معنى روحانياً في فطرته.

أجل، إن اللغة وِصْلةٌ بين غابر وحاضر؛ فإذا ضاعت لغةُ أمةٍ انقطعت أواصر النسب بين السلف والخلف، وفقدت الأمة بفقدان لغتها سجلها الحي؛ فالتوى لسانها الناطق، وسكن قلبها الخافق، وفي بعض ذلك كل الموت.

وأنت ألست ترى إذا ذهبت توازن بين أخطار الأمم أن أهونها على الدهر خطراً هي التي جهلت لغتها، وما لغتها إلا لسان تاريخها؛ فلم تعد ترتبط من الزمان بصلة، وكان من الهيِّن على من يشاء أن يستلحقها وهان عليها ـ أيضاً ـ

---

(1) الحديقة ٥/ ١٠٨ ـ ١١١، عام ١٣٤٩هـ

أن تلتحق بكل تاريخ كما يلحق الخادم بكل من يستخدمه لا يميز بين سيد وسيد إلا بمقدار الأجر الذي يبيع به كرامته، ويشتري به مهانته.

وهل تفرق بين أمة بليَ فيها لسانها، وأمة غابرة بليت عليها أكفانها، وكلتا الأمتين ميتة، إلا بأن الأولى لم يُشَقَّ لها قبر!

ألا إن اللغة تَرِكةُ الماضي، وغنى الحاضر، وميراث المستقبل، وهذه الثلاثة الأزمنة هي كل أعمار الأمم في التاريخ؛ فما أرى إذا أضاعت أمة لغتها بأي شيء يشار إليها، وبأي دلالة يُدَلُّ عليها، ولا أعرف إذا لم تتميز جنسية أمة بلغتها أي حد يفصل بينها وبين غيرها من الأمم.

ولقد علمنا أن لكل أمة شاهداً من لغتها على ما فطرت عليه من دِين، ودوّن لها من تاريخ، وعرف عنها من نسب ومدنية وفنون، ففقدان أمة لهذه الثورة المعنوية اعتراف منها بسفاهتها، وبأنها في حاجة إلى القوَّام.

ولقد أراق الكتَّابُ كثيراً من المداد في بيان أن اللغة هي الأساس الذي يقام عليه بنيان الوحدة في كل جنس، وأنها هي الصلة الحسية بين المتكلمين بها أفراداً، وصورة الحياة الاجتماعية عندهم تركيباً؛ وكفى في الدلالة على ما بين اللغة والأمة من علاقة وثيقة أنك لا تجد أمة في مكان من العزة مكين إلا حيث تجد لغة أهلها قائمة السلطان على الألسنة، ولا تجد لغة عرضة لغائلة الحوادث إلا حيث تجد أمة عرضة لعوادي المقادير.

ألا إن اللسان من حيث هو مضغة مرآة للصحة، ومن حيث هو لغة مرآة للأمة؛ فأخلق بأمة تُسلم لغتها للفناء أن نقرأ عليها منذ الآن قصائد التأبين والرثاء.

٥٨ البيان[١] للأديب مصطفى صادق الرافعي

لا وجُودَ للمقالة البيانية إلا في المعاني التي اشتملتْ عليها يُقيمها الكاتبُ على حُدود ويديرها على طريقة، مُصيباً بألفاظه مواقعَ الشعور، مثِيْراً بها مكامنَ الخيال، آخذاً بوزن، تاركاً بوزن؛ لتأخذَ النفس كما يشاء وتترك.

ونقلُ حقائق الدنيا نقلاً صحيحاً إلى الكتابة أو الشعر هو انتزاعها من الحياة في أسلوب وإظهارها للحياة في أسلوب آخرَ يكون أوفى وأدقَّ وأجملَ؛ لوضعه كلَّ شيءٍ في خاصِّ معناه، وكشْفِه حقائقَ الدنيا كَشْفَةً تحت ظاهرها الملْتبس، وتلك هي الصناعة الفنية الكاملة، تستدرك النقص؛ فتتمه، وتتناول السرَّ؛ فتُعلنه، وتلمس المقيَّد؛ فتُطلقُه، وتأخذ المطلقَ؛ فتحُدُّه، وتكشف الجمال؛ فتظهره، وترفع الحياة درجةً في المعنى، وتجعل الكلامَ كأنه وجد لنفسه عقلاً يعيش به.

فالكاتبُ الحقُّ لا يكتب ليكتب، ولكنَّه أداة في يد[٢] القوة المصوِّرة لهذا الوجود، تُصوِّرُ به شيئاً من أعمالها فنّاً من التصوير، الحكمةُ الغامضةُ تريده على التفسير، تفسيرِ الحقيقة، والخطأ الظاهر يريده على التبيين، تبيينِ الصواب، والفوضى المائجةُ تسأله الإقرار، إقرارَ التناسب، وما وراء الحياة، يتخذ من فكره صلةً بالحياة، والدنيا كلها تنتقل فيه مرحلةً نفسيةً لتعلوَ به أو تنزل، ومن ذلك لا يُخلق المُلْهم أبداً إلا وفيه أعصابه الكهربائية، وله في قلبه

(١) وحي القلم ١/١٥

(٢) لعلها: في يده (م)

الرقيقِ مواضعُ مهيَّأة للاحتراق تنفذ إليها الأشعةُ الروحانية، وتتساقط منها المعاني.

وإذا اختير الكاتب لرسالة ما، شعر بقوة تفرض نفسَها عليه، منها سِنادُ رأيه، ومنها إقامةُ برهانه، ومنها جمال ما يأتي به، فيكون إنساناً لأعماله وأعمالها جميعاً، له بنفسه وجودٌ ولد بها وجودٌ آخر، ومن ثَمَّ يُصبح عالَماً بعناصره للخير أو الشر كما يوجَّه، ويُلقى فيه مثلُ السر الذي يُلقى في الشجرة لإخراج ثمرها بعمل طبيعي يُرى سهلاً كلَّ السهل حين يتمُّ، ولكنه صعبٌ أيُّ صعب حين يبدأ.

هذه القوة هي التي تجعل اللفظة المُفْرَدَةَ في ذهنه معنىً تاماً، وتحول الجملة القصيرة إلى قصة، وتنتهي باللمحة السريعة إلى كشف عن حقيقة، وهي تخرجه من حكم أشياء ليَحكُمَ عليها، وتُدخله في حكم أشياء غيرها لتحكم عليه، وهي هي التي تميز طريقته وأسلوبَه، وكما خُلقَ الكونُ من الإشعاع تضع الإشعاعَ في بيانه.

ولابد من البيان في الطبائع الملْهمة ليتَّسع به التَّصرف؛ إذ الحقائقُ أسمى وأدقُّ من أن تُعرفَ بيقين الحاسة أو تنحصر في إدراكها، فلو حُدَّت الحقيقة لما بقيت حقيقة، ولو تلبَّسَ الملائكةُ بهذا اللحم والدم لبطل أن يكونوا ملائكة، ومن ثَمَّ فكثرة الصور البيانية الجميلة، للحقيقة الجميلة هي كل ما يمكن أو يتَسَنَّى من طريقة تعريفها للإنسانية.

وأي بيان في خُضرة الربيع عند الحيوان من آكِلِ العُشب إلا بيانُ الصورة

الواحدة في معدته؟ غير أن صور الربيع في البيان الإنساني على اختلاف الأرض والأمم، تكاد تكون بعدد أزهاره، ويكاد الندى يُنضِّرها حسناً كما يُنضره.

ولهذا ستبقى كل حقيقة من الحقائق الكبرى ـ كالإيمان والجمال، والحب، والخير والحق ـ ستبقى محتاجةً في كل عصر إلى كتابة جديدة من أذهان جديدة.

وفي الكتَّاب الفضلاء باحثون مفكرون تأتي ألفاظُهم ومعانيهم فنّاً عقليّاً غايتُه صحةُ الأداء وسلامةُ النَّسق، فيكونُ البيانُ في كلامهم على نَدْرَة كوَخْزِ الخُضرة في الشجرة اليابسة هنا وهنا، ولكن الفن البياني يرتفع على ذلك بأن غايته قوةُ الأداء مع الصحة، وسموُّ التعبير مع الدقة، وإبداعُ الصورة زائداً جمالَ الصورة، أولئك في الكتابة كالطير له جناحٌ يجري به ويَدِفُّ ولا يطير، وهؤلاء كالطير الآخر له جناح يطير به ويجري.

ولو كتب الفريقان في معنى واحد لرأيتَ المنطقَ في أحد الأسلوبين وكأنه يقول: أنا هنا في معان وألفاظ، وترى الإلهام في الأسلوب الآخر يُطالعُكَ أنه هنا في جلال وجمال وصور وألوان.

ودورةُ العبارة الفنية في نفس الكاتب دورةُ خلق وتركيب، تخرج بها الألفاظ أكبرَ مما هي، كأنها شبَّتْ في نفسه شباباً، وأقوى مما هي، كأنما كسَبَتْ من روحه قوة، وأدلَّ مما هي، كأنما زاد فيها بصناعته زيادة، فالكاتب العلمي تمرُّ اللغةُ منه في ذاكرة وتخرج كما دخلت عليها طابعُ واضعيها.

ولكنها من الكاتب البياني تمر في مصنع وتخرج عليها طابعُه هو، أولئك أزاحوا اللغةَ عن مرتبة سامية، وهؤلاء علوا بها إلى أسمى مراتبها، وأنت مع

الأولين بالفكر، ولا شيء إلا الفكرُ والنظرُ والحكم، غير أنك مع ذي الحاسة البيانية لا تكون إلا بمجموع ما فيك من قوة الفكر والخيال والإحساس والعاطفة والرأي.

وللكتابة التامة المفيدة مثلُ الوجهين في خلْق الناس؛ ففي كل الوجوه تركيبٌ تامٌّ تقوم به منفعة الحياة، ولكن الوجهَ المنفردَ يجمع إلى تمام الخلْق جمالَ الخُلُق، ويزيد على منفعة الحياة لذة الحياة، وهو لذلك، وبذلك، يُرى، ويُؤْثَر ويُعشق.

وربما عابوا السمو الأدبيَّ بأنه قليل، ولكنَّ الخيرَ كذلك، وبأنه مخالف، ولكن الحقَّ كذلك، وبأنه محيِّر، ولكن الحسن كذلك، وبأنه كثير التكاليف، ولكن الحرية كذلك.

إن لم يكن البحرُ فلا تنتظر اللؤلؤ، وإن لم يكن النجمُ فلا تنتظر الشعاع، وإن لم تكن شجرةُ الورد فلا تنتظر الورد، وإن لم يكن الكاتبُ البيانيُّ فلا تنتظر الأدب.

٥٩ قوة التخيل وأثرها في العلم والشعر والصناعة والتربية[(١)]

للعلامة الشيخ: محمد الخضر حسين

في النفس قوة تحفظ الأشياء بعد غيبتها، وتجدد إحساس الإنسان للصورة المودعة في هذه القوة، تسمى تصوراً أو تخيلاً.

ولِتَجَدُّدِ إحساس الصور المسمّى تخيلاً أو تصوراً، أسبابٌ، وأكثر هذه الأسباب عملاً في النفوس، المماثلة، ويليه التضاد، ثم الوحدة المكانية، ثم الوحدة الزمانية.

والتماثل أن يكون بين الشيئين تشابه في بعض الوجوه المحسوسة أو المعقولة، فمن رأى الماء الصافي تذكر المرآة الصقيلة، ومن رأى القمر تذكر طلق المحيا، ومن رأى النرجس تذكر العيون، ومن جلس إلى كاذب تذكر مسيلمة الكذاب، ومن سمع أن معتوهاً ادّعى أنه نبي أو أن باطنياً حرف آيات الذكر الحكيم عن مواضعها تذكر زعيم طائفة القاديانية، أو زعيم طائفة البهائية.

وانظر إلى أبي الإصبع، كيف يخطر في باله ريق المرأة وثغرها فيذكر ما بين العذيب وبارق، ويخطر في باله قدها، ومدامعها تجري لفراقها، فيذكر مَجَرَّ الرماح، ومجرى الخيل، أخبر بذلك في قوله:

إذا الوهم أبدا لي لماها وثغرها ... تذكرت ما بين العذيب وبارق

---

(١) مجلة الهداية الإسلامية عدد ٦، مجلد ٨، الصادر في شهر المحرم ١٣٥٥هـ، وانظر كتاب: هدى ونور للشيخ الخضر عناية الأستاذ علي الرضا الحسيني ص١٣٣ ـ ١٣٧.

ويذكرني من قدها ومدامعي مجر عوالينا ومجرى السوابق

والتضاد أن يتنافى الشيئان بحيث لا يجتمعان في محل، كالسرور والحزن، والضحك والبكاء، والشجاعة والجبن، والإخلاص والرياء، فإذا خطر في البال أمر تبعه ضده، فمن حضر في ذهنه الشتاء تذكر المصيف، ومن وقع في خاطره التقوى انتقل إلى معنى الفسوق، ومن هذا الباب ترى شخصاً، فتذكر خصمه المبين، وترى آخر في بلاء، فتذكر العافية، ولهذا عدَّ علماء البلاغة التضاد من علاقات المجاز.

والوحدة المكانية أن تحس الشيئين في مكان، وإن اختلف الإحساس، كأن ترى شخصاً في مكان صباحاً، وترى شخصاً آخر في المكان نفسه مساءاً، فمن كثرت مشاهدته لشخصين في مكان، ثم رأى أحدهما حضرت في ذهنه صورة الآخر.

ويتصل بهذا أن يجري ذكر الواقعة، فينتقل ذهنك إلى مكانها، أو تشاهد المكان فيحضر في ذهنك صورة الواقعة، ومما يجري على هذا قول ابن الرومي:

وحبّب أوطان الرجال إليهم مآرب قضاها الشباب هنالك

إذا ذكروا أوطانهم ذكَّرَتْهُمُ عهودَ الصبا فيها فحنوا لذلك

والوحدة الزمانية أن تحس الشيئين في زمن واحدة، فإذا وقع بصر الإنسان على شيئين في وقت واحد، ثم رأى أحدهما بعدُ تذكر الآخر، بل إذا حدَّث عن شخصين في وقت واحد حتى ارتسم لكل منهما صورة في قوة الحافظة، ثم رأى أحدهما أو جرى ذكره في المجلس حضر في ذهنه صورة الشخص الآخر.

ويدخل في هذا الباب تذكر الأسباب عند ذكر مسبباتها، أو تذكر المسببات عند أسبابها، كتذكر النار عند ذكر الحرارة، أو الدخان، وتذكر الأجنحة عند ذكر الطيران، وتذكر الأمة وسعادتها عندما يطرق سمعك كلمة الاستقلال، ولهذا عدّ علماء البلاغة من علاقات المجاز السببية والمسببية.

ومما ينبهك على أن اقتران الشيئين في الزمان يجعل حضور أحدهما داعياً إلى حضور صورة الآخر قول الخنساء:

يذكرني طلوع الشمس صخراً وأذكره بكل مغيب شمس

فإنها تذكره عند طلوع الشمس؛ لأنها كانت تراه وقت الطلوع في مظهر الشجاعة والتهيؤ للغزو، وتذكره عند مغيب الشمس؛ لأن وقت المغيب وقت توارد الضيوف عليه، وإطعامه الطعام في الغالب.

وتسلسل الأفكار يتكون من هذه الروابط؛ ذلك أنك تنتقل من صورة أمر إلى صورة أخرى، ومن هذه الصورة إلى غيرها، وهكذا يذهب بك التخيل من الأمر إلى ما يناسبه، حتى تضع سلسلة حلقاتها تلك الصور المتماثلة أو المتضادة أو المحسوسة في زمان أو مكان واحد.

فإذا شاهدت مصادفة ثلجاً على شجرة حول رمل، وفي منتهى الرمل بحر ـ فقد يخطر ببالك الثلج في وقت آخر، فتنتقل منه إلى الشجرة، ومن الشجر إلى الرمل، ومن الرمل إلى البحر.

ولو كنت شاهدت في البحر سفينة لكنت تنتقل من الرمل إلى البحر، ومن البحر إلى السفينة.

ولو شاهدت الثلج مركوماً في الشارع، والشارع محاط بمبان ذات نوافذ مفتحة ـ لكان لك عندما يذكر الثلج سلسلة أفكار، حلقاتها الثلج والشارع والجدران والنوافذ المفتحة.

ولو اتفق لك أن كنت شاهدت في زمن آخر نوافذ يشرف منها وجوه بيض، لانتقلت من النوافذ إلى الوجوه البيض، ومن الوجوه البيض إلى الوجوه السود، ثم إلى البلاد التي يكثر فيها الوجوه السود، فتصل هذه السلسلة في التخيل للسلسلة الأولى.

فالفكر يتسلسل بحسب المناسبة بين الصورة وما يقع الانتقال منها إليه، وقد يتحد الشخصان في بعض حلقات التفكير؛ لتوافقها في أسباب ارتباط هذه الحلقات، ثم يفترقان في غيرها من الحلقات فتضع مخيلة كل منهما سلسلة غير السلسلة التي تضعها مخيلة الآخر.

ومثال هذا أن يجري في حضرة المولع بالخمر، والقائم على أدوات الطعام ذكر الكأس، فينتقل المولع بالخمر من الكأس إلى الخمر، ويذهب متنقلاً فيما يتبع الخمر من لهو وفسوق.

أما القائم على أدوات الطعام، فإنه ينتقل من الكأس إلى الملعقة، إلى الشوكة، إلى الطبق، إلى المنديل، حتى يضع سلسلةً من هذه الأدوات وما يتصل بها غير السلسلة التي صنعتها مخيلة المولع بشرب الخمر.

وتسلسل الأفكار يكون على قدر ما تحتويه الحافظة من صور الأشياء؛ فأفكار البدو لا يطول تسلسلها، لعدم كثرة ما تحتويه حافظته من الصور، بخلاف

الناشئ أو المتردد على مدينة امتلأت بمظاهر العمران والزينة؛ فإنه يطول تسلسل أفكاره، وتجد مخيلتُهُ مسارح بعيدة المدى.

فالناس يتفاضلون في التخيل على قدر تفاوتهم فيما وقع إلى قواهم الحافظة من الصور، ويتفاضلون في التخيل ـ أيضاً ـ من جهة قوة الانتباه لما بين الأشياء من المناسبات.

فالناشئ في مدينة كبيرة يفوق في التخيل الناشئ في بداوة أو ما يشبه البداوة، وما ذلك إلا لكثرة ما يجده في حافظته من الصور المساعدة له على تأليف المعاني الجيدة.

وإذا وجدت رجلين يعيشان في بيئة واحدة منذ المنشأة، ورأيت في أحدهما براعة في نحو الشعر والصناعة قد فاق بها صاحبه ـ فإن وجه فضله عليه من جهة قوة الانتباه لما بين صور الأشياء من المناسبات.

وقد يكون بين الشيئين ما يقتضي اقترانهما في الذهن، ولكن النفس قد تحس أحدهما ويشغلها عن الانتقال إلى الأمر الآخر ـ ما في ذلك الأمر الذي أحسته من معنى يجلب اهتماماً شديداً من حزن أو سرور.

وانظر إلى الشاعر حين أراد التنبيه على أن ذكر حبيبه لا يفارقه قط، كيف أخبر أنه يذكره في أشد حال من شأن الإنسان أن يذهل فيه عن كل غائب، فقال:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل   مني وسيف الهند يقطر من دمي

ثم إن المخيلة قد تنتقل من صورة إلى أخرى غير قصد إلى غرض، ومن غير أن تكون تحت رعاية العقل، فتسمى مخيلة آلية، وقد يكون انتقالها صادراً عن

إرادة ومحاطاً بانتباه، وهذا قد يكون الغرض منه الوصول إلى إدراك حقيقته، فتسمى مخيلة علمية، وقد يكون الغرض منه الوصول إلى تأليف صور من المعاني جديدة، فتسمى مخيلة إبداعية.

فالمخيلة الآلية هي التي تسير دون قصد إلى جهة خاصة أو غرض معين، كأن يحصل للإنسان استغراق في التخيل، ويذهب متنقلاً من معنى إلى آخر، ويجول في جملة من صور الاشياء التي عرفها في الماضي من غير انتظام ولا قصد إلى استنتاج.

ومن المرائي المنامية ما يرجع إلى عمل هذه المخيلة؛ حيث يزول الانتباه ولا يبقى للإرادة سلطان، فتجري المخيلة طلقة من غير عنان، فتعرض على النفس صوراً غريبة أو لذيذة أو مؤلمة.

ومن المرائي ما هو إلهام إلهي، كما ثبت قي نصوص الشريعة القاطعة، ودلت عليه التجارب الصحيحة.

والمخيلة العلمية هي التي تتوجه بإرادة صاحبها، وتعمل تحت مراقبة قوته العاقلة، فتنتقل من صورة إلى أخرى تناسبها، حتى تجتمع في الذهن صور يحصل من ترتيبها على قانون المنطق إدراك حقيقتة كانت خافية.

ويقول المتحدثون عن العالم (نيوتن) إن مخيلته العلمية قد انتقلت به من مشاهدة تفاحة قد سقطت على الأرض وانساقت إلى النظر في قانون الجاذبية.

والمخيلة الإبداعية يتمكن بها الشخص من إحداث صور غريبة إما محسوسة كما يفعل الصانع الماهر، أو معنوية كما يفعل الشاعر المجيد، فالصانع يفسح

المجال لمخيلته، فتنطلق في صور ما شاهده من الأشياء ويساعد ذوقه على أن ينتقي من تلك الصور ما يركب منه صور جديدة.

وكذلك الشاعر يبعث مخيلته فيما عنده من صور الأشياء، وما زال على صورة بعد أخرى حتى يجتمع عنده ما يمكنه أن يركب منه صورة معنى لا عهد للأذهان به من قبل.

أما أثر التخيل في التربية فإنك إذا لقنت الناشئ الأخلاق الحميدة، والأعمال الصالحة، وذكرت له ما يترتب عليها من خير وسعادة ـ وجدته لا يذكر تلك الأخلاق والأعمال إلا وقد حضر في ذهنه ما يقع عَقِبَها من الخير والسعادة، فينهض لها بقوة، وهذا شأنه حين تذكر له السير القبيحة، وتبين له ما يتصل بها من عواقب تعود عليه بالضرر والتهلكة؛ فإنه لا يخطر بباله شيء من الخلق الرذيل أو العمل القبيح إلا وقد حضر في ذهنه ما يعقبه من ضرر، فيدعوه ذلك إلى الكف عنه.

ولا ريب أن من لم يلقن فوائد الآداب الفاضلة والأعمال الصالحة ويكون خالي الذهن مما يترتب على الأعمال المكروهة من فساد ـ تجده يذكر الفعلة القبيحة، فلا ينتقل ذهنه إلى شيء يردعه عنها، فيأتيها إجابة لداعي الشهوة.

ومتى كان تعليم الأخلاق وتقويم السير من جهة الدين رأيت الناشئ يذكر جلال الله في كل وقت يهم فيه بأمر نهى عنه ذو الجلال، وفي ذلك عصمة أي عصمة.

ثاني عشر: مقالات في السيرة النبوية

٦٠ قدوتنا الأعظم[1] للعلامة محب الدين الخطيب

في ضميري دائماً صوت النبي
آمراً: جاهدْ، وكابدْ، واتعبِ!
صائحاً: غالبْ، وطالبْ، وادأبِ
صارخاً: كن أبداً حرًّاً أبيّ
كن سواء ما اختفى وما علن
كن قويًّاً بالضمير والبدن
كن عزيزاً بالعشير والوطن
كن عظيماً في الشعوب والزمن

مصطفى صادق الرافعي

كلما خارت قواي وظننت أن الاستسلام للتيار أجدى؛ رجعت بروحي وعقلي إلى سيرة القدوة الأعظم ﷺ فوقفت وقفة الخشوع والإجلال تجاه سنين من حياته الشريفة قضاها في معالجة أخلاق قومه العرب، وإعدادهم لحمل مَشْعَلِ الفضيلة والهدى، والسير به في أقطار الدنيا.

وما هي إلا سنوات قلائل حتى كانت دعوة الإسلام أعز دعوة تتحرك به الألسنة، وحتى كانت الشعوب تتجرد من عقائدها وعباداتها، بل من ألسنتها

(1) الحديقة ١٠/ ٩٠ ـ ٩٦، عام ١٣٥٣هـ

وعاداتها؛ لتدخل تحت لواء الإسلام، وتنادي بكلمة «حي على الفلاح!» في آفاق جديدة من آفاق الأرض.

كان من أول ما اشتهيت أن أعرفه ـ يوم دخلت مكة ـ جبل حراء الذي خوطب عليه سيد الخلق ﷺ بوحي الحق جل سلطانه، ودار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي التي كانت مُخْتَبَأَ النبي ﷺ وأصحابه إلى أن بلغوا أربعين، فكان منهم صفُّ الجهاد الأول في سبيل إعلاء كلمة الله ـعز وجلـ.

وقفت من جبل النور على قُلَّة شامخة زَلُوج [1]، وأرسلت بصري في الآفاق، فإذا جبال خالية من الناس بعيدة عن ضوضائهم، مستريحة من دسائسهم وشرورهم، أمرها الله أن تكون فكانت، ولا تزال على ما أمرها الله به من غير تبديل أو تعديل إلى أن يأمرها الله بالزوال فتزول.

وتشرفت بدخول الغار المبارك، ثم خلوت بنفسي بعيداً عن أصحابي أتأمل كيف أن روح خاتم الأنبياء، وسيد أولي العزم كانت من السعة بحيث ترجو الله أن تعم كلمة «لا إله إلا الله» جميع أقطار الدنيا، وأن تعلو أرواح سكان تلك الأقطار من حضيض العبودية للبشر أوالجمادات إلى مستوى التوحيد الخالص الذي لا يليق بعقولِ البشر ونفوسِهم غيره، وأن تتحول أمم الأرض عن خرافاتها وأكاذيبها وخساساتها وحِيَلِها، فتكون بالإسلام أمة صدق ورحمة، وإيثار وعمل، وجهاد وإصلاح.

في هذا الغار هبط الوحي الإلهي على قلب عبد الله ورسوله محمد ﷺ ومن

---

(1) القُلَّة: القِمَّة، وقوله: شامخة زلوج: أي مرتفعة زلقة (م).

هذا الغار انتشر نور الهدى ، فاستنارت به قلوب أمم لا عِداد لها ، وسيدخل هذا النور قلب كل ابن أنثى إذا استطاعت أمة محمد ﷺ أن تتأسى به ، وتصغي إلى صوته فيما أمر به من معروف ، وما نهى عنه من فساد.

ودخلت دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي الواقعة على يسار الصاعد إلى الصفا ، فقلت في نفسي : لو شاء الله أن يُلَيِّن لدعوة عبده محمد قلوب أهل الأرض جميعاً لأجابوا نداءه في بضع سنين ، بل في ليال قلائل ، ولكنه دَرْسٌ من سيرة سيد الخلق ﷺ يجب على كل مسلم أن يتعلمه ، **فيعلم منه أن الحصاد لا يستحقه إلا الذي زرع ، وأن النتائج لا يحصل عليها إلا من قام بمقدماتها.**

وويل لمن يتقاعس عن الدعوة إلى الخير بحجة أن أهل هذا الزمان يصدون عن الاستجابة لها ، وهو يتجاهل أن ما لقيه قدوتنا الأعظم ﷺ من العقبات في سبيل دعوته لا يُعَدُّ ما يلقاه دعاة هذا الزمان في جانبه شيئاً مذكوراً.

ألا فليحاسب ورثة الأنبياء أنفسهم ، وليقولوا لنا : ما هو الأذى الذي لقوه في سبيل كلمة الله ، وما هو البذل الذي بذلوه لإعلاء كلمة الله ، وأيُّ خُلُقٍ من أخلاق محمد ﷺ وأصحابه تخلقوا به؛ ليكونوا مثالاً حسناً للإسلام يُغْرِي الأغيارَ بالإقبال عليه ، والإذعان له؟

لم تسئ أمة إلى تاريخها ، ولم تعْشَ أبصار شعب عن سيرة عظمائه كما أسأنا نحن إلى تاريخنا ، وكما عميت أبصارنا وبصائرنا عن مواقف العظمة في سيرة نبيناﷺ وحياة أكابر المهتدين بهديه من الصحابة والأئمة والمجاهدين.

ولعل هذه الثُّغْرة في سور قلعتنا أوسعُ مكان تسرَّبَ إلينا منه الضعف ، وأصابنا

منه الوهن والانحلال.

نشكو إدبار النصر عنا، ولا نحب أن يمر ببالنا شبح المسؤولية التي تتوجه علينا من هذا الجانب.

نذكر بالفخر والإعجاب انتشار الإسلام في الصدر الأول انتشاراً يكاد يكون معجزة، وإذا قال لنا إنكليزي مسلم كالمستر مَرْ مَدْيُوك بِكْتول: إن انتشار الإسلام بمثل تلك السرعة ممكن إذا دعوتم إليه بسيرتكم وأخلاقكم ـ رجونا أن ينتهي كلامه بسرعة؛ ونهضنا معاهدين الشيطان على أن نبقى عند حسن ظنه فينا.

كلنا نقول: إن محمداً ﷺ هو قدوتنا الأعظم، وكلنا نقرأ في كتاب الله ـ عز وجل ـ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ وكلنا نعلم أن الموانع الواقفة اليوم في سبيل القرآن لا تعد شيئاً مذكوراً في جانب الموانع التي كانت واقفة في سبيله يوم كان محمد ﷺ وأصحابه يجتمعون في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي عند الصفا يعاهدون الله على الثبات حتى النهاية.

وأقرب ما نقارن به بين حال اليوم وحال الأمس أننا الآن خمسمائة مليون يتلون القرآن؛ وأنهم كانوا يومئذ أقل من أربعين...

ولكن أين الأخلاق؟!

٦١ من إلهامات الهجرة[(١)] للعلامة محب الدين الخطيب

في الإسلام ظاهرة يمتاز بها على غيره من الأديان التي تموج أقطار الأرض بأتباعها؛ فأهل الديانات الأخرى ينحصر معنى الدين عندهم في العقيدة والعبادة، فإذا ضُمنتا لهم في أي نظام لهم من أنظمة الحكم اكتفوا بهما، وأذعنوا إلى ذلك النظام مهما كان، ولا يعرفون دينهم إلا ساعة الاجتماع في المعابد.

أما الإسلام، فكما أنه دين عقيدة وعبادة، فإنه يشمل ـ أيضاً ـ الآداب في المنازل والمجتمعات، والتعاون بين الأفراد والجماعات، ويتناول العقود والمصالح والالتزامات، وتتسع دائرته فتحيط بنظام الحكم كله.

والمسلمون لا يعتبرون أنفسهم عائشين في بلد إسلامي إلا إذا ساد نظام الإسلام بلدهم، وقامت فيه أحكامه وآدابه، كما تقوم فيه شعائره، وتسود عقائده.

وإذا تعذر على المسلمين إقامة أحكام دينهم، وتأييد أنظمته الاجتماعية، وآدابه الخلقية والبيتية ـ وجب عليهم الانتقال إلى البلد الذي يعمل فيه بأحكام الإسلام وآدابه؛ تكثيراً لسواد المسلمين، وإعزازاً لأمر الدين، واستعداداً لنصره وتأييده في العالمين.

وإذا لم يكن للمسلمين بلد تتوافر فيه هذه الشروط وجب عليهم أن يتجمعوا في بقعة صالحة يقيمون فيها نظام الإسلام تامًّا كاملاً، ويتعاونون على حماية

---

(١) مع الرعيل الأول ص٤٢ ـ ٤٧.

دعوته، واتخاذ الأسباب والوسائل؛ لتحقيق رسالة الإسلام كما جاء بها صاحبها ـ صلوات الله عليه ـ وكما فهمها منه أصحابه والتابعون لهم بإحسان.

هذه هي حكمة الهجرة، وهذا هو الباعث عليها، والداعي لها.

فالإسلام يجب أن يكون له وطن تقام فيه معاني الإسلام كلها، ويُعمل فيه بأحكامه وأنظمته في دواوين الدولة، ومرافق الأمة، ومعاملات الأفراد، وآداب البيوت، بقدر ما يعمل فيه بشعائر العبادات، وبقدر ما تُحمى فيه حقائق العقيدة التي لا يكون الإسلام إسلاماً إلا بها.

وقد غفل عن هذه الظاهرة من أمر الإسلام بعض الذين دخلوا فيه على عهد رسول الله ﷺ فلبثوا في وطنهم مكة مستضعفين بها لا يستطيعون إعلاء كلمة الله؛ لغلبة الباطل يومئذ على الحق، ولا يهاجرون منها إلى المدينة، فيقوى بهم الإسلام؛ فنزل فيهم قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ـ أي بعد إقامة دينهم في بلدهم، وتخلفهم عن نصره وتأييده في دار هجرته ـقَالُوا فِيمَ كُنتُمْ؟ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا: أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا؟ فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾.

وهذه الآية نزلت في قوم أسلموا، وكانوا يؤدون صلواتهم على النهج الشرعي في منازلهم أو في الحرم إن استطاعوا، وكانوا صحيحي العقيدة، وغير مقصرين في العبادة، إلا أنهم كانوا سبب ضعف للإسلام، بإذعانهم لنظام غير نظامه، وإحجامهم عن تقوية الإسلام في وطنه ودار هجرته.

ولما كان الإسلام دين يسر، ومن مبادئه أن تقدر الضرورات بقدرها، وأن

يعذر أهلها ـ كان من تمام الآيات السالفة قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَال وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَان لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وكَانَ اللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً (٩٩) وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً ـ أي مذهباً ومتحولاً ـ كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾.

إن النفس الإسلامية يريد لها الإسلام أن تعيش في جو من النظام والحكم يسهِّل لها فهم هداية الإسلام، ويحبب لها العمل بهذه الهداية في كل ضروب من ضروب الحياة، وتتوافر فيه حرية الدعوة إلى كل ما ينشده الإسلام من حقيقة وخير، فيتيسر القيام بها جهاراً في جميع أحوال الفرد المسلم والجماعة الإسلامية، ويكون فيه للحق قوة تقمع كل من يصد عن ذلك، أو يحول بين المسلمين وبين الدعوة إلى هدايتهم، والعمل بها في بيوتهم، وأسواقهم، وأنديتهم، ومجتمعاتهم.

فإذا نشأت النفس الإسلامية ونمت تحت جناح نظام يقيم أحكام الإسلام، ويحمي دعوته، ويحمل الأمة على آدابه ـ كانت هذه النفس قوة للإسلام تعمل على رفعته وتوسيع دائرته، غصناً في دوحة الإسلام تزهر وتورق وتثمر في جناته.

أما إذا نشأت ونمت تحت جناح يخالف الإسلام، ويخذل دعوته ولا يربي الأمة على آدابه ـ فإن قوتها تكون معطلة عن تأييد الإسلام، وتعميم هدايته.

إن الهجرة المحمدية من ديار الشرك إلى دار النصرة قد مضت بأهلها، ولكن الهداية المحمدية لا تزال في أمانة المسلمين، وهي في عصرنا أحوج ما كانت إلى تفكير المسلمين في صيانتها، والتماسهم الأسباب لازدهارها وتعميم العمل بها.

لما هاجر النبي ﷺ بأصحابه من ديار الشرك إلى دار النصرة، كان للإسلام ـ على قلة أهله يومئذ ـ قوة بتلك القلة من أهله لا نكون صادقين لو زعمنا أن عندنا للإسلام مثلها اليوم مع كثرتنا واتساع آفاق أوطاننا.

فإذا كانت الهجرة مضت بأهلها فإن القوة التي توخاها النبي ﷺ للإسلام بالهجرة لا تزال أنظمة الإسلام وآدابه وأهدافه مفتقرةً اليومَ إلى مثلها، بل هي اليوم أشد افتقاراً إلى مثل تلك القوة مما كانت في زمن الهجرة.

نحن محتاجون اليوم ـ من معاني الهجرة وأهدافها وحكمتها ـ إلى أن ننخلع في بيوتنا عن الآداب التي تخالف الإسلام، وأن نعيد إلى هذه البيوت الصدق، والصراحة، والنبل، والاستقامة، والاعتدال، والمحبة، والتعاون على الخير.

فالبيت الإسلامي وطن إسلامي، بل هو دولة إسلامية.

وقبل أن أتبجح؛ فأنتقد ما خرج عن دائرتي من بيئات لا يفيدها انتقادي شيئاً يجب عليَّ أن أبدأ بمملكتي التي هي بيتي، فأهاجر أنا ومن فيه من زوجة وبنات وبنين إلى ما يحبه الله من الصدق، هاربين من الكذب الذي يكرهه الله ويلعن أهله في صريح كتابه.

ويجب أن أنخلع أنا وأهل بيتي من رذيلتي الإفراط والتفريط؛ فنكون معتدلين في كل شيء؛ لأن الاعتدال ميزان الإسلام.

ويجب أن نحب أنظمة الإسلام وآدابه محبة تمازج دماءنا، فنتحرى هذه الأنظمة في أخلاقنا، وأحوالنا، وتصرفاتنا، ومعاملة بعضنا لبعض هاجرين كل ما خالفها مما اقتبسناه عن الأغيار، وخذلنا به مقاصد الإسلام، فضيعنا أغراضه الجوهرية.

إذا تربينا في بيوتنا على محبة الأنظمة الإسلامية، وتأصل ذلك في أذواقنا وميولنا، وتعودنا العمل به في مختلف ضروب الحياة ـ فشا العمل به حينئذ من البيوت إلى الأسواق، والأندية، والمجتمعات، ودواوين الحكم، ولا يلبث الوطن كله بعد عشرات قليلة من السنين أن يتحول من وطن عاص لله إلى وطن مطيع لله، ومن وطن تسود فيه الأنظمة التي يسخطها الله إلى وطن تسود فيه الأنظمة التي أمر بها الله.

نحتفل بذكرى الهجرة في كل سنة، ونتكلم فيها عن الماضي ولا ننتفع بها في الحاضر.

ولو أننا فهمنا الحكمة التي انطوت عليها حادثة الهجرة، وعلمنا أن كتاب الله الذي نتلوه قد أنحى باللائمة على جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا في مكة يصلون ويصومون ولكنهم ارتضوا البقاء تحت أنظمة تخالف الإسلام، فلا قوة لهم على تغييرها، ولم يهاجروا إلى قلعة الإسلام ليكونوا من جنودها المتحفزين لتغيير تلك الأنظمة ـ لعلمنا أن الإسلام لا يكتفي من أهله بالصلاة والصوم، بل يريد منهم مع ذلك أن يقيموا أنظمته، وآدابه في بيوتهم، وأسواقهم، وأنديتهم، ومجامعهم، ودواوين حكمهم، وأن عليهم أن يتوسلوا

بجميع الوسائل لتحقيق هذا الغرض الإسلامي بادئين من البيت، وملاحظين ذلك في تربية من تحت أماناتهم من بنات وبنين، ومتعاونين عليه مع كل من ينشد للإسلام الرفعة والازدهار من إخوانهم، حتى إذا عمَّ هذا الإصلاح أرجاء واسعة تلاشت تحت أشعته ظلمات الباطل، فكان لهذا الأسلوب من أساليب الهجرة مثل الآثار التي كانت لهجرة النبي ﷺ وأصحابه الأولين.

روى مسلم في كتاب الأمارة من صحيحه عن أبي عثمان النهدي أن مجاشع ابن مسعود السلمي قال: جئت بأخي (أبي معبد) إلى رسول الله ﷺ بعد الفتح فقلت: يا رسول الله بايعه على الهجرة، فقال ﷺ: «قد مضت الهجرة بأهلها».

قال مجاشع: فبأي شيء تبايعه؟ قال: «على الإسلام، والجهاد، والخير».

قال أبو عثمان النهدي: فلقيت أبا معبد فأخبرته بقول مجاشع، فقال: صدق.

وفي كتب السنن وبعضه في الصحيحين عن عبدالله بن عمرو بن العاص وفضالة بن عبيد بن ناقد الأنصاري أن النبي ﷺ قال: «المهاجر من هجر السيئات».

وفي حديث عبيد بن عمير عن عمرو بن عبسة، وفي حديث عبدالله بن عمير عن أبيه عن جده، أنه قيل لرسول الله ﷺ: «... فما أفضل الهجرة؟ قال: من هجر ما حرم الله».

وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل (٦ : ٢١) من حديث فضالة بن عبيد بن ناقد أن النبي ﷺ قال في حجة الوداع: «ألا أخبركم بالمؤمن؟ من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم؟ من سلم الناس من لسانه ويده، والمجاهد؟ من

جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر؟ من هجر الخطايا والذنوب».

فإلى الهجرة أيها المسلمون...

إلى هجر الخطايا، والذنوب، في أعمالنا، وأخلاقنا، وتصرفاتنا.

إلى هجر ما يخالف أنظمة الإسلام في بيوتنا، وما نقوم به من أعمالنا.

إلى هجر الضعف، والعطالة، والإهمال، والسرف، والكذب، والرياء، ووضع الأشياء في غير مواضعها.

إلى هجر الأنانية، والصغائر، والسفاسف مما أراد نبي الرحمة أن يطهر منه نفوس أمته حتى تكون خير أمة أخرجت للناس كما أراد الله لها.

وهذا هو الفلاح الذي يدعونا إليه المؤذن خمس مرات في كل يوم عندما يدعونا إلى الوقوف بين يدي الله الكريم.

٦٢

أثر الدعوة المحمدية في الحرية والمساواة[1]

للعلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور

المقام الأول

في الحرية والمساواة في الشريعة الإسلامية

وهو مقام يستدعى شيئاً من الإطالة؛ ليكون الحكم فيه على شيء مضبوط، فلا يظن أحد أن الإسلام دعا إلى الحرية والمساواة على الإطلاق أو على الإجمال؛ لأن هنالك حدوداً دقيقة بعضها محمود وبعضها ضارٌّ مذموم.

الحرية:

لا تجد لفظاً تهواه النفوس، وتهش لسماعه، وتستزيد من الحديث فيه ـ مع أن معظمهم لا يضبط مقدار المراد منه ـ مثلَ لفظِ الحرية.

وما سبب ذلك التعلق العام إلا أن معظم من يسمعون هذا اللفظ، أو ينطقون به يحملونه على محامل يخف محملها في نفوسهم.

فالوقح يحسب الوقاحة حرية، فيخف عنده ما ينكره الناس من وقاحته، والجريء الفاتك ينمي صنيعه إليها، فيجد من ذلك مبرراً لجرأته، ومحب الثورة يعد الحرية مسوغاً لدعوته، والمَفْتون في اعتقاده يدافع الناقمين عليه بأنه حر العقيدة إلى غير هؤلاء.

فيا لله لهذا المعنى الحسن ماذا لقي من المحن، وماذا عُدِل به عن خير سنن؟

---

(1) الهداية الإسلامية، الجزء التاسع والعاشر، المجلد السادس، ربيع الأول وربيع الثاني ١٣٥٣هـ

والتحقيق أن الحرية إنما يُعنى بها السلامةُ من الاستسلام إلى الغير بقدر ما تسمح به الشريعة والأخلاق الفاضلة.

ولقد أصاب الذين اختاروا للتعبير عن هذا المعنى في العربية لفظ الحرية؛ لأن الحرية في كلام العرب ضد الرق، وقد شاع عند العرب أن يلصقوا مَذامَّ الصفات النفسانية بالرق؛ إذ قد عرى العبيد عندهم عن الاهتمام باكتساب الفضائل، وزهدوا في خصال الكمال، قال ابن زيابة:

إنك يا عمر وَتَرْكَ الندى كالعبد إذ قَيَّدَ أجمالَه[١]

ولما استصرخ شداد العبسي ابنه عنترة؛ ليرد غارات عدوهم ـ وكان عنترة ابن أمة كما هو مشهور، وكان أبوه يأبى أن يعده في عداد بنيه بل جعله عبداً له على عادة أهل الجاهلية ـ أجابه عنترة بقوله: «العبد لا يحسن الكر وإنما يحسن الحلاب والصر»[٢].

فقال له شداد «كر وأنت حر».

وبضد ذلك جعلوا الفضائل من سمات الأحرار قال جعفر بن علبة الحارثي:

لا يكشف الغماء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها

وقال الراجز الجاهلي:

لن يُسْلِمَ ابنُ حرةٍ زَميلَه حتى يموت أو يرى سبيله

وقال مخيس بن أرطاة التميمي:

---

(1) فإنه إذا قيَّد جِمَال سيده يرى أنه قد أتم واجبه كله.

(2) الصر: شد ضرع الناقة عند الحلب.

فقلت له تجنب كل شيء يعاب عليك إن الحرَّ حرُّ

قال المبرد: «يعني أن الحر على الأخلاق التي عهدت في الأحرار وكما كنت تعهد». ا.هـ يعني وأنت حر فلا تخالف خلق الأحرار.

حتى لقد احتاج بعض أصحاب الأخلاق الحميدة من عبيدهم إلى إعلان الاختلاف بين حال عبودية شخصه، وكرم نفسه كما قال حية النوبي الملقب بـ: سحيم عبد بني الحسحاس:

إن كنت عبداً فنفسي حرة كرماً أو أسود اللون أني أبيض الخلق

دعوة الإسلام إلى الحرية:

الحرية وصف فطري في البشر؛ فإننا نرى المولود ييفع حرًّا لا يعرف للتقييد شبحاً.

وإذ قد كان الإسلام دين الفطرة كما وصفه الله ـ تعالى ـ بقوله: ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ الروم: ٣٠

فكل ما هو من أصل الفطرة فهو من شعب الإسلام ما لم يمنعه مانع.

ويزيد إعراباً عن كون الحرية من أصول الإسلام قوله ـ تعالى ـ في وصف محمد ﷺ ووصف أتباعه: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ الأعراف: ١٥٧.

فالإصر: هو التكاليف الشاقة، والأغلال: غير الإصر؛ فهي مستعارة للعبودية التي كانوا عليها في الجاهلية وهي عبودية الأصنام وسدنتها، وعبودية الملوك،

وعبودية القادة أصحاب المرابيع[١].

ومما يزيد هذا بيانا قول عمر لعمرو بن العاص في قصة ولده الآتية: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً».

طرأت على الحرية الفطرية وسائل الضغط من القوة والتسلط، فَسَخَّرت الضعيفَ للقوي، والبسيطَ للمحتال وزادت هذا التسخير تمكناً التعاليمُ المضللةُ وهي أساطير الوثنية، والشرك، والكهانة، فجاء محمد ﷺ يضع عنها الأغلال إلى الحد الذي تصير به نفعاً ورحمةً قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ الأنبياء:١٠٧

لا تتحقق حرية تامة في نظام البشر؛ لأن تمام الحرية هو الانخلاع عن جميع القيود، وعن كل مراعاة للغير بأن يعيش المرء عيشة الوحوش، وذلك غير مستطاع إلا فيما تخيَّله الشنفري إذ يقول:

ولي دونكم أهلون سِيْدٌ عَمَلَّسٌ   وأرقط زهلول وعرفاء جيأل[٢]

هم الأهلُ لا مستودع السر ذائع   لديهم ولا الجاني بما دان يعزل

فأما والإنسان مدني بطبع خلقته، محتاج إلى الاتصال ببني نوعه؛ لأنه ضعيف محتاج في قوام أمره إلى التعاون ـ فالحرية المطلقة تنافي مدنيته؛ فتعين أن الحرية المحمودة التي يدعو إليها الإسلام والحكماء هي حرية مقيدة لا محالة.

---

(1) المرابيع: جمع مرباع، وهو ربع الغنيمة كان يأخذه سيد القبيلة حين يُغير بها.

(2) السِيْد: الذئب، والعملس: السريع السير، والأرقط: النمر؛ لأن فيه نقطاً بيضاً وسوداً، والزهلول: الأملس، والعرفاء: الضبع؛ لأن لها عرفاً من الشعر، والجيأل: اسم للضبع.

فلننظر إلى القيود التي دخلت على الحرية في تاريخ الحضارة، فان كانت تحصل منها فائدة للمقيد بها في خاصته أو في حالته الاجتماعية العامة فهي المعبَّر عنها بالشرائع والقوانين، ودخولها على الحرية مقصود منه تعديلها؛ لتكون نافعة غير ضارة.

وإن كانت تلك القيود في فائدة غير المقيد بها لاستغلال حقوق المقيد بها فهي الاستعباد الذي قصد منه، أو آل إلى إفساد الحرية.

مظاهر الحرية:

تتعلق الحرية بالاعتقاد، والقول، والعمل.

فأما **حرية الاعتقاد فقد أسس الإسلام حرية العقيدة بإبطال العقائد الضالة المخالفة لما في نفس الأمر**؛ فان محور تلك العقائد هو إرغام الناس على أن يعتقدوا مالا قبل له بجولان الفكر فيه، أو ما يموه بتخيلات، وتكليف اعتقاد مالا يفهم ينافي الحرية.

فَبَيَّن الإسلامُ الاعتقادَ الحقَّ، ونصبَ الأدلةَ عليه وعلى تفريعه، ودعا الناس إلى الاستنتاج من تلك الأدلة قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يونس: ١٠١.

وقد اختلف الصحابة، وحدث الخلاف في عهدهم ومن بعدهم في مسائل كثيرة كمسألة الإمامة، ومسألة القدر، ومسألة التكفير بالذنب، فلم تكن طائفة ترغم غيرها إلا إذا خرج المخالف عن حد المناظرة إلى المغالبة والإرهاق.

وانقسم المسلمون إلى طوائف مختلفة الاعتقاد من آخذين بما ورد في السنة دون تأويل، وآخذين بذلك مع التأويل، ومن خوارج، وقدرية، وجبرية، ومرجئة، ومعتزلة، وظاهرية، وصوفية؛ فلم يكن أهل حكومة الإسلام يجبرون الناس على اتباع معتقدهم، بل كان الفصل بينهم قائماً على صحة الحجة، وحسن المناظرة إلى أن ظهرت في القرن الثالث مسألة خلق القرآن، وإثبات الكلام النفسي القديم التي أيقظت عين الفتنة، وابتلي فيها أهل السنة ببغداد ومصر، وظهرت بالقيروان مسألة الاستثناء في الإيمان، وهي قول المؤمن: أنا مؤمن إن شاء الله، ومسألة العندية في الإيمان وهي قول المؤمن أنا مؤمن عند الله، وتبعت ذلك فتن تبدو وتخفى، وتلتهب تارة ثم تطفى.

لم يسمح الإسلام بتجاوز حرية الاعتقاد حد المحافظة على دائرة الإيمان والإسلام المفسَّرَين في حديث جبريل الشهير؛ لأن ما تجاوز من حرية الاعتقاد يفضي إلى انحلال الجامعة الإسلامية فلا يكون محموداً.

فالذي يعتقد عقيدة الإسلام ثم يخرج عنه فهو المرتد؛ فارتداده إما أن يكون مع إظهار الحرابة للإسلام وهذا النوع قد حدث زمن النبي ﷺ من نفر من عُكل وعُرينة فحكم فيهم رسول الله بحكم المحارب.

وأما بدون حرابة فقد ارتد نفر آخرون ثم تابوا فقبل رسول الله ﷺ توبتهم.

ثم ارتدت قبائل من العرب بعد وفاة رسول الله ﷺ بإعلان الكفر، أو بجحد وجوب الزكاة، وقد أجمع الصحابة على وجوب قتالهم؛ فكان إجماعهم أصلاً في قتل المرتد مع الاعتضاد له بما رواه معاذ بن جبل وعبد الله بن عباس ـ رضي

الله عنهم ـ أن رسول الله ﷺ قال: «من بدل دينه فاقتلوه»، يعني الإسلام.

وليس هذا الحكم بقادح في أصل حرية الاعتقاد؛ لأن الداخل في الإسلام قد كان على حريته في اعتقاده قبل دخوله فيه، فلما دخل في الإسلام صار غير حرٍّ في خروجه منه؛ لقيام معارض الحرية؛ لأن الارتداد يؤذن بسوء طوية المرتد من قبل؛ فإنه لا يتصور أن يجد بعد إيمانه ديناً آخر أنفذ إلى القلب من الإيمان، فتعين أن يكون دخوله في الإيمان لقصد التجسس، أو لقصد التشويه بالدين في نظر من لم يؤمنوا به؛ ليوهمهم أنه دين لا يستقر متبعه عليه بعد أن يعرفه؛ لأن معظم الناس أغرار تغرهم الظواهر، ولا يغوصون إلى الحقائق.

وكما استدل هرقل على صدق نبوة محمد ﷺ بسؤاله أبا سفيان «هل يرتد أحد من أتباع محمد بغضة لدينه بعد أن يدخل فيه» فأجابه أبو سفيان ـ وهو يومئذ مشرك ـ بأن لا، فقال هرقل: «وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب».

فكذلك يعكس الكائد للإسلام وجه الاستدلال، فيجعل من ارتداد الداخل في الإسلام دليلاً وهميًّا على صحته.

وقد يكون الارتداد لمجرد الاستخفاف والسخرية بالإسلام.

وحرمة الله توجب الذب عن دينه في مثل هذا، على أن عدم المؤاخذة به يفضي إلى انحلال الجامعة كما وقع في ردة العرب لو لم يؤخذوا بالصرامة.

أما حرية الاعتقاد نحو غير الداخلين في الإسلام فلم يحمل الإسلام أهل الملل على تبديل أديانهم، بل اقتنع منهم بالدخول تحت سلطانه، وبدعائهم على الدخول في الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن.

ومعلوم أن الدخول تحت سلطان الإسلام ليس متعلقاً بالاعتقاد ولا بالعمل، ولكنه راجع إلى حفظ أمن دولة الإسلام، إذ الإسلام دينٌ قرينُ دولة؛ فكان من موجباتِ حفظِ بقائه تأمينُه من غوائل الناقمين على ظهوره.

قال بعض العلماء: كان رسول الله ﷺ لا يُكْرِه أحداً على اتباعه، فأبى المشركون إلا أن يقاتلوه فنزل قوله ـ تعالى ـ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ الحج: ٣٩، وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ﴾[١] البقرة: ٢٥٦.

وأما حرية القول فهي أن يجهر المفكر برأيه ويصرح بما يراه صواباً مما يأنس من نفسه أنه يحسن الإصابة فيه[٢]، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ الأنعام: ١٥٢.

ولا شك أن قول العدل قد تكرهه النفوس التي يقمعها الحق؛ ولذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أكبر شعب الإيمان قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾ آل عمران: ١٠٤.

---

(1) اختلف العلماء في المقصود من هذه الآية اختلافاً في إحكامها ونسخها والصحيح أنها محكمة، وأن المقصود منها أنْ لا يجبر غير المسلمين على التدين بالإسلام، ولم يُستثن من ذلك إلا مشركو قريش عند مالك، أو مشركو جميع العرب عند أبي حنيفة والشافعي.

(2) لأن تكلم الإنسان فيما لم يتعاطَ علمه، أو في الأمور التي يدق وجهُ الصواب فيها ليس من الحرية، بل ذلك يُعدُّ من التكلم فيما لا يعني، وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُوْن﴾.

وقال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ آل عمران: ١١٠.

وفي الحديث الصحيح «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان».

فالتغيير باليد خاص بأولي الأمر، وجعل التغيير بالقلب أضعف الإيمان فهو حظ ضعيف، فتعيَّن أن حظ عامة المؤمنين هو تغيير المنكر باللسان.

ومن حرية القول بذل النصيحة قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ العصر.

وفي الحديث الصحيح: «الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم».

وفي حديث جرير بن عبد الله البجلي: «بايعت رسول الله ﷺ على الإسلام فشرط عليَّ «والنصح لكل مسلم» فبايعته على ذلك».

ومن حرية القول حق المراجعة من الضعيف للقوي كمراجعة الابن أباه والمرأة زوجها، وفي حديث عمر بن الخطاب «كنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا قوم تغلبهم نساؤهم؛ فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار، فصخبت عليَّ امرأتي فراجعتني، فأنكرت عليها أن تراجعني قالت: ولِمَ تُنكر عليَّ أن أراجعك فوالله إن أزواج النبي ليراجعنه وقد أخبر عمر بذلك رسول الله ﷺ فأقره».

وقد راجع الصحابة رسول الله ﷺ في أشياء من غير التشريع، من ذلك لما نزل

رسول الله ﷺ بالجيش أدنى ماء من بدر في وقعة بدر قال له الحباب بن المنذر: «أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة»؟

قال رسول الله ﷺ: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة».

فقال: «يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل؛ فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزلَه، ثم نعورَ ما وراءه من القُلُب[1] ثم نبنيَ عليه حوضاً، فنملأَه، فنشربَ ولا يشربوا».

فقال رسول الله ﷺ «لقد أشرت بالرأي».

وقال عمر لرسول الله ﷺ يوم صلح القضية حين رأى عزم رسول الله ﷺ على إجابة شروط قريش: «ألسنا على الحق وعدونا على الباطل فعلام نعطى الدنية في ديننا»

ومن حرية القول حرية العلم والتعليم، ومظهرها في الإسلام في حالين: **الحال الأول:** الأمر ببث العلم بقدر الاستطاعة؛ فقد أمرنا ببث القرآن وتعليمه، وببث الآثار النبوية؛ ففي الحديث الصحيح: «نضَّر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه إلى من ليس بفقيه».

«وفي خطبة حجة الوداع، ليبلغ الشاهد الغائب».

---

(1) نعور بالعين المهملة: أي نفسدها ونسدمها، شبَّه القلب بعيون الناس، فجعل إفسادها كالعور يقال: عور العين وعارها، والقُلُب: جمع قليب وهي البئر القريبة الماء.

وقد أمر الخليفة الثالث بنسخ المصاحف وأرسل بها إلى أقطار الإسلام، وجعل النبي ﷺ يوما في الأسبوع لتعليم النساء، وأُسِّست المكاتب لتعليم الصبيان من عهد أبي بكر أو عمر، ثم قد وردت أحاديث في فضل العبيد والإماء.

ووراء هذا مرتبة أخرى في العلم والتعليم وهي مرتبة الاستنباط في العلم، فقد دعا الإسلام إليها، وأوجبها على من بلغ رتبة المقدرة عليها في الأحكام الشرعية وهي مرتبة الاجتهاد بمراتبه.

قال علماؤنا: إنها من مشمولات أمر الوجوب في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ التغابن:١٦، وغيره من آيات القرآن.

وفي الحديث: «من اجتهد وأصاب فله أجران، ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد».

وأَيَّةُ حريةٍ للعلم أوسع من هذه؛ إذ جعل الأجر على الخطأ؟.

الحال الثاني: تخويل أهل العلم نشر آرائهم ومذاهبهم وتعليمها مع اختلافهم في وجوه العلم، واحتجاج كل فريق لرأيه ومذهبه، وحرصهم على دوام ذلك تطلباً للحق؛ لأن الحق مشاع.

ولقد قال أبو جعفر المنصور للإمام مالك بن أنس: «إني عزمت أن أكتب كتبك هذه ـ يعني الموطأ باعتبار أبوابه ـ نسخاً ثم أبعث إلى كل مصر من الأمصار بنسخة، وآمرهم أن يعملوا بما فيها، ولا يتعدوها إلى غيرها».

فقال مالك: «لا تفعل يا أمير المؤمنين؛ فإن الناس قد سبقت لهم أقاويل،

وسمعوا أحاديث، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم من اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم، وإن ردهم عن ذلك شديد فدع الناس وما هم عليه».

ولقد كان في مدة الدولة العبيدية بالقيروان مذهبان متضادان تمام المضادة في أصول الدين وفروعه وهما مذهب المالكية سكان البلاد، ومذهب الإسماعيلية من الشيعة مذهب أهل الدولة، وكان علماء الفريقين ينشرون كتبهم، ويدرسون مذاهبهم لا يصد أحدهم الآخر.

ثم كان نظير ذلك بمصر في عهد انتقال العبيديين إليها، وتأسيس دولتهم الملقبة بالفاطمية.

وشواهد هذا كثيرة في تاريخ المذاهب.

لم يقتصر الإسلام في بذل حرية العلم على المسلمين، بل منح الحرية لأهل الملل الداخلين في ذمته وسلطانه، وقد كان اليهود في حياة رسول الله ﷺ يدرسون التوراة في المدارس بالمدينة، وجاء رسول الله ﷺ إلى مدارسهم ودعاهم إلى الإسلام كما هو ثابت في الصحيح.

وأما حرية العمل فهي تتعلق بعمل المرء في خُوَيِّصته، وبعمله المرتبط بعمل غيره؛ فحرية العمل في الخويصة مثل تناول المباح والاحتراف بما شاء، ولا يجبر على أن يعمل لغيره إلا إذا تعين عليه عمل من المصالح العامة أو ما فيه حفظ حياء الغير مثل الدفاع عن الحوزة، وحراسة الثغور، وإنقاذ الغريق، وخدمة من تتعين عليه خدمته، وإعطاء الزكاة، ونفقة القرابة.

وكل ذلك يرجع إلى القسم الثاني في الحقيقة.

وكذلك التصرف في المال عدا ما هو محظور شرعاً، إلا إذا طرأ عليه اختلال التصرف من عَتَهٍ أو سفه، وذلك قيد في الحرية؛ لأنها حرية غير ناشئة عن إرادة صحيحة؛ فألغيت لأجل مصلحته ومصلحة عائلته.

وحكم النساء في حرية التصرف مثل الرجال بحسب ما تسمح به حالتهن من انتفاء المفاسد؛ فلهن التصرف في أموالهن إذا كن رشيدات، ولهن إشهاد الشهود في غيبة أزواجهن.

وكل ذلك لا عهد للعرب ولا لأهل الأديان الأخرى بمثله.

ولهن الخروج لقضاء حوائجهن بالمعروف، ولهن حضور الجمعة والجماعة والعيدين وفي الحديث: «ولتخرج العواتق، وربات الخدور، وليشهدن الخيرَ ودعوة المسلمين».

وكانت امرأة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ تخرج إلى صلاة الجماعة وتعرف منه الكراهية فتقول: «والله لأخرجن إلا أن تمنعني فلا يستطيع منعها».

ومعنى كراهته لذلك أنه يود أنها تترك فضيلة الجماعة؛ لما عرف به من شدة الغيرة، ومعنى قولها له: إلا أن تمنعني أي أن تصرح لي بالمنع وهو لا يستطيع ذلك؛ لأنه رأى أنه ليس من حقه عليها، وكان وقافاً عند كتاب الله.

وللمرأة حق مطالبة الزوج بحسن المعاشرة، وطلب عقوبته على ضد ذلك، ويُحكم لها بالطلاق في أحوال معينة، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ (البقرة: ٢٢٨).

وأما حرية العمل المرتبط بعمل الغير فأصله أنه لا يضر بأحد؛ لينتفع غيره،

ولكنه لا يعمل عملاً فيه اعتداء على حق الغير كاحترام الكليات التشريعية، وذلك بالتحقيق من قبيل رعي الحريات المختلفة؛ لأن مرجع أحكام المعاملات إلى حفظ مجموع الحريات.

وكذلك قد تراعى أعمال تجب على المرء لغيره؛ لإقامة المصالح كما تقدم، أو لبث الخير بين الأمة كالإرفاق والمواساة.

حرية العبيد:

سلط الإسلام حقيقة الحرية على حقيقة العبودية؛ قصداً لعلاجها، وإصلاح مزاجها.

إن الرق شيء قديم في المجتمع البشري من قبل التاريخ، وهو أثر تسلط القوي على الضعيف؛ فكان الرقيق معدودينَ كالحيوان يذيقهم سادتهم النكال؛ فلا يرثي لهم أحد، ولا ينتصف لهم قانون، وقد عذب العرب في الجاهلية بعض الرقيق، فعذبت قريش أَمَةً اتهموها بسرقة وشاح جويرية، ثم تبين أن الحدأة اختطفته، ثم ألقته بمكان فكان ذلك سبب إسلام هذه الأمة، وهجرتها إلى المدينة وكانت تقول:

ويومَ الوشاحِ من تعاجيبِ ربِّنا ألا إنَّه من دارةِ الكفرِ نَجَّاني

وقتلت بنو الحسحاس من بني أسد عبدهم سُحيماً الشاعر بتهمة تغزله بابنة سيده.

فمنح الإسلام من الحرية للعبيد ما لم يمنحهم إياه شرع سابق، ابتدأ الإسلام فأبطل معظم أسباب الرق وهي:

١ـ الاسترقاق الاختياري: كان الأب أو الأم أو الولي يبيع قريبه لمن يصيره مملوكاً له، وكان هذا الاسترقاق مشروعاً في الشرائع القديمة، وقد ثبت في شريعة التوراة حسبما في الإصحاح ٢١ من سفر الخروج، والإصحاح ٢٥ من سفر اللاويين.

٢ـ والاسترقاق في الجناية: بأن يحكم على الجاني ببقائه رقيقاً، وقد كان هذا مشروعاً حكاه القرآن في قصة يوسف بمصر ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ إلى قوله: ﴿لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

٣ـ والاسترقاق في الدَّين: وكان مشروعاً عند الرومان أن يأخذ الدائنُ مَدِيْنَهُ إذا عجز عن الدفع فيسترقه، وكذلك كان في شرائع اليونان في عهد سولون الحكيم.

٤ـ والاسترقاق في الفتن والحروب الداخلية: أعني الحروب بين المسلمين فهو ممنوع في الإسلام.

٥ـ واسترقاق السائبة: كما استرقت السيارة من الإسماعيليين يوسف ـ عليه السلام ـ حيث وجدوه في الجب ﴿فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾.

وقد عزز الإسلام ذلك بروافع ترفع حكم الرق وهي كثيرة:

ـ **فمنها**: أن جعل من مصارف أموال المسلمين اشتراء العبيد، وعتقهم، وإعانة المكاتبين بنص قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾.

ـ **ومنها**: أنْ جَعَلَ عتق العبيد من خصال الكفارات الواجبة ككفارة قتل

الخطأ، وتعمد فطر رمضان، والظهار، والحنث.

ـ **ومنها**: أن أمر بمكاتبة العبيد وهي التعاقد معهم على مقدار من المال يؤديه العبد منجَّماً فإذا استوفاه صار حرًّا قال ـ تعالى ـ: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾ النور: ٣٣، حمل كثير من علماء الصحابة ومن بعدهم الأمر في قوله: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ على الوجوب، وحمله الجمهور على الندب.

ـ **ومنها**: أن من أعتق جزءاً من عبده أُجْبِرَ على إكمال عتقه إن كان بقيته له، وإن كان لغيره معه فيه شركة قوّم عليه نصيب شريكه، وألزم الشريك ببيع نصيبه للمعتق بالقيمة، وأعتق جميعه.

ـ **ومنها**: أن من أولد أمته صارت في حكم الحرة بمعنى أنه لا يجوز له بيعها ولا له عليها خدمة ولا استغلال، وتعتق من رأس تركته بعد مماته.

ـ **ومنها**: أن من عاقب عبده عقاباً شديداً، فمثل به أعتق عليه جبراً، أو وجب عليه عتقه دون جبر إذا لم يبلغ حد التمثيل كاللطمة؛ لأن عتقه كفارة الاعتداء عليه كما في الأحاديث الصحيحة وأقوال الأئمة.

ـ **ومنها**: كثرة الترغيب في عتق العبيد والإماء.

ـ **ومنها**: أَنْ جَعل الفقهاءُ دعوى العتق لا يعجِّز مدعيها، ولا يحكم عليه أن لم يجد بَيِّنة ـ بحكم قاطع لدعواه، بل له أن يقوم بها متى وجد بينة.

ولقد استخلص فقهاء الإسلام من استقرائهم لأدلة الشريعة، وتصرفاتها في شأن العبيد قاعدة فقهية جليلة وهي قولهم «**إن الشارع متشوف إلى الحرية**».

ويضاف إلى هذا تأكيد الوصاية بالعبيد، وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ «عبيدكم خَوَلُكم[1] إنما هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم؛ فمن جعل أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه، فإن كلفه فَلْيُعِنْه».

وفي حديث آخر وأحسب أنه موجود في بعض روايات خطبة حجة الوداع «اتقوا الله في العبيد؛ فإن الله ملككم إياهم ولو شاء لملكهم إياكم».

وفي الصحيح نهى رسول الله ﷺ عن أن يقول العبد لمالكه: ربي أو سيدي وليقل: مولاي، ونهى المالك أن يقول: عبدي، وأمتي وليقل: فتاي، وفتاتي، وغلامي.

فإن قال قائل: لماذا لم يبطل الإسلام أصل الاسترقاق، أو يبطل أسباب حدوثه بعد الإسلام فيكون أقطع ليجرثومته[2] وأنفع لتحقيق مقصد الشريعة من التشوف إلى الحرية؟

قلنا: تبين أن الاسترقاق قد بنيت عليه نظم المدنية يومئذ في الخدمة والعمل والزراعة، والفراسة، وأصبح من المتمولات الطائلة، والتجارة الواسعة المسماة بالنخاسة، وانعقدت بسبب ذلك أواصر عظيمة، وهي أواصر الأمومة بين العائلات، وأواصر الولاء في القبائل؛ فإبطاله إدخال اضطراب عظيم على الثروة

---

(1) الخول: بفتح الخاء المعجمة وفتح الواو الذين يتخولون الأمور، ويصلحونها، وهذا الوصف؛ لبيان مزيتهم.

(2) هكذا في الأصل، ولعلها: لجرثومته، أي أصله(م).

العامة، والحياة الاجتماعية بأسرها، على أنه ربما يعرض العبيد إلى الهلاك، والذهاب على وجوههم في الأرض لا يجدون من يؤويهم.

ثم لو أبطل الإسلام أسباب الرق في نظامه لكان ذلك ذريعة إلى جرأة أعدائه من العرب وغيرهم على حربه؛ لأن أعظم ما يتوقعه المحاربون من الهزيمة هو الأسر والسبي، فإذا أمنوا منهما لم يعبئوا بالموت وما دونه، وعبر عن ذلك أبو فراس بنزعته العربية بقوله يخاطب سيف الدولة:

ولكنَّني أختار موت بني أبي ... على سروات الخيل غير موسَّد

وتأبى وآبى أن أموت موسَّدا ... بأيدي الأعادي موت أَكْبَدَ أكْمدِ

وقال النابغة في شأن الأسر والسبي:

حذار على أن لا تنال مقادتي ... ولا نسوتي حتى يمتن حرائرا

سد ذرائع انخرام الحرية:

جرى الإسلام على عادته في التشريع وهي أن يشرع الوسائل، ويؤسس القواعد المفضية إلى مقاصده، ثم يحيطها بسد الذرائع التي قد تتسلل من منافذها مفسدات المقاصد، فتعود على أصولها بالإبطال، وتلك هي المُلَقَّبة في أصول الفقه بسد الذريعة.

وهذه الذرائع إنما تتعلق بالقول والعمل؛ فأوجب الإسلام على المسلم أن يريد بكل قول وعمل وجه الله والإخلاص فيه، وترك الرياء، وسمي الرياء بالشرك الأصغر؛ وذلك ليجتنب الناس حب المحمدة الباطلة؛ فإن حب المحمدة قائد إلى الاستعباد الاختياري، ومانع للحرية؛ لأن الافتتان بحب المحمدة يُحَتِّم

على صاحبه الخوف من الانتقاد، وغضب الجمهور من الذين لا يفقهون مصلحة من غيرها، ولا يميزون بين الحق والباطل، فإذا حمدوا ومجَّدوا أحداً حسبوا فعلهم مزية أنالوها إياه؛ فأصبحوا يمنُّون عليه، ويترقبون منه أن يطيعهم في قضاء ما يشتهون مما يظنونه مصلحة.

والفرض أنهم لا يفقهون؛ فإذا كان ناصحاً أميناً لم يستفزه ذلك إذا علم أن فيه لهم سيئَ العواقب، ولم يغترَّ منهم بتلك الظواهر الكواذب، ولم يَرُقْه السير في عراض المواكب[1].

وقد حكى الله ـ تعالى ـ من مواقف الرسل والناصحين من ذلك كثيراً: فحكى عن موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩)﴾ (الأعراف).

فأما إذا فتنته تلك الظواهر الخلاَّبة، فانتفخ عُجْباً، وخشي انحرافاً منهم وسلباً خَصَّ في إدراك الحقيقة، وخادعهم، وواربهم أضاع مصالحهم، وغلب سفههم على رشده، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ (الأنعام:١٥٢)، وقال: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ (آل عمران:١٤٦).

وقد سقط في هذه المهواة كثير من زعماء الأمم.

---

(1) هذا تضمين لقول الشاعر في الشاهد النحوي:

فأما القتال لا قتال لديكم ... ولكن سيراً في عراض المواكب (م)

وسدَّ ذرائعَ قتل الحرية بالقوة المالية؛ إذ قد يعرض الاستعباد من الحاجة إلى المال، وفي الحديث: «تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة إن أعطي رضي، وإن لم يعط لم يرض».

فلذا أبطل الإسلام الربا؛ لأنه طريق واسع لاستعباد المضطرين، وأبطل عقود الإكراه، وأبطل معظم الشروط التي تشترط على العامل في القراض، والإجارة، والمغارسة، والمساقاة، والمزارعة، وقد أمكن أن تُستخرج قاعدةٌ شرعية لهذه المسائل الممنوعة وهي منع أن يفترص[1] الغني احتياج الفقير إليه، فَيُعْنِتَه لأجل ذلك.

وذرائع فساد حرية القول تكون فيها تقدم، وتكون في حرية العلم بأن نحمل العلماء على تحريف الحقائق؛ لأجل المحمدة الكاذبة، أو لأجل الحصول على مال قليل.

وقد نعى الله ذلك على علماء بني إسرائيل فقال: ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ البقرة: ٧٩.

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ فَلا تَخْشَوْا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ المائدة: ٤٤.

وكان ذلك كله في إرضائهم عامتهم، وحملهم الشريعة على ما يوافق هوى العامة كما أوضحته الآثار وأئمة التفسير.

وتكون ـ أيضاً ـ في حرية القضاء؛ فلذلك حرَّم الإسلام الرشوة، وأوجب

---

(1) يعني يغتنم الفرصة(م).

إجراء أرزاق الحكام وكفايتهم من بيت مال المسلمين بحسب الزمان والمكان.

قال ابن العربي في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنْ الْمَالِ﴾ البقرة: ٢٤٧: «ليس من شرط الخليفة ولا القاضي أن يكون غنيًّا، ولكنه في حكم الإسلام لا يكون إلا غنيًّا؛ لأنه يأخذ ما يكفيه من بيت المال؛ فغناه فيه».

تحصيل:

إذا تبينت ما تقدم من البيان في أنحاء الحرية تَبَيُّنَ الحكيمِ البصير علمت أن الإسلام بذل للأمة من الحرية أوسع ما يمكن بذله في الشريعة جامعةً بين أنواع المصالح بحيث قد بلغ بها حدًّا لو اجتازته لجر اجتيازها إياه إلى اختلال نظام المدنية بين المسلمين، أو بينهم وبين الأمم المرتبطة بهم اختلالاً قويًّا أو قليلاً، وذلك الاختلال قد يفضي إلى نقض أصولها، وامتشاق السيوف؛ لتمزيق إهابها.

ومن القواعد المقررة في الحكمة: أن لا عبرة بوجود يفضي إثباته إلى نفيه.

ومن القواعد في أصول التشريع الإسلامي: أن المناسبة التشريعية لا تعتبر مناسبة إلا إذا كانت غير عائدة على أصلها بالإبطال، وأنها تتخرم إذا لزمها مفسدة راجحة أو مساوية.

وبقول راجح أقول: إن ما يتجاوز الحدود التي حدد الشرع بها امتداد الحرية في الإسلام لا يخلو عن أن يكون سببَ فوضى، وخلعٍ للوازع بين الأمة، أو موجب وهنٍ ووقوع في إشراك غفلة ومهاوي خطل سياسي، وتفصيل ذلك يحتاج إلى تحليل وتطويل لا يُعْوِز صاحب الرأي الأصيل.

المساواة:

نُقَفِّي القول في الحرية ببيان المساواة: المساواة مصدر ساواه إذا كان سواءاً له أي مماثلاً؛ فالسَّواء المِثل.

ولا يتصور تمام المساواة بين شيئين، أو أشياء في البشر؛ لأن أصل الخلقة جاء على تفاوت في الصفات المقصودة ذاتية ونفسية، وذلك التفاوت يؤثر تمايزاً متقارباً، أو متباعداً في أخلاق البشر وآثارهم بتفاوت الحاجة إليهم، وترقب المنافع والمضار من تلقائهم، وذلك يقضي تفاوت معاملة الناس بعضهم لبعض في الاعتبار والجزاء.

فلو دعت شريعة إلى دحض هذه الفروق والمميزات لدعت إلى مالا يستطاع.

وتأبى الطباع على الناقل

فضلاً على ما في ذلك من حمل الناس على إهمال المواهب السامية، وذلك فساد قبيح، والله لا يحب الفساد.

ويكون الاقتراب إلى الفساد يفيد الاقتراب إلى الإفراط في إلغاء المميزات الصالحة، ولا تستقيم شريعة ولا قانون لو جاء بهذا الإلغاء؛ فإن الذين تطرفوا في اعتبار المساواة لا يسيرون طويلاً حتى تجبههم سدود لا يستطيعون اقتحامها كالشيوعيين؛ فقد وقفوا في حدود عجزوا عن تحقيق مبدأ المساواة فيها كمساواة أبكم لفصيح، ومعتوه لذكي.

ومن هذا يتضح القياس، وتظهر المساواة الحقة بين الناس قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ (٢٠)﴾ فاطر،

وقال: ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ الفرقان: ٤٤.

إذن فالمساواة تعتمد توفر شروط وانتفاء موانع؛ فالشريعة التي تبني المساواة على اعتبار الشروط والقيود شريعة مساواتها ضعيفة.

والشريعة التي تبني مساواتها على انتفاء الموانع شريعةٌ مساواتُها واسعةٌ صالحةٌ، ويظهر أن الدعوة الإسلامية بنت قاعدة المساواة على انتفاء الموانع.

وشتان بين قوَّةِ تأثيرِ الشرط وتأثير المانع، والشريعةُ التي لا تقيد المساواة بشيء شريعةٌ مضلِّلَة.

فإذا عددنا المساواة في أصول شريعة الإسلام فإنما نعني بها المماثلة بين الناس في مقاديرَ معلومةٍ، وحقوق مضبوطة من نظام الأمة سواء كان الضبط بكليات ومستثنيات منها أم كان بتعداد مواقع المساواة.

المساواة في الإسلام تتعلق بثلاثة أشياء: الإنصاف، وتنفيذ الشريعة، والأهلية:

الأول: المساواة في الإنصاف بين الناس في المعاملات: وهي المُعَبَّر عنها بالعدل، وهو خصلة جليلة جاءت به جميع الشرائع، وبينت تفاصيله بما يناسب أحوال أتباعها.

وشريعة الإسلام أوسع الشرائع في اعتبار هذه المساواة، ففي خطبة الوداع: «وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول رباً أبدأ به ربا عمي العباس بن عبدالمطلب، وإن دماء الجاهلية موضوعة وإن أول دم أبدأ به دم ابن ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب».

وفي الصحيح: أن الرُّبِّيِّعَ بنت النَّضْر لطمت جارية، فكسرت ثنيَّتها، فطلب أهل الجارية القصاص، فأمر رسول الله ﷺ بالقصاص، فجاء أنس بن النضر أخو الربيع وكان من خاصة الصحابة من الأنصار فقال: يا رسول الله والله لا تكسر ثنية الربيع، فقال رسول الله ﷺ: «كتاب الله القصاص».

ثم إن أهل الجارية رضوا بالأرش.

وقصة الفزاري الذي لطمه جبلة بن الأيهم معروفة[1].

الثانية: المساواة في تنفيذ الشريعة وإقامتها بين الأمة: بحيث تجري أحكامها على وتيرة واحدة ولو فيما ليس فيه حق للغير؛ مثل إقامة الحدود.

وقد سرقت امرأة من بني مخزوم من قريش حليًّاً، فأمر رسول الله ﷺ بإقامة الحد عليها، وعظم ذلك على قريش فقالوا: من يشفع لها عند رسول الله ﷺ؟ فقال قائل: ومن يجترئ عليه غير أسامة بن زيد، فكلموا أسامة، فكلم رسول الله ﷺ في شأنها فغضب رسول الله ﷺ وقال: «أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟ إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق

(1) جَبَلَة بنُ الأَيهم ملك غسان بدمشق أسلم بعد فتح الشام، وسكن المدينة، وحج مع عمر ابن الخطاب، فبينما هو يطوف إذ وطئ رجل من فزارة إزار جبلة فانحل إزاره، فلطمه جبلة، فهشم أنفه وكسر ثناياه؛ فاستعدى الفزاري عمر بن الخطاب على جبلة، فقال عمر لجبلة: إما أن يعفوَ عنك الفزاري وإما أن يقتص منك، فقال جبلة: أيقتص مني وأنا ملك وهو سوقة، قال عمر: شملك وإياه الإسلام؛ فما تفضله إلا بالعافية والتقوى، قال جبلة: ما كنت أظن ألا أكون في الإسلام أعزَّ مني في الجاهلية، قال عمر: دع عنك هذا، فلما رأى جبلة الجد من عمر قال له: أنظر في أمري الليلة، فرحل جبلة بخيله ورواحله ليلاً ولحق بالشام، ثم بالقسطنطينية، فتنصر، وبقي عند قيصر.

فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

أشار كلام رسول الله ﷺ إلى ما كان في الأمم السالفة من التفاضل في إقامة الشريعة، وقد كان ذلك في بني إسرائيل كما ثبت في بعض طرق هذا الحديث في الصحاح، وثبت أن الرومان كانت عقوبات الجنايات المتماثلة تختلف عندهم على حسب اختلاف حالات المجرمين ووسائلهم.

الثالثة: المساواة الأهلية أي في الصُّلوحية للأعمال والمزايا وتناول المنافع بحسب الأهلية لذلك: وهذه قد تكون بين جميع من هم داخلون تحت سلطة الإسلام، وتكون بين المسلمين خاصة، وتكون بين أصناف المسلمين من الرجال أو من الأحرار من النساء.

والأصل في هذه الأهلية في الإسلام هو المساواة بين الداخلين تحت حكم الإسلام كلهم لقوله ﷺ في أهل الذمة: «لهم مالنا وعليهم ما علينا».

ثم المساواة بين المسلمين خاصة في أحكام كثيرة بحكم قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ الحجرات: ١٠.

قد جمع حكمُ الأخوةِ اطرادَ المساواةِ، فدخل الرجال والنساء والأحرار والعبيد إلا فيما دلت الأدلة على تخصيصه بصنف دون آخر لا تخصيصاً اقتضاه حال الفطرة، أو مصلحة عامة.

وفي الحديث: «الناس كأسنان المشط» فلم يقصر المساواة على جنس أو قبيلة، ولم يقدم عربيًّاً على عجمي، ولا أبيض على أسود، ولا صريحاً على

مولى، ولا لصيق، ولا معروف النسب على مجهوله، وفي خطبة حجة الوداع: «أيها الناس، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى».

قد كان تمايز الأجناس أو القبائل في القوانين والشرائع السالفة أصلاً في الأحكام؛ ففي التوراة سفرٌ لِخَصَائصِ اللاويين[1]، وعند الرومان والفرس وبني إسرائيل لم يكن للدخيل في الأمة مثل ما للأصيل، وعند العرب لم يكن للصريح ما للصيق بَلْهَ الغريب عن القبيلة، والإسلام أبطل ذلك.

أَمَّر النبيُّ ﷺ زيدَ بنَ حارثة وهو من موالي قريش، وأَمَّرَ ابنَه أسامة بن زيد على جيش؛ فتكلم في المرتين بعض العرب فخطب رسول الله ﷺ فقال: «إن تطعنوا في إمارته «يعني أسامة» فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبل وأيم الله إن كان «زيد» لخليقاً بالإمارة وإن هذا «أسامة» لمن أحب الناس إليَّ».

فنبه بقوله إن كان لخليقاً بالإمارة على أن الاعتبار بالكفاءة، ونبه بقوله: «لمن أحب الناس إلي» على أنه إنما اكتسب محبة الرسول ﷺ لفضله وكفاءته؛ إذ بذلك تكتسب محبة الرسول ﷺ.

كذلك لم يختص الإسلامُ بالمساواة طبقةً.

وقد كان نظام الطبقات فاشياً بين الأمم؛ فكانت الفرس والروم يعدون الناس أربع طبقات أشرافاً، وأوساطاً، وسفلةً، وعبيداً.

وكان العرب يعدون الناس طبقات ثلاثاً سادةً، وسوقةً، وعبيداً، فكان

---

(1) نسبة إلى لاوي بن يعقوب (م).

الفرس يخصون كل طبقة بخصائص لا تبلغ إليها الطبقة التي هي دونها.

سأل رستم قائد جيوش الفرس في حرب القادسية زهرة بن حوية عن الإسلام فكان من جملة ما قاله زهرة لرستم: «إن الناس بنو آدم إخوة لأب وأم.

فقال رستم: إنه منذ ولي أردشير لم يدع أهل فارس أحداً من السفلة يخرج من عمله، ورأوا أن الذي يخرج من عمله تعدى طوره، وعادى أشرافه.

قال زهرة: نحن خير الناس للناس، فلا نستطيع أن نكون كما تقول، بل نطيع الله في السفلة ولا يضرنا من عصى الله فينا.

وكان العرب يفرقون في الدية بين السادة والسُّوقة وفي الاقتصاص في الدماء، ويسمون ذلك بالتكايل، فَيُقَدَّر دمُ السيدِ أضعافَ دمِ السُّوقة، فجاء الإسلام بإبطال ذلك ففي الحديث: «المسلمون تتكافأ دماؤهم».

ولم يعتبر الإسلام للطبقات أحكاماً في الأهلية للكمال إلا في جعل الناس قسمين أهل الحل والعقد، والرعية؛ فأهل الحل والعقد هم ولاة الأمور، وأهل العلم، ورؤساء الأجناد، فهؤلاء طبقة إسلامية جُعل إليها النظر في إجراء مصالح الأمة، ومن خصائصها: انتخاب الخليفة، كما فعل عبد الرحمن بن عوف في تعيين الخليفة من الستة بعد عمر ـ رضي الله عنهم ـ.

وأما المخالفون في الدين من أتباع حكومة الإسلام فقد منحهم الإسلام مساواة في معظم الحقوق عدا ما روعي لهم فيه احترام شرائعهم فيما بينهم، وعدا بعض الأحكام الراجعة إلى موانع المساواة.

وقد اختلف علماء الإسلام في القصاص بين المسلم والذمي، وجوز العلماءُ

ولايةَ الذمي ولاياتٍ كالكتابة ونحوها.

وقد كان في الأمم الماضية يعد الاختلاف بين الحكومات ورعاياها في الدين حائلاً دون نيل الحقوق، وموجباً للاضطهاد.

وقد قص التاريخ علينا عدة اضطهادات من هذا القبيل كاضطهاد الآشوريين والرومان لليهود، واضطهاد التابعة للنصارى في نجران، وهم أصحاب الأخدود، وتاريخ الإسلام مُبَرَّأ من ذلك.

موانع المساواة:

موانع المساواة في الإسلام كما أشرت إليه في أول مبحثها تكون: جِبِلِّية، وشرعية، واجتماعية، وسياسية؛ فالموانع الجبلية كموانع مساواة المرأة للرجل، فيما لا تستطيع أن تساويه فيه بخلقها؛ مثل قيادة الجيش، والقضاء عند جمهور المسلمين؛ لاحتياج هذه الخطط إلى رباطة الجأش، وكمنع مساواة الرجل للمرأة في كفالة الأبناء الصغار، وفي استحقاق النفقة.

والموانع الشرعية هي المعلولة لعلل أوجبتها، وهي مبينة في مواضعها من كتب الشريعة مثلاً عدم المساواة في إباحة تعدد الأزواج للمرأة، وفي مقدار الميراث، وفي عدد الشهادة، ومثل عدم مساواة العبد للحر في قبول الشهادة، وكذلك أهل الذمة عند من منع قبول شهادتهم، ومن منع القصاص لهم من المسلمين بالقتل.

والموانع الاجتماعية تتعلق غالباً بالأخلاق، وبانتظام الجامعة الإسلامية على أكمل وجه كعدم مساواة الجاهل للعالم في الولايات المشروطة بالعلم كالقضاء والفتوى، وعدم مساواة العطاء بين أهل ديوان الجند، فقد أعطاهم عمر على

حسب السابقية في الإسلام، وحفظ القرآن.

والموانع السياسية هي التي ترجع إلى حفظ حكومة الإسلام، وسد منافذ الوهن أن يصل إليها كمنع مساواة أهل الذمة للمسلمين في الأهلية للولايات التي يمنع منها التدين بغير الإسلام، ومنع مساواتهم للمسلمين في تزوج المسلمات، ومنع مساواة غير القرشيِّ القرشيَّ في الخلافة للوجه الذي نبه إليه أبو بكر ﷺ يوم السقيفة؛ إذ قال: «إن العرب لا تدين لغير هذا الحي من قريش».

قال إمام الحرمين في الإرشاد: «ومن شرائطها ـ أي الخلافة ـ عند أصحابنا أن يكون الإمام من قريش، وهذا مما يخالف فيه بعض الناس وللاحتمال فيه مجال».

المقام الثاني:

أثر الدعوة في الحرية والمساواة بين الأمم غير أتباع الإسلام: أهابت دعوة الإسلام بالأمم، وقد كانوا غافلين مستسلمين، ففتحت أعينهم إلى ما في معاملة سادتهم وكبرائهم إياهم من الاعتداء والغض؛ فأخذ أولئك يقتربون إلى تقويم أَوَدِ جبابرتهم، والطموح إلى إصلاح أحوالهم، وأَخَذَ هؤلاء ينزلون عن صياصي الجبروت، ويخفضون من غلوائهم، فحدثت بذلك يقظة فكرية في العالم.

اخترقت دعوة الإسلام أفكار الحضارة العالمية بطرق شتى: منها تناقل الأخبار، ومنها الجوار، ومنها الدعوة بالكتب النبوية إلى ملوك الأمم المشهورة مثل الفرس، والروم والحبش، والقِبْط، وملوك أطراف بلاد العرب في العراق والشام والبحرين وحضرموت، ومنها: هجرة المسلمين الأولين إلى بلاد الحبشة،

ومنها: الفتوح الإسلامية في بلاد الفرس، والروم، والجلالقة ـ أسبانيا ـ والإفرنج، والصقالبة، والبربر، والهند، والصين.

قد كانت سيادة العالم حين ظهور الدعوة المحمدية منحصرةً في مملكتين الفرس والروم؛ فأما المملكة الفارسية فقد أوهنتها الحروب المادية بين الفرس والروم في زمن سابور الثاني وأبناء قسطنطين الروماني، وأعقبت تلك الحروب تنازعاً مستمرًّاً بين قواد الجيوش الفارسية إلى أن صار المُلك إلى أبرويز بن بهرام الذي أخذ يجدد ملك الدولة الفارسية، وهو الذي كان ملكه في وقت البعثة، وكتب إليه رسول الله ﷺ كتابه المشهور مع عبد الله بن حذافة السهمي.

وأما المملكة الرومانية فقد بلغت من الاختلال في الشرق والغرب أوائل القرن السادس مبلغاً أشرف بها على الفوضى بتنازع قواد الجيوش السلطة، ولم تأخذ في تدارك صلاح أحوالها إلا في زمن هرقل ـ هيرا كليوس ـ.

وقد كان ملكه في عصر البعثة، وهو الذي جرى بينه وبين أبي سفيان المحاورة في شأن الإسلام كما تقدم، وهو الذي كتب إليه رسول الله ﷺ كتابه المشهور مع دحية الكلبي.

فكان لشيوع دعوته ﷺ في بلاد العالم أثران:

الأول: أنها سهلت لكثير من الأمم الدخول في دين الإسلام، أو في حكمه بما شاهدوا من آثار محامد سياسته لرعاياه مع عدم التشويش على أهل الأديان في عقائدهم؛ فتمكنوا بذلك خير تمكن من مخالطة المسلمين في معظم شئون الحياة مخالطةً خَوَّلَتْ لهم مزيد الاطلاع على محاسن الإسلام وتربية أهله، وربما كان

ذلك هو السبب في إسلام كثير من المتدينين مثل نصارى نجران وتغلب وقضاعة وغسان، ومثل يهود اليمن، ومثل مجوس الفرس والبربر، ومثل نصارى القبط والجلالقة والبربر.

ومن لم يدخل منهم في دين الإسلام سهل عليه الدخول في ذمته.

الأثر الثاني: كان مِنْ تناقل تلك الحوادث، ومن تمازج الفرق من الأمة الواحدة، أو من تمازج الأمم سمعة حسنة للإسلام ومعاملته، فكان لتلك السمعة أثر جليل في بقية الممالك التي بقيت خارجة عن حكم الإسلام.

ومن أمثلة ذلك ما تقدم من كلام زهرة بن حوية، وما جرى بين يدي النجاشي من كلام أفصح به جعفر بن أبي طالب عن حقيقة الإسلام ومن جملة ما قال له: «إنا كنا قبل الإسلام يأكل القوي الضعيف».

ومعناه فقد الحرية والمساواة، فصمم النجاشي على حماية المهاجرين من المسلمين، ورد سفراء الإسلام أساليب جديدة في سياسة ممالكهم أفضت إلى تخفيف وطأة الاستبداد، وإلى حصول خير كثير للبشر، وشكلاً جديداً للمدنية كانت عاقبته ما نشاهده اليوم من رقيٍّ إلى معارج سامية؛ فإن للفضائل عدوى سريعة كما قال أبو تمام:

ولو لم يزعني عنك غيرك وازع لأعديتني بالحلم إن العلا تعدى

وحقت كلمة ربك: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء: ١٠٧.

ثالث عشر: مقالات في المشاعر والعواطف الإنسانية

٦٣ تعاون العقل والعاطفة على الخير[1] للعلامة الشيخ محمد الخضر حسين

في النفس قوة النظر والفكر، وذلك ما نسميه بالعقل، وفي النفس قوة الميل إلى الشيء والرغبة فيه، وذلك ما نسميه بالعاطفة؛ فالعقل يدرك حسن الشيء أو قبحه، والعاطفة تجعل النفس محبة له راغبة فيه.

وإذا حدثناكم عن العقل، فإنما نريد العقل السليم، فإن هذا هو العقل الذي يدرك في أغلب أحواله الخير أو الشر على ما هو عليه.

ولا أسْلَمَ من عقل تربى في أحضان الدين الحق، وتغذَّى بلبان حكمته الغرَّاء.

أما العاطفة فقد تتجه إلى ما يألفه العقل، وتسير مع العقل جنباً لجنب، وهي العاطفة الشريفة المحمودة، وقد تتجه إلى ما ينكره العقل، ويكون العقل في وادٍ وهي في واد، وهي العواطف التي نسميها أهواءاً وشهواتٍ جامحةً.

اختلاف العقل والعاطفة

يدرك العقل الخير والشر، ولا سِيَّما عقلاً يزنهما بقسطاس الشريعة العادلة، ولكن العاطفة قد تنصرف عن الخير، وتأخذ بزمام النفس إلى ما هو شر، فتُعَدُّ مناوئة للعقل، خارجة عن سلطانه.

وقد نبه القرآن المجيد لهذا النزاع، وحذَّر من الانحطاط مع العواطف فقال ـتعالىـ: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة:٢١٦.

---

(١) مجلة الهداية الإسلامية، الجزءان الثالث، والرابع من المجلد الرابع عشر ص١٤٨ـ١٥٧.

فالنفوس قد تحب الشيء وحقها أن تكرهه؛ لأنه شر، وقد تنفر منه وحقها أن ترغب فيه؛ لأنه خير.

وينبني على هذا التنبيه أن الإنسان لا ينبذ الشيء لأول ما تنقبض منه العاطفة، ولا يمد إليه يده لأول ما يحس تعلق العاطفة به، بل يرسل فكره في طلب الاستدلال على أنه خير حتى يتعاطاه، أو أنه شر حتى يتحاماه.

يختلف العقل والعاطفة، وإذا تعلقت العاطفة بما أنكره العقل كانت العاطفة هي الخاطئة، ومن جرى في عمله على إرضائها فقد ازدرى العقل، وضل سواء السبيل.

وليس من الممكن أن يدرك العقل الناشئ في مهد العلم الصحيح شيئاً ويذعن له، ثم تخالفه العاطفة، فتميل إلى غير ما أذعن له العقل، ويكون كل منها على هدى.

وقد زعمت طائفة من المناوئين للدين الحق أن قضايا الدين تتقبلها العواطف، وقضايا العلوم تتقبلها العقول، وأن العواطف قد تتقبل أشياء لا تسلمها العقول، ولم يَكْبُر عليهم أن يقولوا: إن قبول العاطفة للقضية الدينية وإنكار العقل لها لا يتنافيان، قالوا هذا حين قصدوا لصرف الناس عن وجهة الدين من طريق المداجاة والمخاتلة، فتسمعهم يقولون لمن أرادوا إغواءه:

إن الدين لا يَلْزَم أن يكون مطابقاً للعلم؛ لأن العلم يجيء من ناحية العقل؛ فنقبله على أنه ثمرة الفكر، وإن الدين نتقبله بقلوبنا وعواطفنا ولا يضره عدم تسليم العقل.

وقد يأتي أولئك المخادعون إلى أشياء قررها الدين وهي في زعمهم مخالفة للعلم، ويتظاهرون بأنهم يؤمنون بما جاء به الدين فيقولون: هذا قرره العلم فنتقبله بعقولنا، وهذا قرره الدين فنتقبله بعواطفنا.

ونحن نفهم أن الدين الحق قد يقرر شيئاً من الأحكام يقصر العقل عن فهم حكمتها، ككون صلاة المغرب ثلاث ركعات، أو يخبر بشيء يعجز العقل أن يقيم الدليل على إثباته كبعض الأخبار الواردة في الجنة أو النار.

ولكنا ننفي نفياً قاطعاً أن يقرر الدين شيئاً فينكره العقل، أي أن العقل يستطيع أن يقيم الدليل المقبول على انتفائه.

فالحقيقة التي نصدع بها موقنين، ونخرج من مقام الدفاع عنها ظافرين هي أن كل ما يقرره الدين لا تجرؤ العقول على إنكاره، إلا عقولاً لا ترجع في إنكارها إلى منطق صحيح.

والذين يريدون استهواء أفراد أو جماعات إلى مذهب زائغ أو عمل فاسد يتجنبون أن يأتوهم من ناحية العقل والمنطق؛ لعلمهم أن العقل والمنطق إنما يقفان بجانب الحق والفضيلة، فتجدونهم يلجأون إلى أن يأتوهم من ناحية العواطف، حتى إذا وجدوها مستعدة لأن تنحدر في طريق غير طريق العقل أخذوا يجاذبونها، ويغذونها بما يزيد في عوجها، حتى تخرج عن سلطان الحكمة، وهذا ما يفعله الدعاة إلى غير هداية، من نحو إعداد مستشفيات أو ملاجئ ينصبونها حبائل؛ لاصطياد الغافلين من المسلمين.

وكذلك يفعل الملاحدة، والإباحيون؛ إذ يتخذون في وسائل إغواء فتياننا

وفتياتنا، وإبعادهم عن حظيرة الدين، فتح باب الشهوات في وجوههم، من نحو استحسان التبرج واختلاط الجنسين، حتى يبلغ بعضهم أن يقول في غير استحياء: إن الدين لا يمنع من اختلاط الفتيان بالفتيات.

وقد حذر بعض الحكماء من الطائفة التي تأتي الناس من ناحية أهوائهم، فقال: أخوك من صدقك، وأتاك من ناحية عقلك لا من ناحية هواك.

والظالمون المستبدون يعملون على هذه الشاكلة؛ حيث لا يجدون من ذوي العقول الراجحة أولياء؛ فيفتشون عمن ينقادون إلى عواطفهم ـ أي أهوائهم ـ دون عقولهم، فيتخذون منهم أعواناً، ويشبعون أطماعهم بالأموال والمناصب وغيرها، من الملاذ المادية.

ولو رجعنا إلى التاريخ لوجدنا أكثر أعوان الظالمين هم من ذوي النفوس التي تجري مع العواطف السافلة، ولا تقيم لنصائح العقول وزناً.

وقد جاء القرآن الكريم إلى عواطفَ شأنها أن تجمح بالإنسان إلى حيف، أو تصده عن القيام بواجبه؛ فحذر من الإفراط في مسايرتها، مثل الأبوة والبنوة والزوجية والصداقة، قال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ التغابن: ١٤.

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ التوبة ٢٤.

ونظر شارع الإسلام إلى عواطف يغلب عليها الخروج عن حد الاعتدال، وبنى الحكم على ما هو الغالب عليها من الإفراط والغلو، كما جعل الأبوة والبنوة والزوجية من وجوه الطعن في الشهادة، فلا تقبل شهادة الابن لأبيه، ولا شهادة الأب لابنه، وإن كانا معروفين بالعدالة؛ ذلك أن عاطفة الأبوة أو البنوة قد تطغى؛ فتقع بصاحبها في شهادة غير صادقة.

وقد يتنازع العقل والعاطفة إرادة الشخص إلى أن يتغلب سلطان أحدهما على سلطان آخر، وكثيراً ما تحذر الشريعة السمحة من الانقياد إلى العاطفة التي تثور على سلطان العقل، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ النور:٢.

فالعقل يتجه إلى ما يوجهه إليه الدين من إنكار السفاح، واستحسان إقامة الحد على مرتكبه، ولكن عاطفة الشفقة قد تهز في القلب، فتجعله ينفر من إجراء العقوبة على الزاني، وهذا ما يحذر منه كتاب الله بقوله: ﴿وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾.

والذين ينكرون بعض ما شرع الله من الحدود كقطع يد السارق، وجلد القاذف ورجم الزاني المحصن ـ لا يرجعون في إنكارهم إلى رَوَيَّةٍ ونظرات في المصالح والمفاسد صحيحة، وإنما أخذوا إلى ما يقولون بعاطفة عمياء، أو ذوق غير سليم.

تقوى العواطف وتضعف، والتغلب على العاطفة القوية دليل قوة البصيرة، وإيثار الفضيلة على الرذيلة؛ فمن يخرج للحرب مثلاً، وقد ترك وراءه رزقاً

واسعاً، وأهلاً يعز عليه فراقهم يفضل من خرج إلى الحرب ولم يترك من ورائه شيئاً يأسف عليه.

وأراد جرير أن يبالغ في مدح قوم بطموحهم إلى أقصى مراقي المجادة، فنبه على أن العواطف التي شأنها أن تصرفهم عن هذه الوجهة لا تنال من عزائمهم شيئاً، حيث قال:

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم دون النساء ولو باتت بأطهار

ونبه آخر على أن عاطفة المحبة لا تشغله عن واجب الدفاع، فقال:

وترانا يوم الكريهة أحرا راً وفي السلم للغواني عبيدا

وإذا كانت الشجاعة درجات فإن هذه الدرجات ترتفع على قدر ما يقاوم الإنسان من العواطف الشخصية، ويرمي بها وراء ظهره.

قال عبد الملك بن مروان لجلسائه: «من أشجع الناس؟ فأكثروا من ذكر الأبطال، فقال لهم: أشجع الناس مصعب بن الزبير، جمع بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين وأمة الحميد بنت عبد الله بن عباس، وولي العراقين، ثم زحف إلى الحرب فبذلت له الأمان والمال والولاية، فأبى أن يقبل ذلك، واطرح كل مشغوف به في ماله وأهله وراء ظهره، وأقبل بسيفه قرماً يقاتل ما بقي سبعة نفر، حتى قتل كريماً».

وعلى هذا المنوال يجري كثير من خصال الحمد كالكرم والإنصاف، قال المتنبي:

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يعدم والإقدام قتال

والمشقة التي تعرض لطالب السيادة هي التعب الذي يلاقيه في مخالفة ميول نفسه، من نحو حب الحياة، والحرص على الاستئثار بالمال، والتوسع في الاستمتاع به.

وشأن الإنسان حب الانتقام ممن ألحق به أذى، فإذا كان للأذى الذي لحقه وجه من حق، وكان الذي ألحق به الأذى على جانب من الفضل كان مدحه له بدل هجائه؛ تقديماً لداعي العقل على العاطفة الجامحة، وذلك هو الإنصاف.

كان سعيد بن الجودي عاقب المقدام بن المعافى وكان شاعراً، وشأن هذا العقاب أن يهيج في نفس المقدام بغض سعيد وحب الانتقام منه بما يقدر عليه من الهجاء، ولكن المقدام رثى سعيداً بعد موته، فقيل له أترثيه، وقد أصابك بالضرب؟ فقال: والله إنه نفعني حتى بذنوبه، ولقد نهاني ذلك الأدب عن مضار جمة كنت أقع فيها على رأسي، أفلا أرعى له ذلك؟ والله ما ضربني إلا وأنا ظالم له، أفأبقى على ظلمي بعد موته؟

توافق العقل والعاطفة:

يدرك العقل حسن الشيء وصلاحه، وتسايره العاطفة.

والأمر الذي يستحسنه العقل، وتتجه إليه العاطفة تقبل عليه النفس بعزم صارم، وتسعى له بكل ما أوتيت من استطاعة وذلك معنى تعاون العقل والعاطفة على الخير.

اتجاه العاطفة إلى ما يتجه إليه العقل، يجعل الأمر الصعب سهلاً، والغاية البعيدة قريبة، والطريق الوعر مُعَبَّداً؛ لهذا نرى القران الكريم بعد أن يدعو الناس

إلى ما فيه خيرهم قد يأتي النفوس من ناحية العواطف؛ إذ يعقب الأمر بما شأنه أن يثير حماستها، وخذوا مثلاً أمره بدفاع العدو في قوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا﴾ البقرة: ١٩٠.

فشأن المسلم أن يتلقى أمر الله بالامتثال لقيام الدليل القاطع على أنه لا يأمر إلا بخير، ولكن الأهواء قد تستولي على القلوب، وتعوقها عن امتثال أمر القتال؛ فأخذ القرآن يهز العواطف حتى تتضافر هي والعقل على العزم والثبات في مواقف الدفاع، إذ قال ـ تعالى ـ: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً» التوبة: ٨.

فذكرهم فرض القتال بأنهم إذا تهاونوا بأمر الدفاع عن أوطانهم بسط عليهم العدو سلطانه، واستبد فيهم لا يرعى لهم عهداً ولا ذمة.

وليس من شك في أن التذكير بهذه العاقبة المشؤومة يثير في نفوس الأمة رغبة شديدة في الاحتفاظ باستقلالها إن كانت مستقلة، أو في الأخذ بأسبابه إن كانت مستعبدة.

وإن شئتم أن تزدادوا خِبْرةً بأثر العاطفة من الإقدام على العمل الصالح بقوة ـ فانظروا إلى رجلين اتحدا في مقدار ما تلقياه من العلوم الدينية، وأحدهما مُتَّقِدٌ حماسة، مجدٌّ في الدعوة إلى سبيل الله، متفانٍ في الذود عن حياض الشريعة، والآخر منهما خِلْوٌ من هذه الحماسة، فلا يؤلمه أن يرى حرمة الدين منتهكة، وكلمته غير نافذة، ونفوس الناشئين عنه منصرفة؛ ذلك أن الأول متفقه في الدين، وتربَّتْ له مع هذا التفقه عاطفةٌ نحوه.

أما الآخر فتلقى علوم الدين، وإنما صارت لمسائله صورة قائمة في ذهنه، دون أن تكون بجانبها عاطفة.

والعلماء الذين كانوا يواجهون ذوي السلطان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يبالون بما يلاقونه في سبيل الدعوة من الأذى، مثل سعيد بن المسيب، وعز الدين بن عبد السلام، ومنذر بن سعيد البلوطي، إنما امتازوا عن غيرهم من أهل العلم بشدة العاطفة الدينية المتدفقة غيرةً وحماساً.

وقد تتعارض العاطفة الدينية والعاطفة الشخصية، والكيس من يقدم العاطفة الدينية، ويرمي بالعاطفة الشخصية إلى وراء، وأسوق إلى حضراتكم مثلاً لهذا هو أن الخليفة هارون الرشيد كان جالساً بجانب القاضي أبو يوسف، فدخل يهودي رافعاً إلى القاضي دعوى على الخليفة، ومراعاةً للتسوية بين الخصمين في مجلس الحكم قام أبو يوسف من مكانه وأشار إلى اليهودي بأن يجلس به حتى يكون بجانب خصمه الذي هو الخليفة، وقضى لليهودي على الخليفة، ولكن أبا يوسف ذكر أن قلبه كان يميل إلى أن يكون الخليفة هو المحق، واليهودي مبطلاً، وكان يتألم من هذا الميل القلبي، ويستغفر الله منه.

فانظر كيف كان في نفس أبي يوسف عاطفة شخصية نحو هارون الرشيد جعلته يحب انتصاره على اليهودي، وكان في نفسه عاطفة دينية تدعوه إلى أن يصدر الحكم على نحو ما أمر به الدين من العدل، فأجاب رحمه الله داعي العاطفة الدينية فأصدر حكمه في القضية على ما أذن به الدين، وأعرض عن داعي العاطفة الشخصية جانباً.

وقد يتجاذب العاطفة الشخصية كعاطفة الصداقة ناحيتان تقتضي إحداهما

مسلكاً، وتقتضي الأخرى مسلكاً غيره، والكيِّسُ يزن الناحيتين، ويقدم الناحية التي ينصح بها الدين ويرتضيها العقل.

قال السلطان صلاح الدين الأيوبي يوماً للقاضي الفاضل: لنا مدة لم نر فيها العماد الكاتب؛ فلعله مريض؛ امض إليه، وتفقد أحواله.

فلما دخل القاضي الفاضل دار العماد، وجد أشياءً أنكرها في نفسه مثل آثار مجالس الخمر، وآلات الطرب، فخاطبه منشداً:

ما ناصحتك خبايا الودِّ من رجل ... ما لم ينلك بمكروه من العَذَلِ

محبتي فيك تأبى أن تسامحني ... بأن أراك على شيء من الخلل

فلما قام من عنده أقلع العماد عما كان فيه، ولم يعد إليه؛ فعاطفة المودة قد تدعو إلى الإغضاء عن معايب الصديق؛ لأنَّ تنبيهه إلى العيب قد يؤلمه، وربما أحدث جفاءاً بين الصديقين، وقد تدعو إلى تنبيهه لبعض ما يأخذه عليه الناس متى أبصروه، وهذا ما يدعوه إليه الدين، وتنادي به الفضيلة.

وكان ابن هبيرة يقول: «اللهم إني أعوذ بك مِنْ صحبة مَنْ غايته خاصة نفسه، والانحطاط في هوى مستشيره، ومن لا يتلمس خالص مودة أصدقائه إلا بالتأتي لموافقة شهواتهم».

كيف تربى عاطفة الخير؟:

عواطف الخير كثيرة، وتربى العاطفة الشريفة ببيان ما يترتب على العمل من فوائد عامة أو خاصة؛ فقد يعتقد الإنسان بصلاح عمل من جهة ثقته بحكمة من يأمره به؛ أو لأنه اطلع على فائدة من فوائده؛ فيجد داعية إلى إجابة الأمر، ولكن

هذه الداعية قد تبدو ضعيفة حيث لم يكن بجانبها عاطفة قوية تسهل عندها الصعاب، وتتضاءل أمامها العقبات.

وتقوى العاطفة نحو الشيء بقدر ما تعرف النفس من فضله وحسن عواقبه، فصدور الأمر بالشيء من الشارع الحكيم مثلاً هو كاف لقبول الإنسان له واعتقاده بصلاحه، ولكنه ينهض للعمل بنشاط أوفى، وعزم أمضى، متى ازداد علماً بما يترتب عليه من الآثار الحميدة.

وتربى العاطفة الشريفة بالأساليب البارعة من نحو التشابيه والاستعارات، وضرب الأمثال، حيث يُعْرَضُ الشيء المطلوب فعله، في صورة شيء تألفه النفوس وترغب فيه، فقد تدرك النفس حسن الشيء المطلوب فعله، ولكن عرضه في صورة ما ألفته واتجهت إليه من قبل يجعلها تزداد ارتياحاً له، ورغبة فيه.

ومن هنا كان الشعر مثيراً للعواطف، وصح أن يستعان به في توجيه النفوس إلى كثير من أعمال الخير.

وقد سلك القرآن الكريم في تربية العواطف هذا المسلك البديع، وكان لضربه الأمثال أثر عظيم في تثبيت حكمه البالغة في النفوس، وتنمية العواطف الدافعة إلى عظائم الأمور.

وخلاصة البحث: أن أطيب الناس حياةً، وأرفعهم في المجد مقاماً، وأوفرهم من خصال الحمد ثروة ذلك الرجل الذي رزق عقلاً سليماً، وديناً قيِّماً، ورزق بجانب ذلك عواطف شريفة تتوجه حيثما توجه العقل، ولا تنساق إلاَّ إلى ما يرتضيه الدين الحق.

٦٤ الخوف[1] للأستاذ أحمد أمين

الخوف من الأمراض التي تنغِّص الحياة وتذهب بالسعادة .

هو مرض خطير قلَّ أن يسلم منه إنسان ، وهو أشكال وألوان ، يُشَكِّل أعمال الإنسان ويوجهها طوع إشارته ، وحسب إيحائه ، وفي كثير من الأحيان يصده عن العمل ، ويسبب له اليأس ، ويفقده الأمل.

فمن أول أنواعه الخوف من الفقر؛ وهو من أخطر أنواعه؛ لأنه يَشُلُّ قوة التفكير ، ويقتل الثقة بالنفس ، ويولد الشك ، ويضعف اليقين ، ويفقد الأمل والطموح.

وقد زاد هذا الخوف في عصرنا عن كل العصور السابقة؛ للتزاحم المالي الشديد ، والتقاتل عليه مما لم يعرف له من قبل مثيل؛ فقد أعلت المدنية الحديثة شأن المال جداً ، وتسابق الناس في مقاتلة بعضهم بعضاً لكسبه.

نعم إنه داء قديم في الإنسان ، ولكنه لم يبلغ الخطر الذي بلغه الآن؛ فالفقير ليس له قيمة سياسية ولا اجتماعية ولا قانونية ، ومالك المال ـ مهما كانت الوسائل التي اتخذها في جمعه ـ هو الذي يسيطر ، وهو الذي يُنتخَب ، فيشارك في السياسة ، وهو الذي تخضع له الرقاب.

من أجل هذا كانت تصور الفقر مرعباً ، وكان الخوف منه شديداً ، ومما زاده سوءاً أن حاجتنا في الحياة أصبحت معقدة مركبة ، وما كان يكفي الرجل أسرته

---

(١) فيض الخاطر ٢٠٤/٤ ـ ٢٠٩.

قديماً لا تكفي أضعافه الآن، وكان رب الأسرة يحتمل المعيشة الخشنة، والرضا بالكفاف، ولكنه الآن يرى أن ضرورات العيش لا عداد لها، فهو يخشى الفقر؛ لأنه هو وأسرته لا يستطيعون أن يصبروا على القليل، وهو ـ إن افتقر ـ كان أتعس ممن قبله عندما افتقروا .

ومما يزيد الإنسان خوفاً من الفقر شعوره الشديد أنه يَوْمَ يفقد ماله، ويومَ لا يستطيع أن يسد حاجاته وحاجات أسرته يفقد عزته، ويشعر بالمذلة، ويرى نفسه أحقر من إخوانه الذين يملكون المال ولو كان أشرف منهم نفساً، وأحسن خُلُقاً، كل ذلك يملأ قلبه رعباً من تصور الفقر وتوقعه.

ونوع آخر من الخوف، الخوف من النقد، ومن كلام الناس، وهذا الخوف يسيطر على أعمالنا لدرجة كبيرة .

وهو يتخذ أشكالاً لا عداد لها ، فالناس يلبسون (الطربوش) في الصيف لا للحاجة إليه ولكن خوفاً من كلام الناس، ويعملون كثيراً مما يعملون، ويجتنبون كثيراً مما يجتنبون؛ خوفاً من كلامهم.

واختراع البِدع ـ الموضة ـ كل عام، وإقبال الناس عليه مبني على هذه النظرية؛ فالمصانع تخرج كل سنة بدع الملابس، فتلبسه طائفة ممن عرف بالأناقة ؛ فتهرع السيدات والآنسات للبسه؛ خشيةً من كلام الناس، وهكذا مصانع السيارات، ونحوها.

وكثيراً من العقلاء والمفكرين يجارون الناس في آرائهم، وأعمالهم، وإن اعتقدوا سخافاتها؛ خوفاً من كلام الناس.

ولو لاحظ الإنسان كل تصرفاته اليومية من أيام صغره إلى أيام كبره لرأى أن أكثرها صادر عن الخوف من نقد الناس.

وما مرض الفخفخة، وحب الظهور، ولا مرض الخجل، والمبالغة في الحياء، ولا مرض حب التقليد، وعدم الابتكار ـ إلاَّ أعراض من أعراض الخوف من كلام الناس.

ثم الخوف من المرض، وهذا النوع من الخوف متصل بنوعين آخرين هما الخوف من الهرم، والخوف من الموت، والإنسان يخاف من المرض؛ لأنه يستحضر في ذهنه احتمال الموت منه، كما قد يستحضر صورة العجز عن كسب العيش.

وقد استغل هذا الخوف من المرض تجار الأدوية؛ فصنعوا منها ما أغرق الأسواق، وكثير منها ليس علاجاً حقيقيا، وإنما هو علاج وهمي لأمراض ناشئة من الخوف من المرض.

وهذا الخوف قد ينتهي عند بعض الناس إلى مرض حقيقي؛ لأن الإيعاز المستمر بالمرض قد يسبب المرض، وكثيراً ما تحدث صاحبك بسوء صحته، أو تغير لونه، فيشعر عقب ذلك مباشرة بالضعف، والتخاذل، والمرض، ويكاد هذا المرض يكون عاماً عند الناس، وكثيراً ما يبعث عليه الفشل في الحياة، أو الفشل في الحب، أو اليأس من شيء مرجو، أو التعب الجسمي، فسرعان ما تظهر إذ ذاك أعراضه.

ومن أعراضه كثرة الكلام في المرض، واستفسار الأطباء عن المرض، وقراءة

الإعلان عن الأدوية، وكثرة وزن الجسم في الموازين العامة في الطرق، وتوهم المريض عندما يسمع وصف مرض أنه مصاب به، وكثرة استعمال المسكنات، وهكذا...

وهناك الخوف من فقد حب من يحب، وهو خوف يلازم الحب غالباً، فيخاف المحب أن ينصرف عنه محبوبه إلى غيره، وهذا ـ غالباً ـ هو علة الألم من الصد، والهجران.

وهذا الخوف كان مظهره في الزمن القديم الاستيلاء على المرأة بالقوة، وحبسها، ومراقبتها مراقبة شديدة، ونحو ذلك، ثم حولته المدنية إلى محاولة كسب قلبها من طريق الإغراء بالتحبب إليها، والتظاهر بمظاهر العظمة، والجاه ونحو ذلك.

وهذا النوع من الخوف يحدث للمرأة كما يحدث للرجل، بل هو عند المرأة أشد؛ لأن المرأة أقل ثقة بالرجل من الرجل بالمرأة.

ومن أعراضه شدة الغيرة غيرة الرجل على المرأة، و المرأة على الرجل؛ حتى يصل بالإنسان إلى درجة الهوس؛ فيكون الاتهام من غير أن تكون له أسباب معقولة.

كما أن من أعراضه كثرة مؤاخذة المحب حبيبته حتى على الأمور التافهة، والأمور الوهمية، وكثرة العتاب، وما إلى ذلك.

ثم الخوف من الهرم أو الشيخوخة، ويرجع سبب هذا الخوف إلى عاملين:

الأول: الخوف من أن الشيخوخة قد تعجز المرء عن الكسب؛ فيكون عالة

على غيره، وأكثر ما يكون هذا عند العامل، والصانع، ومن يعيشون على كسبهم اليومي؛ فهم يعيشون على حساب صحتهم؛ فإذا عجزوا عن العمل حُرِموا وسائل العيش.

والسبب الثاني: هو أن الشيخوخة نذير الموت، والموت بغيض مُخيفٌ، وقد يكون من أسبابه شعور المرء أنه إذا شاخ وهرم فقد جانباً كبيراً من استمتاعه بنعيم الحياة؛ إذ لا يعود يستطيع أن يجذب المرأة إليه، ولا المرأة أن تؤثر في الرجل، وربما كان هذا السبب الأخير عند المرأة أقوى منه عند الرجل؛ لأن جمال المرأة رأس مالها في الحياة، فهي تخشى الشيخوخة التي تضيع رأس مالها.

وأعراض هذا المرض تختلف اختلافاً متناقضاً؛ فأحياناً يظهر في شكل كثرة حديث المسنين عن الشيخوخة، وانتهاز كل مناسبة للتحدث عن شيخوختهم، وأنهم انتهوا من دور الشباب، واعتذارهم من حين لآخر عن كسلهم أو بأسهم أو فشلهم بشيخوختهم، وأحياناً يكون من أعراضه التظاهر بمظهر الشباب كصبغ الشعر، والتأنق في الملبس، ومحاربة تجاعيد الوجه، وتكلف اعتدال القامة، والكذب في السن الحقيقية.

وقلَّ أن يعزيه عن شيخوخته كِبَرُ عقله، ونضوجُ تفكيره.

وأخيراً ـ ويجب أن يكون أخيراً ـ الخوف من الموت، وهو عند أكثر الناس أشد أنواع الخوف، وسببه ـ في الأغلب ـ **يرجع إلى أمرين:**

الخوف مما بعد الموت؛ لأنهم يرون أنهم في حياتهم لم يرضوا الله بكثير من أعمالهم، والله حاكم عادل يثيب المحسن، ويعاقب المسيء، فهم يستحضرون في

أذهانهم إساءتهم، ويستحضرون ما للإساءة من عقوبة، فهم بذلك يخشون الموت كما يخشى المجرم المحكمة.

والسبب الثاني: ما يشعرون به من لذعة إذا تصوروا فراق الأهل والخلان.

وهذا النوع من الخوف عند الشيوخ أكثر منه عند الشباب، وعند الفارغين من العمل أكثر منه عند العاملين، وعند ضعاف الأعصاب أكثر منه عند أقوياء الأعصاب.

وقد يبالغ فيه بعض الناس؛ فيظهر ذلك بمظاهر مختلفة، فمنهم من يزهد في الحياة، وينقطع للعبادة، ومنهم من ينغص عليه الحياة؛ فيصبح مهوش الفكر مضطرب العقل، لا يصلح لعمل دنيا، ولا عمل آخرة، إلى غير ذلك.

هذه الأنواع من الخوف تملأ الحياة، وتلونها وتصبغها أصباغاً مختلفة؛ حتى لو قلنا إن أكثر أعمال الإنسان هي نتيجة الخوف لم نُبعد، بل هو كذلك أهم سبب للاتجاهات التي يتجهها الإنسان في حياته من فعل وترك، وفعل هذا دون فعل ذاك، والسير في هذه السبيل دون تلك.

والآن وقد فرغنا من وصف المرض، وأعراضه ومضاعفاته يحق لنا أن نتساءل: إذا كان هذا هو المرض؛ فما علاجه؟

لقد أَبَنَّا أن الخوف حالة نفسية تستولي على الفكر فتشله، فإذا نحن آمنا بأن للإنسان قوة على تفكيره كما أراد، كان هذا مفتاح العلاج.

احم نفسك من مؤثرات الخوف سواء في ذلك ما تثيره نفسك، وما يثيره من حولك، وكن شديد الإيمان بأن لإرادتك قوةً تستطيع بها أن تزيل هذه المخاوف، وأن تبني حاجزاً يحول بين نفسك، وبين مؤثرات الخوف.

اقرأ ما يبعث فيك القوة والشجاعة، ويملؤك أملاً وطموحاً ، ويقوي إرادتك على نفسك.

آمن بأن توقع الشر شر من الشر نفسه؛ فلا معنى أن يجمع الإنسان على نفسه شر الشر، وشر توقعه.

حلِّل نفسك وتبين سبب مخاوفها: هل أنت تكره عملك الذي تعمله، ولماذا ؟ هل أنت خاضع لمؤثرات تستوجب خوفك، فكيف الخلاص منها؟ هل فقدت الثقة بنفسك؛ ولماذا؟ هل أنت فارغ من العمل؛ فتستسلم من أجل ذلك للمخاوف، إذاً فكيف تملأ وقتك بالعمل؟

هل أنت تضعف أعصابك بالمسكرات أو كثرة التدخين؛ فتقع تحت تأثير الخوف من أجل ذلك، إذاً فكيف تتغلب على ذلك؟ أي أنواع الخوف الستة أكثر تأثيراً فيك؛ ولماذا؟ هل لديك الوسائل الروحية، والعقلية التي تستطيع أن تتغلب بها على الخوف؛ فإذا لم تكن؛ فكيف تحصل عليها؟ هل أنت واقع تحت تأثير أصحاب يسببون لك الخوف، فكيف تتخلص منهم؟ هل تصادق من هم أضعف منك عقلاً، وقلباً، وروحاً؟ إذاً فكيف تغيرهم بمن هم خير منهم؟

ما أهم سبب لمتاعبك؟ كيف تعالجه؟ كيف تقسم زمنك، كم منه للنوم؟ وكم للعمل العقلي أو القراءة؟ وكم معملك[1] المعتاد؟ وكم للعبك وراحتك؟

فهذه الأسئلة ونحوها إذا أنت أجبت عنها في أمانة، وإخلاص تعرفت نفسك، وتعرفت مخاوفك، وتعرفت كيف تسلط إرادتك على أسباب الخوف؛ فتمحوها.

---

(١) كذا في الأصل، ولعلها: وكم لمعملك، أو لعملك. (م)

وأخيراً ردد على نفسك «لا تخف» وردد قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ التوبة: ٥١.

٦٥ التعصب[(١)] للأستاذ أحمد أمين

كانت ثلاثة أيام لطيفة قضيناها على شاطئ البحر، الجو معتدل يميل إلى البرودة، والسماء صافية، والشمس ساطعة، والبحر هادئ، وكل شيء حولنا جميل، ونزلت أنا وصاحبي في فندق على البحر في رمل الإسكندرية، ننعم فيه بالهدوء وجمال المنظر، والأناقة تبدو في كل ما حولنا.

ها نحن في الصباح في حديقة الفندق بعد أن تناولنا فطورنا نقرأ الجرائد، وبعد أن فرغ صاحبي من قراءتها، وضعها، وإذا هو يقول: «شرٌّ ما نُبلى به اليوم التعصب»، ولا أدري ماذا بعثه على هذا القول مما قرأ؟

فقلت: إن التعصب كلمة مصطنعة أطلقها الإفرنج علينا ظلماً وعدواناً؛ ليصرفونا عن التمسك بديننا، والاحتفاظ بقوميتنا، فإذا قاومنا أعمال المبشرين قالوا: تعصب، وما هو إلا حماية ديننا من الاعتداء عليه، وإذا وقفنا في وجه الاستعمار وثرنا من أجل استغلالنا واستعبادنا قالوا: تعصب، وما هو إلا المحافظة على كياننا، والرغبة في التمتع بحرياتنا، وهم يتمسكون في بلادهم بأشد مما نتمسك به في المحافظة على دينهم وقوميتهم، ولا يخطر ببالهم أن يسموا هذا تعصباً.

وإذا صح إطلاق القول فهم أولى به منا؛ إذ يدعوهم تعصبهم لدينهم إلى نشره بيننا، وحماية التبشير بالقوة، ويدعوهم تعصبهم لقوميتهم إلى فرض الاستعمار

---

(١) فيض الخاطر، ٨/٦٢ـ٦٧.

علينا بالسلاح فهل نحن المتعصبون؟

قال هو: قد يكون هذا القول صحيحاً، ولكن ليس هذا الذي أريد، إذ أريد التعصب الداخلي فيما بيننا، ويظهر ذلك في الجمعيات الدينية، والأحزاب السياسية، والهيئات الاجتماعية، فكل جمعية دينية ترى أنها هي التي على الحق ومن عداها فعلى الباطل، وتخاصم من عداها، وقد ترميه بالكفر والإلحاد، وقد تنفِّذ آراءها بقوة السلاح، وكل حزب سياسي يتعصب لحزبه، ويرى كل ما يصدر عنه حقًّاً، ولا يرى أي حق فيما يصدر عن الأحزاب الأخرى، ويتمثل ذلك في قول قائلهم: «الحماية على يدنا خير من الاستقلال على يد غيرنا».

وكل هيئة اجتماعية ترى أنها الوحيدة في فعل الخير وفي الإصلاح، أما ما عداها من الهيئات فأداة فساد، هذا هو التعصب الذي أعنيه وأكرهه وأمقته، وأدعي أنه كارثة من أكبر كوارثنا.

أنا: ولكن علمني أستاذي سقراط أننا قبل أن ندخل في الحوار نحدد الموضوع؛ فما الذي تعني بالتعصب؟

هو: إنما أعني به الغيرة العمياء، وأعني بالعمياء أنها غيرة لا تصدر عن تفكير هادئ، ولا منطق سليم، وإنما تصدر عن تقليد من غير نظر، أو عقيدة من غير تفكير، أو تلقين من غير بحث، وهذا مرض نفسي له أعراض ككل الأمراض، **وأهم هذه الأعراض ثلاثة تظهر مجتمعة لا متفرقة:**

أولها: ضيق النظر؛ فليس يرى المتعصب إلا ما اعتقده، أو لقِّنه أو ألقي في

روعه، أما ما عداه فهو يكرهه من غير تفكير، ويمقته من غير أن يصغي إلى حججه، قد وضع أمام عينيه ما اعتقد، وأبى أن يرى أيَّ شيء عداه؛ فمهما قال مخالفه فهو باطل قبل أن يدلي بحججه، ومهما قال مؤيده فهو حق ولو لم يأت ببرهان، قد عكس الوضع الطبيعي، فوضع العربة أمام الحصان، فهو يرى الرأي أولاً، ثم يلتمس البراهين لتأييده ثانياً، وهو يحب كلَّ شيء يقوي رأيَه، ويكره من صميم قلبه كل شيء يعاكسه، وقد يغلو في ذلك حتى يصبح أشبه ما يكون بالمجنون.

وثاني الأعراض: حبه القوي لغلبة فكرته أو عقيدته وهزيمة الآراء المعارضة واندحارها؛ ليس عنده أي شيء من التسامح فيما يخالفه من آراء حتى كأن مخالفه قد قتل قتيلاً له، فهو يريد الأخذ بالثأر منه، فهو متحمس هائج يريد أن يقضي على من يخالفه بكل ما لديه من قوة، ويكون هذا في المعتقدات الدينية وفي الأحزاب السياسية، وفي النظريات الاجتماعية على السواء؛ فالمتعصب الديني كاره لمن خالفه، متحمس للقضاء عليه أو على فكرته، والمتعصب الحزبي لا يرى خيراً إلا ما أتى من حزبه، وأما ما أتى على يد الأحزاب الأخرى فشرٌّ محض يجب أن يقاوم بكل ما استطاع من قوة، ولو بإفساد النظام وإشاعة القلق والاضطراب، وهكذا الشأن في النظريات السياسية، كالنزاع بين الديمقراطية والاشتراكية والشيوعية والنازية وأمثالها، يتحمس معتنقوها حتى يصل التحمس إلى سفك الدماء.

وثالث الأعراض: أن هذه الغيرة العمياء والحماسة الخرقاء تجعل صاحبها لا

يقدِّر ما ينزل بالآخرين من آلام ولا ما يحل بهم من كوارث؛ فلا يرى إلا تحقيق فكرته مهما أَلِم الناس، تطغى رغبته في الفكرة على كل ما لديه من عواطف، فهو قاسٍ جبارٌ يتشفى بعذاب الناس وإيلامهم في سبيل تحقيق فكرته، ويظهر ذلك بأجلى مظهر من الناحية الدينية في محاكم التفتيش، ومن الناحية السياسية والاجتماعية في الثورة الفرنسية، ففي كل ذلك صار التعصب غيرة يلهبها الحقد.

وتركنا مقاعدنا، وسرنا على شاطئ البحر نتم حديثنا.

أنا: ألست ترى أن هذا هو الجانب الأسود من التعصب وأن له جانباً آخر جميلاً؟ فكثير من ضروب الإصلاح أتت على أيدي المتعصبين، اعتنقوا فكرة وتعصبوا لها، ورأوا الخير فيها، وتحمسوا لها وتحملوا العذاب في تحقيقها، وكثر أشياعهم وأتباعهم حتى عمَّ الإصلاح؛ فالحكم على التعصب كما يؤخذ من كلامك بأنه شر محض، مبالغ فيه، والعقيدة ما لم تصهرها حرارة الإيمان لا قيمة لها، والفكرة ما لم يتحمس لها صاحبها وما لم تأخذه الحمية لها وما لم يدع إليها في غيرة واحتمال آلام لا تكون ذات قيمة، وهذا ضرب من التعصب الذي تبغضه.

هو: قد يكون في هذا شيء من الحق، ولم أدَّعِ أن التعصب شر محض، فليس في الدنيا شر محض، وكل ما في الحياة ـ مادياً كان أو معنوياً ـ مزيج من الخير والشر، ونتائجه كذلك، وإنما نكره الشيء، ونحكم عليه بالشر لأن مضاره أكثر من منافعه والعكس، والتعصب شر ما منيت به الإنسانية، والمتعصب لا يرى خيراً إلا ما لقنه من غير تفكير ولا برهان، وهو بذلك ينقلب وحشاً ضارياً،

ويصبح وليس أمامه إلا تحقيق نفسه، وينقلب أنانياً بغيضاً يتحدى الأفكار المخالفة في عنف، ويريد أن يفرض على الناس رأيه بالقوة لا بالإقناع، وأي ضرر بعد هذا؟

إن المتعصب أبعد ما يكون عن معنى الإنسانية، إنما المصلح الحقيقي من اعتنق الفكرة بعد بحث وتمحيص، وتحمس لها في عقل واعتدال، وحاول بث دعوته عن طريق الإقناع والبرهان لا عن طريق القهر والغلبة.

ويدلنا التاريخ على أن التعصب كثيراً ما يسير سيراً وبائيًّا كالطاعون؛ فينشر المرض في سرعة عجيبة، وخاصة في الجامعات التي ليس لها رأي عام متنور، ويزيد في انتشار هذا الوباء أن يكون للجمعية الدينية أو الحزب السياسي شعائر ومظاهر تتفق وعقلية العامة في الشعوب الساذجة، وعندما تنتشر هذه الفكرة الناشئة عن التعصب يفقد جمهور المعتنقين لها الشعور بالمسئولية، فيأتون من الأعمال ما لا يأتيه الفرد العادي منفرداً في حالة وعيه، وقد ينضم إلى الفكرة أفراد مهذبون على درجةٍ ما من الرقي العقلي بسبب قوة التيار وما في الفكرة أحياناً من بريق ولمعان، وإذ ذاك يكون الخطر ويصبح الناس في حالة هسترية كالتي كانت في محاكم التفتيش وفي الحروب الصليبية، وأكرر القول بأن هذه هي الأعراض في الجمعيات الدينية والأحزاب السياسية على السواء.

أنا: هل تضع أمام عينك وأنت تتكلم هذا الكلام طوائف وأحزاباً خاصة تستلهم منها هذه الآراء؟

هو: قد يكون ذلك، وقد يكون مبعث هذا ما قرأته في جرائد اليوم، ولكني

قد ارتفعت في تفكيري عن الجزئيات، وحلقت في سماء الكليات.

أنا: هذه هي عادتك دائماً، تفلسف كل شيء حتى تجعل من الحبة قبة، ومن القطرة مطراً، ولكن أترى أن هذا الأمر مقصور على الشرقيين؟

هو: كلا، إني أرى أن دور التعصب هذا دور طبيعي، تمر فيه كل جماعة كما يمر كل إنسان في دور الطفولة، فإذا اتسع أفقه، وزاد علمه، وتأصلت حريته، لم يعد التعصب يجد مجالاً لنموه ولا ميداناً يسبح فيه.

أنا: ما دمت تتفلسف فلأتفلسف، ويخيل إليَّ أن فلسفتك كانت فلسفة نفسية أو سيكولوجية، فلأتفلسف أنا فلسفة اجتماعية، فأقول: إن هذا التعصب إنما يسير كما ذكرت سير الوباء في بيئة اجتماعية صالحة له كأن يشيع فيها الفقر، والبؤس، وسوء الحال، وكثرة الضغط، وقوة الاستبداد؛ فتكون هذه الأشياء كلها مرعى خصيباً تسود فيها الفكرة المتعصبة ويدخل الناس فيها أفواجاً، وقد يكون كثير ممن يدخلونها لا يؤمنون بها، ولكن لما رأوها تدعو إلى القلق والاضطراب، أحبوا القلق والاضطراب؛ لأنهم يمنون أنفسهم بإصلاح الحال بعد زوال الاضطراب؛ فيشتركون مع أصحاب الفكرة في النتيجة وإن لم يشتركوا في الأسباب والعقيدة، وإذا كان تشخيصك للمرض نفسياً وعلاجك له علاجاً نفسياً، فتشخيصي له تشخيص اجتماعي، وعلاجي له علاج اجتماعي؛ فلنتحرَّ أسباب القلق والاضطراب ونُزِلْها يترتبْ على ذلك حتماً حصر المرض في بقعة معينة، وعدم سيره سير الوباء.

إن كان منهج فلسفتك النفسية يرسم العلاج بنشر العلم الصحيح بين الأفراد

وتأسيس منهج تربيتهم على البحث والتفكير والشك والتجريب وعدم سرعة التصديق ـ فليكن منهج فلسفتي الاجتماعية نشر العدالة الاجتماعية، وتأمين الناس على مصالحهم، وحرياتهم، وتحقيق العدل بينهم؛ فإذ ذاك يتعاون الإصلاح النفسي الذي تذكره والإصلاح الاجتماعي الذي أنشده على قطع دابر التعصب، وإحلال التسامح اللطيف محل التعصب السخيف.

وشعرت بأن هناك عدم انسجام بين هذا الجو وهذا الحديث؛ فالجو فَرِحٌ مرح ونحن جادون، والبحر يضحك ونحن عابسون، والنسيم يداعبنا ونحن لا نجاوبه، وانتهزت فرصة رجوعنا إلى الفندق فحوَّلت الحديث إلى غزل في الجو وصفائه، وابتهاج بالمنظر وجماله.

٦٦ روح السماحة [١] للأستاذ أحمد أمين

قرأت اليوم وصفاً لناد في واشنطن إذا ترجمنا اسمه إلى العربية سمَّيناه «نادي السفود» [٢] عدد أعضائه خمسون يُختارون على أساس مراكزهم الاجتماعية، ومقدرتهم الصحافية، ومهارتهم التهكمية.

ولهذا النادي تقاليد؛ فالأعضاء يلبسون في الاجتماع «الفراك» وربطة الرقبة البيضاء، ولهم شارة هي عبارة عن صورة «سفود» تعلق على السترة، فيعلم أن صاحبها عظيم من العظماء؛ إذ كان عضواً في هذا النادي.

وعمر النادي الآن خمس وستون سنة، يقيم أعضاؤه حفلتين كل عام، إحداهما في إبريل، والأخرى في ديسمبر، وفي كل حفلة يدعى رئيس الجمهورية، ورئيس الحزب المعارض، وكبار موظفي الدولة، وقد لبى الدعوة رؤساء الجمهورية جميعاً، ما عدا الرئيس «كليفلاند».

وفي كل اجتماع يعد برنامج حافل يشتمل على نقد الرئيس ورئيس المعارضة وكبار الموظفين نقداً تهكمياً لاذعاً، واستعراض المشاكل التي تشغل بالهم، وتشغل الرأي العام، وكيف تصرف فيها هؤلاء الكبار، ثم وضع ذلك كله في قالب فكه ساخر، وبعد أن ينتهي هذا البرنامج الذي يُشْوى فيه هؤلاء الكبار على السفود يقف رئيس الجمهورية ورئيس الحزب المعارض، فيخطب كلٌّ

(١) فيض الخاطر، ١٣٤/٨ ـ ١٣٧.

(٢) السفود: هو الحديدة التي يشوى عليها اللحم.

منهما عشر دقائق شاكراً للنادي تهكمه، مقابلاً السخرية بالسخرية، والتهكم بالتهكم، واللذع باللذع.

وبذلك ينتهي الاحتفال بعد أن يكونوا قد عرضوا للمشاكل والرؤساء من الجانب التهكمي، فأبانوا مثلاً كيف كبَّر هؤلاء الكبار صغار الأمور، وعدوها مشاكل عظمى وهي في ذاتها تافهة، وكيف تصرفوا فيها تصرفات مدوية، وكان يمكن أن يتصرف فيها على أبسط وجه وأخصر طريق، وكل ذلك في ثنايا الضحك اللطيف، والتهزيء الطريف.

ويقول أحد رؤساء الجمهورية في مذكراته: «يزودنا نادي السفود بقدر كبير من المرح، وقد روضت نفسي على الابتسامة العريضة من النكات اللاذعة التي تقال عني، ويغريني على ذلك علمي أن كل رئيس غيري ـ مهما بلغت منزلته ـ سيلقى ما لقيت في سبيل المرح في هذا المساء».

وقد حدثني من تخرج من جامعة أمريكية أنه فوجئ آخر العام الدراسي بورقة وزعت عليه وعلى سائر الفصل، تسأله فيها الجامعة عن رأيه في الأستاذ فلان من حيث كفايته العلمية ومن حيث طريقة تدريسه، ومن حيث معاملته الطلبة.... إلخ، والطلبة يجيبون في صراحة من غير ذكر أسمائهم، والجامعة والأساتذة يتقبلون هذا في سماحة.

هذا ما أسميه «روح السماحة»، وهي روح لا يمكن أن تسود في أمة إلا إذا ربي الأفراد فيها على الديمقراطية الحقة[1]، فلكلٍّ شخصيته، ولكلٍّ رأيه، ولكلٍّ

---

(١) لو قال: الحرية الحقة (م).

أن ينقد ما يشاء، ومن يشاء، وعلى المنقود أن يكون واسع الصدر في سماع النقد.

ولكن على الناقد ـ أيضاً ـ أن يكون لديه من حسن التقدير، ودقة الذوق، ما يصوغ به نقده في أسلوب مؤدب، ولذلك عرف أعضاء نادي «السفود» بأنهم يستطيعون أن يمزجوا الفكاهة والسخرية بالرزانة والذوق السليم.

وليست تستطيع أمة أن تعتنق «روح السماحة» إلا إذا عودت سعة الأفق، وعدم التزمُّت، واحترام الفرد رأيَ غيره، كما يحترم رأيَ الآخرين، وإيمانه بأن رأيه ـ وإن ظهر له صوابه ـ قد يكون خطأ، ورأي غيره ـ وإن ظهر خطؤه ـ قد يكون صواباً، وإن من الصعب رؤيةَ الحق من جميع زواياه، فليس يرى الفرد الحق إلا من زاوية واحدة، وقد يراه الآخر من زاوية أخرى، ومن أجل ذلك فهو واسع الصدر للنقد، مقدر للناقد، محترم له؛ لأنه يزيده في رأيه ثروة.

أما المتعصب فضيق النظر، شديد الحقد على مخالفه، سادٌّ سمعه، ومغمضٌ بصره عن أي حجة لخصمه، لا يرى إلا أن تسير الدنيا على رأيه، وإلا استحقت الخراب؛ ولذلك كان فاقداً لروح الفكاهة، لا تصدر عنه، ولا يستسيغها من غيره؛ لأن روح الفكاهة وروح السماحة منزلة أسمى من منزلته.

في الأدب العربي كثير من الشعر والأخبار التي تمثل روح السماحة، كالذي يروى عن الأحنف بن قيس، ومعن بن زائدة وغيرهما، يُنْقَدون فيحلِمون، ويُتَهَكَّم عليهم فيسمحون، ويقابلون السخرية بالابتسامة، ولكن لسنا الآن بصدد أفراد، وإنما نحن بصدد روح عامة في الأمة.

والحق أن الأمم العربية اليوم في أشد الحاجة إلى روح السماحة، فهي تقربهم إلى التفاهم، وتبعدهم عن التقاطع، نحن أحوج إليه في علاقة الحاكم بالمحكوم؛ فالمحكوم ينفس عن نفسه بنقد ما لا يستصوبه من أعمال الحاكم، ولكنه نقد مؤدب، وقد يكون فكهاً فرحاً، وقد يكون فيه سخرية لطيفة، أو نكتة رائعة، والحاكم من جانبه واسع الصدر لسماع النقد، سمح في قبوله، يجيب عن نقده في رزانة، وقد يقابل التهكم بالتهكم، والسخرية بالسخرية، وروح الجميع سليمة من الحقد، لا تنطوي على الشر، وقد فرج ذلك كله على الحاكم والمحكوم، فبينهما ـ برغم النقد والسخرية ـ صفاء متبادل.

ونحن في حاجة كذلك إلى روح السماحة في العلاقة بين الدول العربية والشعوب العربية بعضها وبعض، ولو سادت هذه الروح ما رأيت ما يحدث بينها كل حين من سباب وغضب، وتهديد بقطع العلاقات، وسد الطرق، وانسحاب من الجامعة العربية، وما إلى ذلك، فمثل هذه الأمور كلها مظهر من مظاهر فقدان «روح السماحة» ودليل على ضيق العطن، والانطواء على الحقد والضغينة، أو العزة الكاذبة.

لَكَمْ نرى في التاريخ الماضي وفي الحاضر من أزمات حادة، عولجت بكلمة سمحة فرجت الأزمة، أو نكتة بارعة أعادت إلى النفوس صفاءها، أو احتمال الرئيس للنقد اللاذع تحقيقاً للمصلحة العامة.

إن روح السماحة هي أشبه ما تكون بالروح الرياضية، يلعب اللاعبون في ميدان اللعب، فيتبارون ويتسابقون، ولكن لا يحملون حقداً، ولا ينطوون على

ضغينة، فإذا انتهى اللعب وضع المغلوب يده في يد الغالب مهنئاً له، وخرجوا جميعاً من الميدان بنفوس صافية وقلوب راضية.

يحكون أن المهدي أراد أن يغزو أهل الشام لخطأ ارتكبوه، فقال لهابن خريم: «يا أمير المؤمنين، عليك بالعفو والتجاوز عن المسيء؛ فلأن تطيعك العرب طاعة محبة خير لك من أن تطيعك طاعة خوف».

٦٧ من نفحات الشرق: الأستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار[1]
بقلم العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

علم من أعلام الإسلام، وإمام من أئمة السلفية الحقّة، دقيق الفهم لأسرار الكتاب والسنة، واسع الاطّلاع على آراء المفسّرين والمحدثين، سديد البحث في تلك الآراء، أصوليّ النزعة في الموازنة والترجيح بينها، ثم له -بعدُ- رأيه الخاص.

يوافق ما يوافق عن دليل، ويخالف ما يخالف إلى صواب؛ لأنه مستكمل للأدوات المؤهلة لذلك، ولأنه يفهم القرآن على أنه أصل ترجع إليه الآراء والمذاهب والفهوم، وأنه كتاب الكون، ودستور الإنسانية، لا كما يفهمه كثير ممن كتبوا في التفسير؛ فجرّدوا أقلامهم لتسطير أفهام غيرهم، وجرّدوا القرآن من خصائصه العليا، وقيّدوا هدايته العامة بمذاهبهم الخاصّة.

والأستاذ البيطار مجموعة فضائل، ما شئت أن تراه في عالم مسلم من خُلُق فاضل إلا رأيته فيه، مجاوز للحدود المذهبية والإقليمية، يزِن هذه المذاهب الشائعة بآثارها في الأمة، لا بأقدار الأئمة، ويعطي كُلاً ما يستحق، جريء على قولة الحق في العلميات، ولكن الجرأة منه يلطفها الوقار، والوقار فيه تُزَيِّنه الجرأة، فيأتي من ذلك مزاجٌ خُلقي لطيف، متساوي الأجزاء، مزدحم الخلايا، قلَّ أن تجده في أحد من علمائنا المعدودين.

والأستاذ البيطار مفكر عميق التفكير، وخصوصاً في أحوال المسلمين، بصير

---

(١) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ٣/٥٦٤، وقد كتبها الإبراهيمي سنة ١٩٤٩م.

بعللهم وأدوائهم، طَبٌّ بعلاجهم ودوائهم؛ يرى أن ذهاب ريحهم من ذهاب أخلاقهم، وأن معظم بلائهم آتٍ من كبرائهم وأمرائهم وعلمائهم، وهو يعني كبراء الدعوى، وأمراء السوء، وعلماء التقليد.

يرجع في ذلك كله إلى استقلال في الفهم والاستدلال، ومقارنات في التاريخ والاجتماع، وتطبيقات مصيبة للحقائق الدينية على السنن الكونية؛ وله في الإصلاح الديني سلف صدق، حققوه علماً، وطبّقوه عملاً.

يعتمد في تحصيله وتربيته على طودَيْن شامخين من أطواد العلم والعمل: أحدهما عبدالرزاق البيطار، والثاني الإمام المحدّث جمال الدين القاسمي، عنهما أخذ، وفي كنفهما نشأ، وعلى يديهما تخرّج؛ فجاء عالماً من ذلك الطراز الذي نقرؤه في التراجم، ولا نجده فيمن تقع عليه العين من هؤلاء العلماء الذين يقرأون ويحفظون وينقلون، ولكنهم لا يفقهون.

هذا العديد المتشابه الذي كأنه نُسخ من طبعة واحدة من كتاب، لا يقع التحريف في واحدة منها إلا وقع في جميعها، ولا يزيد واحد منهم في العدد إلا كما يزيد كتاب في مكتبة، لا كما يزيد فارس في كتيبة؛ بآية أنهم ما كثروا في الأمة إلا قلّت بهم الأمة، ولا ثقلوا في أنفسهم إلا خف وزنها في الأمم، ولا تغالوا في التعاظم إلا كان ذلك نقصاً من معاني العظمة فيها، وبآية أن علمهم لم يؤهّلهم لقيادة الأمة، فتركوا القيادة لغيرهم، وأصبحوا كأدوات التصدير التي يسبقها حرف الجر، فيدخل عليها ولا يعمل فيها؛ وبآية أن العالم في أوربا لا يعد عالماً إلا إذا زاد في العلم شيئاً، أو كشف من خفيِّه شيئاً، أو جلا من غامضه شيئاً،

ونفض ـ مع ذلك ـ على العلم من روح زمنه شيئاً؛ ولا عجب! فالعلم عندهم ياقوتة في منجم، وعندنا لفظة في معجم، والأُولى تستخرج بالبحث والإلحاح، والثانية تستخرج بمعرفة الإصطلاح، والأولى حظ المجتهد العامل، والثانية حظ المقلّد الخامل.

بدء معرفتي به:

خرجت من المدينة ـ فيمن خرج ـ إلى دمشق في أخريات سنة ست عشرة ميلادية(١)، وكنت أتمنى لو أن دواعي ذلك الخروج كانت تقدمت ببضع سنوات لأدرك الإمامين اللذين كانت لهما في نفسي مكانة، وهما عبد الرزاق البيطار وجمال الدين القاسمي.

وكنت ـ وأنا بالمدينة ـ قرأتُ للقاسمي عدة كتب عرفت منها قيمته ومنزلته، وقرأت عن البيطار، وسمعتُ ما دلني عليه، وأدناني منه.

وفي أول اندلاع الثورة الشريفية قدم المدينة من دمشق جندي شاب من آل المارديني، وتعرّف إليّ في مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت، وتردّد على دروسي مرات في الحرم النبوي، فانعقدت بيننا ألفية روحية لا تأتي بمثلها الأسباب، وذلك الشاب شقيق الأستاذ جودت المارديني، ولأسرة المارديني بدمشق صلة متينة بأسرتَي القاسمي والبيطار.

فكنت أسأله عما يهمُّني من دمشق وأحوالها وعلمائها، وعن القاسمي والبيطار، كأن هاتفاً من وراء الغيب ألقى إليَّ أنني سأرحل إلى دمشق.

---

(١) يعني سنة ١٩١٦م (م).

فأخبرني ذلك الشاب أن الله ـ تعالى ـ أبقى من بيت البيطار وارثاً لعلم الإمامين ومشربهما في الإصلاح، وهو الأستاذ محمد بهجة البيطار، وأن له من الشباب المصلح صحباً قليلاً عددهم، يوافقونه على الفكرة، ويلتقون معه على المبدأ؛ وأنه هو إمامهم ومرجعهم؛ فشوَّقني حديث الشاب إلى الأستاذ، وعلمت أن الروحين تعارفتا، فائتلفتا، ولم يبق إلا تعارف الأجساد.

ثم رجع الشاب إلى دمشق فأخبر الأستاذ عني بمثل ما أخبرني عنه، فتمّ التجاوب الروحاني بيننا، وتنادت الروابط الفكرية إلى الاجتماع فكان.

ولما دخلت دمشق بعد ذلك بقليل، كان أول من زارني ـ بعد كرام الجالية الجزائرية ـ من أصدقائي السوريين الذين عرفوني بالمدينة المنورة: الأستاذ عبدالقادر الخطيب المظفر، وذلك الشاب الماراديني الذي أنساني الزمان اسمه وإن لم يُنسني ذكراه، فكاد يطير فرحاً بمقدمي، وطار إلى أبناء المشرب ـ كما كان يسمّيهم ـ يُؤذّن فيهم بزيارتي فزاروني لأول مرة في رهط أذكر منهم شيخ الجماعة الأستاذ البيطار، والأستاذ عبد الحكيم الطرابلسي، والأستاذ جودت المارديني، والأستاذان قاسم ورضا القاسميين، والأستاذ سعيد الغزي، والأستاذ عبد القادر المبارك، وكان بيننا في لحظة ما يكون بين إخوان الصفا وإخوان الصبا من تأكُّد المحبة وارتفاع الكلفة، وسقوط التحفّظ.

ثم تعاقبت الاجتماعات وانتظمت، واتّسقت أسباب اللقاء، واتسعت آفاق البحث في الأسمار، وكثُر الصحب، وما منهم إلا السابق الْمُغَبِّر، والكاتب الْمُحَبِّر؛ واللَّسِن المعبّر، فكنّا لا نفترق من اجتماع إلا على موعد لاجتماع،

وكان واسطة العقد في تلك المجالس الأستاذ الجليل والأخ الوفي الشيخ الأستاذ محمد الخضر حسين مد الله في حياته.

ولقد أقمت بين أولئك الصحب الكرام أربع سنين إلا قليلاً، فَأَشْهدُ صادقاً أنها هي الواحة الخضراء في حياتي المجدبة، وأنها هي الجزء العامر، في عمري الغامر، وأنني كنت فيها أقرّ عيناً وأسعد حالاً من ذلك الذي نزل على آل المهلب شاتياً، فوجد الإدبار رائحاً والإقبال آتياً. (١)

ولا أكذب الله، فأنا قرير العين بأعمالي العلمية بهذا الوطن (الجزائر)، ولكن ... من لي فيه بصدر رحب، وصحب كأولئك الصحب؟

إن نسيت فلن أنسى ساعات كنت قضيتها في مكتبة آل القاسمي ممتعاً عيني وذهني في مخطوطات جمال الدين، ومسودات مباحثه في التفسير والحديث، وفي ذلك المخطوط الحافل الذي ما رأت عيني مثله في موضوعه، وهو كتاب «بدائع الغرف، في الصنائع والحِرف» لجدّه الشيخ محمد سعيد الحلاّق، أرّخ فيه لصناعات دمشق الجليلة التي أخنى الزمان على أكثرها، وجلا فيه صفحات من مجدها الصناعي البائد.

---

(١) يشير إلى قول أبي الهندي:

نزلت على آل المهلب شاتياً ... غريباً عن الأوطان في بلد مَحْلِ

فما زال بي إكرامهم وافتقادهم ... وبرُّهم حتى حسبتهم أهلي

قال ابن عبدالبر رحمه الله في بهجة المجالس ١ / ٢٩٤: «تذاكر أهل البصرة من ذوي الأدب والأحساب في أحسن ما قاله المولّدون في حسن الجوار من غير تعسُّف ولا تعجرف، فأجمعوا على بيتي أبي الهندي» (م).

ويا رعى الله عهد دمشق الفيحاء وجادتها الهوامع[(١)] وسقت، وأفرغت فيها ما وسقت.[(٢)]

وخصّت بالمثقلات الدوالح[(٣)] مجامع الأحباب، وأندية الأصحاب، من الصالحية والجسر والنَّيربين[(٤)]: المزة والربوة.

فكم كانت لنا فيها من مجالس، نتناقل فيها الأدب، ونتجاذب أطراف الأحاديث العلمية، على ودٍّ أصفى من بردى تصفق بالرحيق السلسل[(٥)]، ووفاء أثبت من أواسي قاسيون، وأرسى من ثهلان ذي الهضبات.

لا توبَن في مجالسنا حرمة، ولا يُكلم عرض، ولا يقارف مأثم.

وإنما هو الأدب بلا جدب، نهصر أفنانه؛ والعلم بلا ظلم، نطلق عنانه، والفن بلا ضن نروّق دنانه، والنادرة بلا بادرة نتلقفها، والنكتة بلا سكتة

---

(١) الهوامع: السحب الممطرة(م).

(٢) ما وسقت: أي ما جمعت من ماء(م).

(٣) الدوالح: جمع دلوح ودلوحة، وهي السحابة المثقلة بالماء(م).

(٤) النَّيربان: هما جانبا دمشق الشمالي والجنوبي حول نهر بردى(م).

(٥) قوله: على ود أصفى من بردى تصفق بالرحيق السلسل، هذا تضمين لبيت حسان ابن ثابتﷺ وهو ضمن قصيدته التي تسمى البتارة، التي مدح بها آل جفنة من الغساسنة، والتي مطلعها:

اسألتَ رسم الدار أم لم تسألِ ... بين الجوابي فالبضيع فَحوقلِ

إلى أن يقول:

يَسقُون مَنْ وَرَدَ البريص عليهم ... بردى يصفّق بالرحيق السلسل(م)

نتخطفها.

ويا تربة الدحداح، بوركت من تربة، لا يذوق فيها الغريب مرارة الغربة، ولا زلت مسقطاً لرحمات الله.

إنني أودعت ثراك أعزّ الناس عليّ: أبي وابني وجَدَّي أولادي؛ فاحفظي الودائع إلى يوم تُجزى الصنائع.

ويا جناتِ الغوطة، وقراها المغبوطة، لا زلت مجلى الفطر، والحد الفاصل بين البدو والحضر، أشهد ما عشوتِ من الغرب إلى نار، ولا عشيت منه بنور.

تبارك من رواك بسبعة أودية، وكساك من وشي آذار بخضر الأردية.

كم فُتِنْتُ بمناظرك الشعرية، وأخذت بمجاليك السحرية، وكم تزوّدتْ عيناي فيك بروضة وغدير، وكم تمتعت أذناي من جداولك وأشجارك بخفيف وهدير.

ويا يوم الوداع ما أقساك، وإن كنت لا أنساك.

لا أنسى بعد ثلاثين سنة ولن أنسى ما حييت موقف الوداع بمحطة البرامكة والأستاذ الخضر يكفكف العبرات، وتلامذتي الأوفياء: جميل صليبا، وبديع المؤيد، ونسيب السكري، والأيوبي، يقدّمون إلي بخطوطهم كلمات في ورقات، ما زلت محتفظاً بها احتفاظ الشحيح بماله.

عهود لم يبق إلا ذكراها في النفس، وصداها في الجوانح، والحنينُ إليها في مجامع الأهواء من الفؤاد.

ولولا أن السلوّ كالزمن يتقادم، وأن الهوى مع العقل يتصادم، لقلت مع

المتنبي: أبوكم آدم!... [(١)]

ولقد راجعت « مذكراتي » المنقوشة في ذاكرتي فوجدتُها حافظة لتلك العهود بأيامها ولياليها وأحاديثها، فليت شعري أيذكر الأحياء من إخوان الصفا مثل ما أذكر؟

ذلك ما تكشف عنه رسالة الأخ الأستاذ محمد بهجة البيطار التي ننشر بعضها بعد هذه الكلمات.

وهي التي أثارت هذه الذكريات في نفسي؛ فكتبتها، ليعلم هذا الجيل الذي نقوم على تربيته أن في الدنيا بقايا من الوفاء والمحبة، تتماسك بها أجزاء هذا الكون الإنساني، وأنه لولا هذه البقايا لانحدر الإنسان إلى حيوانية عارمة كالتي بدت آثارها في الجماعات التي جفّت نفوسها من الوفاء والمحبة، فخلت من الإحسان والرحمة، فهوت بها المطامع، إلى ما يراه الرائي ويسمعه السامع.

وإن منبت الوفاء الشرقُ، وإن زارعه وساقيه والقيّم عليه هو الإسلام، وعسى أن تحمل « البصائر »[(٢)] هذه الذكريات إلى الإخوان الأصفياء في دمشق فنتنادم على البعد، ونلتقي على الذكريات، ونتناشد:

إنا على البعاد والتفرق　　　لنلتقي بالذكر إن لم نلتق

---

(١) يشير إلى قول المتنبي في قصيدة شِعب بَوَّانٍ:

يقول بشعب بوان حصاني　　　أعن هذا يُسار إلى الطعان

أبوكم آدم سن المعاصي　　　وعلمكم مفارقة الجنان(م)

(٢) يعني صحيفة البصائر التي كان يرأسها(م).

وعهداً لأولئك الإخوان أني ما جفوت ولا غفوت، وأني لم أزل- منذ افترقنا- أتسقّط أخبارهم من الصحف ومن السفار، ولولا الهزاهز والفتن ما انقطع بيننا للصلة حبل.

٦٨ عبرة الموت[1] للأستاذ أحمد أمين

من قديم والإنسان أمام الموت مرتاع فَزِع، ومع أن الموت هو النتيجة الحتمية الطبيعية للحياة لم يتقدم الإنسان أي خطوة في سبيل تهوين أمره وتلطيف وقعه.

ومع أنا إذا نظرنا إليه من الناحية الاجتماعية لا من الناحية الفردية وجدناه أمراً لابد منه لحياة الجيل الحاضر والجيل المستقبل؛ إذ الأرض يستحيل البقاء عليها والعيش فيها، إذا لم يكن الموت ـ مع كل ذلك ـ فهذا التفكير المعقول لم يخفف الشعور بهول الموت، وعدَّه المصيبة الكبرى.

أمامه تنهار كل القيم؛ فالمال، والجاه، والمنصب، واللذائذ تتضاءل كلها أمامه، فَيَسْتَهْوِنُها واجدُها، ويستقلُّ شأنَها فاقدُها.

وفي كل يوم عبر، فهو لا يرحم شاباً لشبابه، ولا عظيماً لعظمته، ولا أباً لِحُنُوِّه، ولا صحيحاً لصحته سواء عنده كل شيء؛ فلو نظرتْ إليه الأرستقراطية لانقلبت شيوعية.

وكلما كان الميت أعظم كانت العبرة به أعظم؛ ومن أجل ذلك وقف الناس وقفة اتعاظ بموت الجبابرة أمثال الإسكندر، ودارا، وتيمورلنك، ونيرون، ونابليون؛ إذ رأوا أن جبروتهم انهار أمام الموت كما ينهار السائل الفقير، والمسكين الحقير، فإذا الدنيا كلها، والجبروت كله، والعظمة كلها فقاقيع منها[2]

---

(١) فيض الخاطر، ٩/ ١٤٧ ـ ١٥٢.

(٢) لعلها: من(م).

الهواء فزالت، وكأن الحياة لعبة في الهواء، أو كتابة على الماء.

وفي الأدب العربي قصة طريفة بُعْثِرَتْ فجمعناها، ورويت روايات مختلفة فاخترنا خيرها، وهي أن الإسكندر لما مات اجتمع حول جثته جمع من الفلاسفة من تلاميذ أرسطو، فقال عظيمهم: ليقل كل منكم قولاً يكون للخاصة معزِّياً، وللعامة واعظاً.

فقام أحدهم وضرب بيده على التابوت وقال: أيها المنطيق ما أخرسك، أيها العزيز ما أذلك، أيها القانص كيف وقعْت موقع الصيد في الشرَك؟ مَن هذا الذي يقنصك؟

وقام ثان فقال: هذا القوي الذي أصبح اليوم ضعيفاً، والعزيز الذي أصبح اليوم ذليلاً.

وقال ثالث: قد كانت سيوفك لا تجف، ونقمتك لا تُؤمَن، ومدائنك لا ترام، وعطاياك لا تبرح، وضياؤك لا يخبو، فأصبح ضوؤك قد خمد، ونقمتك لا تخشى، وعطاياك لا تُرجى، وسيوفك لا تُنْتَضى، ومدائنك لا تُمنع.

وقال رابع: هذا الذي كان للملوك قاهراً، أصبح اليوم للسوقة مقهوراً.

وقال خامس: قد كان صوتك مرهوباً، وكان مُلْكُك غالباً، فأصبح الصوت قد انقطع، والملك قد اتضع.

وقال سادس: كنتَ كحلمِ نائمٍ قد انقضى، أو كظل غمام انجلى.

وقال سابع: لئن كنتَ أمس لا يأمنك أحد، لقد أصبحت اليوم وما يخافك أحد.

وقال ثامن : هذه الدنيا الطويلة العريضة طُويت في ذراعين.

وقال تاسع : كفى للعامة أسوة بموت الملوك ، وكفى الملوك عظة بموت العامة.

وقال عاشر : قد حرَّكَنَا الإسكندر بسكونه ، وأنطقنا بصمته.

وهذه القصة إن شك فيها المؤرخ لا يشك في قيمتها الأديب والمعتبر.

وفشت هذه القصة ، وهذه الأقوال في أوساط الفلاسفة من المسلمين ، فلما مات عضد الدولة البُوَيْهي ، وكان ما كان ، ضخامةَ مُلْكٍ ، وعزةَ جاهٍ ، وهو الذي لُقب بشاهنشاه ، ولي المملكة وقد استولى الخراب عليها فغمَّرها ، وانبثَّ فيها اللصوص والمفسدون فأمَّنها ، ونظَّم المخبرين ، فعنده أخبار العالم الإسلامي في سرعة البرق ، ورتَّب الجواسيس حتى خاف الرجل امرأته ، والسيد خادمه ، وهو شديد لا يلين ، وقاسٍ لا يرحم ، ما أكثر من قَتَل وشرَّد لسبب يَسْتَوجِب ولغير سبب ، حتى رووا عنه أنه أولع بجارية شغلته بجمالها وحسن حديثها عن بعض شؤون الملك ، فأغرقها حتى لا يعود لمثلها ، وزهت له الدنيا فاغتر بها ، ووصف نفسه في شعره بأنه ـ مالك الأملاك ، غلاَّب القَدَر ـ وقصده المتنبي فرأى ملكاً كبيراً ، ونعيماً عظيماً ، وقدرة قادرة ، وسطوة قاهرة ، فصرخ :

وقد رأيتُ الملوك قاطبة ... وسِرْتُ حتى رأيتُ مولاها

ومَن مناياهم براحته ... يأمُرُها فيهم وينهاها

أبا شجاعٍ بفارسٍ عضد الدولـ ... ـة فَنَّاخُسْرُو شَهَنشَاها

أسامياً لم تزده معرفةً ... وإنما لذةً ذكرناها

إلى أن يقول :

وإن له شرقَها ومغربها ونفسُه تستقل دنياها
تجمعت في فؤاده همم ملء فؤاد الزمان إحداها

وكان في ملكه كِرْمان، وفارس، وعمان، والعراق، والموصل، وديار بكر، وحرَّان، ومنبج، خضعت له، وخافت منه، واستكانت له، وفزع منه الصغير والكبير، ثم ماذا؟

أصابه المرض وهو في السابعة والأربعين، فأذل نفسه وأحقر شأنه، واستُدعي له مهرة الأطباء، فعجزُوا عجزه، وذلُّوا ذلَّه، فأخذ يقول الشعر ينعى نفسه:

قتلت صناديد الرجال فلم أدع عدوًّا ولم أُمهل على ظِنَّةٍ خَلْقا
وأخليت دُورَ المُلْك من كل نازلٍ فشرَّدتهم غرباً وبدَّدتهم شرقا
فلما بلغت النجمَ عزًّا ورفعةً وصارت ركاب الخلق أجمع لي رقا
رماني الردى سهماً فأخمد جمرتي فها أنذا في حجرتي عاطلاً مُلْقى

ثم جعل يقول: ما أغنى عني ماليه، هلك عني سلطانيه، إلى أن مات.

استرعى هذا المنظر عقول الناس، بناء شامخ سقط في لحظة، وقوة هائلة تحطمت في لمحة، واعتداد بالنفس ذهب مع الريح، ووقف القدر يسخر ممن زعم أنه غلاَّب القَدَر.

وإذ ذاك ذكر فلاسفة بغداد القصة التي رويت لهم عن موت الإسكندر، وما قاله تلاميذ أرسطو في العظة به.

وكان أبو سليمان المنطقي رأس الفلاسفة فيها، وبيته ندوة كل من تفلسف، يسألونه فيما أبهم عليهم، ويستفتونه في أعقد المسائل؛ فيجيب إجابة تدل على

علم واسع، وعقل ناضج.

فاجتمع عنده طائفة منهم يوم مات عضد الدولة، واقترح عليهم أن يقولوا فيه كما قال تلاميذ أرسطو في الإسكندر.

وبدأ أبو سليمان فقال: لقد وزن هذا الشخص الدنيا بغير مثقالها، وأعطاها فوق قيمتها، وحسبك أنه طلب الربح فيها فخسر روحه.

وقال ثان: من استيقظ للدنيا فهذا نومه، ومن حلم بها فهذا انتباهه.

وقال ثالث: ما رأيت غافلاً في غفلته، ولا عاقلاً في عقله مثله، لقد كان ينقض جانباً وهو يظن أنه مبرِم، ويغرم وهو يظن أنه غانم.

وقال رابع: أما إنه لو كان معتبراً في حياته لما كان عبرة في مماته.

وقال خامس: الصاعد في درجاتها إلى سفال، والنازل من درجاتها إلى معال.

وقال سادس: من جد للدنيا هزلت به، ومن هزل راغباً عنها جدت له، انظر إليه كيف انتهى أمره، ووضع شأنه، وإني لأظن أنَّ فلاناً الفقير الزاهد الذي مات بالأمس أعز ظهيراً من هذا الذي ترك الدنيا شاغرة، ورحل عنها بلا زاد ولا راحلة.

وقال سابع: إن ماءاً أطفأ هذه النار لعظيم، وإن ريحاً زعزعت هذا الركن لعصوف.

وقال ثامن: كيف غفلت عن كيد هذا الأمر حتى نفذ فيك، وهلا اتخذت دونه جُنَّة تقيك؟ ماذا صنعت بأموالك والعبيد، ورجالك والجنود؟ من أين أُتيت وكنت قوياً صارماً؟ إن فيك لعبرة للمعتبرين، وآية للمستبصرين.

وعلَّق ظريف على الموقفين فقال: إن الفرق بين الكلامين كالفرق بين المِلكَين.

إن كان هذا ففيم غرور المعتز، وطمع الطامع، وسطوة الظالم، وطغيان المستبد، وخيلاء المعجب؟

ورحم الله الحسن البصري إذ يقول: ما أكثر المعتبَرَ وأقل المعتبِر.

المحتويات

عنوانات الموضوعات والمقالات التي تضمنتها المجموعة الأولى

عنوانات الموضوعات والمقالات التي تضمنتها المجموعة الثالثة

رابع عشر: مقالان في السيرة النبوية

خامس عشر: مقالات في الطب